



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليه
صباح
الرمضان

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

الأمم

في تفسيرين كما جلا الله المنزلة

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ كاظم حكايم الشيرازي

١٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

آيت الله ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٢٧	الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ١٦
٢٧	اشاره
٢٨	اشاره
٣٤	سوره الزخرف
٣٤	اشاره
٣٤	محتوى سوره الزخرف:
٣٥	فضل تلاوه السوره
٣٧	الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ١ الى ٨]
٣٧	اشاره
٣٧	التفسير
٣٧	اشاره
٣٧	ذوبكم لا تمنع رحمتنا!
٤٣	الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٩ الى ١٤]
٤٣	اشاره
٤٣	التفسير
٤٣	اشاره
٤٣	بعض أدله التوحيد:
٤٩	ملاحظه
٤٩	اشاره
٤٩	ذكر الله عند الانتفاع بالنعم:
٥٢	الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ١٥ الى ١٩]
٥٢	اشاره
٥٢	التفسير

٥٢ اشاره

٥٢ كيف تزعمون أنّ الملائكة بنات الله؟

٥٧ الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٢٠ الى ٢٢].

٥٧ اشاره

٥٧ التفسير

٥٧ اشاره

٥٧ لا دليل لهم سوى تقليد الآباء الجاهلين!

٦١ الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٢٣ الى ٢٥].

٦١ اشاره

٦١ التفسير

٦١ اشاره

٦١ عاقبه هؤلاء المقلدين:

٦٤ الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٢٦ الى ٣٠].

٦٤ اشاره

٦٤ التفسير

٦٤ اشاره

٦٤ التوحيد كلمه الأنبياء الخالده:

٦٩ الآيتان [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٣١ الى ٣٢].

٦٩ اشاره

٦٩ التفسير

٦٩ اشاره

٦٩ لم لم ينزل القرآن على أحد الأغنياء؟

٧١ سؤالين مهمّين:

٧٥ الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٣٣ الى ٣٥].

٧٥ اشاره

٧٥ التفسير

٧٥ اشاره

٧٥ قصور فخمه سقفها من فضه؟(قيم كاذبه)

٧٧ ملاحظتان

٧٧ اشاره

٧٧ ١-الإسلام يحطم القيم الخاطئه

٧٩ ٢-جواب عن سؤال

٨١ الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٣٦ الى ٤٠]

٨١ اشاره

٨١ التفسير

٨١ اشاره

٨١ أقران الشياطين!

٨٧ الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٤١ الى ٤٥]

٨٧ اشاره

٨٧ التفسير

٨٧ اشاره

٨٧ استمسك بالذى اوحى إليك:

٩٢ ملاحظه

٩٢ اشاره

٩٢ من هم قوم التنى صلى الله عليه و آله و سلم؟

٩٣ الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٤٦ الى ٥٠]

٩٣ اشاره

٩٣ التفسير

٩٣ اشاره

٩٣ الفراعنه المغرورون و نقض العهد:

٩٧ الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٥١ الى ٥٦]

٩٧ اشاره

التفسير ٩٧

الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٥٧ الى ٦٢] ١٠٤

اشاره ١٠٤

سبب النزول ١٠٤

التفسير ١٠٥

اشاره ١٠٥

أى الالهه فى جهنم؟ ١٠٥

الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٦٣ الى ٦٥] ١١١

اشاره ١١١

التفسير ١١١

اشاره ١١١

الذين غالوا فى المسيح: ١١١

الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٦٦ الى ٦٩] ١١٥

اشاره ١١٥

التفسير ١١٥

الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٧٠ الى ٧٣] ١١٩

اشاره ١١٩

التفسير ١١٩

اشاره ١١٩

سؤال: ١٢١

و الجواب: ١٢١

الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٧٤ الى ٨٠] ١٢٤

اشاره ١٢٤

التفسير ١٢٤

اشاره ١٢٤

نتمنى أن نموت لنستريح من العذاب: ١٢٤

الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٨١ الى ٨٥] ١٢٩

اشاره ١٢٩

التفسير ١٢٩

ملاحظات ١٣٣

الآيات [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٨٦ الى ٨٩] ١٣٥

اشاره ١٣٥

التفسير ١٣٥

اشاره ١٣٥

من يملك الشفاعة؟ ١٣٥

سوره الدخان ١٤٠

اشاره ١٤٠

محتوى سوره الدخان: ١٤٢

و يمكن تلخيص فصول هذه السوره فى سبعة: ١٤٢

فضل تلاوه هذه السوره ١٤٣

الآيات [سوره الدخان (٤٤): الآيات ١ الى ٨] ١٤٤

اشاره ١٤٤

التفسير ١٤٤

اشاره ١٤٤

نزول القرآن فى الليله المباركه: ١٤٤

نزول القرآن الدفعى و التدريجى: ١٤٦

ملاحظه ١٥٢

اشاره ١٥٢

علاقه القرآن بليله القدر: ١٥٢

الآيات [سوره الدخان (٤٤): الآيات ٩ الى ١٦] ١٥٤

اشاره ١٥٤

التفسير ١٥٤

١٥٤ اشارة

١٥٤ الدخان القاتل:

١٥٤ ملاحظه

١٥٤ اشارة

١٥٤ ما المراد من الدخان المبين؟

١٦٠ الآيات [سوره الدخان (٤٤): الآيات ١٧ الى ٢١]

١٦٠ اشارة

١٦٠ التفسير

١٦٠ اشارة

١٦٠ إذا لم تؤمنوا فلا تصدوا الآخرين عن الإيمان:

١٦٥ الآيات [سوره الدخان (٤٤): الآيات ٢٢ الى ٢٩]

١٦٥ اشارة

١٦٥ التفسير

١٧٢ الآيات [سوره الدخان (٤٤): الآيات ٣٠ الى ٣٣]

١٧٢ اشارة

١٧٢ التفسير

١٧٢ اشارة

١٧٢ بنو إسرائيل في بوتقه الاختبار:

١٧٦ الآيات [سوره الدخان (٤٤): الآيات ٣٤ الى ٣٦]

١٧٦ اشارة

١٧٦ التفسير

١٧٦ اشارة

١٧٦ لا شيء بعد الموت!

١٧٨ ملاحظه

١٧٨ اشارة

١٧٨ عقيدته المشركين فى المعاد:

الآيات [سوره الدخان (٤٤): الآيات ٣٧ الى ٣٩] ١٨٠

اشاره ١٨٠

التفسير ١٨٠

اشاره ١٨٠

قوم تبع: ١٨٠

بحث ١٨٣

اشاره ١٨٣

من هم قوم تبع؟ ١٨٣

الآيات [سوره الدخان (٤٤): الآيات ٤٠ الى ٤٢] ١٨٧

اشاره ١٨٧

التفسير ١٨٧

اشاره ١٨٧

يوم الفصل! ١٨٧

الآيات [سوره الدخان (٤٤): الآيات ٤٣ الى ٥٠] ١٩٠

اشاره ١٩٠

التفسير ١٩٠

اشاره ١٩٠

شجره الزقوم! ١٩٠

بحث ١٩٤

اشاره ١٩٤

العقوبات الجسميه و الروحيه: ١٩٤

الآيات [سوره الدخان (٤٤): الآيات ٥١ الى ٥٧] ١٩٥

اشاره ١٩٥

التفسير ١٩٥

اشاره ١٩٥

المتقون و مختلف نعم الجنه: ١٩٥

١٩٩ بحث

١٩٩ اشاره

١٩٩ ما هي الموتة الأولى؟

٢٠٢ الآياتان [سوره الدخان (٤٤): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

٢٠٢ اشاره

٢٠٢ التفسير

٢٠٢ اشاره

٢٠٢ ارتقب فإنهم مرتقبون!

٢٠٣ ملاحظات

٢٠٧ سوره الجاثيه

٢٠٧ اشاره

٢٠٩ محتوى السوره:

٢١٠ فضل تلاوه السوره:

٢١١ الآيات [سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ١ الى ٦]

٢١١ اشاره

٢١١ التفسير

٢١١ اشاره

٢١١ آيات الله في كل مكان:

٢١٩ الآيات [سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ٧ الى ١٠]

٢١٩ اشاره

٢١٩ التفسير

٢١٩ اشاره

٢١٩ ويل لكل أفاك أثيم:

٢٢٤ الآيات [سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ١١ الى ١٥]

٢٢٤ اشاره

٢٢٤ التفسير

٢٢٤ اشارة

٢٢٤ كل شيء مسخر للإنسان:

الآيات [سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ١٦ الى ٢٠] ٢٣١

٢٣١ اشارة

٢٣١ التفسير

الآيات [سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ٢١ الى ٢٣] ٢٣٨

٢٣٨ اشارة

٢٣٨ التفسير

٢٣٨ اشارة

٢٣٨ ليسوا سواء محياهم و مماتهم:

٢٤٣ ملاحظات

٢٤٣ اشارة

٢٤٣ ١-أخطر الأصنام صنم هوى النفس

الآيات [سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ٢٤ الى ٢٥] ٢٤٨

٢٤٨ اشارة

٢٤٨ التفسير

٢٤٨ اشارة

٢٤٨ عقائد الدهريين:

الآيات [سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ٢٦ الى ٣١] ٢٥٣

٢٥٣ اشارة

٢٥٤ التفسير

٢٥٤ اشارة

٢٥٤ الكلّ جاث في محكمه العدل الإلهي:

الآيات [سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ٣٢ الى ٣٧] ٢٦١

٢٦١ اشارة

٢٦٢ التفسير

٢٦٢ اشارة

٢٦٢ يوم تبدو السيئات:

٢٦٦ سورة الأحقاف

٢٦٦ اشارة

٢٦٨ محتوى السوره:

٢٦٩ فضل هذه السوره:

٢٧٠ الآيات [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ١ الى ٣]

٢٧٠ اشارة

٢٧٠ التفسير

٢٧٠ اشارة

٢٧٠ خلق هذا العالم على أساس الحق:

٢٧٣ الآيات [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٤ الى ٦]

٢٧٣ اشارة

٢٧٣ التفسير

٢٧٣ اشارة

٢٧٣ أضل الناس:

٢٧٨ الآيات [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٧ الى ١٠]

٢٧٨ اشارة

٢٧٨ التفسير

٢٧٨ اشارة

٢٧٨ لم أكن أول نبي!!

٢٨٥ الآيات [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ١١ الى ١٤]

٢٨٥ اشارة

٢٨٥ سبب النزول

٢٨٧ التفسير

٢٨٧ اشارة

٢٨٧ شرط الإنتصار الإيمان و الاستقامه:

٢٩٢ الآيات [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ١٥ الى ١٦]

٢٩٢ اشاره

٢٩٢ التفسير

٢٩٢ اشاره

٢٩٢ أيها الإنسان أحسن إلى والديك:

٢٩٩ ملاحظات

٣٠٢ الآيات [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ١٧ الى ١٩]

٣٠٢ اشاره

٣٠٢ التفسير

٣٠٢ اشاره

٣٠٢ مضيعو حقوق الوالدين:

٣٠٥ ملاحظه كيف حذفت هذه الآية من قبل بنى أميه؟

٣٠٧ الآية [سوره الأحقاف (٤٦): آيه ٢٠]

٣٠٧ اشاره

٣٠٧ التفسير

٣٠٧ اشاره

٣٠٧ الزهد و الادخار للآخرة:

٣٠٨ بحوث

٣١٢ الآيات [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٢١ الى ٢٥]

٣١٢ اشاره

٣١٢ التفسير

٣١٢ اشاره

٣١٢ قوم عاد و الريح المدمره:

٣١٩ الآيات [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٢٦ الى ٢٨]

٣١٩ اشاره

التفسير ٣١٩

اشاره ٣١٩

لستم بأقوى من قوم عاد أبدا: ٣١٩

الآيات [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٢٩ الى ٣٢] ٣٢٣

اشاره ٣٢٣

سبب النزول ٣٢٣

التفسير ٣٢٥

اشاره ٣٢٥

إيمان طائفه من الجن: ٣٢٥

بحثنان ٣٢٨

اشاره ٣٢٨

١-الإعلام المؤثر ٣٢٨

٢-أفضل دليل على عظمه القرآن محتواه ٣٢٩

الآيات [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٣٣ الى ٣٥] ٣٣١

اشاره ٣٣١

التفسير ٣٣١

اشاره ٣٣١

فاصبر كما صبر أولوا العزم: ٣٣١

من هم أولوا العزم من الرسل؟ ٣٣٣

ملاحظه كان نبي الإسلام مثال الصبر و الاستقامه: ٣٣٧

سوره محمّد ٣٤١

اشاره ٣٤١

محتوى السوره: ٣٤٣

فضل تلاوه السوره: ٣٤٤

الآيات [سوره محمد (٤٧): الآيات ١ الى ٣] ٣٤٦

اشاره ٣٤٦

التفسير ٣٤٤

اشاره ٣٤٤

المؤمنون أنصار الحق، والكافرون أنصار الباطل: ٣٤٤

الآيات [سوره محمد (٤٧): الآيات ٤ الى ٦] ٣٥١

اشاره ٣٥١

التفسير ٣٥١

اشاره ٣٥١

يجب الحزم في ساحه الحرب: ٣٥١

بحوث ٣٥٧

اشاره ٣٥٧

١-مقام الشهداء السامى ٣٥٧

٢-أهداف القتال فى الإسلام ٣٦٠

٣-أحكام أسرى الحرب ٣٦٢

٤-الرق فى الإسلام ٣٦٣

اشاره ٣٦٣

الجواب: ٣٦٤

٣-مصير الرقيق المؤلم فى الماضى ٣٦٦

٤-خطه الإسلام لتحرير العبيد ٣٦٦

اشاره ٣٦٦

الماده الأولى:غلق مصادر الرق ٣٦٧

الماده الثانیه:فتح نافذه الحربه ٣٦٨

الماده الثالثه:إحياء شخصيه الرقيق ٣٧٠

الماده الرابعه:المعامله الإنسانيه مع العبيد ٣٧١

الماده الخامسه:أقبح الأعمال بيع الإنسان ٣٧٢

الآيات [سوره محمد (٤٧): الآيات ٧ الى ١١] ٣٧٤

اشاره ٣٧٤

التفسير ٣٧٤

الآيات [سوره محمد (٤٧): الآيات ١٢ الى ١٤] ٣٨٠

اشاره ٣٨٠

التفسير ٣٨٠

اشاره ٣٨٠

عاقبه المؤمنين و الكافرين: ٣٨٠

الآيه [سوره محمد (٤٧): آيه ١٥] ٣٨٦

اشاره ٣٨٦

التفسير ٣٨٦

اشاره ٣٨٦

وصف آخر للجته: ٣٨٦

ملاحظات ٣٨٨

اشاره ٣٨٨

١-أنهار الجته الأربعة ٣٨٨

٢-الشراب الطهور ٣٨٩

٣-أشربه لا يعتربها الفساد ٣٨٩

٤-لماذا الفواكه؟ ٣٩٠

الآيات [سوره محمد (٤٧): الآيات ١٦ الى ١٩] ٣٩١

اشاره ٣٩١

التفسير ٣٩١

اشاره ٣٩١

ظهرت علامات القيامة! ٣٩١

بحث ٣٩٧

اشاره ٣٩٧

ما هي أشرط الساعه؟ ٣٩٧

الآيات [سوره محمد (٤٧): الآيات ٢٠ الى ٢٤] ٤٠٢

٤٠٢ اشارة

٤٠٢ التفسير

٤٠٢ اشارة

٤٠٢ يخافون حتى من اسم الجهاد!

٤٠٧ بحث

٤٠٧ اشارة

٤٠٧ القرآن كتاب فكر و عمل:

٤٠٩ حديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

٤١٠ الآيات [سوره محمد (٤٧): الآيات ٢٥ الى ٢٨]

٤١٠ اشارة

٤١٠ التفسير

٤١٠ اشارة

٤١٠ أ فلا يتدبرون القرآن:

٤١٥ الآيات [سوره محمد (٤٧): الآيات ٢٩ الى ٣١]

٤١٥ اشارة

٤١٥ التفسير

٤١٥ اشارة

٤١٥ يعرف المنافقون من لحن قولهم:

٤٢٠ الآيات [سوره محمد (٤٧): الآيات ٣٢ الى ٣٤]

٤٢٠ اشارة

٤٢٠ التفسير

٤٢٠ اشارة

٤٢٠ الذين يموتون على الكفر لن يغفر الله لهم:

٤٢٢ بحث

٤٢٢ اشارة

٤٢٢ عوامل إحباط ثواب العمل:

٤٢٥ الآية [سوره محمد (٤٧): آيه ٣٥]
٤٢٥ اشاره
٤٢٥ التفسير
٤٢٥ اشاره
٤٢٥ الصلح المذل!!
٤٢٨ الآيات [سوره محمد (٤٧): الآيات ٣٦ الى ٣٨]
٤٢٨ اشاره
٤٢٨ التفسير
٤٢٨ اشاره
٤٢٨ إن تتولوا سيمنح الله رساله قوما آخرين:
٤٣٥ سوره الفتح
٤٣٥ اشاره
٤٣٧ محتوى السوره
٤٣٩ فضيله تلاوه سوره الفتح:
٤٤١ الآية [سوره الفتح (٤٨): آيه ١]
٤٤١ اشاره
٤٤١ التفسير
٤٤١ اشاره
٤٤١ الفتح المبين:
٤٤٢ قصه «صلح الحديبيه»:
٤٥٠ الآيتان [سوره الفتح (٤٨): الآيات ٢ الى ٣]
٤٥٠ اشاره
٤٥٠ التفسير
٤٥٠ اشاره
٤٥٠ نتائج الفتح المبين الكبرى:
٤٥١ بحثان

٤٥١ اشارة

٤٥١ ١-الإجابة على بعض الأسئلة المهمة:

٤٥٤ ٢-المراد من «ما تقدم» و«ما تأخر»..

٤٥٤ الآية [سوره الفتح (٤٨): آيه ٤]

٤٥٤ اشارة

٤٥٤ التفسير

٤٥٤ اشارة

٤٥٤ نزول السكينه على قلوب المؤمنين:

٤٥٤ ماذا كانت هذه السكينه؟!:

٤٥٩ ملاحظات

٤٥٩ اشارة

٤٥٩ ١-السكينه التي لا نظير لها!

٤٦٠ ٢-سلسله مراتب الإيمان:

٤٦١ ٣-ركنى السكينه:

٤٦٢ الآيات [سوره الفتح (٤٨): الآيات ٥ الى ٧]

٤٦٢ اشارة

٤٦٢ التفسير

٤٦٢ اشارة

٤٦٢ نتيجة أخرى من الفتح المبين:

٤٦٥ ما المراد من «جنود السماوات و الأرض»!:

٤٦٦ من هم الظالمون بالله ظنّ السوء!:

٤٦٨ الآيات [سوره الفتح (٤٨): الآيات ٨ الى ١٠]

٤٦٨ اشارة

٤٦٨ التفسير

٤٦٨ اشارة

٤٦٨ مكانه النبي و واجب الناس تجاهه!

الآيات [سوره الفتح (٤٨): الآيات ١١ الى ١٤] ٤٧٤

اشاره ٤٧٤

التفسير ٤٧٤

اشاره ٤٧٤

اعتذار المخلفين: ٤٧٤

ملاحظه ٤٧٨

اشاره ٤٧٨

تعليل الذنب و توجيهه مرض عام: ٤٧٨

الآيات [سوره الفتح (٤٨): الآيات ١٥ الى ١٧] ٤٨١

اشاره ٤٨١

التفسير ٤٨١

اشاره ٤٨١

المخلفون الانتهازيون: ٤٨١

الآيات [سوره الفتح (٤٨): الآيات ١٨ الى ١٩] ٤٨٧

اشاره ٤٨٧

التفسير ٤٨٧

اشاره ٤٨٧

رضى الله عن المشتركين فى بيعه الرضوان: ٤٨٧

بحث ٤٩٠

اشاره ٤٩٠

البيعه و خصوصياتها! ٤٩٠

الآيات [سوره الفتح (٤٨): الآيات ٢٠ الى ٢١] ٤٩٨

اشاره ٤٩٨

التفسير ٤٩٨

اشاره ٤٩٨

من بركات صلح الحديبيه مزه أخرى! ٤٩٨

ملاحظه ٥٠١

اشاره ٥٠١

قصه غزوه خيبر: ٥٠١

الآيات [سوره الفتح (٤٨): الآيات ٢٢ الى ٢٥] ٥٠٤

اشاره ٥٠٤

التفسير ٥٠٤

اشاره ٥٠٤

لو حدثت الحرب في الحديبيه؟! ٥٠٤

الآيه [سوره الفتح (٤٨): آيه ٢٦] ٥١٠

اشاره ٥١٠

التفسير ٥١٠

اشاره ٥١٠

التعصب «و حميه الجاهليه» أكبر سد في طريق الكفار: ٥١٠

ملاحظه ٥١٤

اشاره ٥١٤

ما هي حميه الجاهليه؟! ٥١٤

الآيه [سوره الفتح (٤٨): آيه ٢٧] ٥١٦

اشاره ٥١٦

التفسير ٥١٦

اشاره ٥١٦

رؤيا النبي الصادقه: ٥١٦

ملاحظات ٥١٧

اشاره ٥١٧

عمره القضاء: ٥١٩

الآيتان [سوره الفتح (٤٨): الآيات ٢٨ الى ٢٩] ٥٢٢

اشاره ٥٢٢

٥٢٢	التفسير
٥٣٠	بحثان
٥٣٠	اشاره
٥٣٠	١-قصه تنزيه الصحابه!
٥٣٣	٢-المحبه الإسلاميه المتبادله
٥٣٥	سوره الحجرات
٥٣٥	اشاره
٥٣٧	محتوى السوره:
٥٣٨	فضيله تلاوه هذه السوره!
٥٣٩	الآيات [سوره الحجرات (٤٩): الآيات ١ الى ٥]
٥٣٩	اشاره
٥٣٩	سبب النزول
٥٤١	التفسير
٥٤١	اشاره
٥٤١	آداب الحضور عند النبي:
٥٤٦	بحوث
٥٤٦	اشاره
٥٤٦	١-الأدب أعلى القيم
٥٥٠	٢-رفع الصوت عند قبر الرسول
٥٥١	٣-الانضباط الإسلامى فى كل شىء و فى كل مكان!
٥٥٥	الآيات [سوره الحجرات (٤٩): الآيات ٦ الى ٨]
٥٥٥	اشاره
٥٥٥	سبب النزول
٥٥٧	التفسير
٥٥٧	اشاره
٥٥٧	لا تكثرث بأخبار الفاسقين:

ملاحظات ٥٦٣

اشاره ٥٦٣

١-هدايه الله و حريته الإراده ٥٦٣

٢-القياده و الطاعه ٥٦٤

٣-الإيمان نوع من العشق لا إدراك العقل فحسب... ٥٦٤

الآياتان [سوره الحجرات (٤٩): الآيات ٩ الى ١٠] ٥٦٦

اشاره ٥٦٦

سبب النزول ٥٦٦

التفسير ٥٦٧

اشاره ٥٦٧

المؤمنون أخوه: ٥٦٧

بحثان ٥٦٩

اشاره ٥٦٩

الأول:شروط قتال أهل البغى «البغاه» ٥٦٩

الثانى:أهميته الأخوه الإسلاميه ٥٧١

الآياتان [سوره الحجرات (٤٩): الآيات ١١ الى ١٢] ٥٧٥

اشاره ٥٧٥

سبب النزول ٥٧٥

التفسير ٥٧٦

اشاره ٥٧٦

الاستهزاء و سوء الظنّ و الغيبه و التجسس و الألقاب السيئه حرام! ٥٧٦

بحوث ٥٨٢

اشاره ٥٨٢

١-الأمن الاجتماعى الكامل ٥٨٢

٢-لا تجسسوا!! ٥٨٤

٣-الغيبه من أعظم الذنوب و أكبرها! ٥٨٥

٥٨٨ ----- ٤- مفهوم الاغتياى؟

٥٨٩ ----- ٥- علاج الغيبه و التوبه منها!

٥٩١ ----- الايه [سوره الحجرات (٤٩): آيه ١٣]

٥٩١ ----- اشاره

٥٩١ ----- التفسير

٥٩٣ ----- بحثان

٥٩٣ ----- اشاره

٥٩٣ ----- ١- القيم الحقه و القيم الباطله

٥٩٧ ----- ٢- حقيقه التقوى

٦٠١ ----- الايات [سوره الحجرات (٤٩): الايات ١٤ الى ١٥]

٦٠١ ----- اشاره

٦٠١ ----- سبب النزول

٦٠٢ ----- التفسير

٦٠٢ ----- اشاره

٦٠٢ ----- الفرق بين الإسلام و الإيمان:

٦٠٥ ----- الايات [سوره الحجرات (٤٩): الايات ١٦ الى ١٨]

٦٠٥ ----- اشاره

٦٠٥ ----- سبب النزول

٦٠٥ ----- اشاره

٦٠٦ ----- التفسير

٦٢٤ ----- تعريف مركز

سرشناسه: مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدید آور: الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست: [ویرایش ۲]

مشخصات نشر: قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری: ج ۲۰

شابک: ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۱۰(ج.۱۰)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱۱(ج.۱۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۱۲(ج.۱۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۳(ج.۱۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۷ ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۹-۱۰۳۹۱

محتوى سوره الزخرف:

سوره الزخرف من السوره المكيه، إلا- الآيه (٤٥) منها، فإن جمعا من المفسرين اعتبرها مدتيه، وربما كان السبب هو أن ما تبخته الآيه يتعلق على الأغلب بأهل الكتاب، أو بقصه المعراج، وكلا البحثين يتناسب مع المدينه أكثر. و سنوضح المطلب فى تفسير هذه الآيه إن شاء الله تعالى.

و على أيه حال، فإن طبيعه السور المكيه-و التى تدور غالبا حول محور العقائد الإسلاميه من المبدأ و المعاد و النبوه و القرآن و الإنذار و التبشير-منعكسه و متجليه فيها.

و يمكن تلخيص مباحث هذه السوره بصوره موجزه، فى سبعة فصول:

□
الفصل الأول: و هو بدايه السوره، و يتحدث عن أهميه القرآن المجيد، و نبوه نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم، و مواجهه المشركين لهذا الكتاب السماوى.

الفصل الثانى: يذكر قسما من أدله التوحيد فى الآفاق، و نعم الله المختلفه على البشر.

□
الفصل الثالث: و يكمل هذه الحقيقه عن طريق محاربه الشرك، و نفى ما ينسب إلى الله عزّ و جلّ من الأفاويل الباطله، و محاربه التقاليد العمياء، و الخرافات و الأساطير، كالتشاؤم من البنات، أو الاعتقاد بأن الملائكه بنات الله عزّ و جلّ.

الفصل الرابع: ينقل جانبا من قصص الأنبياء الماضين و أممهم، و تاريخهم لتجسيد هذه الحقائق. و يؤكد على حياه إبراهيم و موسى و عيسى عليهم السلام بصوره

الفصل الخامس: يتعرض إلى مسأله المعاد، وجزاء المؤمنين، و مصير الكفار المشؤوم، و يحذّر المجرمين و يهدّدهم بتهديدات و تحذيرات و إنذارات قويّه.

الفصل السادس: و هو من أهمّ فصول هذه السوره، و يتناول القيم الباطله التي كانت و لا تزال حاكمه على أفكار الأشخاص الماديين، و وقوعهم في مختلف الاشتباهات حينما يقيمون مسائل الحياه و يزونها بالميزان الدنيويّ حتّى أنّهم كانوا يتوقّعون أن ينزل القرآن الكريم على رجل غنى عظيم الثراء، لأنّهم كانوا يعتبرون قيمه الإنسان في ثرائه! لهذا نرى القرآن في آيات عديده من هذه السوره يهاجم هذا النمط من التفكير الساذج و الجاهل و يحاربه، و يوضح المثل الإسلاميه و الإنسانيه الساميه.

الفصل السابع: و هو فصل المواعظ و النصائح العميقه المؤثّره حيث يكمل الفصول الأخرى، ليجعل من مجموع آيات السوره دواء شافيا تماما يترك أقوى الأثر في نفس السامع.

و قد أخذ اسم هذه السوره (الزخرف) من الآية (٣٥) منها، و التي تتحدث في القيم الماديه.

فضل تلاوه السوره

لقد ذكر فضل عظيم لتلاوه هذه السوره في الروايات الإسلاميه في مختلف كتب التفسير و الحديث، و من جملتها ما

ورد في حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم:

«من قرأ سوره الزخرف، كان ممن يقال له يوم القيامة: يا عباد لا خوف عليكم اليوم و لا أنتم تحزنون، ادخلوا الجنّه» (١).

لا شكّ أنّ الخطاب بـ **يا عباد** لا خوف عليكم اليوم و لا أنتم تحزنون هو عين

ص: ٨:

ما ورد فى الآيه (٤٨)، و جملة أُدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَخَذت من الآيه (٧٠)، و جملة بَغَيْرِ حِسَابٍ من لوازم الكلام، و قد وردت فى عدّه من آيات القرآن الأخرى.

و على أيّه حال، فإنّ هذه البشاره العظمى، و الفضيله التى لا تقدر، لا تحصل بمجرد التلاوه الخاليه من التدبر و الإيمان و العمل الصالح، لأنّ التلاوه مقدّمه للفكر، و الإيمان و العمل الصالح ثمره له.

ص: ٩

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم (١) وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) اِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَ اِنَّهُ فِي اُمِّ الْكِتَابِ لَمَدِيْنًا لَعَلَّكُمْ
حَكِيْمٌ (٤) اَفَنْضِرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا اَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِيْنَ (٥) وَ كَمْ اَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْاَوَّلِيْنَ (٦) وَ لَمَّا يَاْتِيْهِمْ مِنْ نَبِيٍّ اِلَّا
كَانُوا بِهٖ يَسْتَهْرِبُوْنَ (٧) فَاهْلَكْنَا اَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضٰى مَثَلُ الْاَوَّلِيْنَ (٨)

التفسير

اشاره

ذنوبكم لا تمنع رحمتنا!

مرّه أخرى نواجه الحروف المقطّعه في بدايه هذه السوره، و هي حروف (حم)، و هذه رابع سورته تبدأ ب حم و تتلوها ثلاث سور
أخرى أيضا، فتشكّل هذه السور السبعه بمجموعها (أسره حم) و هي بالترتيب: المؤمن، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثيه، و
الأحقاف.

و قد بحثنا الحروف المقطّعه بصوره مفضّله فيما سبق (راجع بدايه سورته البقره،

بدايه آل عمران، أوّل الأعراف، بدايه سوره «فصلت» فى خصوص حم).

و يقسم تعالى بالقرآن الكريم فى الآيه الثانيه، فيقول: وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. قسما بهذا الكتاب الواضح حقائقه، و البيئه معانيه و مفاهيمه، و الظاهره دلائل صدقه، و المبيئه طرق هدايته و رشاده.

ثم يضيف: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١).

إنّ كون القرآن عربيًا، إمّا بمعنى أنّه «نزل بلغه العرب التى هى أوسع لغات العالم فى بيان الحقائق، و قادره على تبيان دقائق المطالب بكل جمال و دقه فى التعبير.

أو بمعنى فصاحته- لأنّ أحد معانى كلمه (عربي) هو «الفصيح» و هى إشاره إلى أنا قد جعلناه فى منتهى الفصاحه و غايتها، لتظهر الحقائق جيّدًا من خلال كلماته و جملة، و يدركها الجميع جيّدًا.

و الطريف أنّ القسم و جوابه- هنا- شىء واحد، فهو تعالى يقسم بالقرآن أنّه جعل القرآن عربيًا ليستفيد الجميع منه و يعقلوا آياته، و ربّما كان هذا إشاره إلى أنّه لم يكن هناك شىء أجلّ من القرآن ليقسم به، فإنّ ما هو أسمى من القرآن نفس القرآن، لأنّ كلام الله سبحانه، و كلام الله مبيّن لذاته المقدّسه.

و لا يدلّ التعبير ب(لعل) على أنّ الله سبحانه يشكّ فى تأثير القرآن، أو أنّ الكلام هنا عن الرجاء و الأمل الذى يصعب الوصول إليه و تحقّقه، بل إنّه يشير إلى تفاوت الأرضيات الفكرية و الأخلاقيه لسامعي آيات القرآن الكريم، و يشير أيضا إلى أنّ تأثير القرآن يستلزم توفر شروطا معينه أشير إليها إجمالًا بكلمه (لعل). و قد أوردنا تفصيلا أكثر لهذا المعنى فى ذيل الآيه (٢٠٠) من آل عمران.

ثمّ يتطرق القرآن إلى بيان ثلاث صفات أخرى لهذا الكتاب السماوى، فيقول:

وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ

و يشير فى الصفه الأولى إلى أنّ القرآن الكريم قد حفظ و أثبت فى أمّ الكتاب لدى الله سبحانه، كما نقرأ ذلك أيضا فى

ص: ١١

١- ١) -الواو فى (و الكتاب المبين) للقسم، و جواب هذا القسم جمله (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا).

الآية (٢٢) من سورة البروج: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ .

و الآسن، لئر ما هو المراد من «أم الكتاب»، أو «اللوح المحفوظ»؟ «الأم» فى اللغة تعنى أصل كل شىء و أساسه، و إئما يقول العرب للأم أما لأنها أساس العائلة و مأوى الأولاد، و على هذا فإنّ (أم الكتاب) يعنى الكتاب الذى يكون أساسا لكل الكتب السماوية، و هو ذلك اللوح المحفوظ لدى الله سبحانه، و المصون من كل تغيير و تبديل و تحريف.. إئنه كتاب علم الله المحفوظ لديه، و الذى أدرجت فيه كل حقائق العالم، و كل حوادث الماضى و المستقبل، و كل الكتب السماوية، و لا يستطيع أى أحد أن يصل إليه و يعلم ما فيه، إلا إذا أراد الله سبحانه أن يعلم أحدا بالمقدار الذى يريد عزّ و جلّ.

□
و هذا وصف عظيم للقرآن الذى ينبع من علم الله اللامتناهى، و أصله و أساسه لديه سبحانه، و لهذا يقول فى الصفه الثانية: (على) و فى الثالثة (حكيم).

□
إنّ الشىء الذى ينبعث من علم الله اللامتناهى يجب أن يكون بهذه الصفات.

و اعتقد البعض أنّ سموّ القرآن و علوّ مقامه نابع من أنّه فاق كلّ الكتب السماوية، و نسخها جميعا، و هو فى أرفع مراتب الإعجاز. و اعتبر البعض الآخر علوّ القرآن لاحتوائه على حقائق لا تدركها أفكار البشر، و هى بعيدة عن مدى ما تستوعبه عقولهم -إضافه إلى الحقائق التى يفهمها الجميع من ظاهر القرآن.

و لا تتضارب هذه المعانى فيما بينها حيث تجتمع كلّها فى مفهوم (على).

و هنا مسأله تستحق الانتباه، و هى أنّ (الحكيم) صفه للشخص عاده، لا الكتاب، لكن لما كان هذا الكتاب السماوى بنفسه معلما عظيما و ناطقا بالحكمه ناشرا لها، فإنّ هذا التعبير فى محله تماما.

و قد وردت كلمه «الحكيم» بمعنى المستحكم الحصين أيضا، و كلّ هذه المعانى جمعت فى اللفظه المذكوره، و هى صادقه فى شأن القرآن الكريم، لأنّه حكيم بكل

هذه المعانى.

و فى الآيه التالیه یخاطب المنكرین للقرآن و المعرضین عنه، فيقول:

أَفَنضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ

□
؟ صحيح أنكم لم تألوا جهدا في مخالفتكم للحق و عدائه، و وصلتكم فى المخالفه إلى حد الإفراط و الإسراف، إلا أن رحمه الله سبحانه و اسعه بحد لا تشكل هذه الأعمال المناوئه حاجزا فى طريقها، و نظر نزل باستمرار هذا الكتاب السماوى الذى يوقظكم، و آياته التى تبعث الحياه فيكم، حتى تهتز القلوب التى لها أدنى حظ من الاستعداد و تثوب إلى طريق الحق، و هذا هو مقام رحمه الله العامه، أى:

رحمانيته التى تشمل العدو، و الصديق، و المؤمن و الكافر.

جملة أَفَنضْرِبُ عَنْكُمْ جاءت هنا بمعنى: أَفَنضرب عنكم، لأنّ الراكب إذا أراد أن يحول دابته إلى طريق آخر، فإنه يحوله بضربه بالسوط أو بشيء آخر، و لذلك فإنّ كلمه الضرب تستعمل فى مثل هذه الموارد بدلا من الصرف (1).

«الصفح» فى الأصل بمعنى جانب الشىء و طرفه، و يأتى أيضا بمعنى العرض و السعه، و هو فى الآيه بالمعنى الأول، أى: أن نحول عنكم هذا القرآن الذى هو أساس التذكركه إلى جانب و طرف آخر؟ «المسرف» من الإسراف، و هو تجاوز الحد، إشاره إلى أن المشركين و أعداء النبى صلى الله عليه و آله و سلم لم يقفوا عند حدّ فى خلافهم و عدائهم مطلقا.

□
ثم يقول فى عبارته قصيره كشاهد على ما قيل، و تسليه لخاطر النبى صلى الله عليه و آله و سلم و تهديدا للمنكرين المعاندين: وَ كَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأُولِينَ * وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ .

□
إنّ هذه المخالفات و أنواع السخرية لم تكن لتمنع لطف الله و رحمته أبدا، فإنّها فيض متواصل من الأزل إلى الأبد، و وجود يعم عطاؤه كلّ العباد، بل إنّه سبحانه قد

ص: ١٣

خَلَقَهُمْ لِلرَّحْمَةِ وَ إِتَدَلِكُ خَلَقَهُمْ (١)، و لهذا فَإِنَّ إِعْرَاضَكُمْ و عِنَادَكُمْ سَوْفَ لَا يَمْنَعُ لَطْفَهُ مَطْلَقًا، و يَنْبَغِي أَنْ لَا يَفْتَرِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الْمُؤْمِنُونَ الْحَقِيقِيُّونَ، فَإِنَّ لِهَذَا الْإِعْرَاضَ عَنِ الْحَقِّ وَ اتِّبَاعَ الشَّهَوَاتِ وَ الْهَوَى وَ الْمَيُولَ تَارِيخًا طَوِيلًا.

□
لكن، و من أَجْلِ أَنْ لَا- يَتَصَوَّرُ هَؤُلَاءِ بِأَنَّ لَطْفَ اللَّهِ الْإِمْتِنَاهِي سَيَحُولُ دُونَ عِقَابِهِمْ فِي النِّهَايَةِ، لِأَنَّ الْعِقَابَ بِنَفْسِهِ مِنْ مَقْتَضَى حِكْمَتِهِ، وَ لِذَلِكَ يَضِيفُ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ: فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضَى □ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ .

□
فَالْآيَةُ تَخَاطَبُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، بِأَنَّ سَبْقَ وَ أَنْ ذَكَرْنَا لَكَ نَمَازِجَ كَثِيرَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَامِ الْعَاصِيَةِ الطَّاعِيَةِ، وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ تَفْصِيلَ حَالِهِمْ بِدُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ، وَ كَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ أَقْوَامٌ أَقْوَى وَ أَشَدَّ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ كَثِيرًا، وَ لَهُمْ إِمْكَانِيَّاتٌ وَ ثُرَاتٌ وَ أَفْرَادٌ وَ جِيُوشٌ وَ إِمْكَانَاتٌ وَاسِعَةٌ... كَفَرَعُونَ وَ آلَ فَرَعُونَ، وَ التَّارِيخُ، وَ أَوْضَحَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَتَدَبَّرُوا مَا نَزَلَ فِي الْقُرْآنِ فِي شَأْنِهِمْ لِتَعْلَمُوا أَيُّهَا الطَّغَاةُ الْمَعَانِدُونَ أَنْكُمْ لَسْتُمْ فِي مَأْمَنٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الْأَلِيمِ أَبَدًا.

«البطش»- كما يقول الراجب في المفردات- بمعنى أخذ الشيء بالقوة، و هنا اقترن بكلمه «أشد» و تعطى مفهوم شدّه القوّه و القدره أكثر.

و الضمير في مِنْهُمْ يعود على مشركي العرب الذين خوطبوا في الآيات السابقة، إلا أنهم ذكروا هنا بصيغته الغائب، لأنهم ليسوا أهلا للاستمرار في مخاطبتهم من قبل الله تعالى.

و اعتبر بعض كبار المفسرين جملة وَ مَضَى □ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ إشاره إلى المطالب التي جاءت في السوره السابقه-سوره الشورى-حول جماعه من هؤلاء. إلا أنه لا دليل لدينا على هذا التحديد، خاصه و أنه قلما أشير إلى حوادث الأمم الماضيه في سوره الشورى، في حين وردت بحوث مفصّله حولهم في سور أخرى من القرآن.

ص: ١٤

و على آيه حال، فإن هذه الآيه تشبه ما مرّ في الآيه (٧٨) من سورة القصص، حيث تقول: أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعًا؟! أو ما مرّ في الآيه (٢١) من سورة المؤمن حيث حدّرت مشركى العرب إذ تقول: أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ؟! ***

اشاره

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْمَدَهٗ مِمَّا كَذَّبَكَ تُخْرُجُونَ (١١) وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لَسْتُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَهُ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)

التفسير

اشاره

بعض أدله التوحيد:

من هنا يبدأ البحث حول التوحيد و الشرك، فتستعين الآيات بظفره هؤلاء و طينتهم لإثبات التوحيد، و بعد أن تبين الأدله الموجوده فى عالم الوجود، و تذكر

خمسه نماذج من مواهب الله العظيمة و تثير فيهم حسّ الشكر، تتطرق إلى إبطال اعتقادهم الخرافي فيما يتعلق بالأصنام و مختلف أنواع الشرك.

يقول سبحانه في القسم الأول: **وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ .**

إنّ هذا التعبير الذي ورد بتفاوت يسير في أربع آيات من القرآن الكريم - العنكبوت ٦١/، لقمان ٢٥/، الزمر ٣٨/ و الزخرف في الآية التي نبحثها (١) - دليل على كون معرفه الله سبحانه أمر فطري مغروس في طينه البشر و طبيعتهم من جانب. و من جانب آخر يدل على أنّ المشركين كانوا مقرّين بأن خالق السماوات و الأرض هو الله سبحانه، و لم يكونوا يعترفون بأنّ معبوداتهم خالقه إلا في موارد نادرة.

و من جانب ثالث فإنّ هذا الاعتراف أساس و دعامة لإبطال عبوديّة الأصنام، لأنّ الذي يكون أهلا للعباده هو خالق الكون و مدبّره، لا الموجودات التي لا حظّ لها في هذا المجال، و بناء على هذا، فإنّ اعترافهم بكون الله سبحانه خالقا كان دليلا قاطعا على بطلان مذهبهم و دينهم الفاسد.

و التعبير بالعزیز الحكيم و الذي يبيّن قدره الله المطلقه، و علمه و حكمته، و إن كان تعبيرا قرآنيّا، إلاّ أنّه لم يكن أمرا ينكره المشركون، لأنّ لازم الاعتراف بكون الله سبحانه خالقا للسماء و الأرض وجود هاتين الصفتين فيه. و هؤلاء المشركين كانوا يعتقدون بعلم أصنامهم و قدرتها، فكيف بالله الذي يعتقدون أنّ أصنامهم وسيله إليه، و تقرّبهم إليه زلفى؟! ثمّ يشير سبحانه إلى خمس نعم من نعم الله العظيمة، و التي تعتبر كلّ منها نموذجا من نظام الخلقه، و آيه من آيات الله سبحانه، فيقول أولا:

ص: ١٧

١ - ١) - جاء في موضعين آخرين من القرآن اعتراف هؤلاء بكون الله خالقا، غايته أن أحدهما في شأن نزول المطر من السماء (العنكبوت - ٦٣) و الآخر في كون الله سبحانه خالقهم (الزخرف - ٨٧).

إنَّ لفظتي «المهد» و«المهاد» تعني المحلّ الذي أُعدّ للجلوس و النوم و الاستراحة، و يقال في الأصل للمكان الذي يضعون فيه الطفل لينام «مهد».

□
أجل... إنَّ الله سبحانه جعل الأرض مهذا للإنسان، و مع أنّ لها عدّه حركات بفعل قانون الجاذبيّه، و رغم الطبقة الغازيّة العظيمه التي أحاطت بها من كلّ جانب، فإنّها هادئه و مستقرّه بحيث لا يشعر ساكونها بأيّ إزعاج و نعلم أنّ الهدوء النفسى هو الدعامة الأساسيّة للاستفاده من النعم الأخرى و التنعم بها، و لا شكّ أنّ هذه العوامل المختلفه ما لم تنسجم مع بعضها، و يكمل بعضها بعضا، فليس بالإمكان تحقّق هذا الهدوء و الاطمئنان مطلقا.

ثمّ يضيف سبحانه لتبيان النعمه الثانيه: وَ جَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

لقد أشير إلى هذه النعمه عدّه مرات في القرآن المجيد (سوره طه- ٥٣، الأنبياء - ٣١، النحل- ١٥ و غيرهنّ)، و هى من النعم التي غفل عنها الكثيرون، لأننا نعلم أنّ التضاريس تعمّ كلّ اليابسه تقريبا، و فيها الجبال العظيمه و الصغيره و التلال و الهضاب، و البديع أن توجد بين أعظم سلال جبال العالم فواصل يستطيع الإنسان أن يشقّ طريقه من خلالها، و قلما إتفق أن تكون هذه الجبال سببا لانفصال أقسام الكره الأرضيه عن بعضها تماما، و هذا واحد من أسرار نظام الخلقه، و من مواهب الله سبحانه و عطاياه للعباد.

و إضافه إلى ما مرّ، فإنّ كثيرا من أجزاء الكره الأرضيه ترتبط مع بعضها بواسطه طرق المواصلات البحريّه، و هذا يدخل أيضا في عموم معنى الآيه (١).

و اتضح ممّا قلناه أنّ المراد من جمله لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ هو الهدايه إلى الهدف، و اكتشاف مناطق الأرض المختلفه، بالرغم من أنّ البعض اعتبرها إشاره إلى

ص: ١٨

١- ١) - كلمه «السبل» - جمع سبيل» - تطلق على الطرق البريه و البحريّه، كما نقرأ في الفقره (٤٢) من دعاء الجوشن «يا من فى البرّ و البحر سييله».

الهدايه لأمر التوحيد و معرفه الله. و لا مانع من جمع هذين المعنيين.

و ذكرت الموهبه الثالثه- و هى موهبه نزول المطر، و إحياء الأراضى الميتة- فى الآيه التاليه: وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ من قبوركم يوم البعث.

إنّ التعبير بكلمه «قدر» إشاره لطيفه إلى النظام الخاص الذى يحكم نزول الأمطار، حيث أنّها تنزل بمقدار كاف يكون مفيدا و مثمرا، و لا يؤدى إلى الخساره و الإتلاف.

صحيح أنه قد يؤدى بعض الأحيان إلى حدوث فيضانات، و جريان سيول، و تدمير الأراضى، إلا أنّ هذه الحالات استثنائية، و لها صبغه التحذير، فالأعم الأغلب من الأمطار مفيده و مربحه، فتموّ كلّ الأشجار و النباتات و الأزهار و المزارع المثمره، من بركه نزول المطر الموزون هذا، و لو لم يكن لنزول المطر نظام، لما حصلت كلّ هذه البركات.

الآيه الثانيه تستخدم جمله «أنشرونا»- من مادّه النشور- لتجسيد انبعاث عالم النباتات، فإنّ الأراضى اليابسه التى تضمّ بدور النباتات كما تضمّ القبور أجساد الموتى، تتحرك و تحيا بنفخه صور نزول المطر، و تهترّ فتخرج أموات النبات رؤوسها من التراب، و يقوم محشرها و تقع قيامتها التى تمثل صوره لقيامه البشر، و التى أشير إليها فى نهايه هذه الآيه و فى آيات عديده أخرى من القرآن المجيد.

و بعد ذكر نزول المطر و حياه النباتات، يشير فى المرحله الرابعه إلى خلق أنواع الحيوانات، فيقول سبحانه: وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا .

إنّ التعبير ب«الأزواج» كناية عن أنواع الحيوانات بقريته ذكر النباتات فى الآيه السابقه، بالرغم من أنّ البعض اعتبرها إشاره إلى كلّ أنواع الموجودات، سواء الحيوان و النبات و الجماد، لأنّ قانون الزوجيه يحكمها جميعا، فلكلّ جنس ما يخالفه: السماء و الأرض، الليل و النهار، النور و الظلام، المرّ و الحلو، اليابس

و الرطب، الشمس و القمر، الجَنَّة و النَّار، إلا ذات الله المقدَّسه فإنَّها أحديّه، و لا سبيل للزوجيه إليها أبدا.

لكن كما قلنا، فإنَّ القرائن الموجوده توحى بأنَّ المراد هو «أزواج الحيوانات»، و نعلم أنَّ قانون الزوجيه سنّه حياتيه فى كلِّ الكائنات الحيّه، و العيّنات النادره الاستثنائيه لا تقدح بعموميّه هذا القانون.

و اعتبر البعض «الأزواج» بمعنى أصناف الحيوانات، كالطيور و الدواب و المائيات و الحشرات و غيرها.

□
و فى المرحله الخامسه تبيّن الآيات آخر نعمه من هذه السلسله، و هى المراكب التى سخّرها الله سبحانه للبشر لطفى الطرق البريه و البحرية، فيقول سبحانه:

وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْآثَامِ مَا تَوْكَبُونَ

□
إنَّ هذه النعمه هى إحدى مواهب الله سبحانه للبشر، و كراماته التى منَّ بها عليهم، و هى لا- تلاحظ فى الأنواع الأخرى من الموجودات، و ذلك أنَّ الله سبحانه قد حمل الإنسان على المراكب التى تعينه فى رحلاته البحرية و الصحراويه، كما جاء ذلك فى الآيه (٧٠) من سوره الإسراء: وَ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْنَا هُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَا هُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا .

و الحقَّ أنَّ وجود هذه المراكب يضاعف أنشطه الإنسان و يوسّع حياته عدّه أضعاف، و حتّى الوسائل السريعه السير التى نراها اليوم، و التى صنعت بالاستفاده من مختلف خواصّ الموجودات، و وضعت تحت تصرف الإنسان، فإنَّها من الطاف الله الظاهره، تلك الوسائل التى غيرت وجه حياته، و منحت كلَّ شىء السرعه، و أهدت له كلَّ أنواع الراحة.

و تذكر الآيه التاليه الهدف النهائى لخلق هذه المراكب فتقول: لَسَيَتَوَّأ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ .

إِنْ جَمَلَهُ: لَيْتَسَتْوُوا عَلِيَّ ظُهُورِهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ قَدْ خَلَقَ هَذِهِ الْمَرَاقِبَ عَلَى هَيْئَةٍ تَسْتَطِيعُونَ مَعَهَا رُكُوبَهَا بِصُورِهِ جَيِّدَةٍ، وَ تَصَلُونَ إِلَى مَقَاصِدِكُمْ بِرَاحَةٍ وَ يَسْرٍ (١).

□
لَقَدْ أَوْضَحَتْ هَذِهِ الْآيَةُ هَدَفِينَ لَخَلْقِ هَذِهِ الْمَرَاقِبِ الْبَحْرِيَّةِ وَ الْبَرِّيَّةِ، مِنَ الْفَلَكَ وَ الْأَنْعَامِ، أَحَدَهُمَا: ذَكَرَ نَعْمَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ حِينَ الْإِسْتِوَاءِ عَلَى ظُهُورِهَا، وَ الْآخَرَ: تَنْزِيهِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ الَّذِي سَخَّرَهَا لِلْإِنْسَانِ، فَقَدْ جَعَلَ الْفَلَكَ عَلَى هَيْئَةٍ تَقْدِرُ أَنْ تَشَقَّ صَدْرَ الْأَمْوَاجِ وَ تَسِيرَ نَحْوَ الْمَقْصِدِ، وَ جَعَلَ الدُّوَابَّ وَ الْأَنْعَامَ خَاضِعَةً لِأَمْرِ الْإِنْسَانِ وَ مَنَقَادَهُ لِإِرَادَتِهِ.

«مَقْرِنِينَ» مِنْ مَادَّةِ «إِقْرَانٍ»، أَيَّ امْتِلَاقِ الْقَدْرَةِ عَلَى شَيْءٍ، وَ قَالَ بَعْضُ أَرْبَابِ اللَّغَةِ: إِنَّهُ يَعْنِي مَسْكَ الشَّيْءِ وَ حَفْظَهُ، وَ فِي الْأَصْلِ بِمَعْنَى وَقُوعِ الشَّيْءِ قَرِينًا لِشَيْءٍ آخَرَ، وَ لِأَنَّ ذَلِكَ الْقَدْرَةَ عَلَى حَفْظِهِ (٢).

□
بِنَاءِ عَلَى هَذَا، فَإِنَّ مَعْنَى جَمَلِهِ وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ هُوَ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُن لَطْفُ اللَّهِ وَ عَنَايَتُهُ لَمَا كَانَ يُمْكِنُ السَّيْطَرَةُ عَلَى هَذِهِ الْمَرَاقِبِ وَ حَفْظِهَا، وَ لَتَحَطَمَتْ بِفِعْلِ الرِّيَاحِ الْمَخَالَفَةَ لِحَرَكَةِ السَّفِينِ، وَ كَذَلِكَ الْحَيَوَانَاتُ الْقَوِيَّةُ الَّتِي تَفُوقُ قُوَّتَهَا قُوَّةَ الْإِنْسَانِ أَوْضَعًا، مَا كَانَ الْإِنْسَانُ لِيَسْتَطِيعَ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْهَا مَطْلَقًا لَوْ لَا رُوحَ التَّسْلِيمِ الَّتِي تَحْكُمُهَا، وَ لِذَلِكَ حِينَ يَغْضَبُ أَحَدُ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ وَ يَفْقَدُ رُوحَ التَّسْلِيمِ، فَإِنَّهُ سَيَتَحَوَّلُ إِلَى مَوْجِدٍ خَطِرٍ لَا يَقْوَى عَدَّهُ أَشْخَاصٌ عَلَى مَقَابَلَتِهِ، فِي حِينٍ أَنْ مِنَ الْمُمْكِنِ فِي حَالِهِ سَكُونُهَا وَ دَعْتِهَا—أَنْ تَرْتَبِطَ عَشْرَاتُ، بَلْ مِائَاتُ مِنْهَا بِجِبِلٍ وَ زَمَامٍ، وَ يَسْلَمُ بِيَدِ صَبِيٍّ لِيَذْهَبَ بِهَا حَيْثُ يَشَاءُ، وَ كَأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يَرِيدُ أَنْ يَبَيِّنَ لِلْإِنْسَانِ نِعْمَةَ الْحَالَةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْحَيَوَانَاتِ مِنْ خِلَالِ بَيَانِ الْحَالَةِ الْإِسْتِثْنَائِيَّةِ.

ص: ٢١

١- ١) -الضمير في «على ظهوره» يعود على «ما» الموصولة و التي وردت في جملة «ما تركبون» و هي تشمل السفن و الدواب، و كونه مفردا لظاهر اللفظ.

٢- ٢) -جاء في لسان العرب: «أقرن له و عليه»: أطاق و قوى عليه و اعتلى، و في التنزيل العزيز: وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ .

و تذكر آخر آيه-من هذه الآيات-قول المؤمنين لدى ركوبهم المركب، إذ يقولون: وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ .

هذه الجملة إشاره إلى مسأله المعاد بعد الحديث حول التوحيد، لأنَّ الانتباه إلى الخالق و المبدأ، يلفت نظر الإنسان نحو المعاد دائما.

و هى أيضا إشاره إلى أن لا تغتروا عند ما تركيبون هذه المراكب و تتسلطون عليها، و لا تغرقوا فى مغريات الدنيا و زخارفها، بل يجب أن تكونوا دائما ذاكرين للآخره غير ناسين لها، لأنَّ حالات الغرور تشتد و تتعمق فى مثل هذه الموارد خاصه، و الأشخاص الذين يتخذون مراكبهم و وسائل نقلهم و سبله للتعالي و التكبر على الآخرين ليسوا بالقليلين.

و من جهه ثالثه، فإنَّ الإستواء على المركب و الانتقال من مكان إلى آخر يذكّرنا بانتقالنا الكبير من هذا العالم إلى العالم الآخر. نعم.. فنحن أخيرا نقلب إلى الله سبحانه.

ملاحظه

إشاره

ذكر الله عند الانتفاع بالنعمة:

من النكات الجميله التى تلاحظ فى آيات القرآن الكريم، أن المؤمنين قد علموا أذعيه يقرءونها عند التمتع بمواهب الله سبحانه و نعمه... تلك الأذعيه التى تصقل روح الإنسان و تهدبها بمحتوياتها البناة، و تبعد عنها آثار الغرور و الغفله.

فيأمر الله سبحانه نوحا عليه السلام أن: فَإِذَا اسْتَيْوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١).

و يأمره أيضا أن يقول عند طلب المنزل المبارك:

ص: ٢٢

و هو سبحانه يأمرنا في هذه الآيات أن نشكر نعم الله تعالى، و أن نسبح الله عزّ و جلّ عند الإستواء على ظهورها.

فإذا تحوّل ذكر المنعم الحقيقي عند كلّ نعمه ينعم بها إلى طبع و ملكه في الإنسان، فسوف لا يغرق في ظلمه الغفله، و لا يسقط في هاويه الغرور، بل إنّ المواهب و النعم الماديّه ستكون له سلّماً إلى الله سبحانه! و

قد ورد في سيره الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلّم أنّه ما وضع رجله في الركاب إلاّ و قال: «الحمد لله»، و إذا ما استوى على ظهر الدابّه فإنّه يقول: الحمد لله على كل حال، سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (٢).

و

جاء في حديث آخر عن الإمام الحسين المجتبي عليه السّلام أنّه رأى رجلاً ركب دابّه فقال: سبحان الذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، فقال له: «ما بهذا أمرت، أمرت أن تقول: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، الحمد لله الذي منّ علينا بمحمّد، و الحمد لله الذي جعلنا من خير أمّه أخرجت للناس، ثمّ تقول: سبحان الذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا» (٣)، إشارة إلى أنّ الآية لم تأمر بأن يقال: سبحان الذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، بل أمرت أولاً بذكر نعم الله العظيمة: نعمه الهدايه إلى الإسلام، نعمه نبوّه النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم، نعمه جعلناه في زمره خير أمّه، ثمّ تسييح الله على تسخيره لما نركب! و ممّا يستحقّ الانتباه أنّه يستفاد من الزوايات أنّ من قال عند ركوبه: سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ فسوف لن يصاب بأذى بأمر الله! و قد روى هذا المطلب في حديث في الكافي عن أمّته أهل البيت عليهم السّلام (٤).

و نكتشف من خلال ذلك البون الشاسع بين تعليمات الإسلام البّناء هذه، و بين

ص: ٢٣

١-١ - المؤمنون، الآية ٢٩.

٢-٢ - تفسير الفخر الرازي، المجلد ٢٧، صفحه ١٩٩.

٣-٣ - المصدر السابق.

٤-٤ - نور الثقلين، المجلد ٤، صفحه ٥٩٣.

ما يلاحظ من جماعه من المغرورين و متبعى الأهواء و الميول الذين يتخذون وسائل نقلهم وسيله للفخر و لإظهار أنفسهم بمظهر العزيز الوجيه، وقد يجعلونها سببا لارتكاب أنواع المعاصى كما ينقل «الزمخشري» فى الكشّاف عن بعض السلاطين أنّه يركب مركبه الخاص يريد الذهاب من مدينه إلى أخرى التى تبعد عنها مسافه شهر فكان يكثر من شرب الخمر لئلا يحسّ بطول الطريق و تعب، و لا يفيق من سكره إلاّ حين يصل تلك المدينه!***

اشاره

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصِيْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مَرِنٌ يُنْشَوْنَ فِي الْحُلِيِّهِ وَهُوَ فِي الْخِصَمِ امٍ غَيْرٌ مُّبِينٌ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩)

التفسير

اشاره

كيف نزعمون أن الملائكة بنات الله؟

بعد تثبيت دعائم التوحيد بوسيله ذكر آيات الله سبحانه في نظام الوجود، و ذكر نعمه و مواهبه، تتناول هذه الآيات ما يقابل ذلك، أي محاربه الشرك و عبادته غير الله تعالى، فتطرقّت أولاً إلى أحد فروعها، أي عباده الملائكة فقالت: وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا فظنوا أن الملائكة بنات الله سبحانه، و أنها آلهتهم، و كانت هذه الخرافة القبيحه رائجه بين الكثيرين من عبده الأوثان.

إنَّ التعبير بـ«الجزء» يبيِّن من جانب أنَّ هؤلاء كانوا يعتبرون الملائكة أولاد الله تعالى، لأنَّ الولد جزء من وجود الأب و الأم، و ينفصل عنهما كنطفه تتكوَّن و تتلقَّح، و إذا ما تلقَّحت تكوَّن الولد من تلك اللحظه. و يبيِّن من جانب آخر قبولهم عبادتها، لأنَّهم كانوا يظنون الملائكة جزءا من الآلهه في مقابل الله سبحانه.

ثمَّ إنَّ هذا التعبير استدلال واضح على بطلان اعتقاد المشركين الخرافي، لأنَّ الملائكة إن كانت أولادا لله سبحانه، فإنَّ ذلك يستلزم أن يكون لله جزء، و نتيجة ذلك أنَّ ذات الله، مركبه سبحانه، في حين أنَّ الأدلَّه العقليَّه و النقلية شاهدته على بساطه وجوده و أحديته، لأنَّ الجزء مختصَّ بالموجودات الممكنه.

ثمَّ تضيف: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ فمع كل هذه النعم الإلهية التي أحاطت بوجوده، و التي مرَّ ذكر خمس منها في الآيات السابقة، فإنه بدل أن يطأطئ رأسه إعظاما لخالقه، و إجلالا لولى نعمته، سلك سبيل الكفر و اتَّجه إلى مخلوقات الله ليعبدها! في الآيه التي بعدها يستثمر القرآن الثواب الفكرية لدى هؤلاء من أجل إدانته هذا التفكير الخرافي، لأنَّهم كانوا يرجحون جنس الرجل على المرأة، و كانوا يعدُّون البنت عارا-عاده- يقول تعالى: أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ؟ فإذا كان مقام البنت أدنى في اعتقادكم، فكيف ترجحون أنفسكم و تعلقونها على الله، فتجعلون نصيبه بنتا، و نصيبكم ولدا؟ صحيح أنَّ المرأة و الرجل متساويان في القيم الإنسانيه الساميه عند الله سبحانه، إلاَّ أنَّ الاستدلال باعتقادات المخاطب يترك أحيانا في فكره أثرا يدفعه إلى إعادة النظر فيما يعتقد.

و تتابع الآيه التاليه هذا البحث بيان آخر، فتقول: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ .

و المراد من بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا هم الملائكة الذين كانوا يعتبرونهم بنات

اللّه، و كانوا يعتقدون فى الوقت نفسه أنّها آلهتهم، و أنّها شبيهه به-سبحانه-و مثله.

إنّ لفظه (كظيم) من مادّه «كظم»، و تعنى الحلقوم، و جاءت أيضا بمعنى غلق فم قربه الماء بعد امتلائها، و لذلك فإنّ هذه الكلمه استعملت للتعبير عمّن امتلأ قلبه غضبا أو غمًا و حزنا. و هذا التعبير يحكى جيّدا عن خرافه تفكير المشركين البله فى عصر الجاهليه فيما يتعلق بولاده البنت، و كيف أنّهم كانوا يحزنون و يعتّمون عند سماعهم بولاده بنت لهم، إلاّ أنّهم فى الوقت نفسه كانوا يعتقدون بأنّ الملائكه بنات الله سبحانه! و تضيف فى الآيه الكريمه: **أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيهِ وَ هُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١)**.

لقد ذكر القرآن هنا صفتين من صفات النساء غالبا، تنبعثان من ينبوع عاطفتهنّ، إحداهما: تعلق النساء الشديد بأدوات الزينه، و الأخرى: عدم امتلاكهنّ القدره الكافيه على إثبات مرادهنّ أثناء المخاصمه و الجدل لحياثهنّ و خجلهنّ.

لا شكّ أنّ بعض النسوه ليس لدهنّ هذا التعلق الشديد بالزينه، و لا شكّ أيضا أنّ التعلق بالزينه و محبّتها فى حدود الاعتدال لا يعد عيبا فى النساء، بل أكّده عليها الإسلام، إلاّ أنّ المراد هو أكثرية النساء اللاتى تعودن على الإفراط فى الزينه فى أغلب المجتمعات البشريه، و كأنهن يولدن بين أحضان الزينه و يترين فى حجرها.

و كذلك لا يوجد أدنى شكّ فى أنّ بعض النسوه ارتقين أعلى الدرجات فى قوه المنطق و البيان، لكن لا يمكن إنكار ضعف النساء عند المخاصمه و البحث و الجدل، إذا ما قورنت بقدره الرجال، و ذلك بسبب خجلهنّ و حياثهنّ.

و الهدف بيان هذه الحقيقه، و هى: كيف تظنون و تعتقدون بأنّ البنات أولاد الله سبحانه، و أنّكم مصطفون بالبينين؟

ص: ٢٧

١- ١) - «ينشؤا» من مادّه «الإنشاء»، أى إيجاد الشىء، و هنا بمعنى تربيته الشىء، و تنميته، و «الحليه» تعنى الزينه، و «الخصام» هو المجادله و النزاع على شىء ما.

و تذكر الآيه الأخيره-من هذه الآيات-هذا المطلب بصراحه أكثر،فتقول:

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءً

□
أجل...إنهم عباد الله،مطيعون لأمره،و مسلمون لإرادته،كما ورد ذلك في الآيتين(٢٤)،(٢٧)من سوره الأنبياء: بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ .

إنّ التعبير بكلمه(عباد)في الواقع ردّ على ظنّ هؤلاء،لأنّ الملائكه لو كانت مؤنثا لوجب أن يقول:(عبادات)،لكن ينبغي الانتباه إلى أنّ العباد تطلق على جمع المذكّر و على الموجودات التي تخرج عن إطار المذكر و المؤنث كالملائكه، و يشبه ذلك استعمال ضمائر المفرد المذكّر في حقّ الله سبحانه،في حين أنّه تعالى فوق كلّ هذه التقسيمات.

و جدير بالذكر أنّ كلمه(عباد)قد أضيفت إلى(الرحمن)في هذه الجملة، و يمكن أن يكون هذا التعبير إشاره إلى أن أغلب الملائكه منفذون لرحمه الله،و مدبرون لقوانين عالم الوجود و أنظمته،و كل ذلك رحمه.

لكن لماذا وجدت هذه الخرافه بين عرب الجاهليّه؟و لماذا بقيت ترسباتها إلى الآن في أذهان جماعه من الناس؟حتى أنّهم يرسمون الملائكه و يصورونها على هيئه المرأه و البنت،بل حتى إذا أرادوا أن يرسموا ما يسمى بملك الحريه فإنّهم يرسمونه على هيئه امرأه جميله طويله الشعر! يمكن أن يكون هذا الوهم نابعا من أنّ الملائكه مستورون عن الأنظار، و النساء مستورات كذلك،و يلاحظ هذا المعنى في بعض موارد المؤنث المجازي في لغه العرب،حيث يعتبرون الشمس مؤنثا مجازيا و القمر مذكرا،لأنّ قرص الشمس مغطى عاده بأمواج نورها فلا سبيل للنظر إليه،بخلاف قرص القمر.

أو أن لطافه الملائكه و رقتها قد سببت أن يعتبروها كالنساء،حيث أن النساء اكثر رقه و لطافه إذا قيست بالرجال.

و العجيب أنه بعد كل هذه المحاربه الإسلاميه لهذا التفكير الخرافى و إبطاله، فإنهم إذا ما أرادوا أن يصفوا امرأه فإنهم يقولون: إنها ملك، أما فى شأن الرجال فقلما يستعمل هذا التعبير. و كذلك قد يختارون كلمه الملك و الملاك اسما للنساء! ثم تجيبهم الآيه بصيغه الاستفهام الإنكارى فتقول: أ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ؟ و تضيف فى النهايه: سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَ يُسْأَلُونَ .

لقد ورد ما قرأناه فى هذه الآيات بصورة أخرى فى سوره النحل الآيات (٥٦ - ٦٠) أيضا، و قد أوردنا هناك بحثا مفصّلا حول عقائد عرب الجاهليّه فيما يتعلق بمسأله الوأد، و عقيدتهم فى جنس المرأه، و كذلك حول دور الإسلام فى إحياء شخصيّه المرأه و مقامها السامى.

ص: ٢٩

اشاره

وَ قَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ
(٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢)

التفسير

اشاره

لا دليل لهم سوى تقليد الآباء الجاهلين!

أعطت الآيات السابقة أول جواب منطقي على عقيدته عبده الأوثان الخرافيه، حيث كانوا يظنون أنّ الملائكه بنات الله، والجواب هو: إنّ الرؤيه و الحضور في موقف ما ضرورى قبل كل شىء لإثبات ادعاء ما، في حين لا يقوى أى عابد، وثن أن يدعى أنه كان حاضرا حين خلق الملائكه، و أنه رأى كيفيه ذلك الخلق بعينه.

و تتابع هذه الآيات نفس الموضوع، و تسلك مسالك أخرى لإبطال هذه الخرافه القبيحه، فتعرض أولا- و بصوره مختصره- لأحد الأدله الواهيه لهؤلاء ثم تجيب عليه، فتقول: وَ قَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ .

إن هذا التعبير قد يكون إشاره إلى أن هؤلاء كانوا يعتقدون بالجبر، وأن كل ما يصدر منا فهو بإرادة الله، وكل ما نفعله فهو برضاه أو أنه لو لم يكن راضيا عن أعمالنا و عقائدنا لوجب أن ينهانا عنها، ولما لم ينهنا عنها فإن ذلك دليل على رضاه.

الحقيقه، أن هؤلاء اختلقوا خرافات جديده من أجل توجيه عقائدهم الخرافيه الفاسده الأولى، و افتروا أكاذيب جديده لإثبات أكاذيبهم الأولى، و أيا من الاحتمالين -أعلاه- كان مرادهم، فهو فاسد من الأساس.

صحيح أن كل شىء فى عالم الوجود لا يكون إلا بإذن الله تعالى، إلا أن هذا لا يعنى الجبر، إذ يجب أن لا ننسى أن الله سبحانه هو الذى أراد لنا أن نكون مختارين و أحرارا فى اختيارنا و تصرفنا، ليختبرنا و يربينا.

و صحيح أيضا أنه يجب أن يجب أن ينهى الله سبحانه عباده عن الباطل، لكن لا يمكن إنكار أن جميع الأنبياء قد تصدوا لردع الناس عن كل نوع من أنواع الشرك و الازدواجيه فى العباده.

إضافه إلى ذلك، فإن عقل الإنسان السليم ينكر هذه الخرافات أيضا أليس العقل -هو رسول الله الداخلى- فى أعماق الإنسان؟! و تجيب الآيه فى النهايه بجمله قصيره على هذا الاستدلال الواهى لعبده الأصنام، فتقول: **مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**

إن هؤلاء لا-علم و لا-إيمان لهم حتى بمسأله الجبر أو رضى الله سبحانه عن أعمالهم، بل هم-ككثير من متبعى الهوى و المجرمين الآخرين-يتخذون مسأله الجبر ذريعه لهم من أجل تبرئه أنفسهم من الذنب و الفساد، فيقولون: إن يد القضاء و القدر هى التى جرتنا إلى هذا الطريق و حتمته علينا! مع علمهم بأنهم يكذبون، و أن هذه ذريعه ليس إلا، و لذلك فإن أحدا لو اغتصبهم حقا فإنهم غير مستعدين أبدا لغض النظر عن معاقبته مطلقا، و لا يقولون: إنه كان مجبرا على عمله هذا!

«يخرصون» من الخرص، وهو في الأصل بمعنى التخمين، وأطلقت هذه الكلمه أَوْلَا- على تخمين مقدار الفاكهه، ثم أطلقت على الحدس و التخمين، و لما كان الحدس و التخمين يخطئ أحيانا و لا- يطابق الواقع، فقد استعملت هذه الكلمه بمعنى الكذب أيضا، و«يخرصون» في هذه الآيه من هذا القبيل.

و على أيه حال، فيظهر من آيات قرآنيه عديده بأن عبده الأوثان كانوا يستدلون-مرارا- بمسأله المشيئه الإلهيه من أجل توجيه خرافاتهم، و من جمله ذلك أنهم كانوا قد حرّموا على أنفسهم أشياء و أحلّوا أخرى، و نسبوا ذلك إلى الله سبحانه، كما جاء ذلك في الآيه (١٤٨) من سوره الأنعام: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ .

و تكرر هذا المعنى في الآيه (٣٥) من سوره النحل أيضا: وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا

و قد كذبهم القرآن الكريم في ذيل آيه سوره الأنعام، حيث يقول: كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا و يصرح في ذيل آيه سوره النحل: فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ؟! و في ذيل الآيه مورد البحث ينسبهم إلى التخمين و الكذب كما رأينا، و كلها ترجع في الحقيقه إلى أساس و مصدر واحد.

و تشير الآيه التاليه إلى دليل آخر يمكن أن يكونوا قد استدلوا به، فتقول: أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (١)؟ أى يجب على هؤلاء أن يتمسكوا بدليل العقل لإثبات هذا الادعاء، أو بدليل النقل، في حين لم يكن لهؤلاء دليل لا من العقل و لا من النقل، فإنّ كل الأدله العقلية تدعوا إلى التوحيد، و كذلك دعا كل

ص: ٣٢

١ - ١) - «أم» هنا متصله، و هى معطوفه على (اشهدوا خلقهم)، و الضمير فى (من قبله) يعود إلى القرآن. و ما احتمله البعض من أن (أم) هنا منقطعه، أو أن الضمير يرجع إلى الرسول، لا يتناسب كثيرا مع القرائن التى فى الآيه.

و أشارت آخر آيه-من هذه الآيات-إلى ذريعتهم الأصلية،و هي فى الواقع خرافه لا أكثر،أصبحت أساسا لخرافه أخرى،فتقول:
بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ .

لم يكن لهؤلاء دليل إلا-التقليد الأعمى للآباء و الأجداد، و العجيب أنهم كانوا يظنون أنهم مهتدون بهذا التقليد،فى حين لا يستطيع أى إنسان عاقل حر أن يستند إلى التقليد فى المسائل العقائديه و الأساسيه التى يقوم عليها بناؤه الفكرى،خاصه إذا كان التقليد تقليد«جاهل لجاهل»،لأننا نعلم أن آباء أولئك المشركين لم يكن لهم أدنى حظ من العلم،و كانت أدمغتهم مليئه بالخرافات و الأوهام،و كان الجهل حاكما على أفكارهم و مجتمعاتهم،كما توضح ذلك الايه (١٧٠)من سوره البقره:

أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ؟ التقليد يصحّ فى المسائل الفرعيه و غير الأساسيه فقط،و أيضا يجب أن يكون تقليدا لعالم،أى رجوع الجاهل إلى العالم،كما يرجع المريض إلى الطبيب،و غير المتخصصين إلى أصحاب الإختصاص،و بناء على هذا فإنّ تقليد هؤلاء كان باطلا بدليلين.

لفظه«الأمه»تطلق-كما يقول الراغب فى المفردات-على الجماعه التى تربط بعضها مع البعض الآخر روابط،إمّا من جهه الدين،أو وحده المكان،أو الزمان،سواء كانت حلقة الاتصال تلك اختياريه أم إجباريه.و من هنا استعملت هذه الكلمه أحيانا بمعنى المذهب،كما هو الحال فى الآيه مورد البحث،إلا أن معناها الأصلي هو الجماعه و القوم،و إطلاق هذه الكلمه على الدين يحتاج إلى قرينه (١) .

ص: ٣٣

١ - ١) فى جمله إِذَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّهْتَدُونَ مهتدون خبر(إن)و«على آثارهم»متعلق به،و أمّا ما احتمله البعض من أن «على آثارهم»خبر أول،و(مهتدون)خبر ثان،فيبدو بعيدا عن الصواب.

اشاره

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)

التفسير

اشاره

عاقبه هؤلاء المقلدين:

تواصل هذه الآيات موضوع الآيات السابقة حول الدليل الأصلي للمشركين في عبادتهم للأصنام، وهو تقليد الآباء، والأجداد، فتقول: إن هذا مجرد ادعاء واه من مشركي العرب: وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ .

يستفاد من هذه الآيه جيدا أنّ المتصدين لمحاربه الأنبياء، والذين كانوا يقولون بمسأله تقليد الآباء و يدافعون عنها بكل قوه، كانوا من المترفين و الأثرياء

السكارى و المغرورين، لأنَّ (المترف) من مَادِه (الترفه) أى كثره النعمه، و لما كان كثير من المنعمين يغرقون فى الشهوات و الأهواء، فإنَّ كلمه «المترف» تعنى من طغى بالنعمه و غرق فى سكرتها و أصبح مغرورا (١)، و مصداق ذلك -على الأغلب- الملوك و الجبابره و الأثرياء المستكبرون و الأنانيون.

نعم، هؤلاء هم الذين تتعرض مصالحهم و أنانيتهم للفناء بثوره الأنبياء، و يحدق الخطر بمنافعهم و ثروتهم اللامشروع، و يتحرر المستضعفون من مخالبتهم، و لهذا كانوا يسعون إلى تخدير الناس و إبقائهم جهلاء بمختلف الأساليب و الحيل. و أغلب فساد الدنيا ينبع من هؤلاء المترفين الذين يتواجدون فى أماكن الظلم و التعدى و المعصيه و الفساد و الرذيله.

و جدير بالذكر، أننا قرأنا فى الآيه السابقه أن هؤلاء كانوا يقولون: **إِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّهْتَدُونَ** و هنا يذكر القرآن أنهم يقولون: **وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ** و بالرغم من أن التعبيرين يعودان إلى معنى واحد فى الحقيقه، إلا أن التعبير الأول إشاره إلى دعوى أحقيته مذهب الآباء، و التعبير الثانى إشاره إلى إصرار هؤلاء.

و ثباتهم على اتباع الآباء و الاقتداء بهم.

و على أیه حال فإنَّ هذه الآيه نوع من التسليه لخاطر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين ليعلموا أن ذرائع المشركين و استدلالاتهم هذه ليست بالشىء الجديد، إذ أن هذا الطريق سلكه كل المنحرفين الضالين على مر التاريخ.

و تبين الآيه التاليه جواب الأنبياء السابقين على حجج هؤلاء المشركين و المنحرفين بوضوح تام، فتقول: **قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ (٢) ؟**

ص: ٣٥

١- ١) -تقرأ فى لسان العرب: أترفته النعمه، أى: أطغته.

٢- ٢) -لهذه الجمله محذوف تقديره: أتبعون آباءكم و لو جئتم بدين أهدى من دين آباءكم. تفسير الكشاف المراعى، القرطبي، و روح المعانى.

هذا التعبير هو أكثر التعابير المؤدبه الممكن طرحها أمام قوم عنيدین مغرورین، ولا- يجرح عواطفهم أو يمسهام مطلقا، فهو لا يقول: إن ما تقولونه كذب و خرافه، بل يقول: إن ما جئت به أهدى من دين آبائكم، فتعالوا و انظروا فيه و طالعوه.

إن مثل هذه التعبيرات القرآنيه تعلمنا آداب المحاوره و المجادله و خاصه أمام الجاهلین المغرورین.

و مع كل ذلك، فإن هؤلاء كانوا غرقى الجهل و التعصب و العناد بحيث لم يؤثر فيهم حتى هذا المقال المؤدب الرقيق، فكانوا يجيبون أنبياءهم بجواب واحد فقط:

□ □ □
قالوا: إنا بما أرسلتكم به كافرون

□
دون أن يأتوا بأى دليل على مخالفتهم، و دون أن يتأملوا فى الاقتراح المعقول المتين لأنبياء الله و رسله.

□
من البديهى أن مثل هؤلاء الأقوام الطاغين المعاندين، لا يستحقون البقاء، و ليست لهم أهليه الحياه، و لا بد أن ينزل عذاب الله ليقتل هذه الأشواك من الطريق و يطهره منها، و لذلك فإن آخر آيه- من هذه الآيات- تقول: فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فبعضهم بالطوفان، و آخرون بالزلزله المدمره، و جماعه بالعاصفه و الصاعقه، و خلاصه القول: إنا دمرنا كل فئه منهم بأمر صارم فأهلكناهم.

□
و أخيرا و جهت الآيه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم من أجل أن يعتبر مشركو مكه أيضا، فقالت: فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَدِّبِينَ فعلى مشركى مكه المعاندين أن يتوقعوا مثل هذا المصير المشؤوم.

اشاره

وَ إِذْ قَالَ اِبْرَاهِيمُ لَآبِيهِ وَ قَوْمِهِ اِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) اِلَّا الَّذِى فَطَرَنِىْ فَاِنَّهُ سَيِّدِىْ (٢٧) وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَ اٰبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُوْلٌ مُّبِيْنٌ (٢٩) وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوْا هٰذَا سِحْرٌ وَ اِنَّا بِهٖ كٰفِرُوْنَ (٣٠)

التفسير

اشاره

التوحيد كلمه الأنبياء الخالده:

أشارت هذه الآيات إشاره موجزه إلى قصه إبراهيم، و ما جرى له مع قوم بابل عبده الأوثان، لتكامل بذلك بحث ذم التقليد، الذى ورد فى الآيات السابقه، و ذلك لأنه:

أولاً: إن إبراهيم عليه السلام كان الجد الأكبر للعرب، و كانوا يعدونه محترماً و يقدسونه، و يفتخرون بتاريخه، فإذا كان اعتقادهم و قولهم هذا حقاً فيجب عليهم أن يتبعوه عند ما مزق حجب التقليد. و إذا كان سيبلهم تقليد الآباء، فلما ذا يقلدون عبده

الأوثان ولا يتبعون إبراهيم عليه السلام.

ثانيا: إن عبدة الأصنام استندوا إلى هذا الاستدلال الواهي - وهو اتباع الآباء - فلم يقبله إبراهيم منهم أبدا، كما يقول القرآن الكريم في سورة الأنبياء - ٥٤، ٥٣:

قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

ثالثا: إن هذه الآيه نوع من التطيب لخاطر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين الأوائل ليعلموا أن مثل هذه المخالفات والتوسلات بالمعاذير والحجج الواهيه كانت موجوده دائما، فلا ينبغي أن يضعفوا أو يياسوا.

تقول الآيه الأولى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (١) ، ولما كان كثير من عبدة الأصنام يعبدون الله أيضا، فقد استثناء إبراهيم مباشرة فقال:

إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ

إنه عليه السلام يذكر في هذه العبارة الوجيزه دليلا على انحصار العبودية بالله تعالى، لأن المعبود هو الخالق والمدبر، و كان الجميع مقتنعين بأن الخالق هو الله سبحانه، و كذلك أشار عليه السلام في هذه العبارة إلى مسأله هدايه الله التكوينيته و التشريعيته التي يوجبها قانون اللطف (٢) .

وقد ورد هذا المعنى في سورة الشعراء، الآيات ٧٧-٨٢ أيضا.

و لم يكن إبراهيم عليه السلام من أنصار أصل التوحيد، و محاربه كل اشكال الشرك طوال حياته و حسب، بل إنه بذل قصارى جهده من أجل إبقاء كلمه التوحيد في هذا العالم إلى الأبد، كما تبين ذلك الآيه التاليه إذ تقول:

ص: ٣٨

١ - ١) - «براء» مصدر، و هي تعنى التبرؤ، و لها في مثل هذه الموارد معنى الوصف بشكل مؤكد و المبالغه، ك (زيد عدل) و لما كانت مصدرا فقد تساوى فيها المفرد و الجمع، و المذكر و المؤنث.

٢ - ٢) - طبقا لهذا التفسير، فإن الاستثناء في جمله «إلا الذى فطرنى» متصل، لأن كثيرا من عبدة الأوثان لم يكونوا منكرين لله، بل كانوا يشركون معه غيره، إلا - أنه احتمال أيضا أن يكون الاستثناء منقطعاً، و (إلا) بمعنى (لكن) لأن التعبير ب (ما تعبدون) يشير إلى الأصنام، فإن هذا التعبير غير متعارف في شأن الله تعالى. (تأمل).

و الطريف أن كل الأديان التي تتحدث عن التوحيد اليوم تستلهم دعوتها و أفكارها من تعليمات إبراهيم عليه السلام التوحيدي، و أن ثلاثة من أنبياء الله العظام- و هم موسى عليه السلام و عيسى عليه السلام و محمد صلى الله عليه و آله و سلم- من ذريته، و هذا دليل على صدق تنبؤ القرآن في هذا الباب.

صحيح أن أنبياء آخرين قبل إبراهيم عليه السلام- كنوح عليه السلام- قد حاربوا الشرك و الوثنية، و دعوا البشر إلى التوحيد، إلا أن الذي منح هذه الكلمة الاستقرار و الثبات، و رفع رايته في كل مكان، كان إبراهيم عليه السلام محطم الأصنام. فهو عليه السلام لم يسع لاستمرار خط التوحيد في زمانه و حسب، بل إنه طلب استمرار هذا الأمر من الله سبحانه في أذعيته إذ قال: وَ اجْتَبَيْتَنِي وَ بَنَيْتَنِي أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٢).

ثم تفسير آخر، و هو: إن الضمير في (جعل) يعود إلى الله سبحانه، فيكون معنى الجملة: إن الله سبحانه قد جعل كلمه التوحيد في أسره إبراهيم.

غير أن رجوع الضمير إلى إبراهيم عليه السلام- و هو التفسير الأول يبدو أنسب، لأنّ الجمل السابقه تتحدث عن إبراهيم، و من المناسب أن يكون هذا الجزء من جملة أعمال إبراهيم، خاصه و أنّه قد أكد على هذا المعنى في آيات عديده من القرآن الكريم، و إن إبراهيم كان مصرًا على أن يبقى بنوه و عقبه على دين الله، كما نقرأ في الآيتين (١٣١)، (١٣٢) من سورة البقره: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَ وصى بها إبراهيم بنيه و يعقوب يا بني إن الله اصطفى لكُم الدين فلا تموتن إلا و أنتم مسلمون .

و التصور بأن (جعل) يعنى الخلق، و أنه مختص بالله سبحانه، تصور خاطيء، لأنّ (الجعل) يطلق على أعمال البشر و غيرهم أيضا، و في القرآن نماذج كثيره

١- ١) - «العقب» في الأصل بمعنى كعب القدم، إلا أن هذه الجملة استعملت فيما بعد في الأولاد و أولاد الأولاد بصورة واسعة.

٢- ٢) - إبراهيم، الآية ٣٥.

لذلك، فمثلاً- عبر القرآن عن إلقاء يوسف في البئر من قبل إخوته، بالجعل: فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ (١) اتضح ممّا قلناه أنّ ضمير المفعول في (جعلها) يعود إلى كلمه التوحيد و شهاده (لا إله إلا الله) و يستفاد هذا من جمله: إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ التي تخبر عن مساعي إبراهيم من أجل استمرار خط التوحيد في الأجيال القادمه.

و ورد في روايات عديده من طرق أهل البيت عليهم السلام اعتبار مرجع الضمير إلى مسأله الإمامه، و ضمير الفاعل يرجع إلى الله طبعاً، أى إنّ الله سبحانه قد جعل مسأله الإمامه مستمرّه في ذريّه إبراهيم عليه السلام، كما يستفاد من الآيه (١٢٤) من سوره البقره، إذ لما قال الله سبحانه لإبراهيم: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا طلب إبراهيم عليه السلام أن يكون أبناؤه أئمه أيضاً، فاستجاب الله دعاءه، إلا في الذين ظلموا و تلوّثوا بالمعصيه و الجور: قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ

إلا أنّ الإشكال الذي يتبادر لأوّل وهله هو أنّه لا كلام عن الإمامه في الآيه مورد البحث، اللهم إلا أن تكون جمله (سيهدين) إشاره إلى هذا المعنى، لأنّ هدايه النبي صلى الله عليه و آله و سلّم، و الأئمه عليهم السلام شعاع من هدايه الله المطلقه، و حقيقه الهدايه و الإمامه واحده.

و الأفضل من ذلك أن يقال: إنّ مسأله الإمامه مندرجه في كلمه التوحيد، لأنّ للتوحيد فروعا أحدها التوحيد في الحاكميه و الولايه و القياده، و نحن نعلم أنّ الأئمه يأخذون ولايتهم و زعامتهم من الله سبحانه، لا أنّهم مستقلّون بأنفسهم، و بهذا فإنّ هذه الروايات تعتبر من قبيل بيان مصداق و فرع من المعنى العام ل جعلها كلمه باقيه و لهذا فإنّه لا منافاه مع التفسير الذي ذكرناه في البدايه.

ص: ٤٠

و الجدير بالملاحظة هنا: هو أنّ المفسّرين قد احتملوا عدّه احتمالات في تفسير في عَقِبِهِ ففسّرَها البعض بكلّ ذريّه إبراهيم و أسرته، و اعتبرها آخرون خاصّه بقوم إبراهيم و أمته، و فسّرَها جماعه بآل محمّد عليهم السّلام إلّا أنّ الظاهر هو أنّ لها معنى واسعاً يشمل كل ذريته إلى انتهاء الدنيا، و التّفسير بآل محمّد عليهم السّلام من قبيل بيان المصداق الواضح لها.

و الآيه التاليه جواب عن سؤال في الحقيقه، و هو: في مثل هذه الحال لم لا يعدّب الله مشركي مكّه؟ أ لم نقرأ في الآيات السابقه: فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ؟ فتقول الآيه مجيبه: بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَيَاتٍ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُّبِينٌ فنحن لم نكتف بحكم العقل ببطلان الشرك و الوثنيّه، و لا بحكم وجدانهم بالتوحيد بل أمهلناهم لإتمام الحجّه عليهم حتّى يقوم هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و هذا النّبي العظيم محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم بهدايتهم.

و بتعبير آخر، فإنّ جملة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ في الآيه السابقه توحى بأنّ الهدف من مساعى إبراهيم عليه السّلام الحثيّه كان رجوع كلّ ذريته إلى خط التوحيد، في حين أن العرب كانت تدعى أنّها من ذريه إبراهيم عليه السّلام و رغم ذلك لم ترجع، إلّا أنّ الله سبحانه أمهلهم مع ذلك حتى يأتي النّبي العظيم بالكتاب الجديد ليوقظ هؤلآء من نومهم، و بالفعل فقد استيقظت جماعه عظيمه منهم.

إلّا أنّ العجيب أنّه: وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ! نعم. لقد عدّوا القرآن المجيد سحراً، و النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم ساحراً، و إذا لم يرجعوا عمّا قالوا فإنّ عذاب الله سيحيط بهم و يأخذهم من حيث لا يشعرون.

اشاره

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)

التفسير

اشاره

لم لم ينزل القرآن على أحد الأغنياء؟

كان الكلام في الآيات السابقة في ذرائع المشركين في مواجهه دعوه الأنبياء، فكانوا يتهمونهم بالسحر تاره، و يتوسلون تاره أخرى بتقليد الآباء و يبنذون كلام الله وراء ظهورهم، و تشير الآيات-مورد البحث- إلى حجه واهيه أخرى من حجج أولئك المشركين، فتقول: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ أَي مَكَّةَ وَالطَّائِفِ.

لقد كانوا معذورين بتشبههم بمثل هذه الذريعه من جهه، إذ كان المعيار في

تقييمهم للبشر هو المال و الثروه و المقام الظاهري و الشهره.

□
إن صغار العقول هؤلاء كانوا يتصوّرون أنّ الأثرياء، و زعماء قبائلهم الظلمه هم أقرب الناس إلى الله سبحانه، و لذلك فإنّهم كانوا يتعجبون لماذا لم تنزل موهبه النبوه و الرحمه الإلهيه العظيمه هذه على رجل من قبيل هؤلاء الأفراد و نزلت على يتيم فقير خالى اليد اسمه محمّد! إن هذا لشيء عجاب لا يكاد يصدق! نعم، إنّ نظام القيم الخاطئ يستتبع مثل هذا الاستنباط، و هذا هو السبب فى بلاء المجتمعات البشريه العظيمه، و العامل الأساس فى انحرافها الفكرى، حيث تقلب الحقائق تماما فى بعض الأحيان.

إنّ حامل هذه الدعوه الإلهيه يجب أن يكون إنسانا تغمر وجوده روح التقوى..

أن يكون إنسانا واعيا، ذا إراده و تصميم، شجاعا عادلا، عارفا بآلام المحرومين و المظلومين، ذائقا لمرارتها...

هذه هى القيم التى يلزم توفّرها من أجل حمل هذه الرساله السماويه، لا الألبسه الفاخره الجميله، و القصور الفخمه الفارهه المزيّنه بأنواع الزينه و الزخارف، خاصّه و إن أيا من أنبياء الله لم يكن متمتعا بهذه الصفات و المزايا الماديه، لثلا تشتبه القيم الأصيله بالقيم المزيّفه.

و للمفسّرين أقوال فى مراد المشركين من الرجل فى مكّه و الطائف؟ إلا أنّ أغلبهم اعتبروا «الوليد بن المغيره» رجل مكّه، و «عروه بن مسعود الثقفى» رجل الطائف، و إن كان البعض قد ذكر أن عتبه بن ربيعه من مكّه، و حبيب بن عمر الثقفى من الطائف.

إلا أنّ الظاهر أن قول أولئك المشركين لم يكن يدور حول شخص معين، بل كان هدفهم الإشاره إلى أحد الأثرياء المعروفين، و له عشيره مشهوره.

و يردّ القرآن الكريم بأجوبه قاطعه على هذا النمط من التفكير المتسافل الخرافى، و يجسد النظره الإلهيه الإسلاميه تماما، فيقول
أُولَئِكَ هُمُ يُقْسِمُونَ رَحِمَتِ

فيمنحوا النبوه من يشاءون، و ينزلوا عليه الكتاب السماوى، و إذا لم يعجبهم إنسان أهملوه؟ هؤلاء على خطأ كبير، فإن ربك هو الذى يقسم رحمته، و هو يعلم-أفضل من سواه-من يستحق هذا المقام العظيم، و من هو أهل له، كما ورد ذلك فى الآيه (١٢٤) من سوره الأنعام أيضا: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .

فضلا عن ذلك، فإن وجود التفاوت و الاختلاف بين البشر من ناحيه مستوى المعيشه، لا يدل على تفاوتهم فى المقامات و المنازل المعنويه مطلقا، بل: نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا .

لقد نسى هؤلاء أن حياه البشر حياه جماعيه، و لا يمكن أن تدار هذه الحياه إلا عن طريق التعاون و الخدمه المتبادله، فإذا ما تساوى كل الناس فى مستوى معيشتهم و قابلياتهم و مكانتهم الاجتماعيه، فإن أصل التعاون و الخدمه المتبادله سيتزلزل.

بناء على هذا فينبغى أن لا- يخدعهم هذا التفاوت، و يظنوا أنه معيار القيم الإنسانيه، إذ: وَ رَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ بل إن كل المقامات و الثروات لا تعدل جناح بعوضه فى مقابل رحمه الله و القرب منه.

إن التعبير ب«ربك» الذى تكرر مرتين فى هذه الآيه، إشاره لطيفه إلى لطف الله الخاص بنبي الإسلام الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، و منحه مقام النبوه و الخاتميه.

سؤالين مهمين:

عند مطالعه الآيه أعلاه يتبادر إلى الذهن سؤالان يستخدمهما أعداء الإسلام كحربه للطعن فى الفلسفه الإسلاميه:

الأول: كيف أقرّ القرآن استخدام الإنسان و تسخيره من قبل الإنسان؟ ألا يماثل هذا نظام الطبقات الاقتصاديّة، أى نظام المستثمرين والمستثمرين؟ الثّانى: أنّ الأرزاق و المعاش إذا كانت مقدّمة من قبل الله تعالى، فأى ثمره يمكن أن تنتج عن جهودنا و مساعينا؟ ألا يعنى هذا إطفاء مشاعل السعى و مصايح الجهاد من أجل الحياه؟ إنّ الإباحه على هذه الأسئلة تتضح بالتدقيق فى متن الآيه، لأنّ هؤلاء يتصورون أنّ معنى الآيه هو أنّ جماعه معيّنه من البشر تسخر جماعه أخرى لأنفسها تسخيرا ظالما يمتصّ الدماء و الجهود، فى حين أن الأمر ليس كذلك، بل هو استخدام الناس بعضهم بعضا، أى أنّ كل جماعه من الناس لهم إمكانيّات و استعدادات خاصّه يستطيعون العمل بواسطتها فى مجال ما من شؤون الحياه، و هم بطبيعه الحال يقدمون خدماتهم فى ذلك الحقل إلى الآخرين، كما أنّ خدمات الآخرين فى الحقول الأخرى تقدم إليهم.

و الخلاصه: هو استخدام متبادل، و خدمه ذات طرفين، و بتعبير آخر: فإنّ الهدف من التسخير هو التعاون فى أمر الحياه، و لا شىء آخر.

و لا يخفى أنّ البشر لو كانوا متساوين جميعا من ناحيه الذكاء و الاستعداد الروحى و الجسمى، فسوف لن تنهت مستلزمات الحياه الاجتماعيه، و النظم الحياتيه مطلقا، كما أن خلايا جسم الإنسان لو كانت متشابهه من ناحيه البنيه و الرقه و المقاومه لا ختل نظام الجسم، فأين خلايا عظم كعب القدم القويّه جدّا من خلايا العين الرقيقه؟ إن لكل من هاتين مهمّه خاصّه بنيت على أساسها.

و المثال الحى الذى يمكن أن يضرب لهذا الموضوع هو الخدمات المتبادله فى جهاز التنفّس، و دوران الدم، و التغذيه، و سائر أجهزه بدن الإنسان، التى هى مصداق واضح ل لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا فى إطار نشاطات البدن الداخليه، فهل يمكن الإشكال على مثل هذا التسخير؟ و هل فيه خلل أو نقص؟

فإن قيل: إن جملة: رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ دليل على عدم العدالة الاجتماعية.

قلنا: هذا يصح في حاله تفسير العدالة بالمساواة، في حين أن العدالة تعنى وضع كل شيء في محله ضمن منظومته، فهل أن وجود سلسلة المراجع و الرتب في فرقه عسكريه، أو تنظيم إدارى، أو في الدوله، دليل على وجود الظلم في تلك الأجهزة؟ من الممكن أن يستعمل بعض الناس كلمه «المساواه» في مجال الشعارات من دون الالتفات إلى معناها الواقعي، أمّا في الواقع العملي فلا يمكن أن يتم أو يقوم أى نظام بدون الاختلاف و التفاوت، غير أن هذا التفاوت يجب أن لا يكون ذريعه لأن يستغل الإنسان أخاه الإنسان أبداً، بل يجب أن يكون الجميع أحراراً في استعمال قواهم الخلاقه، و تنميه نبوغهم و إبداعهم، و الاستفادة من نتائج نشاطاتهم بدون زياده أو نقصان، و أمّا في حال عجزهم فيجب على القادرين أن يجدوا و يجتهدوا في رفع النواقص و سد ما يحتاجونه.

و أمّا فيما يتعلق بالسؤال الثاني، و هو: كيف يمكن المحافظه على شعله الجهاد و السعى و الاجتهاد و هاجه مع كون الرزق معيناً؟ فإنّ الاشتباه ناشئ من تصورهم أن الله سبحانه لم يجعل لسعى الإنسان و اجتهاده أى أثر أو دور.

صحيح أن الله سبحانه خلق القابليات متفاوتة لمختلف النشاطات، و صحيح أن العوامل الخارجيه عن إرادته الإنسان مؤثره في مسير حياته، لكن مع ذلك فإنّ سبحانه قد جعل سعيه، و اجتهاده أيضاً أحد العوامل الأساسيّه، و أوضح سبحانه بيان أصل: أن ليس للإنسان إلا ما سعى (١)، أن سعادته الإنسان و ما يجنيه و يحصل عليه يرتبط بسعيه و اجتهاده.

و على أيّه حال، فإنّ النكته الغامضه و الدقيقه تكمن في أن البشر ليسوا

ص: ٤٦

كالأواني المتساويه الصفات الى صنعت فى معمل واحد، فى شكل واحد، و على وتيره واحده، و بحجم واحد، و لغايه واحده فى الاستعمال، و لو كانوا كذلك لما أمكنهم التعايش بعضهم مع البعض الآخر يوما واحدا.

و أيضا ليس الناس من قبيل أجهزه و أدوات سياره نظمها مهندسها على هيئه ما، فهى تقوم بعملها بصورة إجباريه، بل لديهم حريه الإراده، و عليهم مسئوليته و واجب فى نفس الوقت الذى تختلف فيه قابلياتهم و لياقاتهم، و هذا هو المركب الخاص الذى يسمونه الإنسان، و الاعتراضات و الإيرادات التى تطرح غالبا تنبع من عدم معرفه هذا الإنسان.

و خلاصه القول: إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَمْ يَفْضَلْ أَى إِنْسَانٍ عَلَى الْآخَرِينَ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ، بَلْ إِنَّ جَمَلَهُ: رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ إِشَارَةً إِلَى الْأَمْتِيَّاتِ الَّتِي تَمْتَّازُ بِهَا كُلُّ جَمَاعَةٍ عَلَى الْجَمَاعَةِ الْآخَرَى، وَ تَسْخِيرِ كُلِّ فَنٍّ لِأُخْرَى وَ اسْتِخْدَامِهَا لَهَا نَابِعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَمْتِيَّاتِ تَمَامًا، وَ هَذَا عَيْنُ الْعَدَالَةِ وَ التَّدْبِيرِ وَ الْحِكْمَةِ (١).

ص: ٤٧

١- ١) - كان لنا بحث مفصل فى هذا الباب فى ذيل الآيه (٣٢) من سوره النساء، و بحث آخر فى ذيل الآيه (١٦٥) من سوره الأنعام.

اشاره

وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِيُوتِيَهُمْ أَبْوَابًا
وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)

التفسير

اشاره

قصور فخمه سقفا من فضة؟ (قيم كاذبه)

تستمر هذه الآيات فى البحث حول «نظام القيم فى الإسلام»، و عدم اعتبار كون المال و الثروه و المناصب الماديه هى المعيار فى التقييم، فتقول الآيه الأولى:

وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ

(١)

و لجعلنا لهم بيوتا لها عدّه طوابق و لها سلالم جميله

ص: ٤٨

١ - ١) - «ليوتيههم» بدل اشتمال ب (لمن يكفر بالرحمن) و تكرار (اللام) لهذا المعنى، أو بمعنى (على) أى: على بيوتهم، لكن الاحتمال الأول أصح.

وقال بعض المفسرين: إنَّ المراد أن السلالم مصنوعة من الفضة، وعدم تكرار كلمة الفضة لوضوح المراد. و كأنهم لم يعتبروا وجود السّلام لوحدها دليلاً على أهميه البيوت، والأمر ليس كذلك، إذ أن وجود السلالم الكثيره دليل على عظمه البناء و تكونه من عدّه طوابق.

«السقف» جمع سقف، و يعتقد البعض أنها جمع سقيفه، أى المكان المسقف، إلا أن القول الأول أشهر.

ثُمَّ تَضِيفُ الْآيَةَ الْآخَرَى: وَ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أَبْوَاباً وَ سُرّاً عَلَيْهَا يَتَكُونُونَ .

و ربّما كانت هذه الجملة إشارة إلى الأبواب و الأسرّه الفضيه، لأنّ الآيه السابقه لما تحدثت عن السّقف الفضيه امتنع التكرار. و يمكن أيضا أن يكون وجود الأبواب و الأسرّه المتعدده-خاصّه و أن(أبوابا)و(سررا)نكره، و قد وردت هنا لبيان الأهميه-دليلاً بنفسه على عظمه تلك القصور، لأنهم يجعلون لبيت حقير عدّه أبواب أبداً، بل هى مختصه بالقصور و البيوت الفخمه، و كذلك الحال بالنسبه لوجود الأسرّه.

و لم تكتف الآيه بهذا، بل استطردت أنه إضافه إلى كل ذلك فقد جعلنا لهم مباحج و انواع الزينه وَ زُخْرُفًا (٢) لتكامل الحياه الماديه و زخارفها و زبارجها من كل الجهات، القصور الفخمه المتعدده الطبقات الأبواب و الأسرّه المتعدده، و كل وسائل الزينه و النقوش و الرسوم و سائر الجواذب التى يتحقّق فيها مراد عبید الدنيا و أمانهم.

ثُمَّ تَضِيفُ الْآيَةَ: وَ إِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ .

ص: ٤٩

١- ١) -«المعارج» جمع معراج، و هو الوسيله التى يستخدمها الإنسان للصعود إلى الطبقات العليا.

٢- ٢) -اعتبر البعض (زخرفا) عطفاً على (سقفاً)، و يعتقدون أنها إشارة إلى وسائل الزينه المستقله التى توضع تحت تصرف أمثال هؤلاء الأفراد. و البعض اعتبرها عطفاً على (من فضه) و كانت فى الأصل (من زخرف) ثم نصبت بنزع الخافض، و على هذا يصبح معنى الجملة: إنا جعلنا بعض سقوف و أسره بيوت هؤلاء من ذهب و بعضها من فضه. (تأمل!).

«الزخرف» فى الأصل بمعنى كل زينه مقترنه بالرسم و التصوير، و لما كان الذهب أحد أهم وسائل الزينه، فقد قيل له: زخرف، و إنما قيل للكلام الأجوف الذى لا فائده فيه: كلام مزخرف، لأنهم يحيطونه و يلبسونه المزوقات ليصبح مقبولاً.

□
و خلاصه القول: إن هذه الأسس الماديه و وسائل الزينه الدنيويه، حقيره لا قيمه لها عند الله تعالى فلا ينبغى أن تكون إلا من نصيب الأفراد الذين لا قيمه لهم كالكافرين و منكرى الحق، و لو لم يتأثر الناس من طلاب الدنيا و يميلوا إلى الكفر لجعل الله تعالى هذه الأمور من نصيب هذه الفئه فقط، ليعلم الجميع أن هذه الأمور ليست هى المعيار و المقياس لشخصيه الإنسان و قيمته و مقامه.

ملاحظات

اشاره

١- الإسلام يحطم القيم الخاطئه

حقاً لا يمكن العثور على تعبير أبلغ مما ورد فى الآيات أعلاه لتحطيم المقاييس و القيم الكاذبه و القضاء عليها، و تغيير بناء ذلك المجتمع الذى يدور محور تقييم شخصيه الأفراد فيه حول مقدار ما يملكون من الإيلى، و مقدار الدراهم و الدنانير، و عدد الغلمان و الجوارى و البيوت و أدوات الزينه، حتى أنهم يتعجبون لماذا اختير محمد صلى الله عليه و آله و سلم للنبوه و هو اليتيم الفقير مادياً؟! إن أهم عمل لرساله السماء هو تحطيم أطر القيم الخاطئه هذه، و بناء القيم الإنسانيه الأصيله كالتقوى، و العلم، الإيثار و التضحيه، الشهامه و الحلم على أنقاضها، و إلا فإن كل الإصلاحات ستكون فوقيه و سطحيه و غير ثابتة.

□
و هذا هو الذى قام به الإسلام و القرآن و الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم على أحسن

وجه، و لهذا فإنَّ المجتمع الذي كان أكثر المجتمعات البشريه تخلفا و خرافه، قد تسلق سلّم الرشد و الرقى حتى أصبح في المرتبه الأولى في مدّه قصيره.

و الطريف أننا نقرأ

في حديث عن النَّبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم، في تكمله هذا البحث: «لو وزنت الدنيا عند الله جناح بعوضه ما سقى الكافر منها شربه ماء» (١).

و

يبلغ أمير المؤمنين على عليه السّلام الكلام في هذا الباب غايته حيث يقول: «و لقد دخل موسى بن عمران و أخوه هارون عليهما السّلام على فرعون و عليهما مدارع الصوف و بأيديهما العصي، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه و دوام عزّه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشرطان لى دوام العزّ و بقاء الملك و هما يما ترون من حال الفقر و النذل، فهالاً ألقى عليهما أساوره من ذهب، إعظاما للذهب و جمعه، و احتقارا للصوف و لبسه، و لو أراد الله سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان، و معادن العقيان، و مغارس الجنان، و أن يحشر معهم طيور السماء و وحوش الأرض لفعل، و لو فعل لسقط البلاء، و بطل الجزاء».

و

يقول في موضع آخر من هذه الخطبه: «ألا ترون ان الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر و لا تنفع، و لا تبصر و لا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذى جعله للناس قياما. ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا، و أقل نتائق الأرض مدرا، و أضيق بطون الأودية قطرا، بين جبال خشنه، و رمال دمه، و عيون وشله، و قرى منقطعه، لا يزكو بها خف، و لا حافر و لا ظلف. ثم أمر آدم و ولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابه لمنتجع أسفارهم...».

«و لو أراد الله سبحانه أن يضع بيته الحرام و مشاعره العظام بين جنات و أنهار، و سهل و قرار، جم الأشجار، داني الثمار، ملتف البناء، متصل القرى، بين بره سمراء، و روضه خضراء، و أرياف محدقه، و عراض مغدقه، و طرق عامره، لكان قد صغر

ص: ٥١

قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء» (١).

و عند ذلك كان الناس سينشغلون بالقيم الظاهريه الخداعه، و يغفلون عن القيم الإلهيه الواقعيه.

على أیه حال، فإنّ أساس الثوره الإسلاميه هو تغيير القيم، و إذا ما أصبح مسلمو اليوم يعانون من ظروف صعبه خانقه، و تحت ضغط الأعداء الجلادين القساہ، فإنّ ذلك ناتج عن تركهم لقيم الأصيله، و انتشار القيم و الأعراف الجاهليه بينهم مرّه أخرى، فأصبح المال و المنصب الدنيوی مقياس التقييم، و نسوا العلم و الفضيله و التقوى، و غرقوا في بحر المغريات و الزخارف الماديہ، و أضحوا غرباء عن الإسلام، و ما دام الوضع كذلك فيجب أن يدفَعوا كفاره هذا الذنب العظيم، و ما داموا لم يشرعوا بالتغيير ابتداء من القيم الحاكمه على وجودهم، فسوف لن تشملهم رحمہ الله و لطفه، و ذلك: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (٢).

٢- جواب عن سؤال

بمطالعه الآيات المذكوره حول التحقير الشديد للزينه الظاهريه، و الثروه و المقام المادي، يطرح هذا السؤال نفسه، و هو: إذا كان الحق كذلك، فلما ذا يقول القرآن في موضع آخر: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (٣)

أو يقول في موضع آخر: يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ (٤)، فكيف

ص: ٥٢

١-١) - نهج البلاغه، الخطبه ١٩٢. الخطبه القاصعه.

٢-٢) - الرعد، الآية ١١.

٣-٣) - الأعراف، الآية ٣٢.

٤-٤) - الأعراف، الآية ٣١.

توافق هاتان الفتان مع الآيات؟ ينبغي الالتفات في الجواب إلى أن الهدف في الآيات-مورد البحث-هو القضاء على القيم الكاذبه الخاطئه،الهدف هو أن لا يعد الناس شخصيه الإنسان متقومه بثروته و زينته،و لا يغنى هذا أن الإمكانيات الماديه شىء سىء،بل المهم أن تكون مجرد أدوات و مظاهر للنظر،و ليس كهدف سام و غايه تبلغ.

ثم إن هذه الإمكانيات تكون ذات قيمه عند ما تكون فى حد المعقول و اللائق بالحال،و خاليه من كل أنواع الإسراف و التبذير،لا أن تبنى القصور من الذهب و الفضه،و تدخر الثروات الطائله منهما.

و من هنا يتضح أن وجود جماعه من الكفار و الظالمين بهذه القدره الماديه ليس دليلا على رفعه شخصيتهم،و لا أن حرمان المؤمنين منها،أو من التمتع بها فى حد المعقول كأدوات للزينه،يضر بإيمانهم و تقواهم،و هذا هو التفكير الإسلامى و القرآنى الصحيح.

ص: ٥٣

اشاره

وَ مَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَ إِنَّهُمْ لَيَصِيدُونَ مِنَ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ (٣٧)
حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا قُحَيْبُ لَئِن لَّمْ يَآئِدْ بِنِيبِي وَ بَيْنِكَ بُعْدُ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ
مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَ مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٠)

التفسير

اشاره

أقران الشياطين!

لما كان الكلام فى الآيات السابقه عن عبده الدنيا الذين يقيمون كل شىء على أساس المعايير الماديه، فإن الآيات-مورد البحث- تتحدث عن أحد الآثار المميته الناشئه عن الارتباط بالدنيا و التعلق بها، ألا و هو الابتعاد عن الله سبحانه.

تقول الآيه الأولى: وَ مَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ

نعم، إنَّ الغفله عن ذكر الله، والغرق في لذات الدنيا، والانهيار بزخارفها و مغرياتها يؤدي إلى تسلط شيطان على الإنسان يكون قرينه دائما، و يلقي لجاما حول رقبتة يشدّه به، و يجزّه إليه ليذهب به حيث يشاء! من البديهي أنّه لا مجال لأن يتصور أحد معنى الجبر في هذه الآيه لأنّ هذه نتيجة الأعمال التي قام بها هؤلاء أنفسهم، و قد قلنا مرارا: إنّ أولى نتائج أعمال الإنسان - و خاصه الانغماس في ملاذ الدنيا، و التلوث بأنواع المعاصي - هو تكوّن حجاب على القلب و السمع و البصر يبعده عن الله سبحانه، و يسلط الشياطين عليه، و قد يستمرّ هذا الحال بالنسبه إليه حتى يعلق بوجهه باب الرجوع، لأنّ الشياطين و الأفكار الشيطانيه تكون حينئذ قد أحاطت به من كل جانب، و هذه نتيجة عمل الإنسان نفسه، و إن كانت نسبتها إلى الله سبحانه بلحاظ كونه سبب الأسباب صحيحه أيضا، و هذا هو نفس الشيء الذي عبّر عنه في آيات القرآن الأخرى بعنوان تزيين الشياطين فَرَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ (٣)، أو بعنوان ولايه الشيطان فَهَوَّ وَوَيْئُهُمُ الْيَوْمَ . (٤)

و ممّا يستحق الانتباه أن جملة نُقِيضُ و بالالتفات إلى معناها اللغوي، تدل على استيلاء الشياطين، كما تدل على كونهم أقرانا، و في الوقت نفسه فقد جاءت جملة: فَهَوَّ لَهُ قَرِينٌ بعدها لتؤكد هذا المعنى، و هو أنّ الشياطين لا يفارقون مثل هؤلاء الأفراد، و لا يتعدون عنهم مطلقا!

ص: ٥٥

١ - ١) - «يعش» من ماده العشو، فإن عديت ب(إلى): (عشوت إليه) فهي تعني الهدايه بواسطه شيء ما بعين ضعيفه، و إن عديت ب(عن): (عشا عنه)، و أعطت معنى الإعراض عن الشيء، و هو المراد في الآيه المذكوره. لسان العرب (عشو).

٢ - ٢) - «نقِيض» من ماده قويض، و هي في الأصل بمعنى الغشاء الذي يغطي البيضه، ثم جاءت بمعنى جعل شيء مستوليا على شيء آخر.

٣ - ٣) - النحل، الآيه ٦٣.

٤ - ٤) - النحل، الآيه ٦٣.

والتعبير ب«الرحمن» إشاره لطيفه إلى أنه كيف يعرض هؤلاء عن الله الذى عمّت رحمته العامه الجميع و شملتهم، و يغفلون عن ذكره؟ فهل يستحق أمثال هؤلاء غير هذا المصير و يكونون أقرانا للشياطين، يتبعون أوامرهم، و ينفذون ما يملون عليهم؟ و احتمال بعض المفسرين أن يكون للشياطين هنا معنى واسع بحيث يشمل حتى شياطين الإنس، و اعتبروا الكلمه إشاره إلى رؤوس الضلاله و زعمائها الذين يتسلطون على الغافلين عن ذكر الله سبحانه فيكونون أقرانا لهم، و هذا التوسع فى المعنى ليس ببعيد.

ثم أشارت الآية التاليه إلى أمر مهم كانت الشياطين تقوم به فى شأن هؤلاء الغافلين، فقالت: وَإِنَّهُمْ لَيُصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ (١).

فكلما صمّموا على التوبه و الرجوع إلى طريق الصواب و الرشاد كانت الشياطين تلقى فى طريقهم الأحجار و العقبات، و تنصب الموانع فى طريق عودتهم حتى لا يعودوا إلى الصراط المستقيم أبدا. و تزين الشياطين طريق الضلال لهم إلى الحد الذى يظنون: وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ كما نقرأ ذلك فى الآية (٣٨) من سوره العنكبوت حول عاد و ثمود: وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنْ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ .

و هكذا تستمر هذه الحاله على هذا المنوال، فيبقى الإنسان الغافل الجاهل على ضلاله، و تستمر الشياطين فى إضلاله، حتى ترفع الحجب، و تفتح عين رؤيته على الحقيقه: حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ .

إنّ كل أنواع العذاب من جهه، و مجالسه قرين السوء هذا من جهه اخرى و النظر إلى وجهه المشؤوم يجسد أمام عينيه كل ذكريات ضياعه و تعاسته، فويل له إذ

ص: ٥٦

١ - ١) - ضمير الجمع فى «أنهم» و الجملة التاليه يعود إلى الشياطين، و مع أنه قد جاء بصيغه المفرد من قبل، إلا أنه كان بمعنى الجمع.

أصبح قرين من كان يزين له كل القبائح و يسلكه طريق الضلال على أنه سبيل الخير و الفلاح، و طريق الانحراف على أنه طريق الهدى و الصلاح، و ويل له إذا أصبح مقيدا معه بنفس الأصفاد في نفس السجن! نعم، إن عرصه القيامه تجسيدا واسع لمشاهد هذه الدنيا، و القرين و الرفيق و القائد و الدليل هنا و هناك واحد، بل إنهما - برأى بعض المفسرين - يقرنان بسلسله واحده! من المعلوم أن المراد من المشرقين: المشرق و المغرب، لأنّ العرب عند ما يريدون أن يثنوا جنسين مختلفين بلفظ واحد، فإنهم يختارون أحد اللفظين، كما يقولون: الشمسان، إشاره إلى الشمس و القمر، و الظهران، إشاره إلى صلاتي الظهر و العصر، و العشاء ان، إشاره إلى صلاتي المغرب و العشاء.

و قد ذكروا تفاسير أخرى لا تبدو مناسبة للآيه من أى وجه، كقولهم: إن المراد هو مشرق بدايه الشتاء، و مشرق بدايه الصيف، و إن كان هذا التفسير مناسبا في موارد أخرى.

و على أيه حال، فإنّ هذا التعبير كناية عن أبعد مسافه يمكن تصورها، حيث يضرب المثل ببعده المشرق عن المغرب في هذا الباب. إلا- أن هذا الأمل لا- يتحقق مطلقا، و لا- يمكن أن يقع الإفتراق أو البون بين هؤلاء و بين الشياطين، و لذلك فإنّ الآيه التاليه تضيف: **وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ** فيجب أن تذوقوا عذاب قرين السوء هذا مع أنواع العذاب الأخرى إلى الأبد (1).

و بهذا فإنّ القرآن الكريم يبدل أمل هؤلاء في الإفتراق عن الشياطين إلى يأس دائم، و كم هو مضمّن تحمل هذا الجوار؟

ص: ٥٧

١ - ١) - على هذا فإن فاعل «ينفع» هو القول السابق حيث كانوا يأملون أن يكون البعد بينهم و بين الشياطين كما بين المشرق و المغرب، و جمله (إذ ظلمتم) بيان لعله عدم النفع، و جمله **أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ** نتيجة هذا الظلم و الجور.

و هناك احتمالات اخرى فى تفسير هذه الآيه، منها أن الإنسان قد يشعر بخفه آلامه عند رؤيه متألّمين آخرين، لأنّ المعروف (أنّ البليه إذا عمّت طابت) غير أنّه يقال لهؤلاء: لا يوجد هناك مثل تسليه خاطر هذه، بل ستغوصون فى العذاب، و عذاب الشياطين المشتركين معهم لا يبعث على تسليه خاطر (1).

و احتملوا أيضا أن المصيبه عند ما تقع، تخف و طأتها عند ما يجد الإنسان ثقلها موزعا بينه و بين أصدقائه، و لكن هذه المسأله لا توجد هناك أيضا، لأنّ لكل فرد سهما و افرا من العذاب، من دون أن ينقص من عذاب الآخرين شىء! لكن بملاحظه أن هذه الآيه تكمله للآيه السابقه، فإنّ التفسير الأوّل الذى اخترناه هو الأنسب.

و يترك القرآن هنا هذه الفئه و شأنها، و يوجه الخطاب إلى النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم و يتحدث عن الغافلين عمى القلوب الذى كذبوا ارتباطه بالله، و هم من جنس من تقدم الكلام عنهم فى الآيات السابقه، فيقول: أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

و قد ورد نظير هذا المعنى فى آيات أخرى من القرآن الكريم، حيث شبه المعاندين الذين لا أمل فى هدايتهم، و الغارقين فى الذنوب بالعمى و الصم، بل و بالأموات أحيانا.

فقد جاء فى الآيه (42) من سوره يونس: أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ .

و جاء فى الآيه (80) من سوره النمل: إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَ لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . و آيات أخرى.

إن كل هذه التعابير توضح أن القرآن يقول بنوعين من السمع و البصر و الحياه للإنسان: السمع و البصر و الحياه الظاهريه، و السمع و البصر و الحياه الباطنيه،

ص: ٥٨

١-١) بناء على هذا التفسير، فإنّ جملة أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ستكون فاعل (ينفع) لا نتيجه.

والمهم هو القسم الثاني من الإدراك و النظر و الحياه، فإنها إذا تعطلت فلا ينفع حينئذ موعظه و إرشاده، و لا إنذار و تحذير! و مما يستحق الانتباه أن الآيات السابقه قد شبهت هذه الفئه بالأفراد العمش العيون، و المحدودى البصر، و تشبههم الآيه الأخيره هنا بالصم و العمى، و ذلك لأن الإنسان إذا اشتغل بالدنيا فحاله كمن يشكو ألما بسيطا فى عينه، فكلما زاد تعلقه بالدنيا و اشتغاله بها، و مال إلى الماديات أكثر، و أهمل المسائل الروحيه و المعنويه، فسيضعف بصره نتيجة ذلك الألم فى عينه، حتى يصل بعدها إلى مرحله العمى، و هذا هو الشىء الذى أثبتته الأدله القطعيه فى مجال التشديد على المعنويات السليمه و الإيجابيه فى الإنسان، و رسوخ الملكات فيه نتيجة تكرار العمل و الإصرار عليه، و قد راعى القرآن الكريم هذا التسلسل أيضا (١).

ص: ٥٩

١- (١) التفسير الكبير للفخر الرازى، المجلد ٢٧، صفحه ٢١٤-٢١٥.

إشاره

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ
إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ (٤٤) وَسِئْلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَ جَعَلْنَا
مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)

التفسير

إشاره

استمسك بالذي اوحى إليك:

متابعه للآيات السابقة التي كانت تتحدث عن الكفار المعاندين الظالمين الذين لا أمل في هدايتهم، تخاطب هذه الآيات نبي الإسلام الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مهتد الكفار أشد تهديد من جانب، ومسليه خاطر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فتقول: فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ .

و سواء كان المراد من الذهاب بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم من بين أولئك القوم وفاته أم هجرته من مكة إلى المدينة، فإنه إشارة إلى أنك حتى وإن لم تكن شاهدا و ناظرا لأمرهم،

فإننا سنعاقبهم أشدَّ عقاب إن استمروا في طريق ضلالتهم وغيهم، لأنَّ «الانتقام» في الأصل يعني الجزاء والعقوبه، وإن كان المستفاد من آيات قرآنيه عديده أخرى- نزلت في هذا المعنى- إن المراد من الذهاب بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وفاته، كما جاء في الآية (٤٦) من سوره يونس: وَإِنَّمَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ .

و جاء هذا المعنى أيضا في سوره الرعد- الآية ٤٠، و سوره غافر- الآية ٧٧، و على هذا فإن تفسير الآية بالهجره لا يبدو مناسباً.

ثم تضيف الآية: أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ فهم في قبضتنا على أیه حال، سواء كانت بينهم أم لم تكن، و العقاب و الانتقام الإلهي حتمي في حقهم إذا ما استمروا في أعمالهم، سواء كان ذلك في حياتك أم بعد مماتك، فقد يتقدم أو يتأخر، إلا أنه لا بد من وقوعه.

إن هذه التأكيدات القرآنيه قد تكون إشاره إلى قلّه صبر الكفار الذي كانوا يقولون: «إن كنت محقا و صادقا فيما تقول، فلما ذا لا ينزل علينا العذاب»؟ هذا من جهه. و من جهه أخرى كانوا في انتظار موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ظنًا منهم أن النبي إن أغمض عينه و غاب شخصه فسينتهى كل شيء! بعد هذه التحذيرات تأمر الآية النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن: فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ فليس في دينك و كتابك أدنى اعوجاج أو زيغ، و عدم قبول جماعه من هؤلاء به لا يدل على عدم حقانيتك، فاستمر في طريقك بكل ما أوتيت من قوه، و الباقي علينا.

ثم تضيف الآية الأخرى: وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ إِنَّهُ يَأْتِيكَ بِهِ سُبْحَانَكَ وَمَا يَشْعُرُونَ .

و بناء على هذا التفسير فإن الذكر في هذه الآية يعني ذكر الله سبحانه، و معرفه الواجبات الدينيه، و الاطلاع على تكاليف البشر، كما ورد هذا المعنى في الآيتين

٥ و ٣٦ من هذه السوره، و ككثير من آيات القرآن الأخرى.

و من المعروف أنّ الذكر أحد أسماء القرآن الكريم، و الذكر بمعنى ذكر الله سبحانه، و نقرأ هذه الجملة عدّه مرات في سوره القمر: **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ الْآيَاتِ ١٧-٢٢-٣٢-٤٠.**

إضافه إلى أن جملة: **وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** تشهد بأنّ المراد هو السؤال عن العمل بهذا البرنامج الإلهي.

لكن -مع كل ذلك- فالعجيب أنّ كثيرا من المفسّرين اختاروا تفسيراً آخر لهذه الآية لا يتناسب مع ما قلناه، فمن جملة ما قالوا: إنّ معنى الآية هو: إنّ هذا القرآن هو أساس الشرف و العزه، أو الذكر الحسن و السمع الطيب لك و لقومك، و هو يمنح العرب و قريشا أو أمتك الشرف، لأنّه نزل بلغتهم، و سيسألون قريبا عن هذه النعمه (١).

صحيح أن القرآن رفع نداء نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلّم و العرب، بل و كل المسلمين عاليا في أرجاء العالم، و أن اسم النبي صلى الله عليه و آله و سلّم يذكر بإعظام بكره و عشيا على المآذن منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، و أن عرب الجاهليه الخاملی الذكر قد عرفوا في ظل اسمه صلى الله عليه و آله و سلّم و علا صوت الأُمّة الإسلاميه في ربوع العالم بفضله.

و صحيح أن الذكر قد ورد بهذا المعنى في القرآن المجيد أحيانا، إلا أنّ ممّا لا شك فيه أنّ المعنى الأوّل أكثر ورودا في آيات القرآن، و أكثر ملاءمه مع هدف نزول القرآن و الآيات مورد البحث.

و اعتبر بعض المفسّرين الآية (١٠) من سوره الأنبياء شاهدا على التفسير الثاني، و هي: **لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٢).** في حين أن الآية

ص: ٦٢

١ - ١) مجمع البيان، التفسير الكبير للفخر الرازي، تفسير القرطبي، تفسير المراغي، و تفسير أبي الفتوح الرازي، ذيل الآية مورد البحث.

٢ - ٢) - تفسير القرطبي، ذيل الآية مورد البحث.

تناسب التفسير الأول أيضا، كما فصلنا ذلك في التفسير الأمثل، في ذيل هذه الآية (١).

وقد وردت روايات في هذه الآية في المصادر الحديثية، وستأتى فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ثم تطرقت الآية الأخيرة إلى نفي عبادة الأصنام و إبطال عقائد المشركين بدليل آخر، فقالت: **وَسَيَأْتِيَنَّ مِنْ أَرْسِلْنَا مِنْ قَيْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ؟** إشارته إلى أن كل أنبياء الله قد دعوا إلى التوحيد، ووقفوا جميعا ضد الوثنية بحزم، و على هذا فإن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم في مخالفته الأصنام لم يبق عمل لم يسبقه به أحد، بل أحيا بفعله سنة الأنبياء الأبدية، وإنما كان عبده الأصنام و المشركون هم الذين يسيرون على خلاف مذهب الأنبياء.

و طبقا لهذا التفسير فإن السائل و إن كان نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، إلا أن المراد كل الأمة، بل و حتى مخالفيه.

و المسؤولون هم أتباع الأنبياء السابقين، أتباعهم المخلصون، بل و مطلق أتباعهم، إذ يحصل الخبر المتواتر من مجموع كلامهم، و هو يبين دين الأنبياء التوحيدي.

و ينبغي التذكير بأنه حتى المنحرفين عن أصل التوحيد- كالمسيحيين الذين يؤمنون بالتثليث اليوم- يتحدثون عن التوحيد أيضا، و يقولون: إن تثليثنا لا- ينافي التوحيد الذي هو دين جميع الأنبياء! و بهذا فإن الرجوع إلى هذه الأمم كاف في إبطال دعوى المشركين.

ص: ٦٣

١- ١) الأمر الآخر الذي يمكن أن يكون دليلا على التفسير المشهور، هي كلمه (القوم) التي وردت في الآية المذكوره، لأن القرآن منهاج لتذكير كل البشر، لا قوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم و حسب، أو خصوص أمه الإسلام. إلا أن هذا الكلام يمكن الإجابة عليه بأن هؤلاء القوم قد استفادوا من تذكير القرآن قبل الآخرين، و لذلك كان التأكيد عليهم.

إلا أن بعض المفسرين احتملوا احتمالاً آخر في تفسير هذه الآية مستوحى من بعض الروايات (1)، وهو أن السائل هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه و أن المسؤولين هم الأنبياء السابقون. ثم أضافوا: إن هذا الأمر قد تم في ليلة المعراج، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد التقى بأرواح الأنبياء الماضين، و من أجل تأكيد أمر التوحيد طرح هذا السؤال و سمع الجواب.

و أضاف البعض: إن مثل هذا اللقاء كان ممكناً بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى في غير ليلة المعراج، لأن المسافات الزمانية و المكانية ليست مانعاً و لا عائقاً في مسأله اتصال النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأرواح الأنبياء، و كان بإمكان ذلك العظيم أن يتصل بهم في أية لحظة، و في أى مكان طبعاً، ليس على هذه التفاسير أى إشكال عقلي، لكن لما كان الهدف من الآية نفى مذهب المشركين، لاطمأنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم - إذ أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان مستغرقاً في مسأله التوحيد، و مشتمراً من الشرك إلى الحد الذى لا يحتاج معه إلى سؤال، و لم يكن التقاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم و سلم الروحي بأرواح الأنبياء الماضين استدلالاً مقنعاً أمام المشركين - اذن فالتفسير الأول يبدو أكثر ملاءمة، و التفسير الثانى قد يكون إشاره إلى باطن الآية لا ظاهرها، لأن آيات القرآن ظهرها و بطنها.

و هناك أمر يستحق الانتباه، و هو أن اسم (الرحمن) قد اختير في هذه الآية من بين أسماء الله سبحانه، و هو إشاره إلى أنه كيف يمكن أن يترك هؤلاء الله الذى وسعت رحمته العامه كل شىء، و يتوجهون إلى أصنام لا تضر و لا تنفع؟!

ص: ٦٤

(١- ١) رويت هذه الروايه عن ابن عباس فى تفسير القرطبي و تفسير الفخر الرازى و مجمع البيان، و رويت فى تفسير نور الثقلين روايتان مفصلتان فى هذا الباب عن كتاب الإحتجاج و تفسير على بن إبراهيم. يراجع المجلد ٤، ص ٦٠٥-٦٠٧.

من هم قوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟

توجد ثلاثه احتمالات فى المراد من «القوم» فى آيه: **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .**

الأول: أنهم كل الأمة الإسلاميه.

و الثانى: أنهم العرب.

و الثالث: أنهم قبيله قريش.

و لما كان القوم فى منطق القرآن الكريم قد أطلقت فى موارد كثيره على أمم الأنبياء، أو الأقبام المعاصرين لهم، فالظاهر أنه هو المعنى المراد فى الآيه أيضا.

و بناء على هذا، فإن القرآن أساس الذكر و الوعى و اليقظه لكل الأمة الإسلاميه حسب التفسير الأول، و أساس الافتخار و الشرف لهم جميعا حسب التفسير الثانى.

إلا- أننا نطالع فى الروايات العديده الوارده عن طرق أهل البيت عليهم السلام أن المراد من القوم فى الآيه هم أهل بيت النبي و عترته (1).

لكن لا- يبعد أن تكون هذه الروايات من قبيل بيان المصاديق الواضحه، سواء كان معنى القوم كل الأمة الإسلاميه، أو أمه العرب، أو أهل بيت نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، ففى كل الأحوال يعتبر أئمه أهل البيت عليهم السلام من أوضح مصاديقها.

ص: ٦٥

إشارة

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧)
وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠)

التفسير

إشارة

الفراغنه المغرورون و نقض العهد:

في هذه الآيات إشارة إلى جانب مِمَّا جرى بين نبيِّ الله موسى بن عمران عليه السَّلام و بين فرعون، ليكون جوابا لمقاله المشركين الواهيه بأن الله إن كان يريد أن يرسل رسولا، فلما ذا لم يختار رجلا من أثرياء مكه و الطائف لهذه المهمه العظمى؟ و ذلك لأن فرعون كان قد أشكل على موسى نفس هذا الإشكال، و كان منطقهم عين هذا المنطق، إذ جعل موسى في معرض التفرغ و التوبيخ و السخرية للباسه

الصوفى، و عدم امتلاكه لأدوات الزينه، فقالت الآيه الأولى: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ .**

المراد من «الآيات»: المعجزات التي كانت لدى موسى، والتي كانت يثبت حقانيته بواسطتها، وكان أهمها العصا و اليد البيضاء.

«الملاء»- كما قلنا سابقا- من ماده الملاء، أى القوم أو الجماعه الذين يتبعون هدفا واحدا، و ظاهرهم يملأ العيون لكثرتهم، و قرآنيا فإن هذه الكلمه تعنى الأشراف و الأثرياء أو رجال البلاط عاده.

و التأكيد على صفه: **رَبِّ الْعَالَمِينَ** هو فى الحقيقه من قبيل بيان مدعى مقترن بالدليل، لأنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ و مالكهم و معلمهم هو الوحيد الذى يستحق العبوديه لا- المخلوقات الضعيفه المحتاجه كالفراعنه و الأصنام! و لنر الآن ماذا كان تعامل فرعون و آل فرعون مع الأدله المنطقيه و المعجزات البينه لموسى عليه السلام؟ يقول القرآن الكريم فى الآيه التاليه: **فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ** و هذا الموقف هو الموقف الأول لكل الطواغيت و الجهال المستكبرين أما القاده الحقيقين، إذ لا يأخذون دعوتهم و أدلتهم بجديه لبيحوا فيها و يصلوا إلى الحقيقه، ثم يجيبونهم بسخرية و استهزاء ليفهموا الآ-خرين أن دعوه هؤلاء لا تستحق البحث و التحقيق و الإجابة أصلا، و ليست أهلا للتلقى الجاد.

إلا أننا أرسلنا بآياتنا الواحده تلو الأخرى لإتمام الحججه: **وَمَا نُزِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا (١)**.

و الخلاصه: أننا أريناهم آياتنا كل واحده أعظم من أختها و أبلغ و أشد، لئلا يبقى لهم أى عذر و حججه، و لينزلوا عن دابه الغرور و العجب و الأنانيه، و قد أريناهم بعد معجزتى العصا و اليد البيضاء معجزز الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع

ص: ٦٧

(١- ١) التعبير ب«الأخت» فى لغه العرب يعنى ما يوازى الشىء فى الجنس و المرتبه كالأختين.

و غيرها (١) ثم تضيف الآية: وَ أَخَذْنَا هُم بِالْعِذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فمَرَّ أتاها الجفاف و القحط و نقص الثمرات كما جاء في الآية (١٣٠) من سورة الأعراف: وَ لَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ .

و كان العذاب أحيانا بتبدل لون ماء النيل إلى لون الدم، فلم يعد صالحا للشرب، و لا للزراعة، و أحيانا كانت الآفات النباتية تقضى على مزارعهم.

إن هذه الحوادث المرّة الأليمة و إن كانت تنبه هؤلاء بصورة مؤقتة، فيلجئون إلى موسى، غير أنّهم بمجرد أن تهدأ العاصفة ينسون كل شيء، و يجعلون موسى غرضا لسهام أنواع التهم، كما نقرأ ذلك في الآية التالية: وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ .

أى تعبير عجيب هذا؟! فهم من جانب يسمونه ساحرا، و من جانب آخر يلجؤون إليه لرفع البلاء عنهم، و من جانب ثالث يعدونه بتقبل الهداية! إن عدم الانسجام بين هذه الأمور الثلاثة في الظاهر أصبح سببا في اختلاف التفاسير:

فذهب البعض: إنّ الساحر هنا يعنى العالم، لأنهم كانوا يعظمون السحره في ذلك الزمان، و خاصّه في مصر، و كانوا ينظرون إليهم نظرتهم إلى العلماء.

و احتمال البعض أن يكون السحر هنا بمعنى القيام بأمر مهم، كما نقول في محادثاتنا اليومية: إنّ فلانا ماهر في عمله جدّا حتى كأنه يقوم بأعمال سحريه! و قالوا تاره: إنّ المراد أنّه ساحر بنظر جماعه من الناس.

و أمثال هذه التفاسير.

إلا أنّ العارفين بطريقه تفكير و تحدث الجاهلين المعجبين بأنفسهم و المستكبرين المغرورين و الطواغيت يعلمون أنّ لهؤلاء الكثير من هذه التعابير

ص: ٦٨

المتناقضه، فلا عجب من أن يسمّوه ساحرا أوّلا، ثم يلجؤون إليه لرفع البلاء، و أخيرا يعدونه بالاهتداء.

بناء على هذا فيجب الحفاظ على ظاهر تعبيرات الآيه و الوقوف عندها، إذ لا تبدو هناك حاجه إلى توجيهات و تفاسير أخرى.

و على أيه حال، فيظهر من أسلوب الآيه أنهم كانوا يعدون موسى عليه السّلام و عودا كاذبه في نفس الوقت الذي هم بأمس الحاجه إليه، و حتى في حال المسكنه و عرض الحاجه لم يتخلوا عن غرورهم، و لذلك عبروا في طلبهم من موسى ب رَبِّكَ و بِمَا عَهَدَ عِنْدَكَ و لم يقولوا: رَبَّنَا، و ما وعدنا، أبدا. مع أن موسى قال لهم بصراحه: إِنَّ رَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لا رسول رَبِّي.

أجل، إن ضعاف العقول و المغرورين إذا ما تربعوا على عرش الحكم، فيسكون هذا منطقهم و عرفهم و أسلوبهم.

إلا- أن موسى رغم كل هذه التعبيرات اللاذعه و المحقره لم يكف عن السعى لهدايتهم مطلقا، و لم ييأس بسبب عنادهم و تعصبهم، بل استمرّ في طريقه، و دعا ربّه مرات كى تهدأ عواصف البلاء، و هدأت، لكنهم كما تقول الآيه التاليه: فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ .

كل هذه دروس حيّه و بليغه للمسلمين، و تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلّم لكى لا- ينثوا مطلقا أمام عناد المخالفين و تصلبهم، و لا يدعوا اليأس يخيم على أرواحهم و أنفسهم، بل ينبغى أن يشقوا طريقهم بكل ثبات و رجوله و حزم، كما ثبت موسى عليه السّلام و بنو إسرائيل على مواقفهم، و استمروا فى طريقهم حتى انتصروا على الفراعنه.

و هى أيضا تحذير للأعداء اللجوجين المعاندين، بأنهم ليسوا أقوى من فرعون و آل فرعون و لا أشد، فلينظروا عاقبه أمر أولئك، و ليتفكروا فى عاقبتهم.

إشاره

وَ نَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلَآ تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْ لَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين (٥٥) فجعلناهم سلفاً و مثلاً للآخرين (٥٦)

التفسير

إذا كان نبياً فلم لا يملك أسوره من ذهب؟ لقد ترك منطق موسى عليه السلام من جهه، و معجزاته المختلفه من جهه أخرى، و الابتلاءات و المصائب التي نزلت على رؤوس أهل مصر و التي رفعت ببركه دعاء موسى عليه السلام من جهه ثلثه، أثراً عميقاً في ذلك المحيط، و زعزعت أفكار الناس

و اعتقادهم بفرعون، و وضعت كل نظامهم الاجتماعى و الدينى موضع سؤال و استفسار.

هنا أراد فرعون بسفسطته و مغالطته أن يمنع نفوذ موسى عليه السّلام عن التأثير فى أفكار شعب مصر، فالتجأ إلى القيم الواهيه المنحطه التى كانت حاكمه فى ذلك المحيط، و قارن بينه و بين موسى عليه السّلام من خلال هذه القيم ليبدو متفوقا على موسى، كما يذكر ذلك القرآن الكريم حيث يقول: **وَ نَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَ فَلَآ تُبْصِرُونَ (١)**.

أمّا موسى فما ذا يملك؟ لا- شىء سوى عصا و لباس صوف! فلمن الشّأن الرفيع و المكانه الساميه، له أم لى؟ أهو يقول الحق أم أنا؟ افتحوا عيونكم جيدا و تأملوا دقيقا فى المسأله.

و بهذا فقد عظم فرعون القيم المبتدعه السيئه، و جعل المال و المقام و الجاه هى معايير الإنسانيه، كما هو الحال بالنسبه إلى عبده الأصنام فى عصر الجاهليه فى موقفهم أمام نبى الإسلام صلى الله عليه و آله و سلّم.

التعبير ب«نادى» يوحى بأن فرعون عقد مجلسا عظيما لخبراء البلد و مستشاريه، و خاطبهم جميعا بصوت عال فقال ما قال، أو أنّه أمر أن يوزع نداؤه كرساله فى جميع أنحاء البلاد.

و التعبير بالأنهار، المراد منه نهر النيل، بسبب أن هذا النهر العظيم كالبحر المترامى الأطراف، و كان يتشعب إلى فروع كثيره تروى كل المناطق العامره فى مصر.

و قال بعض المفسّرين: كان لنهر النيل (٣٦٠) فرعا، و كان أهمها: نهر الملك، و نهر طولون، و نهر دمياط، و نهر تيس.

ص: ٧١

١- ١) الواو فى جمله **وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي** يمكن أن تكون عاطفه على (ملك مصر) و يمكن أن تكون حاله (تفسير الكشاف). إلا أن الاحتمال الأوّل يبدو هو الأنسب.

أمّا لماذا يؤكد فرعون على نهر النيل خاصّه؟ فذلك لأنّ كل عمران مصر و ثروتها و قوتها و تطورها كان يستمد طاقته من النيل، من هنا فإنّ فرعون كان يدلّ به، و يفتخر به على موسى.

و التعبير بتجرى من تحتى لا يعنى أن نهر النيل يمر من تحت قصرى، كما قال ذلك جمع من المفسرين، لأنّ نهر النيل كان أعظم من أن يمرّ من تحت قصر فرعون و لو كان المراد أنّه يمرّ بمحاذاة قصره، فإنّ كثيرا من قصور مصر كانت على هذه الحال، و كان أغلب العمران على حافتى هذا الشط العظيم، بل المراد أنّ هذا النهر تحت أمرى، و نظام تقسيمه على المزارع و المساكن حسب التعليمات التى أريدها.

ثمّ يضيف: أمّ أنا خيرٌ من هذا الذى هو مهينٌ و لا يكاد يُبين (١) و بهذا يكون قد خص نفسه بافتخارين عظيمين -حكومته مصر، و ملك النيل- و ذكر لموسى نقطتى ضعف: الفقر و لكنه اللسان.

هذا فى الوقت الذى لم يكن بموسى أياً لكنه فى اللسان، لأنّ الله تعالى قد استجاب دعاءه، و رفع عنه عقده لسانه، لأنّه سأل ربّه عند البعثه أن: و اخللْ عُنُقَهُ مِنْ لِسَانِي (٢)، و من المسلم أن دعاءه قد استجيب، و القرآن شاهد على ذلك أيضا.

ليس عيبا عدم امتلاك الثروه الكثيره، و الألبسه الفاخره، و القصور المزينه، و التى تحصل عاده عن طريق ظلم المحرومين و الجور عليهم، بل هو فخر و كرامه و سمو.

إنّ التعبير ب«مهين» لعله إشارة إلى الطبقات الاجتماعيه فى ذلك الزمان، حيث كانوا يظنون أن الأشراف الأقوياء و الأثرياء طبقه متعالیه، و الكاد حين الفقراء

ص: ٧٢

١-١) - اعتبر جماعه (أم) فى الجمله أعلاه منقطعه، و أنها بمعنى (بل)، و ذهب البعض أنها متصله، و متعلقه بجمله (أ فلا تبصرون). و تقدير الجمله: أ فلا تبصرون أم تبصرون أنا خير من هذا...

٢-٢) - طه، الآيه ٢٧.

طبقه واطئه، أو أنه إشاره إلى أصل موسى حيث كان من بنى إسرائيل، و كان الأقباط يرون أنهم ساداتهم و كبرآؤهم.

ثم تشبث فرعون بذريعتين أخريين، فقال، فَلَوْ لَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (١) فلو أن الله قد جعله رسوله فلما ذا لم يعطه أساور من ذهب، و معاونين له كباقي الرسل؟ يقولون: إن الفراعنه كانوا يعتقدون أن الرؤساء يجب أن يزينا أنفسهم بالأساور و القلائد الذهبية، و لذلك فإنهم يتعجبون من موسى إذ لم يكن معه مثل آلات الزينه هذه، بل كان قد لبس بدل ذلك ملابس الرعى الصوفيه، و هذا هو حال المجتمع الذى يكون معيار تقييم الشخصيه فى نظره الذهب و الفضة و أدوات الزينه.

أمّا أنبياء الله فإنهم باطراحهم هذه المسائل -بالذات- جانباً كانوا يريدون أن يبطلوا هذه المقاييس الكاذبه، و أن يزرعوا محلها القيم الإنسانيه الأصيله -أى العلم و التقوى و الطهاره- لأنّ نظام القيم إذا لم يصلح فى مجتمع فسوف لن يرى ذلك المجتمع وجه السعاده أبداً.

على آيه حال، فإنّ ذريعه فرعون هذه تشبه الذريعه التى نقلت عن مشركى مكّه قبل عدّه آيات حيث كانوا يقولون: لم لم ينزل القرآن على عظيم من مكّه و الطائف؟! و الحجّه الثانيه هى تلك الحجّه المعروفه التى كانت تطرحها كثير من الأمم الضاله العاصيه فى مواجهه الأنبياء، فكانوا يقولون أحياناً: لماذا أرسل الله بشراً و ليس ملكاً؟ و أحياناً أخرى: إذا كان إنساناً فلما ذا لم يأت معه ملك؟ فى حين أنّ الرسل المبعوثين إلى البشر يجب أن يكونوا من جنسهم ليلمسوا حاجاتهم، و يحسوا بمشاكلهم و مسائلهم و يجيبوهم، و ليقدروا على أن يكونوا من

ص: ٧٣

١-١) -جاءت كلمه «مقترنين» هنا بمعنى المتتابعين أو المتعاضدين، و قال البعض: إنّ الاقتران هنا بمعنى التقارن.

الناحية العمليه قدوه و أسوه لهم (١) .

و يلزم أن نذكر هنا أن «الأسوره» جمع سوار، سواء كان من الذهب أم من الفضة.

و تشير الآيه التاليه إلى نكته لطيفه، و هي: إن فرعون لم يكن غافلا عن واقع الأمر تماما، و كان ملتفتا إلى أن لا قيمه لهذه القيم و المعايير، إلا أنه: فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .

إن طريقه كل الحكومات الجباره الفاسده من أجل الاستمرار في تحقيق أهدافها و أنانياتها، هي الإبقاء على الناس في مستوى مترد من الفكر و الثقافه و الوعي، و تسعى إلى تركهم حمقى لا يعون ما حولهم باستخدام أنواع الوسائل، فتجعلهم غرقى في حاله من الغفله عن الوقائع و الأحداث و الحقائق، و تنصب لهم قيما و موازين كاذبه منحطه بدلا من الموازين الحقيقيه، كما تمارس عمليه غسل دماغ تام متواصل لهذه الشعوب، و ذلك لأن يقظتها و وعيها، و تنامي رشدتها الفكرى يشكل أعظم خطر على الحكومات، و يعتبر أكبر عدو للحكومات المستبده، فهذا الوعي بمثابه ما رد يجب أن تحاربه بكل ما أوتيت من قوه.

إن هذا الأسلوب الفرعونى - أى استخفاف العقول - حاكم على كل المجتمعات الفاسده في عصرنا الحاضر، بكل قوه و استحكام، و إذا كان تحت تصرف فرعون وسائل محدوده توصله إلى نيل هدفه، فإن طواغيت اليوم يستخفون عقول الشعوب بواسطه وسائل الاتصال الجماعيه، الصحف و المطبوعات، شبكات الراديو و التلفزيون، أنواع الأفلام، بل و حتى الرياضه في قالب الانحراف، و ابتداع أنواع الأساليب المضحكه المستهجنه، لتغرق هذه الشعوب في بحر الغفله، فيطيعوهم و يستسلموا لهم، و لهذا كانت المسؤوليه الملقاه على عاتق علماء الدين و الملتزمين به - الذين يحيون خط الأنبياء الفكرى و العقائدى - ثقيله في محاربه

ص: ٧٤

١-١) -ورد في التفسير الأمثل، ذيل الآيه (٩) من سوره الأنعام بحث مفصل في هذا الباب.

برامج استخفاف العقول، فهي من أهم واجباتهم.

و الطريف أنّ الآيه المذكوره تنتهى بجمله: إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ، إشاره إلى أنّ هؤلاء القوم الضالين لو لم يكونوا فاسقين و متمردين على طاعه الله عزّ و جلّ و حكم العقل، لما كانوا يستسلمون لمثل هذه الدعايات و الخزعبلات و يصغون إليها، فهم قد هيؤوا أسباب ضلالهم بأيديهم، و لذلك فإنهم ليسوا معذورين فى هذا الضلال أبدا.

صحيح أنّ فرعون قد سرق عقول هؤلاء و حملهم على طاعته، إلا أنّهم قد أعانوه على هذه السرقة باتباعهم الأعمى له.

نعم، كان هؤلاء قوما فاسقين يتبعون فاسقا.

كانت هذه جنايات فرعون و آل فرعون و مغالطاتهم فى مواجهه رسول الله موسى عليه السلام، لكننا نرى الآن إلى أين وصلت عاقبه أمرهم بعد كل هذا الوعظ و الإرشاد و إتمام الحجج من طرق مختلفه، إذ لم يسملوا للحق:

تقول الآيه: فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فقد اختار الله سبحانه لهؤلاء عقوبه الإغراق بالخصوص من بين كل العقوبات، و ذلك لأنّ كلّ عزّتهم و شوكتهم و افتخارهم و قوتهم كانت بنهر النيل العظيم و فروعه الكثيره الكبيره، و الذى كان فرعون يؤكّد عليه من بين كل مصادر قوته، إذ قال أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي؟ نعم، يجب أن يكون مصدر حياتهم و قوتهم، سبب هلاكهم و فنائهم، و يكون قبرا لهم ليعتبر الآخرون! «آسفونا» من ماده الأسف، و هو الحزن و الغم، و يأتى بمعنى الغضب، بل إنّه يقال للحزن المقترن بالغضب أحيانا-على قول الراغب فى مفرداته (1) -و قد يقال لكل منهما على الانفراد. و حقيقته ثوران دم القلب، شهوه الانتقام، فمتى كان ذلك

ص: ٧٥

(١-١) -مفردات الراغب، ماده (أسف).

على من دونه انتشر فصار غضبا، و متى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا، و لذلك سئل ابن عباس عن الحزن و الغضب فقال: «مخرجهما واحد و اللفظ مختلف».

و فسر بعضهم «آسفونا» ب(آسفوا رسلنا)، إلا أن هذا التفسير يبدو بعيدا، و لا ضروره لمثل هذا الخلاف الظاهري.

و هنا نكتة تستحق الانتباه، و هي أنه لا معنى للحزن و الغم بالنسبه إلى الله سبحانه، و لا الغضب بالمعنى المتعارف بيننا، بل إن غضب الله يعنى «إرادته العقاب»، و رضاه يعنى «إرادته الثواب».

و تقول الآيه الأخيره كاستخلاص لنتيجه مجموع ما مر من كلام: فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ .

«السلف» فى اللغه يعنى كل شىء متقدم، و لذلك يقال للأجيال السابقه: سلف، و للأجيال الآتية: خلف، و يسمون المعاملات التى تتم قبل الشراء «سلفا»، لأن ثمن المشتري يدفع من قبل.

و المثل يقال للكلام الدائر بين الناس كعبره، و لما كانت قصه فرعون و الفراعنه و مصيرهم المؤلم عبره عظمى، فقد ذكرت فى هذه القصه كعبره للأقوام الآخرين.

اشاره

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَاٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢)

سبب النزول

جاء في سيره ابن هشام: «و جلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما-فيما بلغنى-مع الوليد بن المغيرة في المسجد،فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم في المجلس،وفي المجلس غير واحد من رجال قريش،فتكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعرض له النضر بن الحارث،فكلمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أفحمه ثم تلا عليه

و عليهم: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ* لَوْ كَانَ لِهُؤُلَاءِ آلِهَةٌ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ... .

ثم قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأقبل عبد الله بن الزبيرى السهمى حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له، والله ما قيام النصر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً: أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى بن مريم عليهم السلام، فعجب الوليد و من كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبيرى، ورأوا أنه قد احتج و خاصم، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قول ابن الزبيرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين و من أمرتهم بعبادته» (١).

فزلت الآية الشريفة (١٠١) من سورة الأنبياء: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ وَكَذَلِكَ نَزَلَتِ الْآيَةُ: وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ .

التفسير

إشارة

أى الالهة فى جهنم؟

تحدث هذه الآيات حول مقام عبودية المسيح عليه السلام، ونفى مقوله المشركين بألوهيته و ألوهية الأصنام، و هى تكمله للبحوث التى مرت فى الآيات السابقة حول دعوه موسى و محاربهه للوثنية الفرعونيه، و تحذير لمشركى عصر النبى صلى الله عليه وآله وسلم و كل مشركى العالم.

ص: ٧٨

و بالرغم من أن الآيات تتحدث بإبهام، إلا أن محتواها ليس معقداً و لا غامضاً للقرائن الموجوده فى نفس الآيات، و آيات القرآن الأخرى، رغم التفاسير المختلفه التى ذكرها المفسرون.

تقول الآيه الأولى: **وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (١)**.

أى مثل كان هذا؟ و من الذى قاله فى حق عيسى بن مريم؟ هذا هو السؤال الذى اختلف المفسرون فى جوابه على اقوال، إلا أن الدقه فى الآيات التالیه توضح أن المثل كان من جانب المشركين، و ضرب فيما يتعلق بالأصنام، لأننا نقرأ فى الآيات التالیه: **مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلًا**.

بملاحظه هذه الحقيقه، و ما جاء فى سبب النزول، يتضح أن المراد من المثل هو ما قاله المشركون استهزاء لدى سماعهم الآيه الكريمه: **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ (٢)**، و كان ما قالوه هو أن عيسى بن مريم قد كان معبوداً، فينبغى أن يكون فى جهنم بحكم هذه الآيه، و أى شىء أفضل من أن نكون نحن و أصنامنا مع عيسى؟ اقلوا ذلك و ضحكوا و استهزءوا و سخروا! ثم استمروا: **وَ قَالُوا أَ آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ إِذَا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ، فَإِنَّ آلِهَتَنَا لَيْسَتْ بِأَفْضَلِ مِنْهُ وَ لا أَسْمَى**.

و لكن، اعلم أن هؤلاء يعلمون الحقيقه، و **مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٣)**.

إن هؤلاء يعلمون جيداً أن الآلهه الذين يردون جهنم هم الذين كانوا راضين بعباده عابديهم، كفرعون الذى كان يدعوهم إلى عبادته، لا كالمسيح عليه السلام الذى كان و لا يزال رافضاً لعملهم هذا، و متبرءاً منه.

ص: ٧٩

١- ١) - «يصدون» من ماده صد، و يكسر مضارعها، و هى تعنى الضحك و الصراخ، و إحداث الضجيج و الغوغاء، حيث يضعون يدا بيد عند السخریه و الاستهزاء عاده، يراجع لسان العرب، ماده: صدد.

٢- ٢) - الأنبياء، الآيه ٩٨.

٣- ٣) - «خصمون» جمع خصم، و هو الشخص الذى يجادل و يخاصم كثيراً.

بل: إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَدْ كَانَتْ وِلَادَتُهُ مِنْ غَيْرِ أَبِي آيَةٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَتَكْمَلُهُ فِي الْمَهْدِ آيَةٌ أُخْرَى، وَكَانَتْ كُلُّ مَعْجَزَتِهِ مِنْ مَعْجَزَاتِهِ عَلَامَةٌ بَيْنَهُ عَلَى عِظْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَعَلَى مَقَامِ النَّبَوَّةِ.

□
لقد كان عيسى مقرا طوال حياته بالعبودية لله، و دعا الجميع إلى عبوديته سبحانه، و لما كان موجودا في أمته لم يسمح لأحد بالانحراف عن مسير التوحيد، و لكن المسيحيين أوجدوا خرافة ألوهية المسيح، أو التثليث، بعده (1).

و الطريف أن نقرأ في روايات عديده وردت عن طريق الشيعة و السنه،

□
أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم قال لعلى عليه السلام: «إِنَّ فِيكَ مَثَلًا مِنْ عِيسَى، أَحَبَّهُ قَوْمٌ فَهَلَكُوا فِيهِ، وَ أَبْغَضَهُ قَوْمٌ فَهَلَكُوا فِيهِ» فقال المنافقون: أما رضى له مثلا إلا عيسى، فنزل قوله تعالى:

□
وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ

و ما قلناه متن روايه أوردها الحافظ أبو بكر بن مردويه-من علماء أهل السنه المعروفين-في كتاب المناقب. طبقا لنقل كشف الغمه صفحه ٩٥.

ص: ٨٠

١- ١) -احتملوا في تفسير الآيات أعلاه احتمالات أخرى، و كل منها لا يتناسب مع محتوى الآيات: ١-فقال البعض: إن المراد من المثل الذى ضربه المشركون هو أنهم قالوا بعد ذكر المسيح و قصته في آيات القرآن: إن محمدا يهيه الأرضيه ليدعونا إلى عبادته، و القرآن في مقام الدفاع عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم يقول: لم يكن المسيح مدعيا للألوهيه، و سوف لن يدعيها هو أيضا. ٢- و قال البعض الآخر: إن المراد من المثل في الآيات المذكوره هو التشبيه الذى ذكره الله سبحانه في شأن المسيح في الآيه (٥٩) من سوره آل عمران، حيث يقول: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فإذا كان عيسى قد ولد من غير أب فإن ذلك لا يثير العجب، لأن آدَمَ قد ولد من غير أب و أم، بل من التراب بأمر الله تعالى. ٣- و احتمال بعض آخر أن المراد من المثل هو قول المشركين حيث كانوا يقولون: إذا كان النصرارى يعبدون المسيح، فلما ذا لا تكون آلهتنا التى هى أسمى منه، لائقه للعباده و أهلا لها؟ غير أن الالتفات إلى الخصوصيات التى ذكرت في هذه الآيات يوضح أن أيا من هذه التفسيرات الثلاثه لا يصح، لأن الآيات تبين جيدا: أولا: أن المثل كان من ناحيه المشركين. ثانيا: كان الموضوع قد أثار ضجه و صخباء، و كان مضحكا بنظرهم. ثالثا: كان شيئا على خلاف مقام عبوديه المسيح عليه السلام. رابعا: أنه كان يحقق هدف هؤلاء، و هو الجدل في أمر كان كاذبا. و هذه الخصائص لا تتناسب إلا مع ما قلناه في المتن فقط.

وقد نقل جمع آخر من علماء السنه، وكبار علماء الشيعة هذه الحادثة في كتب عديده، تاره بدون ذكر الآيه أعلاه، و أخرى مع ذكرها (١).

إنّ القرائن الموجوده في الآيات توحى بأن هذا الحديث المعروف من قبيل تطبيق المصداق، لا أنه سبب النزول، و بتعبير آخر: فإنّ سبب نزول الآيه هو قصه عيسى و قول المشركين و أصنامهم، لكن لما وقع لعلی علیه السلام حادث شبيه لذاك بعد ذلك القول التاريخي للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، فإنّه صلى الله عليه و آله و سلم تلا هذه الآيه هنا ليبين أنّ هذا الحادث كان مصداقا لذاك من جهات مختلفه.

و لثلا- يتوهموا أنّ الله سبحانه محتاج لعبوديتهم، و أنّه يصبر عليها، فإنّه تعالى يقول في الآيه التاليه: **وَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ مِثْلَكَ تَخَضَعُ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَ لَا تَعْرِفُ عَمَلًا إِلَّا طَاعَتَهُ وَ عِبَادَتَهُ.**

و اختار جمع من المفسرين تفسيراً آخر للآيه، يصبح معنى الآيه على أساسه:

و لو نشاء لجعلنا أبناءكم ملائكة يخلفونكم في الأرض. بناء على هذا فلا تعجبوا من أن يولد المسيح من دون أب، فإنّ الله عزّ و جلّ قادر على أن يخلق ملكاً من الإنسان، و هو نوع يختلف عنه (٢).

و لما كان تولد الملك من الإنسان لا- يبدوا مناسباً، فقد فسّره بعض كبار المفسرين بولاده الأبناء الذين يتمتعون بصفات الملائكة، و قالوا: إنّ المراد: لا تعجبوا من أن تكون لعبد كالمسيح القدره على إحياء الموتى، و إبراء المرضى بإذن الله، و هو في الوقت نفسه عبد مخلص مطيع لأمر الله، فإنّ الله قادر على أن يخلق

ص: ٨١

١- ١) - لمزيد الاطلاع راجعوا: كتاب إحقاق الحق، المجلد ٣، صفحہ ٣٩٨ و ما بعدها، تفسير نور الثقلين، المجلد ٤، صفحہ ٦٠٩. و ما بعدها، و تفسير مجمع البيان ذيل الآيات مورد البحث.

٢- ٢) - اختار التفسير الأول، الطبرسي في مجمع البيان، و الشيخ الطوسي في التبيان، و أبو الفتوح الرازي و آخرون. أما التفسير الثاني فقد نقله القرطبي و الآلوسي في روح المعاني، و الزمخشري في الكشاف، و المراغي، على أنه المعنى الوحيد للآيه، أو أنّه أحد معنيين لها.

من أنبائكم من تكون فيه كل صفات الملائكة و طبائعهم (١).

إلا أن التفسير الأول ينسجم مع ظاهر الآية أكثر من الجميع، وهذه التفاسير بعيدة (٢).

والآية التالية إشاره إلى خصيصه أخرى من خصائص المسيح عليه السلام فتقول: إن عيسى سبب العلم بالساعة و إِنَّهُ لَعَلَّمَ لِلسَّاعَةِ إِمًّا أَنْ وُلِدَتْهُ مِنْ غَيْرِ أَبٍ دَلِيلٌ عَلَى قَدْرِهِ اللَّهُ اللَّامْتَنَاهِيَهُ، فتحل على ضوئها مسأله الحياه بعد الموت، أو من جهة نزول المسيح عليه السلام من السماء فى آخر الزمان طبقا لروايات عديده، و نزوله هذا دليل على اقتراب قيام الساعة.

يقول جابر بن عبد الله: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ينزل عيسى بن مريم، فيقول أميرهم: تعال صل بنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمه من الله لهذه الأمه» (٣).

و نقرأ

فى حديث آخر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم و إمامكم منكم» (٤).

و على أیه حال، فإن إطلاق (العلم) على المسيح نوع من التأكيد و المبالغه، و هو إشاره إلى أن نزوله من علامات القيامة حتما.

و احتمال أيضا أن يعود الضمير فى (أنه) على القرآن، و على هذا يكون معنى الآية: إن نزول القرآن الذى هو آخر الكتب السماويه، دليل على اقتراب الساعة، و يخبر عن قيام القيامة.

غير أن الآيات السابقه و اللاحقه حول عيسى تقوى التفسير الأول.

ثم تقول الآية بعد ذلك: إن قيام الساعة حتم، و وقوعها قريب، فلا تَمْتَرَنَّ بِهَا

ص: ٨٢

١-١) -الميزان، ذيل الآية مورد البحث.

٢-٢) -طبقا للتفسير الأول، فإن (من) للبدليه، و بناء على التفسيرين الثانى و الثالث فإن (من) للإنشاء، و الابتداء.

٣-٣) -نقل هذا الحديث صاحب مجمع البيان عن صحيح مسلم فى ذيل الآيات مورد البحث.

٤-٤) -مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث، و تفسير روح المعانى، المجلد ٥، صفحه ٨٨.

لا من حيث الاعتقاد بها و لا من حيث الغفله عنها.

وَ اتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

و أى صراط أكثر استقامه من الذى يخبركم بالمستقبل الخطير الذى ينتظركم، و يحذركم منه، و يدلکم على طريق النجاه من أخطار يوم البعث؟! إلا أن الشيطان يريد أن يبيدكم فى عالم الغفله و الارتباط بها، فاحذروا: وَ لَا يَصُدَّنْكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ .

لقد أظهر عداه لكم منذ اليوم الأول، مرّه عند وسوسته لأبيكم و أمكم-آدم و حواء-و إخراجهما من الجنّه، و أخرى عند ما أقسم على إضلال بنى آدم و إغوائهم، إلا-المخلصين منهم، فكيف تخضعون أمام هكذا عدو لدود أقسم على أذاكم و دفعكم إلى الهاويه السحيقه؟ و كيف تسمحون له أن يتسلط على قلوبكم و أرواحكم، و أن يمنعكم عن طريق الحق بوساوسه المستمره؟!

ص: ٨٣

اشاره

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٤٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ (٤٥)

التفسير

اشاره

الذين غالوا في المسيح:

مرت الإشارة إلى جانب من خصائص حياه المسيح عليه السلام في الآيات السابقه، و تكمل هذه الآيات ذلك البحث، و تؤكد بالخصوص على دعوه المسيح إلى التوحيد الخالص، و نفى كل شكل من أشكال الشرك.

تقول الآيه أولًا: وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ وَ بهذا فقد كانت «البيّنات»- أي آيات الله و المعجزات- رأسمال عيسى، إذ كانت تبين حقانيته من جانب، و تبين من جانب آخر الحقائق

المرتبطه بالمبدأ و المعاد و احتياجات حياه البشر.

و يصف عيسى عليه السّلام محتوى دعوته ب«الحكمه» فى عبارته، و نحن نعلم أن أساس الحكمه هو المنع من شىء بقصد إصلاحه، ثمّ أطلقت على كل العقائد الحقّه، و برامج الحياه الصحيحه التى تصون الإنسان من أنواع الانحراف فى العقيدته و العمل، و تتناول تهذيب نفسه و أخلاقه، و على هذا فإنّ للحكمه هنا معنى واسعاً يشمل «الحكمه العلميه» و «الحكمه العمليه».

و لهذه الحكمه-إضافه إلى ما مرّ-هدف آخر، و هو رفع الاختلافات التى تخلّ بنظام المجتمع، و تجعل الناس حيارى مضطربين، و لهذا السبب نرى المسيح عليه السّلام يؤكّد على هذه المسأله.

و هنا يطرح سؤال التفت إليه أغلب المفسّرين، و هو: لماذا يقول: قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ لَمْ لَا يَبَيِّنُ الْجَمِيعَ؟ و قد ذكرت أجوبه عديده لهذا السؤال، و أنسبها هو:

إنّ الاختلافات التى بين الناس نوعان: منها ما يكون مؤثراً فى مصيرهم من الناحيه العقائديه و العمليه، و منها ما يكون فى الأمور غير المصيريه، كالنظريات المختلفه حول نشأه المنظومه الشمسيه و السماوات، و كيفيه الأفلاك، و النجوم، و ماهيه روح الإنسان، و حقيقه الحياه، و أمثال ذلك.

و من الواضح أنّ الأنبياء مكلفون أن ينهوا الاختلافات من النوع الأوّل و يقتلعوها بواسطه تبيان الحقائق، و لكنّهم غير مكلفين برفع أى اختلاف كان حتى و إن لم يكن له تأثير فى مصير الإنسان مطلقاً.

و يحتمل أيضاً أن تبيان بعض الاختلافات نتيجته و غايه لدعوه الأنبياء، أى إنّهم سيوفقون أخيراً فى حل بعض هذه الاختلافات، أمّا حلّ جميع الاختلافات فى الدنيا فإنّه أمر غير ممكن، و لذلك تبيّن آيات متعدده من القرآن المجيد أن أحد خصائص القيامه هو ارتفاع كل الاختلافات و انتهاءها، فنقرأ فى الآيه (٩٢) من

سوره النحل: وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

و قد جاء هذا المعنى فى الآيات، ٥٥-آل عمران، ٤٨-المائدة، ١٦٤-الأنعام، ٦٩-الحج، و غيرها (١).

و تضيف الآية فى النهايه: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا .

بعد ذلك، و من أجل أن ترفع كل نوع من الإبهام فى مسأله عبوديته، تقول الآية:

إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ

الملفت للانتباه تكرار كلمه «الرب» مرّتين فى هذه الآية، مرّه فى حقّه، و أخرى فى حق الناس، ليوضح للناس أنّى و إياكم متساوون، و ربّى و ربّكم واحد. و أنا مثلكم محتاج فى كل وجودى إلى الخالق المدبر، فهو مالكى و دليلى.

و للتأكيد أكثر يضيف: فَأَعْبُدُوهُ إِذْ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرَهُ، و لا- تليق إلا- به، فهو الرب و الكل مرربوبون، و هو المالك و الكل مملوكون.

ثم يؤكّد كلامه بجمله أخرى حتى لا تبقى لمتذرع ذريعه، فيقول: هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٢).

نعم، إنّ الصراط المستقيم هو طريق العبوديه لله سبحانه... ذلك الطريق الذى لا- انحراف فيه و لا- اعوجاج، كما جاء فى الآية (٦١) من سوره يس: وَ أَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .

لكن العجب أن يختلف أقوام من بعده مع كل هذه التأكيدات: (فَاخْتَلَفَ الْأَخْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ) (٣):

ص: ٨٦

١- ١) -قال بعض آخر من المفسرين: إنّ (بعض) هنا بمعنى الكل، أو أن التعبير ب (بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ) إضافه موصوف إلى الصفه، أو أن هذا التعبير إشاره إلى أنّى أتبين لكم أمور الدين و حسب، لا اختلافاتكم فى أمر الدنيا. إلا أن أيا من هذه التفاسير لا يستحق الاهتمام.

٢- ٢) -ورد نظير هذه الآية بتفاوت يسير فى سوره مريم-٣٦، و سوره الأنعام-٥١، و تكرار هذا المعنى تأكيد على أن عيسى عليه السلام قد أتمّ الحجه على جميع هؤلاء فى مورد عبوديته و كونه عبد الله سبحانه.

٣- ٣) -الضمير فى (بينهم) يعود إلى الذين خاطبهم المسيح عليه السلام فى الآية السابقه، و دعاهم إلى عبوديه الله سبحانه.

فالبعض ذهب إلى أنه الرب الذى نزل إلى الأرض! و بعض آخر اعتبره ابن ربّه.

و آخرون بأنّه أحد الأفانيم الثلاثة(الذوات المقدسه الثلاثة:الأب،والابن، و روح القدس).

□
و هناك فنه قليله فقط هم الذين اعتبروه عبد الله و رسوله،غير أن عقيدته الأغلبه هى التى هيمنت،و عمت مسأله التثليث و الآلهه
الثلاثه عالم المسيحيه.

و قد نقل فى هذا الباب حديث تاريخى جميل أوردناه فى ذيل الآيه(٣٦)من سوره مريم.

و يحتمل أيضا فى تفسير الآيه،أنّ هذا الاختلافات لم يكن بين المسيحيين و حسب،بل حدث بين اليهود و النصرى فى
المسيح،فعالى أتباعه فيه،و أو صلوه إلى مقام الألوهيه،فى حين اتهمه و أمه الطاهره أعداؤه بأشنع الاتهامات،و هكذا سلوك
الجاهلين و عرفهم،بعضهم صوب الإفراط،و آخرون نحو التفريط،أو هم- على حد تعبير أمير المؤمنين على عليه السّلام-بين
محب غال و بين مبغض قال،حيث

□
يقول عليه السّلام: «هلك فى رجلان:محب غال،و مبغض قال» (١) ! و كم هى متشابهه أحوال هذين العظيمين! و هددهم الله
سبحانه فى نهايه الآيه بعذاب يوم القيامة الأليم،فقال: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ (٢).

نعم،إنّ يوم القيامة يوم أليم،فطول حسابه أليم،و عقوباته أليمه،و حسرته و غمه أليمان،و خزيه و فضيخته أليمان أيضا.

ص: ٨٧

١-١) -نهج البلاغه.الكلمات القصار:١١٧.

٢-٢) -ينبغى الانتباه إلى أن(أليم)صفه لليوم لا للعذاب.

اشاره

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخْلَاءُ يُؤْمِنُ بِغُضُوبِ عَذَابِ الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩)

التفسير

ماذا تنتظرون غير عذاب الآخرة؟ كان الكلام فى الآيات السابقة يدور حول عبده الأوثان العنودين، و كذلك حول المنحرفين و المشركين فى أمه عيسى عليه السلام، و الآيات مورد البحث تجسد عاقبه أمرهم، يقول تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ؟ لقد طرح هذا السؤال بصورة الاستفهام الإنكارى، و هو فى الحقيقة بيان لواقع حال أمثال، هؤلاء الأفراد، كما نقول فى مقام ذم شخص لا يصغى إلى نصيحه ناصح، و يهوى عوامل فئانه بيده: إنه بانتظار حتفه فقط!

و المراد من «الساعة» فى هذه الآيه- ككثير من آيات القرآن الأخرى- هو يوم القيامة، لأنّ الحوادث تقع سريعه حتى كأنها تحدث فى ساعه واحده.

و جاءت هذه الكلمه-أيضا-بمعنى لحفظه انتهاء الدنيا، و لما لم يكن بين هذين المعنيين كبير فرق، فمن الممكن أن يكون هذا التعبير شاملا لكلا المعنيين.

و على أيه حال، فقد وصف قيام الساعه، الذى يبدأ بانتهاء الدنيا المفاجئ، بوصفين فى الآيه أعلاه:الأوّل: كونه بغته، و الآخر: عدم علم عامه الناس بتاريخ وقوعها و حدودها.

من الممكن أن يحدث حدث فجأه، و لكننا نتوقع حدوثه من قبل، و نكون على استعداد لمواجهة المشاكل التى تنجم عنه، إلا أن سوء الحظ و التعاسه فى أن تقع فاجعه قاسيه و صعبه جدّا، بصوره مفاجئه و نحن غافلون عنها تماما.

هكذا بالضبط حال المجرمين، فهم يؤخذون و هم فى غفله تامه، بحيث تصور الروايات الوارده

عن نبيّ الإسلام الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم ذلك فتقول: «تقوم الساعه و الرجالن يجلبان النعجه، و الرجالن يطويان الثوب، ثمّ قرأ صلى الله عليه و آله و سلّم: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١) .

و أى شىء آلم من أن يكون الإنسان غافلا أمام مثل هذه الحادته التى ليس فيها أى طريق أو منفذ للرجوع و الخلاص، و يغرق فى أمواجهها من دون أن يكون معدّا لمستلزمات النجاه؟ ثمّ رفعت الآيه الغطاء عن حاله الأخلاء الذين يودّ بعضهم بعضا، و يسيرون معا فى طريق المعصيه و الفساد، و الاغترار بزخارف الدنيا، فتقول: الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٢) .

ص: ٨٩

١- ١) - تفسير روح البيان، المجلد ٢٥، صفحه ٨٩.
٢- ٢) - «الأخلاء» جمع (خليل)- من ماده خله- بمعنى الموّده و المحبّه، و أصلها من الخلل- على وزن شرف- أى الفاصله بين جسمين، و لما كانت المحبه و الصداقه كأنها تنفذ فى أعماق القلب و ثناياه، فقد استعملت فيها هذه الكلمه.

إن هذه الآيه التي تصف مشهدا من مشاهد القيامة، تبين بوضوح أنّ المراد من الساعه في الآيه السابقه هو يوم القيامة أيضا، اليوم الذي تنفصم فيه عرى العلاقات الأخويه و الصداقه و الرفقه، إلاّ العلاقات التي قامت لله و في الله و باسمه.

إن تبدل مثل هذه الموده إلى عداوه في ذلك اليوم أمر طبيعي، لأنّ كلا منهم يرى صاحبه أساس تعاسته و سوء عاقبته، فأنت الذي دللتني على هذا الطريق و دعوتني إليه، و أنت الذي زينت الدنيا في نظري و رغبتني فيها و أطمعتني.

نعم، أنت الذي أغرقتني في بحر الغفله و الغرور، و جعلتني جاهلا بمصيري، غافلا عنه.

و هكذا يقول كل واحد منهم لصاحبه مثل هذه المطالب، إلاّ المتقين الذين تبقى روابط أخوتهم، و أواصر مودّتهم خالده، لأنها تدور حول محور القيم و المعايير الخالده، و تتضح نتائجها المشره في عرصه القيامة أكثر، فتمنحها قوه إلى قوتها.

من الطبيعي أنّ الأخلاء يعين بعضهم بعضا في أمور الحياه، فإن كانت خلتهم على أساس الشرّ و الفساد، فهم شركاء في الذنب و الجريمة، و إن كانت على أساس الخير و الصلاح فهم شركاء في الثواب و العطيه، و على هذا فلا مجال للعجب من أن يتبدل الخليل من القسم الأول الى عدوّ، و من القسم الثاني إلى خليل يشتد حبه و مودّته أكثر من ذي قبل.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ألا كل خلّه كانت في الدنيا في غير الله عزّ و جلّ فإنّها تصير عداوه يوم القيامة» (١).

و الآيه التاليه- في الحقيقه- تبيان لأوصاف المتقين و أحوالهم، و بيان لعاقبتهم التي تبعث على الفخر و الاعتزاز.

في ذلك اليوم العصيب يقول لهم الله تعالى: يَا عِبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ .

ص: ٩٠

كم هو جميل هذا النداء؟! نداء مباشر من الله سبحانه من دون واسطه توصله...

نداء يبدأ بأحسن الصفات: يا عباد الله! نداء يزيل قلق الإنسان في يوم ليس فيه إلا القلق و الاضطراب... نداء يطهر القلب من غم الماضي و حزنه، و ينقيه...

نعم، لهذا النداء هذه المزايا الأربعة المذكوره.

و تبيّن آخر آيه- من هذه الآيات- هؤلاء المتقين و العباد المكرمين بصورة أكثر وضوحا، بذكر جملتين أخريين، فتقول: الَّذِينَ آمَنُوا يَا يَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ .

أجل، هؤلاء هم الذين يخاطبون بمثل هذا الخطاب العظيم، و يسبحون في تلك النعم.

إن هاتين الجملتين تعريف يليغ باعتقادات هؤلاء و أعمالهم، فهما تبيان إيمانهم الذي هو أساس عقيدتهم الثابت، و تبيان إسلامهم في تسليمهم لأمر الله سبحانه و تنفيذ أوامره.

ص: ٩١

اشاره

أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَائٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ فِيهَا مَا تَشْتَهُهُ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)

التفسير

اشاره

فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين:

تبيّن هذه الآيات جزاء عباد الله المخلصين، و المؤمنين الصالحين الذين مرّ وصفهم في الآيات السابقة، و تبشرهم بالجنة الخالده مع ذكر سبع نعم من نعمها النفيسه الغاليه.

تقول أولاً: أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ و بذلك فإنّ مضيفهم الحقيقي هو الله تعالى الذي يدعو ضيوفه و يقول لهم: أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ.

ثم أشارت إلى أول نعمه من تلك النعم، فقالت: أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ و من الواضح أنّ كون المؤمنين الرحماء إلى جانب زوجاتهم المؤمنات يمنحهما معا

اللذة و السرور، فإذا كانا شريكين في همّ الدنيا، فإنّهما سيكونان شريكين في سرور الآخرة و نشوتها.

و قد فسّر بعضهم «الأزواج» هنا بالمتساوين في الدرجة و الأصدقاء و الأقارب، فلو صحّ فوجودهم نعمه عظيمه، إلا أنّ ظاهر الآيه هو المعنى الأوّل.

ثمّ تضيف: تُحْبِرُونَ .

«تحبرون» من مادة حبر-وزن فكر-أى الأثر المطلوب، و تطلق أحيانا على الزينه و آثار الفرح التى تظهر على الوجه، و إذا قيل للعلماء أحبار، فلاآثارهم التى تبقى بين المجتمعات البشرية، كما

يقول أمير المؤمنين على عليه السّلام: «العلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقوده، و أمثالهم فى القلوب موجوده» (١).

و تقول فى بيان النعمه الثالثه: يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوَابٍ فَهَمُّ يَضَافُونَ وَ يَخْدُمُونَ بِأَفْضَلِ الْأَوَانِي، وَ اللَّذَّةُ الْأَطْعَمَةُ، فِى مَنْتَهَى الْهُدُوءِ وَ الْإِطْمِئْنَانِ وَ الصَّفَاءِ.

«الصحاف» جمع صحفه، و هى فى الأصل من ماده صحف، أى التوسع، و تعنى هنا الأوانى الكبيره الواسعه و الأ-كواب جمع كوب، و هى أقداح الماء التى لا عروه لها.

و مع أنّ الكلام فى الآيه عن الصحاف الذهبيه، دون طعامهم و شرابهم، إلا أنّ من البديهي أنّ الذين يخدمونهم لا يطوفون عليهم بصحاف خاليه مطلقا.

و تشير فى الرابعه و الخامسه إلى نعمتين أخريين جمعت فيهما كلّ نعم العالم الماديه و المعنويه، فتقول: وَ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلذُّ الْأَعْيُنُ، وَ عَلَى قَوْلِ الْمَرْحُومِ الطَّبْرَسِىِّ فِى مَجْمَعِ الْبَيَانِ: لَوْ أَنَّ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ قَدْ اجْتَمَعَتْ لَوْصَفَ أَنْوَاعِ نَعْمِ الْجَنَّةِ، فَسَوْفَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَضَيِّفُوا شَيْئًا عَلَى مَا جَاءَ فِى هَذِهِ الْجُمْلَةِ أَبَدًا.

و أى تعبير أجمل من هذا التعبير و أجمع منه؟ فهو تعبير بسعه عالم الوجود،

ص: ٩٣

و بسعبه ما يخطر في أذهاننا اليوم و ما لا يخطر، تعبير ليس فوقه تعبير.

و الطريف أن مسأله شهيه النفس قد بينت منفصله عن لذه العين، و هذا الفصل عميق المعنى: فهل هو من قبيل ذكر الخاص بعد العام، من جهه أن للذّه النظر أهميه خاصّه تفوق اللذات الأخرى؟ أم هو من جهه أن جمله: **مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ تَبَيَّنَ لذات الذوق، و الشم و السمع و اللمس،** أما جمله: **تَلَذُّ الْأَعْيُنُ** فهي تبيان للذه العين و النظر.

و يعتقد البعض أن جمله: **مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ** إشاره إلى كلّ اللذات الحسّيه، في حين أن جمله: **تَلَذُّ الْأَعْيُنُ** مبينه للذات الروحيه، و أى لذه في الجنه أسمى من أن ينظر الإنسان بعين القلب إلى جمال الله الذى لا يشبهه جمال، فإن لحظه من تلك اللحظات تفوق كل نعم الجنه الماديه.

و من البديهي أن شوق الحبيب كلما زاد، كانت لذه الإلقاء أعظم.

سؤال:

و هنا يطرح سؤال، و هو: هل أن سعّه عموميه مفهوم هذه الآيه، دليل على أنّهم يطلبون من الله هناك أن يمنحهم أموراً كانت حراماً في الدنيا؟

و الجواب:

إنّ طرح هذا السؤال ناتج عن عدم الالتفات إلى نكته، و هي أنّ المحرمات و القبائح كالغذاء المضر لروح الإنسان، و من المسلم أنّ الروح السالمة الصحيحه لا- تشتهى مثل هذه الغذاء، و تلك التي تميل أحياناً إلى السموم و الأغذيه المضره هي الأرواح المريضة.

إنّنا نرى، بعض المرضى يميلون حتى في حاله المرض إلى تناول التراب أو أشياء أخرى من هذا القبيل، إلا أنّهم بمجرد أن يزول عنهم المرض تزول عنهم

هذه الشهية الكاذبه.

نعم، إنّ أصحاب الجنّة سوف لا يميلون أبداً إلى مثل هذه الأعمال، لأن ميل الروح و انجذابها إليها من خصائص أرواح أصحاب الجحيم المريضه.

إنّ هذا السؤال يشبه ما

ورد في الحديث من أن أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقال:

هل في الجنّة إبل؟ فأني أحبها حباً جماً، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يعلم أن في الجنّة نعماً سينسى معها الأعرابي الإبل، وأجابه بعبارة قصيره فقال: «يا أعرابي، إن أدخلك الله الجنّة أصبت فيها ما اشتتهت نفسك و لذت عينك» (١).

و بتعبير آخر: فهناك العالم الذي ينسجم فيه الإنسان مع الحقائق تماماً.

و على كل حال، لما كانت قيمة النعمه في كونها خالده، فقد طمأنت الآيه أصحاب النعيم من هذه الجهه عند ما ذكرت الصفه السادسه فقالت: وَ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ لئلا يكدر التفكير في زوال هذه النعمه صفو عيشهم و لذتهم، فيقلقوا من المستقبل و ما يخبئه.

و هنا، من أجل أن يتضح أن كل نعم الجنّة هذه تعطى جزاء لا اعتباطاً و عبثاً، تضيف الآيه: وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

و الطريف في الأمر أنّ الآيه تطرح مجازاه الأعمال و كون الجنّة في مقابلها من جهه، و من جهه أخرى تجعلها إرثاً، و هو يستعمل عادة في الموارد التي تصل فيها النعمه إلى الإنسان من دون أن يبذل جهداً أو سعياً في تحصيلها، و هذه إشاره إلى أنّ أعمالكم هي أساس خلاصكم و نجاتكم، إلا أن ما تحصلون عليه إذا ما قورن بأعمالكم فهو كالشيء المجاني المعطى من قبل الله تعالى، و كالهبه حصلتم عليها بفضله.

و يعتبر البعض هذا التعبير إشاره إلى ما قلناه سابقاً من أن لكل إنسان منزلاً في الجنّة و محلاً في الجحيم، فيرث أصحاب الجنّة منازل أصحاب النار، و يرث

ص: ٩٥

أصحاب النار أمكنه أصحاب الجنة! إلا أن التفسير الأول يبدو هو الأنسب.

و الكلام فى النعمه السابعه و الأخيره فى ثمار الجنة التى هى من أفضل نعم الله، فتقول الآية: لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ .

لقد كانت الصحاف و الأكواب بيانا لأنواع الأطمعه و الأشربه فى الواقع، أما الفواكه فلها حسابها الخاص، و قد أشير إليه فى آخر آيه من هذه الآيات.

و الجميل أنها تبين بتعبير (منها) حقيقه أن فاكهه الجنة كثيره جدًا بحيث لا- تتناولون إلا جزءا منها، و على هذا فإنها لا تبنى، و أشجارها مثمره دائما.

و

جاء فى الحديث: «لا ينزع رجل فى الجنة ثمره من ثمرها إلا نبت مثلها مكانها» (١).

كانت هذه بعض نعم الجنة التى تبعث الحياه فى النفوس، و هى بانتظار ذوى الإيمان القوى البين، و الأعمال الصالحه النبيله.

ص: ٩٤

إشاره

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَ زَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)

التفسير

إشاره

نتمنى أن نموت لنستريح من العذاب:

لقد فضّلت هذه الآيات القول في مصير المجرمين و الكافرين في القيامة، ليتّضح الفرق بينه و بين مصير المؤمنين-المطيعين لأمر الله-المشرف السعيد من خلال المقارنه بين المصيرين.

تقول الآية الأولى: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ .

«المجرم» من ماده جرم، و هو في الأصل بمعنى القطع الذي يستعمل في قطع

الثمار من الشجره-أى القطف-و كذلك فى قطع نفس الشجره، إلا أنه استعمل فيما بعد فى القيام بكل عمل سىء، و ربّما كان سبب هذا الاستعمال هو أنّ هذه الأعمال تفصل الإنسان عن ربّه و عن القيم الإنسانيه، و تبعده عنهما.

لكن من المسلم هنا أنّه لا يريد كل المجرمين، و إنّما المراد هم المجرمون الذين اتخذوا سبيل الكفر سبيلا لهم، بقرينه ذكر مسأله الخلود و العذاب الخالد، و بقرينه المقارنه بالمؤمنين الذين مرّ الكلام عنهم فى الآيات السابقه. و يبدو بعيدا ما قاله بعض المفسرين من أنها تشمل كل المجرمين.

و لما كان من الممكن أن يخفف العذاب الدائم بمرور الزمان، و تقل شدته تدريجيا، فإنّ الآيه التاليه تضيف: [□] لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ، و على هذا فإنّ عذاب هؤلاء دائم من ناحيتى الزمان و الشده، لأنّ الفتور يعنى السكون بعد الحده، و اللين بعد الشده، و الضعف بعد القوه كما يقول الراغب فى مفرداته.

«مبلس» من ماده «إبلاس»، و هى فى الأصل الحزن الذى يصيب الإنسان من شده التأثر و الانزعاج، و لما كان هذا الهم و الحزن يدعو الإنسان إلى السكوت، فقد استعملت ماده الإبلاس بمعنى السكوت و الامتناع عن الجواب أيضا. و لما كان الإنسان يئس من خلاص نفسه و نجاته فى الشدائد [□]العصيبه، فقد استعملت هذه ماده فى مورد اليأس أيضا، و لهذا المعنى سمى «إبليس» إبليس، إذ أنّه آيس من رحمه الله.

على آيه حال، فإنّ هاتين الآيتين قد أكدتا على ثلاث مسائل: مسأله الخلود، و عدم تخفيف العذاب، و الحزن و اليأس المطلق. و ما أشد العذاب الذى تمتزج فيه هذه الأمور الثلاثه و تجتمع.

و تنبه الآيه التاليه إلى أنّ هؤلاء هم الذين أرادوا هذا العذاب الأليم، و اشتروه بأعمالهم و بظلمهم لأنفسهم، فتقول: [□] وَ مَا ظَلَمْتَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ .

فكما أن الآيات السابقه قد بينت أن منيع كل تلك النعم اللامتناهيه هى أعمال

المؤمنين المتقين، فإن هذه الآيات تعد أعمال هؤلاء الظالمين سبب هذا العذاب الخالد و منبعه. و أي ظلم أكبر من أن يكذب الإنسان بآيات الله سبحانه، و يضرب جذور سعادته بمعول الكفر و الافتراء: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ . (١)

نعم، إن القرآن يرى ارادة الإنسان و أعماله السبب الأساسي لكل سعادة أو شقاء، لا المسائل الظنية و الوهميه التي اصطنعها البعض لأنفسهم.

ثم تطرقت الآية إلى بيان جانب من مذله هؤلاء و مسكنتهم، فقالت، وَ نَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ فمع أن كل امرئ يهرب من الموت و يريد استمرار الحياه و بقاءها، إلا أنه عند ما تتوالى عليه المصائب أحيانا و يضيق عليه الخناق يتمنى على الله الموت، و إذا كانت هذه الأملية قد تحدث أحيانا لبعض الناس في الدنيا، فإنها تعم جميع المجرمين هناك، فكلهم يتمنى الموت.

و لكن حيث لا فائده من ذلك، فإن مالك النار و خازنها يجيبهم: قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُتُونَ (٢).

و العجيب أن خازن النار يجيبهم بعد ألف سنه - برأى بعض المفسرين - و بكل احتقار و عدم اهتمام، فما أشد إيلام هذا الاحتقار (٣).

قد يقال: كيف يطلب هؤلاء مثل هذا الطلب مع يقينهم أن لا موت هناك؟ غير أن مثل هذا الطلب طبيعي من إنسان أحاطت به المصائب و الآلام، و قطع أمله من كل شيء.

أجل، إن هؤلاء عند ما يرون كل سبل النجاه مغلقه في وجوههم، سيطلقون هذه الصرخه من أعماق قلوبهم، و لكن حق القول عليهم بالعذاب، فلا فائده من

ص: ٩٩

١ - ١) - الصف، الآية ٧.

٢ - ٢) - «ما كُتُونَ» من ماده (مكث)، و هو في الأصل التوقف المقترن بالانتظار، و ربّما كان هذا التعبير من مالك استهزاء، كما تقول - أحيانا - لمن يطلب شيئا لا يستحقه انتظر!

٣ - ٣) - مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث و قال البعض: إن المسافه بين السؤال و الجواب مائه سنه، و آخرون: أربعون سنه، و مهما تكن فإنها دليل على الاحتقار و عدم الاهتمام.

صراخهم، ولا صريخ لهم.

أمّا لماذا لا يطلب هؤلاء الموت من الله مباشرة، بل يقولون لمالك: لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ؟ فلاّتهم في ذلك اليوم محجوبون عن ربهم، كما نقرأ ذلك في الآية (١٥) من سورة المطففين: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ و لذلك يطلبون طلبتهم هذه من ملك العذاب. أو بسبب أن مالكا ملك مقرب عند الله سبحانه.

و تقول الآية الأخرى، و التي هي في الحقيقة عله لخلود هؤلاء في نار جهنم:

لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ

و للمفسرين رأيان مختلفان في أن هذا الكلام هل هو من قبل مالك خازن النار، و أن ضمير الجمع يعود على الملائكة و منهم مالك، أم أنه كلام الله تعالى؟ السياق يوجب أن يكون الكلام كلام مالك، لأنه أتى بعد كلامه السابق، إلا أن محتوى نفس الآية ينسجم مع كونه كلام الله تعالى، و الشاهد الآخر لهذا الكلام الآية (٧١) من سورة الزمر: وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ فَمَا يَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ، لا هم.

و للتعبير «بالحق» معنى واسع يشمل كل الحقائق المصيرية، و إن كانت مسألة التوحيد و المعاد و القرآن تأتي في الدرجة الأولى.

و هذا التعبير يشير في الحقيقة إلى أنكم لم تخالفوا الأنبياء فحسب، و إنما خالفتم الحق في الواقع، و هذه المخالفة هي التي ساقتم إلى العذاب الخالد الأبدى.

و تعكس الآية التالية جانبا من كراهية هؤلاء للحق و اشمئزازهم منه، و كذلك مناصرتهم للباطل و التمسك به، فتقول: أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (١) فقد حاك هؤلاء الأشرار الدسائس و دبروا المؤامرات لإطفاء نور الإسلام، و قتل النبي صلى الله عليه و آله و سلم و لم يتورعوا في إنزال الضربات بالإسلام و المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

ص: ١٠٠

و فى المقابل أردنا أن نجازى هؤلاء فى هذه الحياه الدنيا، و فى الآخره بأشد العذاب.

و يرى بعض المفسرين أن سبب نزول هذه الآيه هو قضيه مؤامره قتل النبى صلى الله عليه و آله و سلم قبل الهجره، و التى أشير إليها فى الآيه (٣٠) من سوره الأنفال: **وَ إِذِ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا... (١)**.

و الظاهر أن هذا من قبيل التطبيق، لا أنه سبب النزول...

و الآيه الأخرى بيان لإحدى علل التآمر، فتقول: **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ؟** فإن الأمر ليس كذلك، إذ نحن نسمع و رسلنا: **بَلَىٰ وَ رُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**.

«السر» هو ما يضمه الإنسان فى قلبه، أو ما يودعه من أسراره لدى إخوانه و أصدقائه، و «النجوى» هى الهمس فى الأذن.

نعم، فإن الله سبحانه لا يسمع نجواهم و همسهم فيما بينهم فحسب، بل يعلم ما يضمرونه فى أنفسهم أيضا، فإن السر و العلن لديه سواء.

و الملائكه المكلفون بتسجيل أعمال البشر و أقوالهم يكتبون هذه الكلمات فى صحائف أعمالهم دائما، و إن كانت الحقائق بدون ذلك واضحه أيضا، ليروا جزاء أعمالهم و أقوالهم و مؤامراتهم فى الدنيا و الآخره.

ص: ١٠١

١-١) -الفخر الرازى، ذيل الآيات مورد البحث.

اشاره

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَمَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرَهُمْ يَحْضُوا
وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥)

التفسير

ذرههم في خوضهم يلعبون:

لما كان البحث في الآيات السابقه-و خاصه في بدايه السوره-عن مشركى العرب و اعتقادهم بأنّ لله ولدا،و أنّهم كانوا يظنون
الملائكه بنات الله،و لما مر البحث في عمده آيات مضت عن المسيح عليه السلام و دعوته إلى الوجدانيه الخالصه و العبوديه لله
وحده،فقد ورد البحث في هذه الآيات في نفى هذه العقائد الفاسده عن طريق آخر.

تقول الآية: قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ لأن إيماني بالله أقوى من إيمانكم جميعا، و معرفتي به أكبر، و عليه فيجب أن أعظم ولده و أطيعه قبلكم.

و بالرغم من أن مضمون هذه الآية بدا معقدا لجماعه من المفسرين، فذكروا توجيهات مختلفه له كان بعضها عجيبا جدا (1) ، لكن لا- يوجد فى الواقع أى تعقيد فى محتوى الآية، و هذا الأسلوب الرائع يستعمل مع الأفراد العنودين المتعصبين، كما لو قال شخص: إن فلانا أعلم من الجميع، فى حين أنه لا يعلم شيئا، فيقال له:

إذا كان هو الأعلم فأنا أول من يتبعه، و ذلك لبيد القائل جهده فى البحث عن دليل يدعم به مدعاه، و عند ما يصطدم بصخره الواقع يستيقظ من غفلته.

غايه ما فى الأمر أن هناك نكتتين يجب الالتفات إليهما:

الأولى: أن العباده لا تعنى العباده فى كل الموارد، فقد تأتى أحيانا بمعنى الطاعه و التعظيم و الاحترام، و هى هنا بهذا المعنى، فعلى فرض أن لله ولدا- و هو فرض محال- فلا- دليل على عبادته، لكنه لما كان- طبقا لهذا الفرض- ابن الله فيجب أن يكون مورد احترام و تقدير و طاعه.

و الأخرى: أن (لو) تستعمل بدل (أن) فى مثل هذه الموارد عاده فى أدب العرب، و هى تدل على كون الشئ مستحيلا، و إنما لم تستعمل فى الآية- مورد البحث- مماشاه و انسجاما فى الكلام مع الطرف المقابل.

و على هذا، فإن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم يقول: لو كان لله ولد لبادرت قبلكم إلى احترامه و تعظيمه، ليطمئن هؤلاء من استحاله أن يكون لله ولد.

بعد هذا الكلام ذكرت الآية دليلا واضحا على نفي هذه الادعاءات، فقالت:

ص: ١٠٣

١-١) - فمثلا: إن بعض المفسرين قد فسروا (إن) هنا بمعنى النفي، و (أنا أول العابدين) بمعنى أول من عبد الله، و على هذا التفسير فإن معنى الآية يصبح: لا- ولد لله أبدا، و أنا أول من عبد لله! و فسر البعض الآخر (العابدين) بالذى يأبى العباده، و على هذا يكون المعنى: إن كان لله ولد فإنى سوف لا أعبد مثل هذا الرب أبدا، لأنه بأبوته لا يمكن أن يكون ربا. و واضح أن مثل هذه التفاسير لا تنسجم مع ظاهر الآية بأى وجه من الوجوه.

سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ

فإنَّ من كان مالكا للسموات والأرض ومدبرا لها، وربا للعرش العظيم، لا يحتاج إلى الولد، فهو الوجود اللامتناهي، والمحيط بكل عالم الوجود، ومربى كل عالم الخلق، بل يحتاج الولد من يموت، ولا يستمر وجوده إلا عن طريق الولد.

الولد لازم لمن يحتاج العون والأنس في وقت العجز والوحده.

وأخيرا فإن وجود الولد دليل على الجسمانيه والانحصار في حيز الزمان والمكان.

إنَّ ربَّ العرش، والسماء والأرض، والمنزّه عن كل هذه الأمور، غنى عن الولد.

والتعبير بربِّ العرش بعد ربِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ من قبيل ذكر العام بعد الخاص، لأنَّ العرش - كما قلنا سابقا - يقال لمجموع عالم الوجود، والذي هو عرش حكومه الله عزَّ وجلَّ.

ويحتمل أيضا أن يكون العرش إشارة إلى عالم ما وراء الطبيعة، فيكون في مقابل السموات والأرض التي تشير إلى عالم المادة.

لمزيد الاطلاع على معنى العرش، راجع التفسير الأمثل ذيل الآية (٢٥٥) من سورة البقره، وأوسع منه ما جاء في ذيل الآية (٧) من سورة المؤمن.

ثمّ تضيف الآية الأخرى كاحتقار لهؤلاء المعاندين و تهديد لهم، وهو بحد ذاته أسلوب آخر من أساليب البحث مع أمثال هؤلاء الأفراد فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ليجنوا عاقبه أعمالهم، وليذوقوا وبال أمرهم.

من الواضح أن المراد من هذا اليوم الموعود هو يوم القيامة، وما احتمله البعض من أن المراد هو لحظه الموت فيبدوا بعيدا جدا، لأنَّ الجزاء على الأعمال يكون في يوم القيامة لا في لحظه الموت.

إنَّه نفس اليوم الموعود الذي أقسم الله تعالى به في الآية (٢) من سورة البروج، حيث تقول الآية: وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ .

و تواصل الآيتان التاليتان البحث حول مسأله التوحيد، و هما تشكلان نتيجه للآيات السابقه من جهه، و من جهه أخرى دليلا لتكاملتها و إثباتها. و فيهما سبع من صفات الله سبحانه، و لجمعها أثر في تحكيم و تقويه مباني التوحيد.

فتقف الآيه الأولى بوجه المشركين الذين كانوا يعتقدون بانفصال إله السماء عن إله الأرض، بل ابتدعوا للبحر إلهاء، و للصحراء إلهاء و آخر للحرب، و رابعا للصلح و السلم، و آلهه مختلفه و متعدده بتعدد الموجودات، فتقول: وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ لَّأَنَّ كونه إلهاء في السماء و الأرض يثبت كونه ربيا و معبودا فيهما- و قد مرّ ذلك في الآيات السابقه- لأنّ المعبود الحقيقي هو ربّ العالم و مدبره، لا الأرباب المختلفه، و لا الملائكه، و لا المسيح و لا الأصنام، فكلها ليست أهلا لأن تكون أربابا و آلهه، إذ ليس لها مقام الربوبيه، فكلها مخلوقه في أنفسها و مربوبه، و تتمتع بأرزاق الله، و كلها تعبده سبحانه.

و تقول في الصفتين الثانيه و الثالثه وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ فكل أعماله تقوم على أساس الدقه و الحساب و النظم، و هو عليم بكل شيء و محيط به، و بذلك فإنّه يعلم أعمال العباد جيدا، و يجازيهم عليها طبقا لحكمته.

و تتحدث الآيه الثانيه في الصفتين الرابعه و الخامسه، بركات و جوده الدائمه الوفيه، و عن امتلاكه السماء و الأرض و ما بينهما، فتقول: تَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا .

«تبارك» من ماده بركه، و تعنى امتلاك النعمه الوفيه، أو الثبات و البقاء، أو كليهما، و كلاهما يصدقان في شأن الله تعالى، فإنّ وجوده باق و خالد، و هو مصدر النعم الكثيره.

و ليس للخير الكثير كمال المعنى إذا لم يكن ثابتا و باقيا، فإنّ الخيرات مهما كانت كثيره، فهي تعد قليله إذا كانت مؤقتة و سريعه الزوال.

و تضيف في الصفتين السادسة و السابعة: وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

و على هذا فإذا أردتم الخير و البركة فاطلبوها منه لا من الأصنام، فإن مصائركم إليه يوم القيامة، و هو المرجع الوحيد لكم، و بيده كل شيء، و ليس للأصنام و الآلهة أى دور فى هذه الأمور.

ملاحظات

١- لقد تكررت (السموات و الأرض) فى هذه الآيات ثلاث مرات: مرّة لبيان كون الله ربّا و مدبرا لهما، و أخرى فى كونه إلها فيهما، و ثالثه فى كونه مالكا و حاكما، و هذه الأمور الثلاثة مترابطة ببعضها، و هى فى الحقيقة عله و معلول لبعضها البعض، فهو مالك، و لذلك فهو ربّ، و هو فى النتيجة إله. و وصفه بالحكيم و العليم إكمال لهذه المعانى.

٢- يستفاد من بعض الروايات الإسلاميه أن تعبير الآيات المذكوره ب وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ كَانَ قد أصبح وسيلة لبعض الزنادقه و المشركين لإثبات مدعاهم، و كانوا يفسرون الآية -حسب سفسطتهم- بأن فى السماء إلها، و فى الأرض إلها آخر غيره، فى حين أنّ الآية تقول بعكس ذلك، فهى تقول: إنّ الإله الذى يعبد فى السماء و فى الأرض، أى إنّ تعالى هو المعبود فى كل مكان.

و مع ذلك، فإنّ الزنادقه عند ما كانوا يطرحون هذا المطلب كسؤال أمام الأئمة المعصومين، فإنّهم عليهم السّلام كانوا يجيبونهم على طريقه النقض و الحل:

فمن جمله ذلك ما

ورد فى الكافى عن هشام بن الحكم، أنّه قال: قال أبو شاعر الديصانى (١): إن فى القرآن آيه هى قولنا، قلت: ما هى؟ قال:

ص: ١٠٦

١- ١) - كان أبو شاعر الديصانى أحد علماء فرقه الديصانيه، الذين كانوا يعتقدون بعباده إلهين، و يقولون بإله النور و إله الظلمه. (لغت نامه دهخدا ماده ديصان).

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُهُ

فلم أدر بما أجيبه.

فحجبت فخبرت أبا عبد الله عليه السلام، فقال: «هذا كلام زنديق خبيث، إذا رجعت إليه فقل له: ما اسمك بالكوفة؟ فإنه يقول: فلان، فقل له: ما اسمك في البصرة؟ فإنه يقول: فلان، فقل: كذلك الله ربنا، في السماء إله، و في الأرض إله، و في البحار إله، و في القفار إله، و في كل مكان إله».

قال: فقدمت فأتيت أبا شاعر فأخبرته، فقال: هذه نقلت من الحجاز (١).

و ذكر المفسر الكبير العلامة الطبرسي لتكرار لفظ الإله، في هذه الآيه علتين:

إحدهما: التأكيد على كون الله تعالى إلهها في كل مكان.

و الأخرى: أنه إشارة إلى أن ملائكة السماء تعبده، و البشر في الأرض يعبدونه أيضا، و على هذا فإنه إله الملائكة و بنى آدم و كل الموجودات في السماوات و الأرض.

ص: ١٠٧

١-١) - أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب التوحيد، باب الحركة و الانتقال حديث ١٠.

اشاره

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَ لَيْسَ سِوَالْتِهِمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَآتَى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)

التفسير

اشاره

من يملك الشفاعة؟

لا- زال الحديث في هذه الآيات- وهي آخر آيات سورة الزخرف- حول إبطال عقيدة الشرك و تفنيدها، و عاقبه المشركين المره، و هي توضح بطلان عقيدتهم بدلائل أخرى.

تقول الآية الأولى: وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ فَلَا تَقَامُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، و لم يأذن الله الحكيم بها لهذه الأحجار و الأخشاب التي لا قيمة لها، و الفاقده للعقل و الشعور و الإدراك مطلقا.

لكن لما كانت الملائكة و أمثالها من بين آلهه هؤلاء، فقد استثنوا في ذيل الآية،

فقلت: إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لُوْحْدَانِيهِ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ فِي جَمِيعِ الْمَرَا حِلِّ، وَ أَدْعَنُوا لَهَا. نَعَمْ، هُوَ لَاءَ هُمَ الَّذِينَ يَشْفَعُونَ بِإِذْنِ اللّٰهِ تَعَالَى.

لكن ليس الأمر كما تتوهمون أنّهم يشفعون لأى كان، حتى و إن كان وثنيا و مشركا و منحرفا عن طريق التوحيد و ضالا عن الصراط المستقيم، بل وَ هُمْ يَعْلَمُونَ جيدا لمن يشفعون.

و على هذا فإنّهم يقطعون الأمل من شفاعه الملائكة لسببين:

الأوّل: أنّها كانت بنفسها تقرّ بوحدانيه اللّٰه و تشهد بها، و لذلك حصلت على إذن الشفاعه.

و الآخر: أنّهم يعرفون جيدا من له أهليه الشفاعه و مستحقها (1).

و اعتبر البعض جملة وَ هُمْ يَعْلَمُونَ مكمله لجملة إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ على هذا يصبح معنى الآية: إنّ الذين يشهدون بالتوحيد و يعلمون حقيقته هم الذين يملكون حق الشفاعه فقط. إِلَّا أَنْ التَّفْسِيرِ الأوّل هو الأنسب.

و على أية حال، فإن هذه الآية تبيّن الشرط الأساس الذى ينبغى توفره فى الشفاعه عند اللّٰه تعالى، و هم الشاهدون بالحق، و العالمون به على الدوام و المحيطون بروح التوحيد جيدا، و هم كذلك عالمون بأحوال المشفوع لهم و أوضاعهم.

ثمّ تدين المشركين من أفواههم، و تجيبهم جوابا قاطعا، فتقول: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ .

لقد قلنا مرارا إن من النادر أن يوجد من بين مشركى العرب و غيرهم من يعتقد أن الأصنام هى الخالقه لهم، فإنّ الأعم الأغلب منهم يعتبرون الأصنام وسائط

ص: ١٠٩

١ - ١) - طبقا لهذا التفسير فإن استثناء (إلا من شهد بالحق) استثناء متصل، لكنه يصبح منقطعا فيما إذا كان المراد من جملة (الذين يدعون من دونه الشفاعه) خصوص الأصنام. لكن يبدو أن المعنى الأوّل هو الأنسب، خاصه بملاحظه (الذين) و هى للعاقل، أو التغليب من العاقل و غير العاقل.

و شفعاء يقربونهم إلى الله زلفى، أو أنها دلائل و علامات لأولياء الله المقدسين، ثم يضمنون إليها ذريعه أن معبودنا يجب أن يكون موجودا ملموسا و محسوسا لأنس به، فيعبدونها، و لذا فإنهم متى ما سئلوا عن خالقهم فيقولون: الله.

و قد ذكر القرآن مرارا بحقيقه أن العباده لا- تليق إلا- بخالق هذا الكون و مدبره، و إذا كنتم تعلمون أن الله هو الخالق و المدبر، فلم يبق لكم إلا أن تقصروا عبادتكم عليه، و تخصوه بها.

و لذلك فإن الآيه تقول في نهايتها فَأَنى يُؤْفَكُونَ و هو لوم و توبيخ لهم..

فإنكم إذا علمتم حقيقه الأمر فلم تعرضون عن الله و تعبدون غيره؟ و تحدثت الآيه التاليه عن شكوى النبي صلى الله عليه و آله و سلم إلى الله سبحانه من هؤلاء القوم المتعصين الذين لا منطق لديهم، فقالت: وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ .

إنه يقول: لقد تحدثت مع هؤلاء، القوم ليلا- و نهارا، فأتيتهم من طريق التبشير و الإنذار، و ذكرت لهم قصص الأقوام الماضين المؤلمه، و حذرتهم من عذابك، و رغبتهم في رحمتك إن هم رجعوا عن طريق الضلال، و خلاصه القول: إنى أبلغتهم الأمر ما استطعت إلى ذلك سبيلا، و قلت كل ما ينبغي أن يقال، إلا أن حراره كلامى لم تؤثر فى بروده قلوبهم، فهى كالحجاره أو أشد قسوه، فلم يؤمنوا (1) .

و يأمر الله سبحانه نبيه فى آخر آيه أن فَاصِّفْ عَنَّهُمْ و لا يكن إعراضك عنهم إعراض افتراق و غضب و أذى و جرح للمشاعر، بل أعرض عنهم وَقُلْ سَلَامٌ لا سلام تحيه و محبه، بل سلام وداع و افتراق.

ص: ١١٠

١ - ١) - هنا اختلاف كبير بين المفسرين فى أن (قيله) معطوفه على ماذا؟ فالبعض يعتقد أنها معطوفه على الساعه التى مرت قبل ثلاث آيات، و على هذا يصبح معنى الجملة: إن الله عنده علم الساعه، و شكوى النبي من الكفار. و البعض الآخر اعتبرها معطوفه على (علم الساعه) بشرط أن تكون (علم) مقدره قبل (قيله) كمضاف محذوف. و هو لا- يختلف كثيرا عن التفسير الأول. و اعتبر جماعه الواو و او القسم. و هناك احتمالات أخرى لو ذكرناها هنا لطلال بنا المقام. و هنا احتمال آخر لعله أفضل من كل ما قيل فى هذا الباب، و هو أنها معطوفه على محذوف جملة: (انى يؤفكون)، و تقدير ذلك: (أنى يؤفكون عن عبادته و عن قيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون).

إن هذا السلام يشبه ذلك السلام الذى ورد فى الآية (٦٣) من سورة الفرقان:

وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا سَلَامٌ هُوَ عَلَامَةُ اللَّامِبَالَاهِ بِهِمْ مَمْتَرَجُهُ بِالْعَلْوِّ وَالْعَزِهِ.

و مع ذلك فإنه تعالى يهددهم و يحذرهم بجمله عميقه المعنى، لئلا يتصوروا أن الله تاركهم بعد هذا الفراق و الوداع، فيقول: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

نعم، سوف يعلمون أى نار محرقه قد أوقدوها لأنفسهم بعنادهم، و أى عذاب أليم قد هياؤا أسبابه ليطلبهم فيما بعد؟ و قد ذكر البعض سبب نزول الآية وَ لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ... و هو: أن «النضر بن الحارث» و نفر من قريش قالوا: إن كان ما يقوله محمد حقا، فلا حاجة لنا بشاعته، فإننا نحب الملائكة و هم أولياؤنا، و هم أحق بالشفاعه، فنزلت هذه الآية و نبهتهم على أن الملائكة لا تشفع يوم القيامة إلا لمن يشهدون بالحق، أى للمؤمنين.

و هنا تنتهى سورة الزخرف.

اللهم، قربنا منك و من أولياؤك يوما بعد يوم، و زدنا حبا لك و لهم حتى تنالنا شفاعتهم.

اللهم، احفظنا من كل شرك خفى و جلى.

إلهنا، قد وصفت يوم القيامة فى كتابك بصفات مهوله و مفزعه و تجعل الناس سكارى و ما هم بسكارى..

اللهم فعاملنا بفضلك فى ذلك اليوم و لا تعاملنا بعدلك، يا أرحم الراحمين.

آمين رب العالمين.

نهايه سورة الزخرف ***

سوره الدّخان

اشاره

مكيه و عدد آياتها تسع و خمسون آيه

ص: ۱۱۳

محتوى سوره الدخان:

هذه السوره هي خامس الحواميم السبعه، و لما كانت من السوره المكيه، فإنها تتضمن الأبحاث العامه لتلك السور، أى البحث حول المبدأ و المعاد و القرآن بصوره تامه. و قد نسجت آياتها و نظمت فى هذا الباب تنظيمًا تنزل معه ضرباتها الحاسمه المفزعه على القلوب الغافله الذاهله عن ربها، و تدعوها إلى الإيمان و التقوى، و الحق و العداله.

و يمكن تلخيص فصول هذه السوره فى سبعة:

- ١- بدايه السوره بالحروف المتقطعه، ثم بيان عظمه القرآن، مع تبيان نزوله فى ليله القدر أول مره.
- ٢- و تتحدث فى الفصل الثانى عن التوحيد و وحدانيه الله سبحانه، و بيان بعض مظاهر عظمته فى عالم الوجود.
- ٣- و يتحدث قسم مهم منها عن مصير الكفار و عاقبتهم، و أنواع العقوبات الأليمه التى نزلت و ستنزل بهم.
- ٤- و تتحدث السوره فى فصل آخر عن قصه موسى عليه السلام و بنى إسرائيل مع قوم فرعون، و هزيمة قوم فرعون و هلاكهم و فنائهم، من أجل إيقاظ هؤلاء الغافلين.
- ٥- و تشكل مسأله القيامة و أنواع العذاب الأليم الذى سينال أصحاب الجحيم، و المثوبات العظيمه التى تسر الروح، و التى سينالها المتقون، فصلا آخر من آيات هذه السوره.

٦- من المواضيع الأخرى التي طرحت في هذه السورة موضوع الغايه من الخلق، و عدم كون خلق السماء و الأرض عبثا.

٧- وأخيرا تنتهى السوره ببيان عظمه القرآن الكريم كما بدأت بذلك.

و لما كان الكلام فى الآيه العاشره من هذه السوره عن «الدخان المبين»، فقد سميت بسوره الدخان.

فضل تلاوه هذه السوره

جاء فى حديث عن نبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله و سلّم: «من قرأ سوره الدخان ليله الجمعة و يوم الجمعة بنى الله له بيتا فى الجنّه» (١) و

روى عنه صلى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سوره الدخان فى ليله أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» (٢).

و

فى حديث آخر عن أبى حمزه الثمالى، عن الإمام الباقر عليه السّلام: «من قرأ سوره الدخان فى فرائضه و نوافله بعثه الله من الآمنين يوم القيامة، و أظله تحت ظل عرشه، و حاسبه حسابا يسيرا، و أعطى كتابه بيمينه» (٣).

ص: ١١٦

١-١) -مجمع البيان، المجلد ٩، بدايه سوره الدخان.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -المصدر السابق.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم (١) وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤)
أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مَوْقِنِينَ
(٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ الْجِبَالِ كُنْ لِلْأُولَئِينَ (٨)

التفسير

اشاره

نزول القرآن في الليله المباركه:

نلاحظ في بدايه هذه السوره-و كالمسور الأربعة السابقه،و السورتين الآتيتين، و التي يكون مجموعها سبع سور هي سور الحواميم-الحروف المقطعه(حم)،و قد بحثنا كثيرا فيما مضى حول الحروف المقطعه في القرآن بصوره عامه (١)، و بحثت حروف(حم)خاصه في بدايه أول سور من الحواميم(سوره المؤمن)و في بدايه سور فصولت.

ص: ١١٧

١-١) -راجع تفسير بدايه سور البقره،بدايه سور آل عمران،بدايه سور الأعراف.

و جدير بالانتباه أن بعض المفسرين فسّر (حم) هنا بالقسم، فيصبح في الآيه قسمان متتابعان: قسم بحروف الهجاء ك (حم)، و قسم بهذا الكتاب المقدس الذى يكون من هذه الحروف.

و كما قلنا، فإنّ الآيه الثانيه أقسمت بالقرآن الكريم، حيث تقول: وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ذلك الكتاب الواضح محتواه، و البيئه معارفه... الحيه تعليماته، البناء أحكامه، الدقيقه برامجه و خططه، و هو الكتاب الذى يدل بنفسه على كونه حقًا، كما أن بزوغ الشمس دليل على الشمس. (1)

لكن لنر الآن ما هو القصد من وراء ذكر هذا القسم؟ الآيه التاليه توضح هذا الأمر، فتقول: [□] [□] إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ .

«المبارك» من ماده بركه، و هى الربح و المنفعه و الخلود و الدوام، فأى ليله هذه التى تكون مبدأ الخيرات، و منبع الإحسان و العطايا الدائمه؟ لقد فسّر ها أغلب المفسرين بليه القدر، تلك الليله العظيمه التى تغيرت فيها مقدرات البشر بنزول القرآن الكريم... تلك الليله التى تقدر فيها مصائر الخلائق...

نعم، لقد نزل القرآن على قلب النبى المطهر فى ليله حاسمه مصيريه.

و تجدر الإشاره إلى أنّ ظاهر الآيه هو أنّ القرآن كله قد نزل فى ليله القدر.

أمّا ما هو الهدف الأساس من نزوله؟ نهايه الآيه أشارت إليه إذ قالت: [□] [□] إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فَإِنْ سَتْنَا الدَّائِمَهُ هِيَ إِرْسَالِ الرِّسْلِ لِإِنذَارِ الظَّالِمِينَ و المشركين، و كان إِرْسَالِ نَبِيِّ الإِسْلَامِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بهذا الكتاب المبين آخر حلقه من هذه السلسله المباركه المقدسه.

صحيح أنّ الأنبياء عليهم السّلام يندرون من جانب، و يبشرون من جانب آخر، لكن لما كان أساس دعوتهم هو مواجهه الظالمين و المجرمين و محاربتهم، كان أغلب

ص: ١١٨

١-١) - سنبحث حول فلسفه الأيمان و القسم فى القرآن، و الهدف الأساسى منها، فى تفسير الجزء الأخير من القرآن الكريم، فى ذيل الآيات الكثيره التى يلاحظ القسم فيها مكررا. إن شاء الله تعالى.

نزول القرآن الدفعي و التدريجي:

١-نحن نعلم أن القرآن الكريم نزل على مدى ثلاث و عشرين سنه-و هي فتره نبوة النبي صلى الله عليه و آله و سلم إضافة إلى أن لمحتوى القرآن ارتباطا و علاقه بالحوادث المختلفه التي وقعت في حياه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و المسلمين طوال هذه ال (٢٣)سنه، بحيث أنها إذا فصلت عن القرآن الكريم فسيكون غير مفهوم، و إذا كان الحال كذلك فكيف نزل القرآن الكريم كاملا في ليله القدر؟ و في معرض الإجابة على هذا السؤال، ذهب البعض هذا المعنى بدياه نزول القرآن، و بناء على هذا فلا مانع من أن تكون بدياه نزوله في ليله القدر، و ينزل الباقي خلال (٢٣)سنه.

غير أن هذا التفسير-و كما قلنا-لا ينسجم مع ظاهر الآيه مورد البحث، و مع آيات أخرى في القرآن المجيد.

و للإجابة على هذا السؤال يجب الانتباه إلى أننا نقرأ في هذا الآيه **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ مِنْ جِهَةٍ**، و من جهة أخرى جاء في الآيه (١٨٥) من سوره البقره **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** و من جهة ثالثة نقرأ في سوره القدر **إِذَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ الْقَدْرِ** فيستفاد جيدا من مجموع هذه الآيات أن الليله المباركه في هذه الآيه إشاره إلى ليله القدر التي هي من ليالى شهر رمضان المبارك.

و إضافة إلى ما مر، فإنه يستفاد من آيات عديده أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم كان عالما بالقرآن قبل نزوله التدريجي، كآيه (١١٤) من سوره طه **وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ**.

و جاء في الآيه (٦) من سوره القيامه **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**.

من مجموع هذه الآيات يمكن الاستنتاج أنه كان للقرآن نزولان:

الأول: نزوله دفعه واحده، حيث نزل من الله سبحانه على قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الطاهر في ليله القدر من شهر رمضان.

و الثاني: النزول التدريجي، حيث نزل على مدى (٢٣) سنة بحسب الظروف و الحوادث و الاحتياجات.

و الشاهد الآخر لهذا الكلام أن بعض الروايات قد عبرت بالإنزال، و بعضها الآخر بالنزول، و الذى يفهم من متون اللغه أن التنزيل يستعمل فى الموارد التى ينزل فيها الشئ تدريجيا و متفرقا، أما الإنزال فله معنى واسع يشمل النزول التدريجى و النزول دفعه واحده. (١)

و الطريف أن كل الآيات المذكوره التى تتحدث عن نزول القرآن فى ليله القدر و شهر رمضان قد عبرت بالإنزال، و هو يتوافق مع النزول دفعه واحده، فى حين عبر بالتنزيل فقط فى الموارد التى دار الكلام فيها حول النزول التدريجى للقرآن.

لكن، كيف كان هذا النزول جملة على قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ هل كان على هيئة هذا القرآن الذى بين أيدينا بآياته و سوره المختلفه، أم أن مفاهيمه و حقائقه قد نزلت بصوره مختصره جامع؟ ليس الأمر واضحا بدقه، بل القدر المتيقن الذى نفهمه من القرائن - أعلاه - أن هذا القرآن قد نزل دفعه واحده فى ليله واحده على قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مره، و نزل على مدى (٢٣) سنة بصوره تدريجيه مره أخرى.

و الشاهد الآخر لهذا الكلام، أن للتعبير بالقرآن - فى الآيه أعلاه - ظهورا فى مجموع القرآن.

صحيح أن كلمه القرآن تطلق على كل القرآن و جزئه، لكن لا يمكن إنكار أن ظاهر هذه الكلمه هو مجموع القرآن عند عدم وجود قرينه أخرى معها. و التى فسر بها البعض هذه الآيه بأنها بدايه نزول القرآن، و قالوا: إن أول آيات القرآن نزلت

ص: ١٢٠

١-١) - تراجع مفردات الراغب، ماده نزل.

فى شهر رمضان و ليله القدر، الأمر الذى يخالف ظاهر الآيات.

و أضعف منه قول القائل: لما كانت سورة الحمد-التي هى خلاصه لمجموع القرآن-قد نزلت فى ليله القدر، فقد عبر ب **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ** فى لَيْلِهِ الْقَدْرِ .

إن كل هذه الاحتمالات مخالفه لظاهر الآيات، لأن ظاهرها أن كل القرآن قد نزل فى ليله القدر.

الشيء الوحيد الذى يبقى هنا هو ما نقرؤه فى روايات عديده

رويت فى تفسير على بن إبراهيم. عن الإمام الباقر و الصادق و أبى الحسن موسى بن جعفر عليهم السلام أنهم قالوا فى تفسير **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ** فى لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ :«هى ليله القدر، أنزل الله عزّ و جلّ القرآن فيها إلى البيت المعمور جمله واحده، ثم نزل من البيت المعمور على رسول الله فى طول عشرين سنه». (١)

(التفتوا جيدا إلى أن الروايه قد عبرت عن النزول جمله واحد ب(أنزل)و عن النزول التدريجى ب(نزل).

و أين هو «البيت المعمور»؟ صرحت روايات عديده-سيأتى تفصيلها فى ذيل الآيه (٤) من سورة الطور، إن شاء الله تعالى-بأنه بيت فى السماوات بمحاذاه الكعبه، و هو محل عباده الملائكه، و يحج إليه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامه.

لكن فى أى سماء هو؟ الروايات مختلفه، ففى كثير منها أنه فى السماء الرابعه، و فى بعضها أنه فى السماء الأولى-السماء الدنيا-و جاء فى بعضها أنه فى السماء السابعه.

و نطالع

فى الحديث الذى نقله العلامة الطبرسى فى مجمع البيان فى تفسير سورة الطور عن على عليه السلام: «هو البيت فى السماء الرابعه بحيال الكعبه، تعمره

ص: ١٢١

١- ١) -تفسير نور الثقلين، المجلد ٤، ص ٦٢٠. و قد ذكر هذا الحديث أن القرآن نزل تدريجيا فى عشرين سنه، فى حين أننا نعلم فتره النبوه التى نزل فيها القرآن كانت (٢٣) سنه، و لعله هذا القول اشتباه من الراوى، أو غلط فى نسخ الحديث.

الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة، ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه أبدا» (١).

و على أية حال، فإنّ نزول القرآن جملة واحده إلى البيت المعمور في ليله القدر لا ينافى علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم به مطلقا، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم لا سبيل له إلى اللوح المحفوظ الذي هو مكنون علم الله، إلا أنه عالم بالعوالم الأخرى.

و بتعبير آخر، فإن ما استفدناه و فهمناه من الآيات السابقة، بأن القرآن نزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرتين: نزولا دفعا في ليله القدر، و نزولا تدريجيا طوال (٢٣) عاما، لا ينافى الحديث المذكور الذي يقول: إنه نزل في ليله القدر إلى البيت المعمور، لأن قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مطلع على البيت المعمور.

و قد اتضح من خلال ما قيل في الجواب عن هذا السؤال، الإجابة عن سؤال آخر يقول: إذا كان القرآن نزل في ليله القدر، فكيف كانت بدايه بعثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في السابع و العشرين من شهر رجب طبقا للروايات المشهوره؟ حيث كان لنزوله في رمضان صفة الجمع و الكليه، في حين أن أول آياته نزلت في (٢٧) رجب، كبدايه للنزول التدريجي، و بذلك فلا مشكله من هذه الناحيه.

و الآيه التاليه وصف و توضيح لليله القدر، حيث تقول: **فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**.

التعبير ب(يفرق) إشاره إلى أن كل الأمور و المسائل المصيريه تقدر في تلك الليله، و التعبير ب«الحكيم» بيان لاستحكام هذا التقدير، و عدم تغيره، و كونه حكيمًا. غايه ما في الباب أن هذه الصفة تذكر عادة لله سبحانه، و وصف الأمور الأخرى بها من باب التأكيد. (٢).

ص: ١٢٢

١ - ١) - مجمع البيان، المجلد ٩، صفحه ١٦٣. و قد جمع العلامة المجلسي في بحار الأنوار، المجلد ٥٨، صفحه ٥٥ و ما بعدها، الروايات المتعلقة بالبيت المعمور.

٢ - ٢) - ذكر في تفسير الميزان تفسير آخر لهذه الآيه، خلاصته، إن الأمور هذا العالم مرحلتين: مرحله الإجمال و الإبهام، و التي عبر عنها ب(حكيم)، و مرحله التفصيل و الكثره، و التي عبر عنها ب(يفرق) المجلد ١٨، صفحه ١٤٠.

و هذا البيان ينسجم مع الروايات الكثيره التى تقول: إن مقدرات كل بنى آدم لمدّه سنه تقدر فى ليله القدر، و كذلك تفرق الأرزاق و الآجال و الأمور الأخرى فى تلك الليله.

و سيأتى تفصيل الكلام فى هذا البحث و المسائل الأخرى التى ترتبط بليله القدر، و عدم التناقض بين هذا التقدير، و بين حريه البشر، فى تفسير سوره القدر، إن شاء الله تعالى.

و تقول الآيه الأخرى لتأكيد أنّ القرآن منزل من قبل الله تعالى: **أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . (١)**

و لأجل تبيان العله الأساسيه لنزول القرآن و إرسال النبى صلى الله عليه و آله و سلمّ و كون المقدرات فى ليله القدر، تضيف الآيه: **رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ . (٢)**

نعم، فإن رحمته التى لا تحدّ توجب أن لا يترك العباد و شأنهم، بل يجب أن ترسل إليهم التعليمات اللازمه لترشدتهم فى سيرهم إلى الله عبر ذلك المسير التكاملى الملىء بالالتواءات و التعرجات، فإن كل عالم الوجود يصدر عن رحمته الواسعه و ينبع منها، و البشر أكثر تنعما بهذه الرحمه من كل الموجودات.

و تذكر نهايه هذه الآيه- و الآيات التالیه- سبع صفات لله سبحانه، و كلها تبين توحيده و وحدانيته، فتقول: **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** فهو يسمع طلبات العباد، و هو عليم بأسرار قلوبهم.

ثم تقول، مبينه للصفه الثالثه **رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا** إن كُنتُم مَّوْقِنِينَ

ص: ١٢٣

١ - ١) - هناك احتمالات مختلفه فى محل جملة (أمرًا من عندنا..) من الإعراب، و إلى أى من بحوث الآيات السابقه تنظر؟ و أنسب هذه الاحتمالات أن تكون جملة (أمرًا من عندنا) حالاً لضمير مفعول (إنا أنزلناه)، أى: إنا أرسلنا القرآن، و كان ذلك أمرًا من عندنا. و هذا الاحتمال ينسجم فى هذه الصوره تماما من جملة (إنا كنا مرسلين) و التى تتحدث عن إرسال النبى صلى الله عليه و آله و سلم. و يحتمل أيضا أن يكون توضيحا ب (كل أمر حكيم) و نصبها على الاختصاص، فيكون المعنى: أعنى بهذا الأمر أمرًا حاصلًا من عندنا.

٢ - ٢) - (رحمه من ربك) مفعول لأجله ب (إنا أنزلناه)، أو ل (يفرق كل أمر حكيم)، أو لكليهما.

(١)

(٢)

لَمَّا كَانَ كَثِيرًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُعْتَقِدُونَ بِوُجُودِ آلِهَةٍ وَأَرْبَابٍ عِدِيدِينَ، وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ لِكُلِّ مَوْجُودٍ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ إِلَهًا. وَلَمَّا كَانَ التَّعْبِيرُ بِ(رَبِّكَ) فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ يُمْكِنُ أَنْ يُوْهِمَ أَنَّ رَبَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ غَيْرُ رَبِّ الْمَوْجُودَاتِ الْأُخْرَى، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَبْطَلَتْ كُلَّ هَذِهِ الْأَوْهَامِ بِجَمَلِهِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَأُثْبِتَتْ أَنَّ رَبَّ كُلِّ مَوْجُودٍ الْعَالَمِ وَاحِدًا.

وَجَمَلُهُ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ التِّي وَرَدَتْ هُنَا بِصِيغَةِ الْجَمَلِ الشَّرْطِيَّةِ، تَبَعِثْ عَلَى التَّسْأُولِ: هَلْ أَنْ كُونَ رَبَّ الْعَالَمِ رَبًّا، مَشْرُوطٌ بِمِثْلِ هَذَا الشَّرْطِ؟ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْجَمَلِ هُوَ بَيَانُ أَحَدٍ مَعْنِيَيْنِ أَوْ كِلَيْهِمَا:

الأول: إذا كنتم طلاب يقين، فإنَّ السبيل إلى ذلك هو أن تتفكروا في ربوبيه الله المطلقه.

وَالْآخِرُ: إذا كنتم من أهل اليقين فإن أفضل مورد لتحصيل هذا اليقين هو أن تتفكروا في آثار رحمة الله، فإنكم إذا نظرتم إلى الآثار في كل عالم الوجود دلتكم على أن الله رب كل شيء، وإذا فلقتم قلب كل ذرّه رأيتم فيه دلاله على هذه الربوبيه، ثم إذا لم توقنوا بعد هذا بكونه تعالى ربا، فبأى شيء في هذا العالم يمكن أن توقنوا و تؤمنوا؟ و تقول في الصفه الرابعه و الخامسه و السادسه لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ (٣) فحياتكم و مماتكم بيده، و هو سبحانه ربكم و رب العالمين، و على هذا فلا إله سواه، أو يكون من ليس له مقام الربوبيه و لا أهليتها، و لا يملك الحياه و الموت ربًّا

ص: ١٢٤

١-١) - كلمه (رب) في هذه الآيه بدل من (رب) في الآيه السابقه.

٢-٢) - جزاء الجملة الشرطيه (إن كنتم موقنين) محذوف، و تقدير الكلام: إن كنتم من أهل اليقين، أو في طلب اليقين، علمتم أن الله رب السماوات و الأرض و ما بينهما.

٣-٣) - يمكن أن تكون جملة (لا إله إلا هو) استثنافيه، أو خبرا لمبتدأ محذوف تقديره: هو لا إله إلا هو لا. إلا أن الاحتمال الأول هو الأنسب.

و معبوداً؟! و تضيف فى الصفه السابعه وَ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأُولَى فَإِذَا قُلْتُمْ: إِنَّكُمْ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، لِأَنَّ الْأَصْنَامَ، لِأَنَّ آبَاءَكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا، فَاعْلَمُوا أَنَّ رَبَّهُمْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ أَيْضًا، وَ عِلَاقَتَكُمْ بِآبَائِكُمْ وَ ارْتِبَاطَكُمْ بِهِمْ يُوجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، وَ أَنْ لَا تَخْضَعُوا إِلَّا لَهُ، وَ إِذَا كَانَ سَبِيلُهُمْ غَيْرَ هَذَا السَّبِيلِ فَقَدْ كَانُوا عَلَى خَطَأٍ بِلَا رَيْبٍ.

من الواضح أنّ مسأله الحياه و الموت من شؤون الله و تدبيره، و إذا كانت الآيه قد ذكرت بها بالخصوص، فلأن لها أهميه فائقه من جهه، و لأنها إشاره ضمنيه إلى مسأله المعاد من جهه أخرى، و ليست هذه هى المره الأولى التى يؤكد فيها القرآن على مسأله الحياه و الموت، بل بينها مرارا على أنها من الأفعال المختصه بالله تعالى، لأن مسأله الحياه و الموت أكثر المسائل تأثيرا فى حياه البشر و مصائرهم، و هى فى الوقت نفسه أعقد مسائل عالم الوجود، و أوضح دليل على قدره الله تعالى.

ملاحظه

إشاره

علاقه القرآن بلبه القدر:

مما يجدر الانتباه إليه أنه ورد فى هذه الآيات تلميحًا، و فى آيات سوره القدر تصريحًا، أن القرآن نزل فى لبه القدر، و كم هو عميق هذا الكلام؟! ففى تلك الليله التى تقدر فيها مقدرات العباد و أرزاقهم، ينزل القرآن الكريم على قلب النبى صلى الله عليه و آله و سلم الطاهر، ألا يدل هذا على أن هناك علاقته صميميه بين مقدراتكم و مصائركم و بين محتوى هذا الكتاب السماوى؟ ألا يعنى هذا الكلام أن هناك علاقته لا تقبل الانفصال بين القرآن و بين حياتكم

ص: ١٢٥

المعنويه، بل و حتى حياتكم الماديه؟ فقد أدى الى انتصاركم على الأعداء، و شموخكم و حریتكم و استقلالكم، و عمران مدنكم و رقیكم.

أجل، فى تلك الليله التى كانت تقدر فيها المقدرات، أنزل القرآن أيضا.

ص: ١٢٦

اشاره

بَيْلٌ هُمْ فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا
الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو
الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)

التفسير

اشاره

الدخان القاتل:

لما كان الكلام في الآيات السابقة في أنّ هؤلاء إن كانوا طلاب يقين، فإن سبل تحصيله كثيره، و تضيف أول آيه من هذه الآيات
بَيْلٌ هُمْ فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ فإن شك هؤلاء في حقانيه هذا الكتاب السماوي و في نبوتك، ليس نابعا من كون المسأله معقده
صعبه، بل من عدم جديتهم في التعامل معها، فهم يتعاملون معها بهزل، فيستهزءون و يسخرون تاره، و يصفون أنفسهم بعدم
الاطلاع و الإلمام و بالجهل

تاره أخرى،و يشغلون أنفسهم كل يوم بأسلوب لعب جديد.

«يلعبون» من مآده اللعاب-على قول الراغب-و هو البزاق السائل،و لما لم يكن للإنسان هدف مهم من اللعب،فقد شبه بالبزاق الذى يبصقه الفرد لا إراديا.

و مهما كان،فإن الحقيقة هى أن التعامل الجدى مع المسائل يعين الإنسان فى معرفه الحقائق،أما التعامل الهازل الفارغ فإنه يلقى الحجب عليها و يمنعه من الوصول إليها.

ثم انتقلت الآيه التاليه إلى تهديد هؤلاء المنكرين المعاندين المتعصبين،فى الوقت الذى وجهت الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقالت: فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

عند ذلك سيعم الخوف و الاضطراب كل وجودهم،و تزول الحجب من أمام أعينهم،فيقفون على خطئهم الكبير،و يتجهون إلى الله تعالى بالقول: رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ .

إلا- أن الله عزّ و جلّ يرفض طلب هؤلاء و يقول: أَنى لَهُمُ الذِّكْرَى وَ قَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ رسول كان واضحا فى نفسه و تعليماته و برامجه و آياته و معجزاته، و مبينا لها جميعا.

غير أنّ هؤلاء بدل أن يذعنوا له،و يؤمنوا بالله الواحد الأحد،و يتقبلوا أوامره بكل وجودهم،أعرضوا عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم ثم تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ .

فكانوا يقولون تاره:إنّ غلاما روميا سمع قصص الأنبياء و أخبارهم يعلمه إياها،و هذه الآيات من اختراعه و إملائه على النبى صلى الله عليه و آله و سلم وَ لَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّلسَّانِ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١) و يقولون تاره أخرى:إنّه مصاب بالاختلال الفكرى و العقلى،و هذه الكلمات وليده فقدانه التوازن الفكرى.

ص: ١٢٨

ثمّ تضيف الآيه التاليه: **إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ لَعَائِدُونَ** و من هنا يتّضح أنّهم عند ما يقعون فى قبضه العذاب، يندمون على ما بدر منهم من أفعال، و يصممون على تعديل سلوكهم و إصلاحه، إلا أن هذا الموقف الجديد مؤقت و سريع الزوال، فما أن تهدأ عاصفه الأحداث حتى يعودوا لما كانوا عليه من قبل.

و يقول سبحانه فى آخر آيه من هذه الآيات **يَوْمَ نَبِطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ . (١)**

«البطش» هو تناول الشىء بصوله، و هنا بمعنى الأخذ للانتقام الشديد، و وصف البطشه بالكبرى إشاره إلى العقوبه الشديده التى تنتظر هذه الفئه.

و الخلاصه: أنه على فرض تخفيف العقوبات المؤقته فى حق هؤلاء، فإن العقوبات النهائيه العسيره تنتظرهم، و لا مفرّ لهم منها.

«منتقمون» من ماده الانتقام، و كما قلنا سابقا فإنها تعنى العقوبه و الجزاء، و إن كانت كلمه الانتقام تعطى معنى آخر فى محادثاتنا اليوميه فى عصرنا الحاضر، حيث تعنى العقوبه المقترنه بإخماد نار الغضب و تفرير ما فى القلب من انفعال و حب الانتقام، إلا أن هذا الأمر لا وجود له فى المعنى اللغوى للكلمه.

ملاحظه

إشاره

ما المراد من الدخان المبين؟

هناك أقوال بين المفسّرين حول المراد من الدخان الذى ذكر فى هذه الآيات كتعبير عن العذاب الإلهى، و توجد هنا نظريتان أساسيتان:

ص: ١٢٩

١-١) -احتمل المفسّرون فى تركيب هذه الجمله احتمالات كثيره، و أكثرها قبولا من قبل المفسّرين، و هو المناسب أيضا لسياق الآيه: إن (يوم) متعلق بفعل (نتقم) الذى يفهم من جملته (إننا منتقمون) و على هذا يكون التقدير: نتقم منهم يوم نبطش البطشه الكبرى إننا منتقمون.

١-إنه إشاره إلى العقاب و العذاب الذى ابتلى به كفار قريش فى عصر النبى صلى الله عليه و آله و سلم لأنه لعنهم و دعا عليهم

قال: «اللهم سنين كسنى يوسف». و بعد ذلك أصاب مکه قحط شديد، حتى أنهم كانوا يرون كأن بين السماء و الأرض عمودا من الدخان من شدة الجوع و العطش، و عسر الأمر عليهم حتى أكلوا الميتة و عظام الحيوانات الميتة.

فأتوا إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و قالوا: يا محمد، تأمرنا بصله الرحم و قد هلك قومك! لئن رفع عنا العذاب لنؤمنن. فدعا النبى صلى الله عليه و آله و سلم فارتفع العذاب و عم الخير و النعمة الوفيره، لكنهم لم يعتبروا بذلك، بل عادوا إلى الكفر مره أخرى. (١)

طبقا لهذا التفسير فقد اعتبرت غزوه بدر هى البطشه الكبرى-أى العقوبه الشديده-لأن المشركين تلقوا من المسلمين فى بدر ضربات مهلكه ماحقه.

و طبقا لهذا التفسير لم يكن للدخان وجود فى الحقيقة، بل إن السماء قد بدت للناس العطاشى الجائعين كعمود الدخان، و على هذا فذكر الدخان هنا من باب المجاز، و هو يشير إلى تلك الحاله الصعبه المؤلمه.

و قال البعض: إنَّ الدخان يستعمل عادة فى كلام العرب كناية عن الشر و البلاء الذى يعم و يغلب. (٢)

و يعتقد بعض آخر أنه حين القحط و قلَّه المطر تغطى السماء عادة أعمده الغبار، و قد عبر هنا عن هذه الحاله بالدخان، لأن المطر ينزل بالغبار إلى الأرض فيصفو الأفق. (٣)

و مع كل هذه الصفات، فإنَّ استعمال كلمه الدخان هنا مجازا طبقا لهذا التفسير.

٢-إن المراد من «الدخان المبين» هو ذلك الدخان الغليظ الذى سيغطى السماء

ص: ١٣٠

١-١) -مجمع البيان، المجلد ٩، صفحه ٦٢، ذيل الآيات مورد البحث.

٢-٢) -يقول الفخر الرازى: إنَّ العرب يسمون الشر الغالب بالدخان. المجلد ٢٧، صفحه ٢٤٢.

٣-٣) -روح المعانى، المجلد ٢٥، ص ١٠٧.

فى نهايه العالم، و على أعتاب القيامه، فهو علامه لحلول اللحظات الأخره لهذه الدنيا، و بدايه عذاب الله أليم للظالمين و المفسدين.

عند ذلك سينتبه هؤلاء الظالمون من نوم غفلتهم، و يطلبون رفع العذاب و الرجوع إلى الحياه الدنيويه العاديه، لكن أيديهم ترد فى أفواههم.

و طبقا لهذا التفسير فإن الدخان معناه الحقيقى، و يكون مضمون هذه الآيات هو نفس ما ورد فى آيات القرآن الأخرى، و هو أن المجرمين و الكافرين يرجون و هم على أعتاب القيامه أو فيها-رفع العذاب عنهم، و الرجوع إلى الدنيا، لكن ذلك لا يقبل منهم و لا يحقق رجاؤهم. (١)

الإشكال الوحيد الذى يرد على هذا التفسير أنه لا ينسجم مع جمله **إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ** لأن العذاب الإلهى لا يخفف عند انتهاء الدنيا أو فى القيامه ليعود الناس إلى حاله الكفر و المعصيه.

أما إذا اعتبرنا هذه الجملة قضيه شرطيه-و إن كان ذلك يخالف الظاهر- فسيرتفع الإشكال حينئذ، لأن معنى الآية يصبح: كلما كشفنا عنهم قليلا- من العذاب فإنهم يعودون إلى طريقتهم الأولى، و هذا فى الواقع شبيه بالآيه (٢٨) من سوره الأنعام **وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ**.

اضافه إلى أن تفسير «البطشه الكبرى» بأحداث يوم بدر، يبدو بعيدا عن الصواب، لكن تفسيرها بعقوبات القيامه (٢) مع الآية تماما.

و الشاهد الآخر للتفسير الثانى هو الروايات الوارده عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم و التى تفسر الدخان بالدخان الذى سيملا العالم على أعتاب قيام القيامه، كالروايه التى

يرويهها حذيفه بن اليمان عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم بأنه ذكر أربع علامات لاقترب القيامه: الأولى ظهور الدجال، و الأخرى نزول عيسى عليه السلام، و الثالثه النار التى تظهر

ص: ١٣١

١- ١) -تراجع الآيات ٢٧-٣٠، من سوره الأنعام.

٢- ٢) -يقول الراغب فى المفردات، البطش: هو تناول الشئ بصوله، و هو مقدمه العقوبه عاده.

من أرض عدن، والدخان.

فسأل حذيفه، يا رسول الله، وما الدخان؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَمَلَأُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، يمكث أربعين يوماً وليله، أمياً المؤمن فيصيبه منه كهيته الزكمه، وأمّا الكافر فبمنزله السكران يخرج من منخريه و أذنيه و دبره» (١).

و

جاء في حديث آخر عن أبي مالك الأشعري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ رَبَّكُمْ أَنْذَرَكُمْ ثَلَاثًا: الدخان يأخذ منه المؤمن كالزكمه، و يأخذ الكافر فينفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانيه الدابه، والثالثه الدجال» (٢) و قد قدمنا توضيحا كافيا حول دابه الأرض في ذيل الآيه (٨٢) من سوره النمل.

و روى شبيه هذا المعنى حول الدخان عن أبي سعيد الحذرى عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. (٣)

و يلاحظ نظير هذه التعبيرات، بصورة أكثر تفصيلا، فى الروايات الواردة عن طرق أهل البيت عليهم السلام، و من جملتها ما نقرأه

فى روايه عن أمير المؤمنين على عليه السلام، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «عشر قبل الساعة لا بدّ منها: السفيناني، و الدجال، و الدخان، و الدابه، و خروج القائم، و طلوع الشمس من مغربها، و نزول عيسى، و خسف بالمشرق، و خسف بجزيره العرب، و نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر». (٤)

و من مجموع ما قيل، نستنتج أن التفسير الثانى هو الأنسب.

ص: ١٣٢

١-١) - تفسير الدر المنثور، الجزء ٦، صفحه ٢٩.

٢-٢) - المصدر السابق.

٣-٣) - المصدر السابق.

٤-٤) - بحار الأنوار، المجلد ٥٢، صفحه ٢٠٩.

اشاره

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَذُوا إِلَىٰ إِلَهِ عِبَادَ اللَّهِ إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ
إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاغْتَرِلُونِ (٢١)

التفسير

اشاره

إذا لم تؤمنوا فلا تصدّوا الآخرين عن الإيمان:

متابعه للآيات السابقة التي كانت تتحدث حول تمرد مشركي العرب و عدم إذعانهم للحق، تشير هذه الآيات إلى نموذج من الأمم الماضية التي سارت في نفس هذا المسير، وابتليت أخيرا بالعذاب الأليم و الهزيمة النكراء، ليكون ذلك تسليه للمؤمنين، و تحذيرا للمنكرين المعاندين. و ذلك النموذج هو قصه موسى و فرعون، حيث تقول الآية: **وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ .**

«فتنًا» من مادة فتنه، و هي في الأصل تعنى وضع الذهب في فرن النار لتخليصه من الشوائب، ثم أطلقت على كل امتحان و اختبار يجرى لمعرفة نسبه خلوص

البشر...ذلك الاختبار الذى يعم كل حياه الإنسان و المجتمعات البشرية،و بتعبير آخر،فإن كل مراحل حياه الإنسان فى هذه الدنيا تطوى فى هذه الاختبارات، فإن هذه الدنيا دار امتحان و ابتلاء.

لقد كان قوم فرعون يعيشون أوج قوتهم و عظمتهم بامتلاكهم حكمه قويه، و ثروات ضخمة،و إمكانيات واسعة،فغرتهم هذه القدره العظيمة،و تلوثوا بأنواع المعاصى و الظلم و الجور.

ثم تصيف الآيه و **جاءهم رسول كريم** فهو كريم من ناحيه الخلق و الطبيعه، و كريم من ناحيه العظيمة و المنزله عند الله،و كريم من ناحيه الأصل و النسب،و لم يكن هذا الرسول إلا موسى بن عمران عليه السلام. (١)

لقد خاطبهم موسى عليه السلام بأسلوبه المؤدب جدا،الملى بالود و المحبه،فقال: **أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ**. (٢)

و طبقا لهذا التفسير،فإن **عِبَادَ اللَّهِ** بحكم المخاطب،و المراد منهم الفراعنه، و بالرغم من أن هذا التعبير يستعمل فى آيات القرآن فى شأن العباد الصالحين،إلا- أنه أطلق أيضا فى موارد عديده على الكفار و المجرمين،من أجل تحريك وجدانهم،و جذب قلوبهم نحو الحق (٣).

بناء على هذا،فإن المراد من **أَدُّوا** إطاعه أمر الله سبحانه و تنفيذ أوامره.

و قد ذكر جماعه من المفسرين تفسيرا آخر لهذه الجملة،فقالوا:المراد من **عِبَادَ اللَّهِ** بنو إسرائيل،و من **أَدُّوا** إيداعهم بيد موسى،و رفع الذله و العبوديه

ص: ١٣٤

١- ١) -يقول الراغب فى المفردات:الكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه و إنعامه،نحو قوله: **فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** و إذا وصف ربه الإنسان فهو اسم للأخلاق و الأفعال المحموده التى تظهر منه. و لقد ورد هذا الوصف لأمر أخرى أيضا القرآن المجيد،مثل:كتاب كريم،كل زوج كريم،بزرع كريم مقام كريم،أجر كريم

٢- ٢) -«أن»فى جمله: **أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ** تفسير لفعل مقدر يفهم من الكلام السابق،و التقدير:(جتتكم أن أدوا إلى عباد الله).

٣- ٣) - كالأيه ١٧-الفرقان،و ١٣-سبأ،و ٥٨-الفرقان،و غيرها.

عنهم، كما جاء فى الآيه (١٧) من سورة الإسراء أَنَّ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ وَرَدَ نَظِيرَ هَذَا الْمَعْنَى فِى الْآيَةِ ١٠٥-الأعراف، و ٤٧-
طه أيضا.

و الأمر الذى لا ينسجم مع هذا التفسير، هو أن جملة أَدُّوا تستعمل عادة فى أداء الأموال و الأمانات و التكليف، لا فى مورد إيداع
الأشخاص، و يتضح هذا الموضوع جيدا بملاحظه موارد استعمال هذه الكلمه.

و على أیه حال، فإنه يضيف فى بقية الآيه إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ وَ ذَلِكَ لِنَفَى كُلِّ اتِّهَامٍ عَنْ نَفْسِهِ.

إن هذا التعبير- فى الحقيقة- داحض للاتهامات الباطله التى ألصقتها به الفراعنه، كالسحر، و السعى إلى التفوق و استلام الحكم فى
أرض مصر، و طرد أصحابها الأصليين، و التى أشير إليها فى الآيات المختلفه.

ثم يقول لهم موسى عليه السلام بعد أن دعاهم إلى طاعه الله سبحانه، أو إطلاق سراح بنى إسرائيل و تحريرهم: إِنَّ مَهْمِي
الْأُخْرَى أَنْ أَقُولَ لَكُمْ: وَ أَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ معجزاته بينه، و أدلته منطقيه واضحه.

و المراد من عدم العلو على الله سبحانه، هو عدم القيام بأى عمل لا ينسجم مع أصول العبوديه، من المخالفه و التمرد، و حتى إيذاء
رسل الله، أو ادعاء الألوهيه و أمثال ذلك.

و لما كان المستكبرون و عبيد الدنيا لا- يدعون أى تهمة و افتراء، إلا- و ألصقوهما بمن يرونه مخالفا لمنافعهم و مصالحهم
اللامشروع بل لا يتورعون حتى عن قتله و إعدامه، لذا فإن موسى عليه السلام يضيف للحد من مسلكهم هذا وَ إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي
وَ رَبُّكُمْ أَنْ تَزْجُمُونِ .

إن هذا التعبير لعله إشاره إلى أنى لا أخاف تهديداتكم، و سأصمد حتى آخر نفس، و الله حافظى و حارسى، و كانت مثل هذه
التعبيرات تمنع القاده الإلهيين حزما أكبر فى دعوتهم، و تزيد فى انهيار إرادته الأعداء و معنوياتهم، و تزيد من

جانب آخر ثبات المحيين و المؤمنين و استقامتهم، لأنهم يعلمون أن إمامهم و قائدهم يقاوم حتى اللحظات الأخيره.

و ربّما كان التأكيد على مسأله الرجم من جهه أن كثيرا من رسل الله قبل موسى عليه السلام قد هددوا بالرجم، و من جملتهم نوح عليه السلام قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المَرْجُومين (١) و كذلك الحال بالنسبه إلى إبراهيم عليه السلام لما هده آزر و قال له: لئن لم تنته لأَرْجُمنَكَ (٢)، و شعيب لما هده الوثنيون قالوا له: وَ لَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ (٣) أمّا اختيار الرجم من بين أنواع القتل، فلأنه أشدها جميعا. و على قول بعض أرباب اللغة فإن هذه الكلمه جاءت بمعنى مطلق القتل أيضا. (٤)

و احتمال كثير من المفسرين أن يكون الرجم بمعنى الاتهام و إساءه الكلام، لأن هذه الكلمه قد استعملت فى هذا المعنى أيضا. و كانت هذه الاستعاذه فى الحقيقه مانعا من تأثير التهم التى اتهموا بها موسى فيما بعد.

و يمكن أن تكون هذه الكلمه قد استعملت فى معناها الواسع الذى يشمل كلا المعنيين.

و تخاطب الآيه الأخيره هؤلاء القوم فتقول: وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ لِأَنَّ موسى عليه السلام كان واثقا من نفوذه بين أوساط الناس، و مختلف طبقاتهم، بامتلا- كه تلك المعجزات الباهره، و الأدله القويه، و السلطان المبين، و أن ثورته ستؤتى أكلها بعد حين، و لذلك كان يرضى من هؤلاء القوم أن يتنحوا عن طريقه و لا يكونوا حاجزا بينه و بين الناس.

لكن، هل يمكن أن يهدأ هؤلاء الجبابره المغرورون و هم يرون الخطر يهدد

ص: ١٣٦

١-١) - الشعراء، الآيه ١١٦.

٢-٢) - مريم، الآيه ٤٦.

٣-٣) - هود، الآيه ٩١.

٤-٤) - لسان العرب، ماده رجم.

مصالحهم و ثرواتهم اللامشروع، و يقبلوا مثل هذا الاقتراح و يدعوا موسى و شأنه؟ الآيات الآتية كفيها بأن تبين تتمه هذه الأحاديث.

ص: ١٣٧

إشاره

فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَأَنَّ هُوَ لَأَنَّ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَاسْرِبْ بِلَيْدِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ (٢٣) وَ أتركِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكَوا مِنْ جَنَاتٍ وَ عُيُونٍ (٢٥) وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَ نَعْمَهُ كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَ أَوْرثناها قَوْمًا آخِرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ وَ مَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩)

التفسير

تركوا القصور و البساتين و الكنوز و ارتحلوا! لقد استخدم موسى عليه السلام كل وسائل الهدايه للنفوذ إلى قلوب هؤلاء المجرمين الظلمه، إلا أنها لم تؤثر فيهم أدنى تأثير، و طرق كل باب ما من مجيب.

لذلك يشس منهم، و لم ير لهم علاجا إلا لعنهم و الدعاء عليهم، لأن الفاسدين الذين لا أمل في هدايتهم لا يستحقون الحياه في قانون الخلقه، بل يجب أن ينزل عليهم عذاب الله و يجتثهم و يطهر الأرض من دنسهم، لذلك تقول الآيه الأولى من هذه الآيات: فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَأَنَّ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ .

انظر إلى أدب الدعاء، إنه لا يقول: اللهم افعل كذا و كذا، بل يكتفى بأن يقول:

اللهم إن هؤلاء قوم مجرمون لا- أمل في هدايتهم و حسب! و قد استجاب الله سبحانه دعاءه، و كمقدمه لنزول العذاب على الفراعنه، و نجاه بنى إسرائيل منهم، أمر موسى عليه السلام أن فأشير ببجادي ليلاً إنكم متبعون لكن لا تفلق من ذلك، فيجب أن يتبعكم هؤلاء ليلاقوا المصير الذى ينتظرهم.

إن موسى عليه السلام مأمور بأن يتحرك ليلاً بصحبه عباد الله المؤمنين، أى بنى إسرائيل، و جماعه من أهل مصر الذين مالت قلوبهم إلى الإيمان و لبث دعوه موسى، و أن يأتى النيل، و يعبره بطريقه إعجازيه، ثم يسير إلى الأرض الموعوده، «فلسطين».

صحيح أن حركه موسى و أنصاره قد تمت ليلاً إلا- أن من المحتم أن لا- تبقى حركه جماعيه عظيمه كهذه خافيه، عن أنظار الفراعنه مدته طويله، و ربما لم تمض عدّه ساعات حتى أوصل جواسيس فرعون هذا الخبر المهور- أو قل فرار العبيد الجماعى- إلى مسامعه، فأمر بمطاردتهم بجيش جرار.

و الطريف أن كل هذه الأمور التى حدثت ضمن إشاره موجزه فى الآيات أعلاه إنكم متبعون .

إن ما حذف هنا من أجل الاختصار وضح فى آيات أخرى من القرآن بعبارات موجزه، فمثلاً نقرأ فى الآية (٧٧) من سوره طه و لَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَىٰ .

ثم تضيف الآية التى بعدها: عند ما تصل إلى الساحل الآخر عليك أن تترك البحر بهدوء و اترك البخر رهواً و المراد من البحر فى هذه الآيات هو نهر النيل العظيم.

لقد ذكر المفسرون و أرباب اللغه معنيين للرهو: هما الهدوء، و السعه و الانفتاح، و لا مانع هنا من اجتماعهما.

لكن لماذا صدر مثل هذا الأمر لموسى عليه السلام؟ من الطبيعي أنّ موسى عليه السلام و بنى إسرائيل كانوا راغبين فى أن يجتازوا البحر حتى تتصل المياه مرّه أخرى و تملأ هذا الفراغ، و يتعدوا بسرعه عن منطقه الخطر، و يتجهوا بسلامه إلى الوطن الموعود، إلاّ- أنّهم أمروا أنّ لا- يعجلوا أثناء عبورهم نهر النيل، بل ليدعوا فرعون و آخر جندى من جنوده يردون النيل، فإنّ أمر إهلاكهم و إماتتهم قد صدر إلى أمواج النيل المتلاطمه الغاضبه، و لذلك تقول الآيه فى ختامها إنّهم جُندٌ مُغرَقُونَ .

هذا هو أمر الله عزّ و جلّ الحتمى الصادر بحق هؤلاء القوم، بأنّهم يجب أن يغرقوا جميعا فى نهر النيل العظيم، الذى كان أساس ثروتهم و قوتهم! و بأمر إلهى واحد تحول هذا النهر الذى كان عصب حياتهم إلى أدهاء فنائهم و موتهم.

نعم، عند ما وصل فرعون و جنوده إلى شاطئ النيل كان بنو إسرائيل قد خرجوا من الجانب الآخر، و كان ظهور مثل ذلك الطريق اليابس وسط النيل كافيا وحده لأن يلفت نظر حتى الطفل الساذج إلى تحقق إعجاز إلهى عظيم فى البحر، إلاّ أنّ كبر أولئك الحمقى و غرورهم لم يسمح لهم بإدراك هذه الحقيقه الواضحه فيقفوا على اشتباهااتهم و أخطائهم، و يتوجهوا إلى الله سبحانه! ربّما كانوا يظنون أنّ هذا التغير الذى طرأ على النيل قد تمّ بأمر فرعون أيضا! و ربّما قال هذا الكلام لجنوده، ثمّ ورد بنفسه ذلك الطريق فتبعه جنوده حتى الجندى الأخير! لكن، أمواج النيل تلاطمت فجأه و انهالت عليهم كبناء شاهق انهدمت قواعده فانهار إلى الأرض، فغرقوا جميعا.

و لنكته التى تلفت النظر فى هذه الآيات، هى اختصارها الفائق، و كونها بليغه و معبره فى الوقت نفسه، فقد ذكر قصه مفصله فى ثلاث آيات- أو جمل- بحذف الجمل الإضافيه التى تفهم من القرائن أو الجمل الأخرى، و نراها اكتفت بالقول:

فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ لَوْلَا هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ. فَاسْرِبْ بِلَيْدِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ، وَاتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ

إنَّ التعبير بـ«مغرقون» مع أنهم لم يكونوا قد غرقوا بعد إشاره إلى أنَّ هذا الأمر الإلهي حتمي و قطعي.

و لنر الآن ماذا جرى من الحوادث التي تدعو إلى الاعتبار بها، بعد غرق فرعون و الفراعنه.

يبين القرآن الكريم في الآيات التاليه تركه الفراعنه العظيمه التي ورثها بنو إسرائيل، ضمن خمسة مواضيع تكن الفهرس العام لكلِّ حياه الفراعنه، فيقول أولًا: كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ .

لقد كانت البساتين و العيون ثروتين من أهم و أروع ثروات هؤلاء، لأنَّ مصر كانت أرضا خصبه مليئه بالبساتين بوجود نهر النيل. و هذه العيون يمكن أن تكون إشاره الى العيون التي كانت تنبع هنا و هناك، أو أنَّها جداول كانت تستمد مياهها من النيل، و تمر في بساتين أولئك و حدائقهم الغناء الخضراء، و ليس بعيدا إطلاق العين على هذه الجداول.

ثمَّ يضيف القرآن الكريم وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ و كانت هاتان ثروتين مهمتين آخرين، فمن جهة كانت الزراعه العظيمه التي تعتمد على النيل، حيث أنواع المواد الزراعيه الغذائيه و غيرها، و المحصولات التي امتدت في جميع أنحاء مصر، و كانوا يستخدمونها غذاء لهم و يصدرون الفائض منها إلى الخارج، و من جهة أخرى كانت القصور و المساكن العامره، حيث أنَّ من أهم مستلزمات حياه الإنسان هو المسكن المناسب.

لا- شك أنَّ هذه القصور كريمه من الناحيه الظاهريه، و من وجهه نظر هؤلاء أنفسهم، و إلاَّ فإنَّ مساكن الطواغيت المزينه هذه، و التي تسبب الغفله عن الله، لا قيمه لها في منطق القرآن.

و احتمال البعض أن يكون المراد من المقام الكريم مجالس الأُنس و الطرب، أو المناير التي كان يرتقيها المدّاحون و الشعراء للثناء على فرعون.

لكن، الظاهر أنّ المعنى الأوّل أنسب من الجميع.

و لما كان هؤلاء يمتلكون وسائل رفاه كثيره غير الأمور الأربعة المهمّة التي مرّ ذكرها، فقد أشار القرآن إليها جميعا في جملة مقتضبه، فقال: وَ نَعْمَهُ كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ (١) (٢).

ثمّ يضيف كذلك وَ أَوْزَنَّاها قَوْمًا آخِرِينَ (٣).

و المراد من قَوْمًا آخِرِينَ هم بنو إسرائيل، حيث صرّح بذلك في الآية (٩٥) من سورة الشعراء. و التعبير بالإرث إشاره إلى أنّهم حصلوا على كلّ هذه الأموال و الثروات من دون أن يبذلوا أدنى جهد، أو يتحملوا أقلّ تعب و مشقّه، كما يحصل الإنسان على الإرث دون أن يشقى و يجهد في تحصيله.

و الجدير بالانتباه أنّ الآية المذكوره و نظيرتها في سورة الشعراء توحيان بأنّ بنى إسرائيل قد عادوا إلى مصر بعد غرق الفراعنه و ورثوا ميراثهم، و حكموا هناك، و سير الحوادث يقتضى -أيضا- أنّ لا يدع موسى عليه السلام مصر تعيش فراغا سياسيا بعد انهيار دعائم حكومه الفراعنه فيها.

لكن هذا الكلام لا ينافى ما ورد في آيات القرآن الكريم من أنّ بنى إسرائيل قد ساروا إلى الأرض الموعوده، أرض فلسطين، بعد خلاصهم من قبضه الفراعنه، و الذى جاء مفصلا في القرآن، فمن الممكن أن تكون جماعه منهم قد أقاموا في

ص: ١٤٢

١ - ١) - «نعمه» بفتح النون تعنى التّنعّم، و بكسرّها تعنى الإنعّام، و قد صرح جماعه من المفسّرين و أرباب اللغه بهذا المعنى، في حين يعتقد جمع آخر أنّ للإثنين معنى واحدا يشمل كلّ المنافع التي تستحق الالتفات و النظر.

٢ - ٢) - فسّرت كلمه «فاكهين» بالاستمتاع بالفواكه تاره، و آخر بالأحاديث الفكاهيه الساره، و ثالثه بالتّنعّم و التلذذ، و المعنى الأخير أجمع من الجميع.

٣ - ٣) - «كذلك» خبر لمبتدأ محذوف و التقدير: الأمر كذلك، و يستعمل هذا التعبير للتأكيد. و احتمال البعض احتمالات أخرى في تركيبها.

مصر بعد استيلائهم عليها كوكلاء لموسى عليه السّلام، و سار القسم الأعظم إلى فلسطين.

و لمزيد من الإيضاح حول هذا الكلام انظر ذيل الآيه (٥٩) من سوره الشعراء.

و تقول الآيه الأخيره من هذه الآيات **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ** .

إنّ عدم بكاء السماء و الأرض ربّما كان كناية عن حقارتهم، و عدم وجود ولى و لا نصير لهم ليحزن عليهم و يبكيهم، و من المتعارف بين العرب أنّهم إذا أرادوا تبيان أهميه مكانه الميت، يقولون: بكت عليه السماء و الأرض، و أظلمت الشمس و القمر لفقده.

و احتمال أيضا أنّ المراد بكاء أهل السماوات و الأرض، لأنّهم يبكون المؤمنين المقربين عند الله، لا الجبابره و الطواغيت و أمثاله.

و قال البعض: إنّ بكاء السماء و الأرض بكاء حقيقى، حيث تظهر احمرارا خاصا غير احمرار الغروب و الطلوع، كما نقرأ

فى روايه: «لما قتل الحسين بن على بن أبى طالب عليه السّلام بكت السماء عليه، و بكأؤها حمرة أطرافها» (١).

و

فى روايه أخرى عن الإمام الصادق عليه السّلام: «بكت السماء على يحيى بن زكريا و على الحسين بن على (عليهما السلام) أربعين صباحا، و لم تبك إلاّ عليهما» قلت:

و ما بكأؤها؟ قال: «كانت تطلع حمراء، و تغيب حمراء» (٢).

غير أننا نقرأ

فى حديث روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلّم: «ما من مؤمن إلاّ و له باب يصعد منه عمله، و باب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه» (٣).

و لا منافاه بين هذه الروايات، حيث كان لشهاده الحسين عليه السّلام و يحيى بن زكريا عليه السّلام صفه العموم فى كلّ السماء، و لما ورد فى الروايات الأخيره صفه

ص: ١٤٣

١-١) -مجمع البيان، المجلد ٩، صفحه ٦٥ ذيل الآيه مورد البحث.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -المصدر السابق.

على أى حال، فلا تضاد بين هذه التفاسير، ويمكن جمعها فى معنى الآية.

نعم لم تبك السماء لموت هؤلاء الضالين الظالمين، و لم تحزن عليهم الأرض، فقد كانوا موجودات خبيثه، و كأنما لم تكن لهم أدنى علاقه بعالم الوجود و دنيا البشريه، فلما طرد هؤلاء الأجانب من العالم لم يحس أحد بخلو مكانهم منهم، و لم يشعر أحد بفقدهم، لا على وجه الأرض، و لا فى أطراف السماء، و لا فى أعماق قلوب البشر، و لذلك لم تذرف عين أحد دمعه لموتهم.

و نهى الكلام فى هذه الآيات بذكر روايه عن أمير المؤمنين عليه السلام.

فقد ورد فى روايه أن أمير المؤمنين عليا عليه السلام لما مرّ على المدائن، و رأى آثار كسرى مشرفه على السقوط و الانهيار، أنشد أحد أصحابه الذين كانوا معه:

جرت الرياح على رسومهم* فكأنهم كانوا على ميعاد! فقال أمير المؤمنين على عليه السلام: «أ فلا قلت كم ترَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ وَ نَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ ... فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ وَ مَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢)».

ص: ١٤٤

١-١) - روى فى الدر المنثور حديث فى باب الجمع بين هذه الروايات. الدر المنثور، طبقا لنقل الميزان، المجلد ١٨، صفحه ١٥١.

٢-٢) - سفينه البحار، ج ٢، ص ٥٣١ (ماده مدن).

اشاره

وَ لَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَ لَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلِيًّا عَلِيَّ الْعَالَمِينَ (٣٢) وَ آتَيْنَاهُمْ مِنَ آيَاتِنَا مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (٣٣)

التفسير

اشاره

بنو إسرائيل في بوقه الاختبار:

كان الكلام في الآيات السابقة عن غرق الفراعنه و هلا-كهم، و انكسار شوكتهم و انتهاء حكومتهم، و انتقالها إلى الآخرين. و تتحدث هذه الآيات في النقطة المقابله لذلك أى نجاه بنى إسرائيل و خلاصهم، فتقول: وَ لَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنَ الْعَذَابِ الْجَسْمِيِّ وَ الرُّوحِيِّ وَ الشَّاقِّ، وَ الَّذِي نَفَذَ إِلَى أَعْمَاقِ أَرْوَاحِهِمْ.. من ذبح الأطفال الذكور، و استحياء البنات لخدمه و قضاء المآرب، من السخره و الأعمال الشاقه جدًا، و أمثال ذلك.

فكم هو مؤلم أن يكون مصير أمه بيد هكذا عدو دموى شيطاني، و أن تبلى بهكذا ظلمه لا- يعرفون الرحمه و لا- الانسانيه؟ نعم، لقد نجى الله سبحانه هذه الأمه المظلومه من قبضه هؤلاء الظالمين، أعظم

سفاكى الدماء فى التاريخ، فى ظل ثوره موسى بن عمران عليه السلام، الربانىه، لذلك تضيف الآيه من فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ لَعَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ .

ليس المراد من «عاليا» هنا علو المنزله، بل هو إشاره إلى استشعاره العلو، و إنما علوه فى الإسراف و التعدى، كما جاء ذلك أيضا فى الآيه (٤) من سوره القصص إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ حَتَّى أَنَّهُ ادَّعَى الْأُلوهِيه، و سُمى نفسه الرب الأعلى .

و «المسرف» من ماده «إسراف»، أى كلّ تجاوز للحدود، سواء فى الأقوال أم الأفعال، و لذلك استعملت كلمه المسرف فى آيات القرآن المختلفه فى شأن المجرمين الذين يتعدون الحدود فى ظلمهم و فسادهم، و كذلك أطلقت على العصاه المسرفين، كما نقرأ ذلك فى الآيه (٥٣) من سوره الزمر قُلْ يَا عِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .

و تشير الآيه التاليه إلى نعمه أخرى من نعم الله سبحانه على بنى إسرائيل، فتقول: وَ لَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا قَدْرَ هَذِهِ النعمه، فكفروا و عوقبوا.

و على هذا فإنهم كانوا الأمه المختاره فى عصرهم، لأن المراد من العالمين البشر فى ذلك العصر و الزمان لا فى كلّ القرون و الأعصار، لأن القرآن يخاطب الأمه الإسلاميه بصراحه فى الآيه (١١٠) من سوره آل عمران و يقول: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّه أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .

و كذلك الحال بالنسبه إلى الأراضى التى ورثها بنو إسرائيل، إذ يقول القرآن الكريم فى الآيه (١٣٧) من سوره الأعراف وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا فِي حِينِ أَنَّ بنى إسرائيل لم يرثوا كلّ الأرض، و المراد شرق منطقتهم و غربها.

و يعتقد بعض المفسرين أنه كان لبنى إسرائيل بعض الميزات التى كانت منحصره فيهم على مرّ التاريخ، و من جملتها كثره الأنبياء، إذ لم يظهر فى أى قوم

هذا العدد من الأنبياء.

إلا أنّ هذا الكلام، إضافة إلى أنّه لا يثبت مزيتهم المطلقة هذه، فإنّه يدل على أنّها ليست مزيه أساسا، فربّما كانت كثره الأنبياء فيهم دليلا على غايه تمرد هؤلاء القوم و قمه عصيانهم، كما بينت الحوادث المختلفه بعد ظهور موسى عليه السّلام أنّهم لم يتركوا شيئا سيئا لم يفعلوه ضد هذا النّبي العظيم.

و على أية حال، فإنّ ما ذكرناه أعلاه في تفسير الآيه، هو المقبول من قبل كثير من المفسّرين في شأن أهليه بنى إسرائيل النسيبه.

غير أنّ هؤلاء القوم المعاندين كانوا يؤذون أنبياءهم دائما-حسب ما يذكره القرآن- وكانوا يقفون أمام أحكام الله سبحانه بكلّ تصلب و عناد، بل إنهم بمجرّد أنّ نجوا من النيل و أهواله طلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهه يعبدونها! و هذا يدلنا على إمكانيه أن يكون الهدف من الآيه ليس بيان خصيصه لبنى إسرائيل، بل بيان حقيقه أخرى. و عليه يصبح معنى الآيه: مع أننا نعلم أنّ هؤلاء سيسيئون استغلال نعم الله و مواهبه، فقد منحناهم التفوق لنختبرهم.

كما يستفاد من الآيه التاليه-أيضا- أنّ الله سبحانه قد منحهم مواهب اخرى ليلوهم.

و لذا فإنّ هذا الاختبار الإلهي لا يدل على كونه مزيه لهؤلاء، و ليس هذا و حسب، بل هو ذم ضمنى أيضا، لأنهم لم يشكروا هذه النعمه، و لم يؤدّوا حقها، و لم ينجحوا في الامتحان.

و تشير آخر آيه من هذه الآيات إلى بعض المواهب الأخرى التى منحهم الله إياها، فتقول: **وَ آتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلْؤًا مُّبِينٌ** فمره ظللنا عليهم الغمام فى صحراء سيناء، و فى وادى التيه و أخرى أنزلنا عليهم مائده خاصه من المن و السلوى، و ثالثه أجرينا لهم العيون من الصخور الصماء، و منحناهم أحيانا نعمما ماديه و معنويه أخرى. إلا- أنّ كلّ ذلك كان لغرض الابتلاء و الامتحان، لأنّ الله

سبحانه يختبر قوما بالمصيبة، و آخرين بالنعمة، كما نقرأ ذلك فى الآيه (١٦٨) من سوره الأعراف: وَ بَلَّوْنَاَهُم بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

و ربّما كان الهدف من ذكر قصه بنى إسرائيل للمسلمين الأوائل، هو أنّ لا يخافوا من كثره الأعداء، و تعاضم قوتهم، و ليطمئنوا بأنّ الله الذى أهلك الفراعنه و دمرهم، و أورث بنى إسرائيل ملكهم و حكومتهم، سيمنّ عليهم فى القريب العاجل بمثل هذا النصر، و كما اختبر أولئك بهذه المواهب، فإنّكم ستوضعون أيضا فى بوتقه الامتحان و الاختبار، ليتّضح ماذا ستفعلون بعد الانتصار و تقلد الحكم؟ و هذا تحذير لكلّ الأمم و الأقوام فيما يتعلق بالانتصارات و المواهب التى يحصلون عليها بفضل الله و لطفه، فإنّ الامتحان عندئذ عسير.

ص: ١٤٨

إشاره

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآيَاتِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦)

التفسير

إشاره

لا شيء بعد الموت!

بعد أن جسدت الآيات السابقه مشهدا من حياه فرعون و الفراعنه،و عاقبه كفرهم و إنكارهم،تكرر الكلام عن المشركين مژه أخرى،و أعادت هذه الآيات مسأله شكهم في مسأله المعاد-و التي مرّت في بدايه السوره-بصوره أخرى، فقالت: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ و سوف لا نعود إلى الحياه إطلاقا (١) و ما يقوله محمّد عن المعاد و الحياه بعد الموت و الثواب و العقاب،و الجنّه و النار لا حقيقه له،فلا حشر و لا نشر أبدا! و هنا سؤال يطرح نفسه،و هو:لماذا يؤكّد المشركون على الموته الأولى فقط،

ص: ١٤٩

١ - ١) - هنا اختلاف في مرجع ضمير (هي) فأرجعه بعض المفسّرين الى (الموته)،و هو المستفاد من سياق الكلام،و بناء على هذا يكون المعنى: ما الموته إلا موتتنا الأولى (تفسير التبيان و مجمع البيان و الكشاف). في حين اعتبر البعض الآخر مرجع الضمير هو العاقبه و النهايه،و على هذا يكون المعنى: ما عاقبه أمرنا إلا الموته الأولى (روح المعاني و الميزان) و ليس بينهما من تفاوت كثير من ناحيه النتيجة.

و التي تعنى عدم وجود موت آخر بعد هذا الموت، في حين أن مرادهم نفي الحياه بعد الموت، لا إنكار الموت الثاني و بتعبير آخر فإنّ الأنبياء كانوا يخبرون بالحياه بعد الموت، لا بالموت مره ثانيه.

و نقول في الإجابة: إنّ مرادهم عدم وجود حاله أخرى بعد الموت، أى إنّنا نموت مرّه واحده و ينتهى كلّ شىء، و بعد ذلك لا توجد هناك حياه أخرى و لا موت آخر، فكل ما هو موجود هذا الموت لا غير. (فتأمل!) (١).

و هذا يشبه كثيرا ما ورد في الآيه (٢٩) من سوره الأنعام، حيث تقول: وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ! ثم تنقل كلام هؤلاء الذين تشبثوا بدليل واه لإثبات مدعاهم، إذا قالوا: فَأَتُوا بِآبَاتِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .

قال البعض: إنّ هذا كان كلام أبى جهل، حيث أنّه التفت إلى النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم و قال: إن كنت صادقاً فابعث جدك قصى بن كلاب، فإنّه كان رجلاً صادقاً لنسأله عمّا يكون بعد الموت (٢).

من البديهي أنّ كلّ ذلك كان تذرعا، و مع أنّ سنّه الله لم تقم على أن يحيى الأموات في هذه الدنيا ليأتوا بأخبار ذلك العالم إلى هذا العالم، لكن على فرض أن يتم هذا العمل من قبل الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلّم، فسيعزف هؤلاء المتذرعون نغمه جديده، و يضربون على وتر آخر، فيسمون ذلك الفعل سحراً مثلاً، كما طلبوا المعاجز عدّه مرات، فلما أتاهم النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم بها أنكروها أشد إنكار.

ص: ١٥٠

١ - ١) - ذكر المفسّرون احتمالات أخرى في تفسير هذه الجملة، و تبدو جميعاً بعيده، و من جملتها: أنّهم فسّروا الموته الأولى بالموت قبل الحياه في هذه الدنيا، و بناء على هذا يكون معنى الآيه: إنّ الموت الذى تكون بعده حياه هو الموت الذى متنا من قبل، أمّا الموت الثّانى فلا حياه بعده أبداً.

٢ - ٢) - مجمع البيان، المجلد ٩، صفحته ٦٦، و بعض التفاسير الأخرى.

عقيدته المشركين في المعاد:

لم يكن للمشركين بعامة-و مشركى العرب بخاصه-مسلك متحد فى مسائلهم العقائديه،بل إنهم كانوا متفاوتين فيما بينهم مع أنهم يشتركون فى الأصل فى عقيدته الشرك.

فبعضهم لم يكن يعترف بالله و لا بالمعاد،و هم الذين يتحدث القرآن عنهم بأنهم كانوا يقولون: مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ (١) و بعضهم الآخر كانوا يعتقدون بالله عزّ و جلّ،و يعتقدون أيضا أنّ الأصنام شفعاؤهم عند الله،إلا أنهم كانوا ينكرون المعاد،و هم الذين كانوا يقولون: مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (٢)، فأولئك كانوا يحجون إلى الأصنام،و يقدمون القرابين لها،و كانوا يعتقدون بالحلال و الحرام،و كان أكثر مشركى العرب من هذه الفئة.

لكن هناك شواهد تدل على أنّ هؤلاء كانوا يعتقدون ببقاء الروح بشكل ما، سواء على هيئة التناسخ و انتقال الأرواح إلى الأبدان جديده أم بشكل آخر (٣).

و اعتقادهم بطير اسمه(هامه)معروف،فقد ورد فى قصص العرب أنّه كان من بين العرب من يعتقد بأنّ روح الإنسان طائر انبسط فى جسمه،و عند ما يرحل الإنسان عن هذه الدنيا أو يقتل،يخرج هذا الطائر من جسمه و يدور حول جسده بصورة مرعبه،و ينوح عند قبره.

و كانوا يعتقدون-أيضا-أنّ هذا الطائر يكون صغيرا فى البدايه ثمّ يكبر حتى يصبح بحجم البوم،و هو يعيش دائما فى خوف و اضطراب،و يسكن الديار الخاليه،و الخرائب،و القبور و مصارع القتلى!

ص: ١٥١

١- (١) -الجاثيه،الآيه ٢٤.

٢- (٢) -سوره يس،الآيه ٧٨.

٣- (٣) -شرح نهج البلاغه،لابن أبى الحديد المعتزلى،المجلد ١،صفحه ١١٧.

و كذلك كانوا يعتقدون أنّ شخصا إذا قتل ستصيح هامه على قبره: اسقوني فينى صديه أى عطشانه (١).

لقد أبطل الإسلام كلّ هذه المعتقدات الخرافيه، و لذلك

روى عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: «لا هامه» (٢).

و على أيه حال، فيبدو أنّ هؤلاء و إن لم يكونوا يعتقدون بالمعاد و حياه الإنسان بعد موته، إلا أنّهم كانوا يقولون بالتناسخ و بقاء الأرواح بشكل ما.

أمّا المعاد الجسماني على الهيئه التي يذكرها القرآن الكريم، بأنّ تراب الإنسان يجمع مره أخرى، و يعود إلى الحياه من جديد، و أنّ لكلا الجسم و الروح معادا مشتركا، فإنّهم كانوا ينكرونه تماما، و لا ينكرونه فحسب، بل كانوا يخافونه. و قد أوضحه لهم القرآن بأساليب مختلفه و أثبتته لهم.

ص: ١٥٢

١-١ - بلوغ الأرب، المجلد ٢، صفحه ٣١١.

٢-٢ - المصدر السابق.

اشاره

أَهْيَمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبَعِّحُ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَا هُمُ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ
(٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩)

التفسير

اشاره

قوم تبع:

لقد كانت أرض اليمن-الواقعه فى جنوب الجزيره العربيه-من الأراضى العامره الغنيه، و كانت فى الماضى مهد الحضاره و التمدن، و كان يحكمها ملوك يسمون «تبعاً»-و جمعها تباعه-لأن قومهم كانوا يتبعونهم، أو لأن أحدهم كان يخلف الآخر و يتبعه فى الحكم.

و مهما يكن، فقد كان قوم تبع يشكلون مجتمعا قويا فى عدته و عدده، و لهم حكومتهم الواسعه المتراميه الأطراف.

و هذه الآيات تواصل البحث الذى ورد حول مشركى مكه و عنادهم و إنكارهم

للمعاد-فتهدد أولئك المشركين من خلال الإشارة إلى قصه قوم تبع، بأن ما ينتظركم ليس العذاب الإلهي في القيامة و حسب، بل سوف تلاقون في هذه الدنيا أيضا مصيرا كمصير قوم تبع المجرمين الكافرين، فتقول: أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَ هَلَكْنَا هُمْ إِنْهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ .

من المعلوم أنّ سكان الحجاز كانوا مطلعين على قصه قوم تبع الذين كانوا يعيشون في جوارهم، و لذلك لم تفصل الآيه كثيرا في أحوالهم، بل اكتفت بالقول:

أنّ احدروا أن تلاقوا نفس المصير الذي لاقاه أولئك الأقوام الآخرون الذين كانوا يعيشون قربكم و حواليكم، و في مسيركم إلى الشام، و في أرض مصر. فعلى فرض أن بإمكانكم إنكار القيامة، فهل تستطيعون أن تنكروا العذاب الذي نزل بساحه هؤلاء القوم المجرمين العاصين؟ و المراد من الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أمثال قوم نوح و عاد و ثمود.

و سنبحث المراد من قوم تبع، في ما يأتي، إن شاء الله تعالى.

ثمّ تعود الآيه التي بعدها إلى مسأله المعاد مرّه أخرى، و تثبت هذه الحقيقه باستدلال رائع، فتقول: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ (١) .

نعم، فإنّ لهذا الخلق العظيم الواسع هدفا، فإذا كان الموت بزعمكم نقطه النهايه بعد أيام من المأكل و المشرب و المنام و قضاء الشهوات الحيوانيه، و بعد ذلك ينتهي كلّ شيء بالموت، فسيكون هذا الخلق لعبا و لهوا و عبثا، لا فائده من ورائه و لا هدف.

و لا يمكن التصديق بأنّ الله القادر الحكيم قد خلق هذا النظام و الخلق العظيم من أجل عدّه أيام سريعه الانقضاء لا هدف من ورائها، مع ما تقتزن به أيام الحياه هذه من أنواع الآلام و المصائب و المصاعب، أ فينتهي كلّ شيء بانتهائها؟! إنّ هذا

ص: ١٥٤

١ - ١) - «لاعب» من ماده (لعب)، و يقول الراغب في المفردات: لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصدا صحيحا. و التثنيه في (ما بينهما) من أجل أنّ المراد جنس السماء و الأرض.

الأمر لا ينسجم مطلقاً مع حكمه الله.

بناء على هذا، فإنّ مشاهدته وضع هذا العالم و تنظيمه، تلزمننا التصديق بأنّه مدخل و ممر إلى عالم أعظم أبدى، فلما ذا لا تتفكرون في ذلك؟ لقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة مراراً في سور المختلفه، فيقول في الآيه (١٦) من سوره الأنبياء: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ .

و يقول في الآيه (٦٢) من سوره الواقعه: وَ لَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ .

و على أيه حال، فإنّ هنالك غايه وراء خلق هذا العالم، و هناك عالماً آخر يتبعه، في حين أنّ المذاهب الإلحاديه و المنكره للمعاد ترى بأنّ هذا الخلق عبث لا فائده من ورائه و لا هدف.

ثمّ تضيف الآيه التي بعدها لتأكيد الكلام: مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ .

إن كونه هذا الخلق حقاً يوجب أن يكون له هدف عقلائي، و ذلك الهدف لا يتحقق إلا بوجود عالم آخر. إضافة إلى أنّ كونه حقاً يقضى بأنّ لا يتساوى المحسنون و المسيئون، و لما كنا نرى كل واحد من هاتين الفئتين قلماً يرى جزاء عمله في هذه الدنيا، فلا بد من وجود عالم آخر يجرى فيه الحساب و الثواب و العقاب، ليتلقى كل إنسان جزاء عمله، خيراً أم شراً.

و خلاصه القول، فإنّ الحق في هذه الآيه إشاره إلى الهدف في الخلق، و اختبار البشر و قانون التكامل، و كذلك تنفيذ أصول العداله: وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لأنهم لا يعملون الفكر في التوصل إلى الحقائق، و إلا فإنّ أدله المبدأ و المعاد واضحه بينه.

من هم قوم تبع؟

لقد وردت كلمه (تبع) فى القرآن الكرىم مرتىن فقط: مره فى الآىات مورد البحث، و أخرى فى الآىه ١٤ من سوره (ق) حىث تقول: وَ أَصْحَابُ الْأَيْكِهِ وَ قَوْمٌ تُبِعَ كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ .

و كما أشرنا من قبل، فإن «تبعاً» كان لقباً عاماً لملوك اليمن، ككسرى لسلطىن إيران، و خاقان لملوك الترك، و فرعون لملوك مصر، و قىصر لسلطىن الروم.

و كانت كلمه (تبع) تطلق على ملوك اليمن من جهه أنهم كانوا يدعون الناس إلى اتباعهم، أو لأن أحدهم كان يتبع الآخر فى الحكم.

لكن يبدو أن القرآن الكرىم يتحدث عن أحد ملوك اليمن خاصه- كما أن فرعون المعاصر لموسى عليه السلام، و الذى يتحدث عنه القرآن كان معينا و محمداً- و ورد فى بعض الرواىات أن اسمه «أسعد أبا كرب».

و يعتقد بعض المفسرىن أنه كان رجلاً مؤمناً، و اعتبروا تعبير «قوم تبع» الذى ورد فى آىتىن من القرآن دليلاً على ذلك، حىث أنه لم يذم فى هاتىن الآىتىن، بل ذم قومه، و الرواىه المرويه عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم شاهده على ذلك، ففى هذه

الرواىه أنه قال:

لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم (١).

و

جاء فى حدىث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن تبعاً قال للأوس و الخزرج: كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبى، أما لو أدركته لخدمته و خرجت معه» (٢).

و ورد فى رواىه أخرى: إن تبعاً لما قدم المدينه- من أحد أسفاره- و نزل بفنائها، بعث إلى أبحار اليهود الذىن كانوا يسكنونها فقال: إننى مخرب هذا البلد

ص: ١٥٦

(١-١) - مجمع البيان، المجلد ٩، صفحه ٦٦ ذىل الآىه مورد البحث، و أورد نظىر هذا المعنى فى تفسىر الدر المنثور، و كذلك ورد فى روح المعانى، المجلد ٢٥، صفحه ١١٦.

حتى لا تقوم به يهوديه، ويرجع الأمر إلى دين العرب.

فقال له شامول اليهودي- وهو يومئذ أعلمهم- أيها الملك إن هذا بلد يكون إليه مهاجر نبي من بنى إسماعيل، مولده بمكّه اسمه أحمد. ثم ذكروا له بعض شمائل نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم فقال تبع- وكأنه كان عالماً بالأمر- ما إلى هذا البلد من سبيل، و ما كان ليكون خرابها على يدي (١).

بل ورد في روايه في ذيل تلك القصة أنه قال لمن كان معه من الأوس و الخزرج: أقيموا بهذا البلد، فإنّ خرج النبي الموعود فأزروه و انصروه، و أوصوا بذلك أولادكم، حتى أنّه كتب رساله أودعهم إياها ذكر فيها إيمانه بالرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم (٢).

و يروى صاحب أعلام القرآن أنّ تبعاً كان أحد ملوك اليمن الذين فتحوا العالم، فقد سار بجيشه إلى الهند و استولى على بلدان تلك المنطقه. و قاد جيشاً إلى مكّه، و كان يريد هدم الكعبه، فأصابه مرض عضال عجز الأطباء عن علاجه.

و كان من بين حاشيته جمع من العلماء، كان رئيسهم حكيماً يدعى شامول، فقال له: إنّ مرضك بسبب سوء نيتك في شأن الكعبه، و ستشفى إذا صرفت ذهنك عن هذه الفكره و استغفرت، فرجع تبع عما أراد و نذر أن يحترم الكعبه، فلما تحسن حاله كسا الكعبه ببرد يمانى.

و قد وردت قصه كسوه الكعبه في تواريخ أخرى حتى بلغت حد التواتر. و كان تحرك الجيش هذا، و مسأله كسوه الكعبه في القرن الخامس الميلادى، و يوجد اليوم في مكّه مكان يسمى «دار التابعه» (٣).

و على أيه حال، فإنّ القسم الأعظم من تاريخ ملوك التابعه في اليمن لا يخلو

ص: ١٥٧

١- (١) -روح المعانى، المجلد الأوّل ٢٥، صفحه ١١٨.

٢- (٢) -المصدر السابق.

٣- (٣) -أعلام القرآن، ص ٢٥٧-٢٥٩ (بتلخيص).

من الغموض من الناحية التاريخيه، حيث لا- نعلم كثيرا عن عددهم، و مدّه حكومتهم، و ربّما نواجه في هذا الباب روايات متناقضه، و أكثر ما ورد في الكتب الإسلاميه-سواء كتب التفسير أو التأريخ أو الحديث-يتعلق بذلك الملك الذي أشار إليه القرآن في موضعين.

ص: ١٥٨

إشاره

إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصِرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢)

التفسير

إشاره

يوم الفصل!

تمثل هذه الآيات فى الحقيقه نتيجه الآيات السابقه التى بحثت مسأله المعاد، و التى استدل بها عن طريق حكمه خلق هذا العالم على وجود البعث و الحياه الأخرى.

فتستنتج الآيه الأولى من هذا الاستدلال: إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ .

كم هو جميل هذا التعبير عن يوم القيامة بيوم الفصل! ذلك اليوم الذى فصل فيه الحق عن الباطل، و تمتاز صفوف المحسنين عن المسيئين، و يعتزل فيه الإنسان أعزّ أصدقائه، و أقرب أخلائه.. نعم، إنه موعد كلّ المجرمين (١).

ص: ١٥٩

١ - ١) - احتمال المفسّرون احتمالات عديدة فى مرجع الضمير فى (ميقاتهم) فالبعض أرجعه إلى كلّ البشر، و البعض خصوص الأقوام الذين أشير إليهم فى الآيات السابقه، أى قوم تبع و العصاه من قبلهم. غير أنّ المعنى الأوّل هو الأصح.

ثم ذكرت الآيه التاليه شرحا موجزا ليوم الفصل هذا، فقالت: يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ .

أجل، ذلك اليوم هو يوم الفصل و الافتراق، يوم يفارق الإنسان فيه كل شىء إلا عمله، ولا يملك المولى -بأى معنى كان، الصاحب، الولي، ولي النعمه، القريب، الجار، الناصر و أمثال ذلك- القدره على حل أصغر مشكله من مشاكل القيامه.

«المولى» من ماده ولاء، و هى فى الأصل تعنى الاتصال بين شيئين بحيث لا يوجد بينهما حاجز، و له مصاديق كثيره وردت فى كتب اللغه كمعان مختلفه، تشترك جميعا فى معناها الأصلي و جذرها (1).

فى ذلك اليوم لا يجيب الرفيق رفيقه، و ترى الأقارب لا يحل بعضهم مشكله بعض، بل و تتبخر كل الخطط و تتقطع جميع الأواصر الدينويه كما نقرأ هذه الصوره فى الآيه (٤٦) من سوره الطور: يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ .

أما ما هو الفرق بين «لا يغنى» و بين «لا هم ينصرون»؟ فإن أحسن ما يقال هو:

أن الأول إشاره إلى أن أى فرد لا يقدر فى ذلك اليوم على حل مشكله فرد آخر بصوره انفراديه مستقله، و الثانى إشاره إلى أنهم عاجزون عن حل المشاكل حتى و إن تعاونوا فيما بينهم، لأن النصره تقال فى موضع يهب فيه شخص لمعونه آخر و مسانده حتى ينصره على المشاكل.

لكن هناك جماعه واحده مستثناه فقط، و هى التى أشارت إليها الآيه التاليه، فقالت: إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

لا شك أن هذه الرحمه الإلهيه لا تمنح اعتبارا، بل تشمل الذين آمنوا و عملوا الصالحات فقط، و إذا كانوا قد بدر منهم زلل و معصيه، فإنها لا تبلغ حدا تقطع فيه

ص: ١٦٠

١-١) -لقد ذكرت للمولى معان كثيره فى اللغه، وعددها البعض سبعة و عشرين معنى: ١- الرب ٢- العم ٣- ابن العم ٤- الابن ٥- ابن الأخت ٦- المعتق ٧- المعتق ٨- العبد ٩- المالك ١٠- التابع ١١- المنعم عليه ١٢- الشريك ١٣- الحليف ١٤- الصاحب ١٥- الجار ١٦- النزيل ١٧- الصهر ١٨- القريب ١٩- المنعم ٢٠- الفقيد ٢١- الولي ٢٢- الأولى بالشىء ٢٣- السيد غير المالك و المعتق ٢٤- المحب ٢٥- الناصر ٢٦- المتصرف فى الأمر ٢٧- المتولى فى الأمر. (الغدیر، المجلد ١، صفحه ٣٦٢).

علاقتهم بالله سبحانه، فهم يرفعون أكفهم إلى الله و يرجون رحمته، فيتنعمون بها، و يرتوون منها، و يتمتعون بشفاعه أوليائه.

من هنا يتضح أنّ نفى وجود صديق و ولى و نصير فى ذلك اليوم لا ينافى مسأله الشفاعه، لأنّ الشفاعه أيضا لا تحصل إلا بإذن الله تعالى.

و الطريف أنّ الآيه قرنت وصفه سبحانه بكونه عزيزا و رحيمًا، و الأوّل إشاره إلى قدرته اللامتناهيه التى لا تعرف الهزيمه و الضعف، و الثانى إشاره إلى رحمته التى لا حدود لها، و المهم أن تكون رحمته عين قدرته.

و قد روى فى بعض روايات أهل البيت عليهم السّلام أنّ المراد من جمله: [□]إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ [□]وصى النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم أمير المؤمنين على عليه السّلام و شيعته (1).

و لا يخفى أنّ الهدف منها هو بيان المصداق الواضح.

ص: ١٦١

اشاره

إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ (٤٣) طَعَامٌ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلِي الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧)
ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠)

التفسير

اشاره

شجره الزقوم!

تصف هذه الآيات أنواعا من عذاب الجحيم وصفا مرعبا يهز الأعماق، وهي تكمل البحث الذي مرّ في الآيات السابقة حول يوم الفصل والقيامة، فتقول: إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامٌ الْأَثِيمِ فهؤلاء المجرمون هم الذين يأكلون هذا النبات المر القاتل، والخبيث الطعام التتن الرائحة.

«الزقوم» كما قلنا في تفسير الآية (٤٢) من سوره الصافات- على قول المفسرين و أهل اللغة، اسم شجره لها أوراق صغيره و ثمره مرّه خشنه اللمس منتنه الرائحة، تنبت في أرض تهامه من جزيره العرب، كان المشركون يعرفونها، وهي

شجره عصيرها مرّ، وإذا أصابت البدن تورّم (١).

و يعتقد البعض أنّ الزقوم فى الأصل يعنى الابتلاع (٢)، و يقول البعض: إنّها كلّ طعام خبيث فى النار (٣).

و جاء فى حديث أنّ هذه الكلمه لما نزلت فى القرآن قال كفار قريش: ما نعرف هذه الشجره، فأتيكم يعرف معنى الزقوم؟ و كان هناك رجل من أفريقيه قال: هى عندنا التمر و الزبد-و ربّما قال ذلك استهزاء- فلما سمع أبو جهل ذلك قال مستهزئاً: يا جاريه زقمينا، فأتته الجاريه بتمر و زبد، فقال لأصحابه: تزقموا بهذا الذى يخوفكم به محمّد (٤).

و ينبغى الالتفات إلى أنّ «الشجره» أتت فى لغه العرب و الاستعمالات القرآنيه بمعنى الشجره أحياناً، و بمعنى مطلق النبات أحياناً. و «الأثيم» من ماده إثم، و هو المقيم على الذنب، و المراد هنا الكفار المعاندون المعتقدون، المصرون على الذنوب و المعاصى المكثرون منها.

ثمّ تضيف الآيه: كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ .

«المهل»-على قول كثير من المفسّرين و أرباب اللغه-الفلز المذاب، و على قول آخرين-كالراغب فى المفردات-هو دردىّ الزيت، و هو ما يترسب فى الإناء، و هو شىء مرغوب فيه جداً، لكن يبدو أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب.

«و الحميم» هو الماء الحار المغلى، و تطلق أحياناً على الصديق الوثيق العلاقه و الصداقه، و المراد هنا هو المعنى الأوّل.

على أى حال، فعند ما يدخل الزقوم بطون هؤلاء، فإنّه يولد حراره عاليه لا تطاق، و يغلى كما يغلى الماء، و بدل أن يمنحهم هذا الغذاء القوه و الطاقه فإنّه

ص: ١٦٣

١-١) -مجمع البيان، تفسير روح البيان، تفسير روح المعانى.

٢-٢) -لسان العرب ماده «زقم».

٣-٣) -مفردات الراغب ماده (زقم).

٤-٤) -تفسير القرطبي، المجلد ٨، صفحه ٥٥٢٩ ذيل الآيه (٦٢) من سوره الصافات.

يهبهم الشقاء و العذاب و الألم و المشقه.

ثم يخاطب سبحانه خزنه النار، فيقول: خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم .

«فاعتلوه» من ماده العتل، و هى الأخذ و السحب و الإلقاء. و هو ما يفعله حماه القانون و الشرطه مع المجرمين المتمردين، الذى لا يخضعون لأى قانون و لا يطبقونه.

«سواء» بمعنى الوسط، لأند المسافه إلى جميع الأطراف متساويه، و أخذ أمثال هؤلاء الأشخاص و إلقاءهم فى وسط جهنم باعتبار أن الحرارة أقوى ما تكون فى الوسط، و النار تحيط بهم من كل جانب.

ثم تشير الآيه التاليه إلى نوع آخر من أنواع العقاب الأليم الذى يناله هؤلاء فتقول: ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (١) و بهذا فإنهم يحترقون من الداخل، و تحيط النار بكل وجودهم من الخارج، و إضافه إلى ذلك يصب على رؤوسهم الماء المغلى فى وسط الجحيم.

و قد ورد نظير هذا المعنى فى الآيه (١٩) من سوره الحج حيث تقول: يُصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ .

و بعد كل أنواع العذاب الجسمى هذه، تبدأ العقوبات الروحيه و النفسيه، فيقال لهذا المجرم المتمرد العاصى الكافر: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ فأنت الذى كنت قد قيدت البؤساء فباتوا فى قبضتك تظلمهم كيف شئت، و تعذبهم حسبما تشتهى، و كنت تظن أنك قوى لا تقهر، و عزيز لا يمكن أن تهان و يجب على الجميع احترامك و تقديرك.

نعم، أنت الذى ركبك الغرور فلم تدع ذنبا لم ترتكبه، و لا موبقه لم تأتها، فذق الآن نتيجه أعمالك التى تجسدت أمامك، و كما أحرقت أجسام الناس و آلمت

ص: ١٦٤

(١ - ١) - عذاب الحميم من قبيل الإضافه البيانيه، أى إن هذا الماء المحرق عذاب يصب على هؤلاء.

أرواحهم، فليحترق الآن داخلك و خارجك بنار غضب الله و الماء المغلى الذى يصهر ما فى بطونهم و الجلود.

و

جاء فى حديث أن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم أخذ يوما بيد أبى جهل و قال: «أولى لك فأولى» فغضب أبو جهل و جرّ يده و قال: بأى شىء تهددنى؟ ما تستطيع أنت و صاحبك أن تفعلوا بى شيئا، إني لمن أعز هذا الوادى و أكرمه.

و الآيه ناظره إلى هذا المعنى، فنقول: عند ما يلقونه فى جهنم يقولون له: ذق يا عزيز مكّه و كريمها (١).

و يضيف القرآن الكريم فى آخر آيه-من الآيات مورد البحث-مخاطبا إياهم:

إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ

فكم ذكرناكم بحقانيه هذا اليوم و حقيقته فى مختلف آيات القرآن و بمختلف الأدله؟! ألم نقل لكم: كَذَلِكَ الْخُرُوجُ؟ (٢).

ألم نقل: كَذَلِكَ النُّشُورُ؟ (٣).

ألم نقل: وَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ؟ (٤).

ألم نقل: أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ؟ (٥).

و خلاصه القول: قد قلنا لكم الحقيقه و أوضحناها بطرق مختلفه، لكن لم تكن لكم آذان تسمعون بها.

ص: ١٦٥

١-١) -تفسير المراغى، المجلد ٢٥، صفحہ ١٣٥ ذیل الآيات مورد البحث، و تفسير روح المعانى، و التفسير الكبير للفخر الرازى.

٢-٢) -سوره ق، الآيه ١١.

٣-٣) -سوره فاطر، الآيه ٩.

٤-٤) -سوره التغابن، الآيه ٧.

٥-٥) -سوره ق، الآيه ١٥.

العقوبات الجسميه و الروحيه:

نحن نعلم، و طبقا لصريح القرآن، أنّ للمعاد جانبا جسميا، و آخر روحيا، و على ذلك فمن الطبيعي أن تكون العقوبات و المثوبات متصفتين بهما كذلك، و لذلك أشير في آيات القرآن الكريم و الروايات الإسلاميه إلى كلا القسمين، غايه ما في الأمر أن انتباه الناس و إحساسهم لِمَا كان منصبا على الأمور الجسميه غالبا، لذلك يلاحظ أنّ التفصيل في العقوبات و المثوبات الماديه أكثر، لكن لا يعنى هذا أن الإشاره إلى المثوبات و العقوبات المعنويه قليله.

و قد رأينا في الآيات أعلاه نموذجا لهذا المطلب، فمع ذكر عدّه أقسام من العقوبات الجسميه الأليمه، هناك إشاره و جيزه عميقه المحتوى إلى الجزاء الروحي الذي سينال المستكبرين.

و تلاحظ في آيات أخرى من القرآن الإشاره إلى المثوبات الروحيه أيضا، فيقول الله تعالى في موضع: **وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ** (١).

و يقول في موضع آخر: **سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ** (٢).

و أخيرا يقول في موضع ثالث: **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلِيٍّ شُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** (٣).

و لا يخفى أنه لا يمكن وصف اللذائذ المعنويه غالبا و خاصّه في ذلك العالم الواسع، و لذلك فقد أشير إليها في القرآن إشاره غامضه عاده، أمّا العقوبات الروحيه التي تكون بالتحقير و الإهانه، التوبيخ و التقرع، و الأسف و الهم و الحزن، فقد وصفتها الآيات و أوضحتها، و قد قرأنا نماذج منها في الآيات أعلاه.

ص: ١٦٦

١-١) -سوره التوبه، الآيه ٧٢.

١-٢) -سوره يس، الآيه ٥٨.

١-٣) -سوره الحجر، الآيه ٤٧.

اشاره

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضَلًّا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧)

التفسير

اشاره

المتقون و مختلف نعم الجنه:

لما كان الكلام في الآيات السابقه عن العقوبات الأليمه لأهل النار، فإن هذه الآيات تذكر المواهب و النعم المعده لأهل الجنه، لتوضح أهميه كل منهما من خلال المقارنه بينهما.

و قد لخصت هذه المواهب في سبعة أقسام:

الأولى: هي إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (١) على هذا فلا يصيبهم أي إزعاج أو

ص: ١٦٧

١-١) -مما يستحق الانتباه أن(أمين) قد ذكر وصفا للمقام، فكأن مقام أهل الجنه أمين بنفسه و لا يخون أهل الجنه مطلقا، و مثل هذه التعبيرات تأتي عادة للتأكيد و المبالغه.

خوف، بل هم فى أمن كامل من الآفات و البلايا، من الغم و الأحزان، و من الشياطين و الطواغيت.

ثم تطرقت الآيات إلى النعمة الثانية فقال: [□] فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ .

إن التعبير بالجنات يمكن أن يكون إشاره إلى تعدد الحدائق و البساتين التى يتمتع بها كل فرد من أهل الجنة، فهى تحت تصرفه، أو تكون إشاره إلى مقاماتهم المختلفه و درجاتهم المتفاوته، لأن حدائق الجنة و بساتينها غير متساويه، بل تختلف باختلاف درجات أصحاب الجنة.

و تشير الثالثه إلى ملابسهم الجميله، فنقول: [□] يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ .

«السندس» يقال للأقمشه الحريريه الناعمه الرقيقه، و أضاف البعض قيد كونها مذهبه.

و «الإستبرق» هى الأقمشه الحريريه السميكه، و يعتقد بعض المفسرين و أهل اللغه أنها معربه من الكلمه الفارسيه (أستبر) أو (ستبر) أى السميك. و يحتمل أن يكون أصلها عربيا مأخوذا من البرق أى التلألؤ، حيث أن لهذه الأقمشه بريقا خاصا.

طبعاً، ليس فى الجنة حرّ شديد أو برد قارص ليتوقاه أهل الجنة بارتداء هذا الملابس، بل هذه إشاره إلى الألبسه المتنوعه المعده لهم.

و كما قلنا سابقاً، فإنّ كلماتنا و ألفاظنا-هذه التى وضعت لرفع حاجات الحياه اليوميه فى دنيانا-عاجزه عن وصف مسائل ذلك العالم الكامل العظيم، بل هى قادره على الإشاره إليها و حسب.

و اعتقد البعض أنّ اختلاف هذه الألبسه إشاره إلى تفاوت مقامات القرب بين أصحاب النعيم.

ثم إنَّ كون أهل الجنَّة متقابلين مع بعضهم البعض، و زوال أى تفاوت و تكبير لأحد على آخر، إشاره إلى روح الأنس و الأخوه التى تسود مجالسهم، تلك المجالس و الحلقات التى لا يرى فيها إلا الصفاء و المودَّة و تسامى الروح.

و تصل النوبه فى النعمه الرابعه إلى أزواجهم، فتقول: كَذَلِكَ وَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ .

«الهور» جمع حوراء و أحور، و تقال لمن اشتد سواد عينه، و اشتد بياض بياضها. و «العين» جمع أعين و عيناء، أى أوسع العين، و لما كان أكثر جمال الإنسان فى عينه، فإنَّ الآيه تصف عيون الحور العين الجميله الساحره. و قد ذكرت محاسنهن الأخرى بأسلوب رائع فى آيات أخرى من القرآن.

ثم تناولت الآيه الأخرى النعمه الخامسه لأصحاب الجنَّة فقالت: يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمْنِينَ فلا توجد فى الجنَّة تلك هنا المشكلات و الصعوبات التى كانوا يعانونها فى تناول فاكهه الدنيا، فإنَّها قريبه منهم و فى متناولهم، و على هذا فليس هناك بذل جهد لاقتطاف الأثمار من الأشجار العالیه، إذ قُطِفَتْهَا دَائِيَهُ (١).

و إليهم يرجع اختيار الفاكهه التى يشتهونها: وَ فَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢).

و لا- أثر هنا للأمراض و الاضطرابات التى قد تحدث فى هذه الدنيا على أثر تناول الفواكه، و كذلك لا خوف من فسادها و قتلها، فهم فى راحه و أمن و اطمئنان من الجهات.

و على أىه حال، فإذا كان الرقوم طعام أهل النار الذى يغلى فى بطونهم كغلى الحميم، فإنَّ طعام الجنَّة هى الفواكه اللذيذه الخاليه من كلِّ أذى و إزعاج.

خلود الجنَّة و نعمها هى النعمه السادسه من نعم الله سبحانه على المتقين، لأنَّ الذى يقلق فكر الإنسان عند الوصال و اللقاء هو خوف الفراق، و لذلك تقول الآيه:

ص: ١٦٩

١-١) -سوره الحاقه، الآيه ٢٣.

٢-٢) -سوره الواقعه، الآيه ٢٠.

و الطريف أنّ القرآن الكريم قد بيّن كون نعم الجنّة خالده بتعابير مختلفه، فيقول تاره: **خَالِدِينَ فِيهَا (١)** و يقول أخرى: **عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ (٢)** أما لماذا عبر ب **الْمَوْتَةَ الْأُولَى** فسيأتى بيانه فى التأمّلات، إن شاء الله تعالى.

و أخيرا بيّن القرآن الكريم السابع من النعم و آخرها، فيقول: **وَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَإِنَّ كَمَالَ هَذِهِ النِّعَمِ إِنَّمَا يَتَمَّعُ بِهَا مَا يَخْلُقُ** فكر أصحاب الجنّة من احتمال العذاب، و عدم انشغالهم به، لئلا يقلقوا فيتكدر صفوهم فلا تكمل تلك النعم حينئذ.

و هذا التعبير يشير إلى أنّ المتقين إن كانوا خائفين مما بدر منهم من هفوات، فإنّ الله سبحانه سيعفو عنها بلطفه و كرمه، و يطمئنهم بأنّ لا يدعوا للخوف إلى أنفسهم سيلا- و بتعبير آخر، فإنّ غير المعصومين مبتلون بالهفوات شاؤوا أم أبوا، و هم فى خوف و قلق منها ما داموا غير مطمئنين بشمول العفو الإلهى لهم، و هذه الآيه تمنحهم الاطمئنان و الراحة و الأمان من هذه الجهه.

و هنا يطرح سؤال، و هو: إنّ بعض المؤمنين يقضون مدّه فى الجحيم بذنوب اقترفوها، ليتطهروا منها، ثمّ يدخلون الجنّة، فهل تشملهم الآيه المذكوره؟ و يمكن القول فى معرض الإجابة عن هذا السؤال، بأنّ الآيه تتحدث عن المتقين ذوى الدرجات الساميه، و الذين يردون الجنّة من أوّل وهله، أما الفئه الأخرى فهى ساكتة عنهم.

و يحتمل أيضا أنّ هؤلاء عند ما يدخلون الجنّة فلن يخشوا بعد ذلك العوده إلى النار، بل يقون من الأمن الدائم، و هذا يعنى أنّ الآيه أعلاه ترسم صورته هؤلاء و حالهم بعد دخولهم الجنّة.

و أشارت آخر آيه- من هذه الآيات- إلى جميع النعم السبعه، و كنتيجة لما مر

ص: ١٧٠

١-١) -ورد هذا التعبير فى آيات كثير من القرآن، و من جملتها: آل عمران-١٣٦، النساء-١٢٢، المائدة-٨٥، و غيرها.

٢-٢) -سوره هود، الآيه ١١٠.

تقول: فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١).

صحيح، إنَّ المتقين قد عملوا الكثير من الصالحات والحسنات، إلا أنَّ من المسلم أن تلك الأعمال جميعاً لا تستحق كلَّ هذه النعم الخالده، بل هي فضل من الله سبحانه، إذ جعل كلَّ هذه النعم والعطايا تحت تصرفهم و وهبهم إيَّها.

هذا إضافه إلى أنَّ هؤلاء لم يكونوا قادرين على كسب كلَّ هذه الحسنات ولا على فعل الحسنات لو لم يشملهم فضل الله و توفيقه، و لطفه، فهو الذى منحهم العقل و العلم، و هو الذى أرسل الأنبياء و الكتب السماويه، و هو الذى غمرهم بتوفيق الهدايه و العمل.

نعم، إنَّ استغلال هذه المنح العظمى، و الوصول إلى كلَّ تلك العطايا و الثواب، إنما تمَّ بفضل الله سبحانه إذ وهبهم إيَّها، و لم يكن هذا الفوز العظيم ليحصل إلاَّ فى ظل لطفه و كرمه.

بحث

إشاره

ما هي الموته الأولى؟

قرأنا فى الآيات المذكوره أعلاه، أنَّ أصحاب الجنه لا يذوقون إلاَّ الموته الأولى، و هنا تطرح أسئله ثلاثه:

الأول: ما المراد من الموته الأولى؟ فإنَّ كان المراد الموت الذى تنتهى به الحياه الدنيا، فلما تقول الآية: [□] لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى [□] فى حين أنَّهم قد ذاقوها، و عليه يجب أن يأتى الفعل بصيغه الماضى لا المضارع؟ و للإجابة عن هذا السؤال اعتبر البعض (إلاَّ) فى جملة [□] إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى [□]

ص: ١٧١

١ - ١) - احتملت عدّه احتمالات فى إعراب (فضلاً): أحدها: إنَّها مفعول مطلق لفعل محذوف، و التقدير: فضلهم فضلاً، و الآخر: أنَّه مفعول لأجله، أو أنَّها حال.

بمعنى (بعد)، وقالوا: إنَّ معنى الآية هو أنَّهم لا يذوقون موتا بعد موتهم الأولى.

و قدَّر البعض الآخر تقديرا في الكلام فقالوا: إنَّ التقدير هو: إلاَّ الموتة الأولى التي ذاقوها (١).

الثاني: هو: لماذا ورد الكلام عن الموتة الأولى فقط، في حين أننا نعلم أنَّ الإنسان يذوق الموت مرَّتين: مرَّه عند انتهاء حياته، و أخرى بعد حياه البرزخ؟ و قد ذكروا للإجابة على هذا السؤال عدة إجابات كلها غير مرضيه، فأثرنا عدم ذكرها لعدم استحقاقها الذكر.

و الأفضل أن يقال: إنَّ الحياه و الموت في البرزخ لا يشبهان أبدا الحياه و الموت العاديين، بل إنَّ حياه القيامة تشبه الحياه الدنيا من وجوه عديده بمقتضى المعاد الجسماني، غايه ما هناك أنَّها في مستوى أعلى و أسمى، و لذلك يقال لأصحاب الجنَّة: لا موتة بعد الموتة الأولى التي ذقتموها، و لما كانت الحياه و الموت في البرزخ لا شباهه لهما بحياه الدنيا و موتها لذا لم يرد الكلام حولهما (٢).

السؤال الثالث هو: إنَّ عدم وجود الموت في القيامة لا ينحصر بأصحاب الجنَّة، بل أصحاب النَّار لا يموتون أيضا، فلما ذا أكَّدت الآية على أصحاب الجنَّة؟ للمرحوم الطبرسي جواب رائع عن ذلك، فهو يقول: إنَّ ذلك بشاره لأهل الجنَّة، بأن لهم حياه خالده هنيئه، أما أصحاب النَّار الذين يعتبر كلُّ لحظه من لحظات حياتهم موتا، و كأنَّهم يحيون و يموتون دائما، فلا معنى لهذا الكلام في حقهم.

و على أيه حال، فإنَّ التعبير هنا ب لا يذوقون إشارة إلى أنَّ أصحاب الجنَّة لا يرون و لا يعانون أدنى أثر من آثار الموت.

و جميل أن نقرأ

في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنَّ الله تعالى يقول لبعض أهل

ص: ١٧٢

١-١) -بناء على هذا فإنَّ الاستثناء أعلاه منقطع أيضا لأنَّ أصحاب الجنَّة لا يذوقون مثل هذا الموت، بل ذاقوه من قبل (فتأمل!).

٢-٢) -الحياه و الموت في البرزخ في ذيل الآية (١١) من سوره المؤمن.

الجَنَّة: «و عزتي و جلالى، و علوى و ارتفاع مكانى لأنحلنّ لهم اليوم خمسہ أشياء:

□
ألا إنهم شباب لا يهرمون، و أصحاب لا يسقمون، و أغنياء لا يفتقرون، و فرحون لا يحزنون، و أحياء لا يموتون» ثم تلا هذه الآية: لا
يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى □ (١).

ص: ١٧٣

١- (١) - أصول الكافي، طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين، المجلد ٤، صفحہ ٦٣٤.

اشاره

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩)

التفسير

اشاره

ارتقب فإنهم مرتقبون!

قلنا: إنَّ سوره الدخان بدأت ببيان عظمه القرآن و عمقه، و تنتهى بهذه الآيات التى تبين كذلك التأثير العميق لآيات القرآن الكريم، لتنسجم بذلك بدايه السوره مع نهايتها، و ما هو مبين أيضا بين البدايه و النهايه هو التأكيد على مواعظ القرآن و نصحه.

تقول الآيه الأولى: فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فمع أنّ محتواه عميق جدا، و أبعاده متراميه، لكنه بسيط واضح، يفهمه الجميع، و تقتبس من أنواره كلّ الطبقات، أمثاله جميله رائعه، و تشبهاته واقعيه بليغه، و قصصه حقيقيه تربويه، دلائله واضحه محكمه، و بيانه مع عمقه بسيط سهل، مختصر عميق المحتوى، و هو فى الوقت نفسه ذو حلاوه و جاذبيه، ينفذ إلى أعماق قلوب البشر، فينبه الغافلين،

و يعلم الجاهلين، و يذكر من كان له قلب.

و قد ذكر بعض المفسرين تفسيراً آخر لهذه الآية، يكون معنى الآية طبقاً له: إنك و إن كنت أمياً لم تدرس و تتعلم، لكنك تستطيع أن تقرأ بكل يسر و سهوله هذه الآيات العميقة الغنية المحتوى، و التي تبين الوحي و الإعجاز الإلهي. غير أن التفسير الأول أنسب.

و هذه الآية-فى الواقع-شبيهة بالآية التي تكررت عدّة مرات فى سورة القمر:

وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ؟! لكن لما كان هناك جماعه لم يدعوا لأمر الله، و لم يسلموا و يستسلموا رغم ذكر كل هذه الأوصاف، فقد هددهم الآية الأخيره و حذرتهم فقالت: فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ فانتظر ما وعدك الله بالنصر على الكفار، و لينتظروا الهزيمة و الخسران...

انتظر نزول عذاب الله الأليم على هؤلاء المعاندين الظالمين، و دعهم ينتظرون هزيمتك و عدم تحقق أهدافك الساميه، ليعلم أى الانتظارين هو الصحيح؟ بناء على هذا، ينبغى أن لا- يستفاد أبداً من الآية أن الله سبحانه يأمر نبيه أن يكف كلياً عن إبلاغهم رسالته، و ينهى نشاطه و فعالياته و جهاده، و يكتفى بأن يكون منتظراً للنتيجه، و إنما هو نوع تهديد لأولئك المتعصيين عسى أن يستيقظوا من سباتهم، و يتنبهوا من غفلتهم.

ملاحظات

١- «ارتقب» فى الأصل مأخوذه من الرقبه، و لما كان من ينتظر شيئاً يمد رقبتة نحوه دائماً، فقد جاءت بمعنى انتظار الشيء و مراقبته.

ص: ١٧٥

٢- إن الآيات إعلاء تبيين بوضوح أنّ القرآن الكريم لا يختص بطبقه خاصه أو قوم معينين، بل هو لإفهام الجميع و تذكيرهم و إثارة تفكيرهم، و على هذا، فإن أولئك الذين يجعلون القرآن مجموعه من المفاهيم المبهمة الألغاز المحيره التي لا يفهمها و لا يعلمها إلا طبقه خاصه، بل و حتى هذه طبقه لا تفهم منه شيئاً و لا تدرك أبعاده، غافلون في الحقيقه عن روح القرآن.

إنّ القرآن يجب أن يحيا بين الناس و يحضر بينهم حيثما كانوا، في المدينه و القرية، في الخلاء و الملاء، في المدار الابتدائيه و الجامعات، في المسجد و ميادين الحرب، و في كلّ مكان يوجد فيه إنسان، لأنّ الله سبحانه قد يسّره ليتذكر الجميع و يقتبسوا من أنواره ما يضيئون به حياتهم.

و كذلك قضت هذه الآيه ببطلان أفكار أولئك الذين حبسوا القرآن في إطار طريقه تلاوته و قواعد تجويده و تعقيدها، و أصبح همهم الوحيد أداء ألفاظه من مخارجها، و مراعاة آداب الوقف و الوصل فتقول لهم: إنّ كلّ ذلك من أجل التذكر الذي يكون عامل حركه و باعثاً على العمل في الحياه، فإنّ رعايه ظواهر الألفاظ صحيح في محله، إلاّ أنّه ليس الهدف النهائي، بل الهدف هو فهم معانى القرآن لا ألفاظه.

-٣-

ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «لولا تيسيره لما قدر أحد من خلقه أن يتلفظ بحرف من القرآن، و أنى لهم ذلك و هو كلام من لم يزل و لا يزال» (١).

اللهم اجعلنا ممن يتعظ بالقرآن العظيم، و يتذكر و يتدبر فيه، و يجعل حياته في جميع أبعادها تبعاً لمفاهيمه و أحكامه.

اللهم امنحنا من ذلك الأمن الذي و هبته المتقين، فجعلتهم مطمئنين موقنين

ص: ١٧٦

أمام عواصف الأحداث و المصاعب الجمه التي تعترضهم.

إلهنا... إنَّ مواهبك لا تحصى، و رحمتك لا تحد، و عذابك أليم، و ليست أعمالنا بالتي تجعلنا مؤهلين لنيل رحمتك و النجاه من عذابك.

اللهمّ فانشر علينا من رحمتك، و أفض علينا من فضلك الذي وعدت به المتقين من عبادك، و إلاّ فلا. سبيل لنا إلى جنتك الخالده.

آمين ربّ العالمين نهايه سوره الدخان ***

ص: ١٧٧

سوره الجاثيه

اشاره

مكيه و عدد آياتها سبع و ثلاثون آيه

ص: ١٧٩

محتوى السوره:

هذه السوره-و هي سادس الحواميم-من السوره المكيه،و قد نزلت فى وقت كانت المواجهه بين المسلمين و مشركى مكّه قد اشتدت و سادت الأجواء الاجتماعيه فى مكّه،و لذلك فإنّها أكّدت على المسائل المتعلقه بالتوحيد، و محاربه الشرك،و تهديد الظالمين بمحكمه القيامه،و التنبيه إلى كتابه الأعمال و تسجيلها،و كذلك التنبيه إلى عاقبه الأقسام المتمردين الماضين.

و يمكن تلخيص محتوى هذه السوره فى سبعة فصول:

- ١-عظمه القرآن المجيد و أهميته.
- ٢-بيان جانب من دلائل التوحيد أمام المشركين.
- ٣-ذكر بعض ادعاءات الدهريين،و الردّ عليها بجواب قاطع.
- ٤-إشاره و جيزه إلى عاقبه بعض الأقسام الماضين-كبنى إسرائيل-كشاهد على مباحث هذه السوره.
- ٥-تهديد الضالين المصرين على عقائدهم المنحرفه و المتعصبين لها تهديدا شديدا.
- ٦-الدعوه إلى العفو و الصفح،لكن مع الحزم و عدم الانحراف عن طريق الحق.
- ٧-الإشارات البليغه المعبره إلى مشاهد القيامه المهوله،و خاصه صحيفه

الأعمال التي تشتمل على كل أعمال الإنسان دون زياده أو نقصان.

وتبدأ هذه السوره بصفات و أسماء الله عزّ و جلّ العظيمة كالعزيز و الحكيم، و تنتهى بها أيضا.

و اسمها مقتبس من الآيه ٢٨ منها، و«الجاثيه» تعنى الجثو على الركب، و هى إشاره الى وضع كثير من الناس فى ساحه القيامه، فى محكمه العدل الإلهيه تلك.

و قد ذكر المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان اسما آخر لهذه السوره غير مشهور، و هو (الشريعه) مستلهم من الآيه (١٨) من هذه السوره.

فضل تلاوه السوره:

نقرأ

فى حديث عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم: «من قرأ حاميم الجاثيه ستر الله عورته، و سكن روعته عند الحساب» (١).

و

ورد فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «من قرأ سوره الجاثيه كان ثوابها أنّ لا يرى النار أبدا، و لا يسمع زفير جهنم و لا شهيقها، و هو مع محمد» (٢).

ص: ١٨٢

١-١) - تفسير مجمع البيان، بدايه سوره الجاثيه.

٢-٢) - تفسير البرهان، بدايه سوره الجاثيه، المجلد ٤، ص ١٦٧.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَائِهِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبَأَى حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)

التفسير

اشاره

آيات الله في كل مكان:

قلنا: إن هذه هي السوره هي سادس السور التي تبدأ بالحروف المتقطعه (حم) و هي تشكل مع السوره الآتيه-أى سوره الأحقاف- سور الحواميم السبعه.

و قد بحثنا مرارا في تفسير الحروف المتقطعه في بدايات سوره البقره و آل

عمران، وكذلك في الحواميم.

يقول المرحوم الطبرسي في بدايه هذه السوره: إنّ أحسن ما يقال هو أنّ (حم) اسم هذه السوره. ثمّ ينقل عن بعض المفسّرين، أنّ تسميه هذه السوره ب(حم) للإشاره إلى أنّ هذا القرآن المعجز بتمامه يتكون من حروف الألف باء.

نعم، إنّ كتاب النور والهدايه والإرشاد وحل المعضلات ومعجزه نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلّم الخالده هذا، يتركب من هذه الحروف البسيطة، وغايه العظمه أن يتكون أمر بهذه الأهميه من هذه الحروف السهله البسيطة.

وربّما كان هذا هو السبب في أن تتحدث الآيه التاليه عن عظمه القرآن مباشره فتقول: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١).

«العزیز» هو القوى الذى لا يقهر، و«الحكيم» هو العارف بأسرار كلّ شيء، وتقوم كل أفعاله على أساس الحكمه والدقه، ومن الواضح أنّ الحكمه التامه والقوه اللامحدوده من لوازم تنزيل مثل هذا الكتاب العظيم، وهما غير موجودتين إلاّ في الله العزیز المتعال.

والطريف أنّ هذه الآيه قد وردت على هذه الهيئه في بدايه أربع سور من القرآن الكريم، ثلاث منها من الحواميم - وهي المؤمن والجاثيه والأحقاف - والأخرى من غير الحواميم، وهي سوره الزمر. وهذا التكرار والتأكيد يهدف إلى جلب انتباه الجميع إلى عمق أسرار القرآن وعظمه محتواه، لئلا ينظروا ببساطه وعدم تدبر إلى أيه عباره أو تعبير من تعابيره، ولئلا يظنوا أنّ هذه الكلمه أو تلك لا محل لها ولا فائده من ذكرها، لكي لا يقنعوا بحدّ معين من فهمه وإدراكه، بل ينبغي أن يكونوا في سعي دؤوب للتوصل إلى أعمق ممّا أدركوه.

ص: ١٨٤

١-١) - (تنزيل الكتاب) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: (هذا تنزيل الكتاب)، ثمّ إنّ (تنزيل) مصدر جاء هنا بمعنى اسم المفعول، وهو من قبيل إضافه الموصوف إلى الصفه، وتقدير الكلام: هذا كتاب منزل...

و هنا نكتة تستحق الالتفات، و هي أنّ صفه (العزیز) قد وردت أحيانا لوصف نفس القرآن، مثل: **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (١)**، فإنه عزیز لا- تصل إليه أيدي الذين يقولون بعدم فائدته، و لا- ينقص مر الزمان من أهميته، و لا تبلى حقائقه و لا تفقد قيمتها، و يفضح المحرفين أو من يحاول تحريفه، و يشق طريقه إلى الأمام دائما رغم كل ما يوضع أمامه من عراقيل.

و قد تأتي هذه الصفه في حق منزله جل و علا، كما في هذه الآيه، و كلاهما صحيح.

ثم تناولت الآيه التي بعدها بيان آيات الله سبحانه و دلائل عظمته في الآفاق و الأنفس، فقالت: **إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ .**

إن عظمه السماوات من جانب، و نظامها العجيب الذي مرّت عليه ملايين السنين الذي لم ينحرف عما سار عليه قيد أنمله، من جانب آخر، و نظام خلقه الأرض و عجائبها، من جانب ثالث، يكون كلّ منها آيه من آيات الله سبحانه.

إنّ للأرض-على قول بعض العلماء-أربع عشره حركه، و تدور حول نفسها بسرعه مذهله، و كذلك تدور حول الشمس بحركه سريعه، و أخرى مع المنظومه الشمسيه ضمن مجرّه «درب التبانة»، و هي تسير في طريق لا نهايه له، و سفر لا حدّ له، و مع ذلك فهي من الهدوء و الاستقرار بمكان، بحيث يستقر عليها الإنسان و كل الموجودات الحيه فلا يشعرون بأى اضطراب و تزلزل، حتى و لا بقدر رأس الإبره.

و هي ليست بتلك الصلابه التي لا يمكن معها أن تزرع، و تبني عليها الدور و البنايات، و لا هي رخوه و لا يمكن الثبات عليها، و الاستقرار فيها.

و قد هيئت فيها أنواع المعادن و وسائل الحياه لمليارات البشر، سواء الماضون منهم و الحاضرون و الآتون، و هي جميله تسحر الإنسان، و تفتنه.

و الجبال و البحار و جو الأرض-أيضا-كلّ منها آيه و سرّ من الأسرار.

ص: ١٨٥

غير أنّ علامات التوحيد هذه، وعظمه الله تعالى إنّما يلتفت إليها و ينتفع بها المؤمنون، أى طلاب الحق و السائرون فى طريق الله، أمّا عمى القلوب المغرورون المغفلون، فهم محرومون من إدراكها و الإحساس بها.

ثمّ انتقلت السوره من آيات الآفاق إلى آيات الأنفس، فقالت: وَ فِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

كما ورد فى العبارة المعروفة و المنسوبة إلى أمير المؤمنين على عليه السّلام: «أ تحسب أنّك جرم صغير، و فيك انطوى العالم الأكبر»، و كلّ ما هو موجود فى ذلك العالم الكبير يوجد منه نموذج مصغر فى داخل جسم الإنسان و روحه.

إنّ خصاله و صفاته مركبه من خصال الكائنات الحيه و صفاتها، و تنوع خلقته عصاره مجموعته من حوادث هذا العالم الكبير.

إنّ بناء خليه من خلاياه كبناء مدينه صناعيه عظيمه مليئه بالأسرار، و خلق شعره منه -بخصائصها و أسرارها المختلفه التى اكتشفت بقدره العلم و تطوره- آيه عظيمه من آيات الله العظيم.

إنّ وجود آلاف الكيلو مترات من العروق و الشرايين و الأورده الكبيره و الصغيره، و الأوعيه الدمويه الصغيره جدّا و الشعيرات المتناهيه فى الصغر فى بدن الإنسان، و آلاف الكيلو مترات من طرق المواصلات و أسلاك الاتصالات فى سلسله الأعصاب، و كيفيه ارتباطها و اتصالها بمركز قياده فى المخ، و الذى هو مزيج فذّ من العقد و الأسرار، و قوى فى الوقت نفسه، و كذلك طريقه عمل كلّ جهاز من أجهزه البدن الداخليه و انسجامها العجيب فى مواجهه الأحداث المفاجئه، و الدفاع المستميت للقوى المحافظه على البدن ضد هجوم العوامل الخارجيه... كلّ واحد من هذه الأمور يشكّل -بحد ذاته- آيه عظمى من آيات الله سبحانه.

و إذا تجاوزنا الإنسان، فإنّ مئات الآلاف من أنواع الكائنات الحيه، ابتداء من الحيوانات المجهرية و حتى الحيوانات العملاقه، بخصائصها و بناء أجهزتها

المختلفه تماما،و التي قد يصرف جمع من العلماء كل أعمارهم أحيانا لمطالعه حياه و سلوك نوع واحد منها،و مع أن آلاف الكتب قد كتبت حول أسرار هذه المخلوقات،فإن ما نعلمه عنها قليل بالنسبه إلى ما نجهله منها...كل واحد من هذه المخلوقات آيه بنفسه، و دليل على علم مبدئ الخلقه و حكمته و قدرته اللامتناهيه.

لكن،لماذا يعيش جماعه عشرات السنين فى ظل هذه الآيات،و يمرون عليها، دون أن يطلعوا حتى على واحده منها؟! إن سبب ذلك هو ما يقرره القرآن الكريم من أن هذه الآيات خاصه للمؤمنين و طلاب اليقين و أصحاب الفكر و العقل،و لأولئك الذين فتحوا أبواب قلوبهم لمعرفة الحقيقه،بكل وجودهم الضامئ للعلم و اليقين ليرتووا من صافى نبعه و فيضه،فلا تعزب عن نظرهم أدنى حركه و لا أصغر موجود،و يفكرون فيه الساعات الطوال،ليجعلوا منه سلما للارتقاء إلى الله سبحانه،و سجلا لمعرفة جل و علا،و ليدوبوا فى مناجاته،و ليملؤوا أقداح قلوبهم من خمرة عشقه فينتشوا منها.

و تذكر الآيه التاليه ثلاث مواهب أخرى لكل منها أثره الهام فى حياه الإنسان و الكائنات الحيه الأخرى،و كل منها آيه من آيات الله تعالى،و هى مواهب «النور» و«الماء» و«الهواء»،فتقول: وَ اِخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ تَضْرِيْفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

إن نظام«النور و الظلمه»،و حدوث الليل و النهار حيث يخلف كل منهما الآخر نظام موزون دقيق جدّا،و هو عجيب فى وضعه و سنته و قانونه،فإذا كان النهار دائما،أو أطول من اللازم،فسترتفع الحراره حتى تحترق الكائنات الحيه،و لو كان الليل سرمدا،أو طويلا جدّا لانجمدت الموجودات من شدّه البرد.

و يحتمل فى تفسير الآيه أن لا يكون المراد من اختلاف الليل و النهار تعاقبهما، بل هو إشاره إلى اختلاف المده و تفاوت الليل و النهار،فى فصول السنه،فيعود

نفعه على الإنسان من خلال ما ينتج عن هذا الاختلاف من المحاصيل الزراعيه المختلفه و النباتات و الفواكه، و نزول الثلوج و هطول الأمطار و البركات الأخرى.

و الطريف أنّ العلماء يقولون: بالرغم من التفاوت الشديد بين مناطق الأرض المختلفه من ناحيه طول الليل و النهار و قصرهما، فإننا إذا حسبنا مجموع أيام السنه فسرى أنّ كلّ المناطق تستقبل نفس النسبه من أشعه الشمس تماما (1).

ثمّ تتناول الحديث فى الفقره الثانيه عن الرزق السماوى، أى «المطر» و الذى لا كلام فى لطافه طبعه و رفته، و لا بحث فى قدرته على الإحياء، و بعثه الحياه فى كلّ الأرجاء و منحها الجمال و الروعه.

و لم لا يكون كذلك، و الماء يشكل الجانب الأكبر و القسم الأساسى من بدن الإنسان، و كثير من الحيوانات الأخرى، و النباتات؟ ثمّ تتحدث فى الفقره الثالثه عن هبوب الرياح.. تلك الرياح التى تنقل الهواء الملئ بالأوكسجين من مكان إلى آخر، و تضعه تحت تصرف الكائنات الحيه، و تبعد الهواء الملوث بالكاربون إلى الصحارى و الغابات لتصفيته، ثمّ إعادته إلى المدن.

و العجيب أنّ هاتين المجموعتين من الكائنات الحيه- أى الحيوانات و النباتات -متعاكسه فى العمل تماما، فالأولى تأخذ الأوكسجين و تعطى غاز ثانى أو أكسيد الكاربون، و الثانيه على العكس تتنفس ثانى أو أكسيد الكاربون و تزفر الأوكسجين، ليقوم التوازن فى نظام الحياه، و لكى لا ينفذ مخزون الهواء النقى المفيد من جو الأرض بمرور الزمان.

إنّ هبوب الرياح، إضافة إلى ذلك فإنه يلقح النباتات فيجعلها حامله للأثمار و المحاصيل، و ينقل أنواع البذور إلى الأراضى المختلفه لبذرهما هناك، و ينمى

ص: ١٨٨

١-١) -وردت بحوث مفصله حول اختلاف الليل و النهار، فى سوره البقره- ذيل الآيه ١٦٤ و فى سوره آل عمران ذيل الآيه ١٩٠، و فى سوره يونس ذيل الآيه ٤، و فى ذيل الآيه ٧١ من سوره القصص.

المراتع الطبيعيه و الغابات، و يهيج الأمواج المتلاطمه فى قلوب المحيطات، و يبعث الحركه و الحياه فى البحار و يثير أمواجهها العظيمه، و يحفظ الماء من التعفن و الفساد، و هذه الرياح نفسها هى التى تحرك السفن على وجه المحيطات و البحار و تجريها (١).

و الطريف أنّ هذه الآيات تتحدث أولاً عن آيات السماء و الأرض و تقول فى نهايه الآيه الأولى: إنّها آيات «للمؤمنين»، ثم تتناول الحديث فى خلق الكائنات الحيه فتقول فى نهايه الآيه الثانيه: إنّها آيات «للموقنين»، و بعد ذلك تتكلم فى أنظمه النور و الظلمه، و الرياح و الأمطار، ثم تقول: إنّها آيات للذين «يعقلون».

إنّ هذا التفاوت فى التعبير لعله بسبب أنّ الإنسان يطوى ثلاث مراحل فى سيره إلى معرفه الله سبحانه ليصل إلى هدفه، فالأولى مرحله «التفكر»، و الثانيه مرحله «اليقين» و العلم، و بعدها مرحله «الإيمان» أو ما يسمى بعقد القلب، و لما كان الإيمان أشرف هذه المراحل، ثمّ يأتى بعده اليقين، و فى المرحله الثالثه يأتى التفكير، فقد وردت هذه المراحل حسب هذا الترتيب فى الآيات المذكوره، و إن كانت المراحل من ناحيه الوجود الخارجى تبدأ بمرحله التفكير، ثمّ اليقين، ثمّ الإيمان.

و بتعبير آخر فإنّ أهل الإيمان يرتقون إلى هذه المرحله من خلال مشاهد آيات الله سبحانه، أمّا الذين ليسوا منهم فليصلوا إلى مرحله اليقين أو إلى مرحله التفكير على أقل التقادير.

و قد ذكر المفسرون فى هذا الباب وجوهاً أخرى أيضاً، و ما قلناه هو الأنسب.

و تقول الآيه الأخيره، إجمالاً للبحوث الماضيه، و تبياناً لعظمه آيات القرآن و أهميتها: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ .

هل أنّ كلمه «تلك» إشاره إلى آيات القرآن، أم إلى آيات الله و العلامات الداله

ص: ١٨٩

عليه في الآفاق و الأنفس، و التي مرّت بالإشارة إليها في الآيات السابقة؟ كلّ محتمل، إلا أنّ الظاهر هو أنّ المراد الآيات القرآنية بقريته التعبير بالتلاوه، غايه ما في الأمر أنّ هذه الآيات القرآنية آيات الله سبحانه في كلّ عالم الوجود، و على هذا فيمكن الجمع بين التفسيرين (فتأمل!).

و على أية حال، فإنّ (التلاوه) من مادّه (تلو) أي الإتيان بالكلام بعد الكلام متعاقبا، و بناء على هذا فإنّ تلاوه آيات القرآن تعنى قراءتها بصوره متواليه متعاقبه.

و التعبير بالحق إشاره إلى محتوى هذه الآيات، و هو أيضا إشاره إلى كون نبوّه النبي صلى الله عليه و آله و سلّم و الوحي الإلهي حقًا. و بعبارة أخرى، فإنّ هذه الآيات بليغه معبره تضمنت في طياتها الاستدلال على حقانيتها و حقانيه من جاءها.

و حقًا إذا لم يؤمن هؤلاء بهذه الآيات فبأى شيء سوف يؤمنون؟ و لذلك تعقب الآية: **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (١)**.

و على قول «الطبرسي» في مجمع البيان، فإنّ الحديث إشاره إلى قصص الأقسام الماضين، و أحداثهم التي تبعث على الإعتبار بهم، في حين أنّ الآيات تقال للدلائل التي تميز الحق من الباطل و الصحيح من السقيم، و آيات القرآن المجيد تتحدث عن الإثنين معا.

حقا إنّ للقرآن الكريم محتوى عميقا من ناحيه الاستدلال و البراهين على التوحيد، و كذلك فهو يحتوى على مواعظ و إرشادات تجذب العباد إلى الله سبحانه حتى القلوب التي لها أدنى استعداد- أو أرضيه صالحه- و تدعوا كلّ مرتبط بالحق الى الطهاره و التقوى، فإذا لم تؤثر هذه الآيات البينات في أحد فلا أمل في هدايته بعد ذلك.

ص: ١٩٠

١-١) -للتعبير ب(بعد الله) محذوف، و التقدير: فبأي حديث بعد حديث الله.

اشاره

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠)

التفسير

اشاره

ويل لكل أفاك أثيم:

رسمت الآيات السابقه صورته عن فريق يسمعون كلام الله مدعما بمختلف أدله التوحيد و المواعظ و الإرشاد، فلا يترك أثرا فى قلوبهم القاسيه.

أما هذه الآيات فتناول بالتفصيل عواقب أعمال هذا الفريق، فتقول: أُولَا:

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ

«الأفاك» صيغه مبالغه، و هى تعنى الشخص الذى يكثر الكذب جدًّا، و تقال أحيانا لمن يكذب كذبه عظيمه حتى و إن لم يكثر من الكذب.

و«الأثيم» من ماله إثم، أى المجرم و العاصى، و تعطى أيضا صفه المبالغه.

و يتضح من هذه الآيه جيدا أنّ الذين يقفون موقف الخصم العنيد المتعصب أمام آيات الله سبحانه هم الذين غمرت المعصيه كيانهم، فانغمسوا فى الذنوب و الآثام و الكذب، لا أولئك الصادقون الطاهرون، فإنّهم يدعون لها لظهارتهم، و نقاء سريرتهم.

ثم تشير الآيه التاليه إلى كيفيه اتخاذهم لموضع الخصام هذا، فتقول: يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا (١) و لهذا فإنّه بحكم تلوثه بالذنوب و الكذب، و الغرور و الكبر و العجب، يمر كأن لم يسمع كل هذه الآيات، و كأنه أصم أو أنه يعتبر نفسه كذلك، كما ورد لك فى الآيه (٧) من سوره لقمان:

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا .

و تهدده الآيه فى نهايتها بالعذاب الشديد، فتقول: فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ فكما أنه آذى قلب النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين و آلمهم، فإننا سنبتليه بعذاب أليم أيضا، لأنّ عذاب القيامة تجسم لأعمال البشر فى الحياه الدنيا.

و بالرغم من أنّ بعض المفسرين ذكر سبب نزول لهذه الآيه و الآيه التى تليها، و اعتبروهما إشاره إلى أبى جهل أو النظر بن الحارث، ذلك أنّهم كانوا قد جمعوا قصصا و أساطير من العجم ليلها بها الناس و يصفوهم عن دين الحق.

لكن من الواضح أنّ هذه الآيه لا تختص بهم، بل و لا بمشركى العرب أيضا، فهى تشمل كل المجرمين الكاذبين المستكبرين فى كل عصر و زمان، و كل الذين يصرون كأن لم يسمعوا آيات الله سبحانه و نداءات الأنبياء و كلمات الأئمه و العظماء، لأنّها لا تنسجم مع شهواتهم و ميولهم و رغباتهم المنحرفه، و لا تؤيد أفكارهم الشيطانيه، و لا توافق عاداتهم الخاطئه و أعرافهم الباليه و تقاليدهم العمياء.

ص: ١٩٢

١-١) - يمكن أن تكون عبادته (يسمع آيات الله) جملة مستأنفه، أو هى وصف آخر ل (كل).

نعم، بشر كل أولئك بالعذاب الأليم.

و لما كان العذاب لا ينسجم مع البشاره، فإنّ هذا التعبير ورد من باب السخرية و الاستهزاء.

ثمّ تضيف الآيه التي بعدها: وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا (١).

في الحقيقه، توجد لدى هؤلاء الجاهلين الأنانيين حالتان:

الأولى: أنّهم غالباً ما يسمعون آيات الله فلا يعجبون بها، و يمرون عليها دون اهتمام و تعظيم، فكأنّهم لم يسمعوها أيضاً.

و الأخرى: أنّهم إذا سمعوها و أرادوا أن يهتموا بها، فليس لهم من رد فعل إزاءها إلاّ الاستهزاء و السخرية. و كلهم مشتركون في هاتين الحالتين، فمزمّه هذه، و أخرى تلك، و بناء على هذا فلا تعارض بين هذه الآيه و التي قبلها.

و الطريف أنّها تقول أولاً: وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا ثُمَّ لَا يَقُولُ: إِنَّهُ يَسْتَهْزِئُ فِيمَا بَعْدَ مَا عَلِمَ، بل تقول: إِنَّهُ يَتَّخِذُ كُلَّ آيَاتِنَا هُزُوًا، سواء التي علمها و التي لم يعلمها، و غايه الجهل أن ينكر الإنسان شيئاً أو يستهزئ به و هو لم يفهمه أصلاً، و هذا خير دليل على عناد أولئك و تعصبهم.

ثمّ تصف الآيه عقاب هؤلاء في النهايه فتقول: أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ و لم لا يكون الأمر كذلك، فإنّ هؤلاء كانوا يريدون أن يضيفوا على أنفسهم الهيبة و العزه و المكانه الاجتماعيه من خلال الاستهزاء بآيات الله سبحانه، إلاّ أنّ الله تعالى سيجعل عقابهم تحقيرهم و مذلتهم و هوانهم، و يتلّهم بعذاب القيامه المهين المذل، فيسبحون على وجوههم مصفّدين مكبلين ثمّ يرمون على تلك الحال في جهنم، و يلاحقهم مع ذلك تقريع ملائكه العذاب و سخريتهم.

و من هنا يتّضح لماذا وصف العذاب بالأليم في الآيه السابقه، و بالمهين هنا،

ص: ١٩٣

١-١) -ينبغي الالتفات إلى أنّ ضمير (اتخذها) لا يعود على (شيئاً)، بل على (آياتنا).

و بالعظيم فى الآيه التالىه،فكلّ منها يناسب نوعيه جرم هؤلاء و كيفيته.

و توضح الآيه التالىه العذاب المهين،فتقول: مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ .

إنّ التعبير بالوراء مع أنّ جهنّم أمامهم و سيصلونها فى المستقبل،يمكن أن يكون ناظرا إلى أنّ هؤلاء قد أقبلوا على الدنيا و نبذوا الآخره و العذاب وراء ظهورهم، و هو تعبير مألوف،إذ يقال للإنسان إذا لم يهتم بأمره،تركه وراء ظهره،و القرآن الكريم يقول: إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَ يَذُرُّونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (١).

و قال جمع من المفسرين أيضا: إنّ كلمه (وراء) من ماده المواراه،و تقال لكلّ شىء خفى على الإنسان و حجب عنه،سواء كان خلفه و لا يراه،أم أمامه لكنّه بعيد لا يراه،و على هذا فإنّ لكلمه (وراء)معنى جامعا يطلق على مصداقين متضادين (٢).

و ليس ببعيد إذا قلنا: إنّ التعبير بالوراء إشاره إلى مسأله العله و المعلول،فمثلا نقول: إذا تناولت الغذاء الفلانى غير الجيد فستمرض بعد ذلك،أى إنّ تناول الغذاء يكون عله لذلك المرض،و هنا أيضا تكون أعمال هؤلاء عله لعذاب الجحيم المهين.

و على آيه حال،فإنّ الآيه تضيف مواصله الحديث أنّ هؤلاء إن كانوا يظنون أنّ أموالهم الطائله و آلهتهم التى ابتدعوها ستحل شيئا من أثقالهم،و أنّها ستغنى عنهم من الله شيئا،فإنهم قد وقعوا فى اشتباه عظيم،حيث: وَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَ لَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ .

و لما لم يكن هناك سبيل نجاه و فرار من هذا المصير،فإنّ هؤلاء يجب أن يبقوا فى عذاب الله و نار غضبه: وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

ص: ١٩٤

١- ١) -سوره الدهر،الآيه ٢٧.

٢- ٢) -قال البعض أيضا: إنّ كلمه (وراء) إنّ أضيفت إلى الفاعل أعطت معنى الوراء،و إن أضيفت إلى المفعول أعطت معنى الأمام. روح البيان،المجلد ٨،صفحه ٤٣٩.لكن لا دليل على هذا المدعى.

و لقد استصغر هؤلاء آيات الله سبحانه، و لذلك سيعظم الله عذابهم، و قد اغتر هؤلاء و تفاخروا فألقاهم الله فى العذاب الأليم! إن هذا العذاب عظيم من كل الجهات، فهو عظيم فى خلوده، و شدته، و باقترانه بالتحقير، و الإهانه، و عظيم فى نفوذه إلى نخاع و قلوب المجرمين..

نعم.. إن الذنب العظيم، أمام الله العظيم، لا يكون جزاؤه إلا العذاب العظيم.

ص: ١٩٥

اشاره

هَذَا هُدًى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ (١١) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَزُجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)

التفسير

اشاره

كل شيء مسخر للإنسان:

مواصله للبحوث التي وردت في الآيات السابقه حول عظمه آيات الله، تتناول هذه الآيات نفس الموضوع، فتقول: هَذَا هُدًى فهو يميز بين الحق و الباطل، و يضيء حياه الإنسان، و يأخذ بيد سالكي طريق الحق ليوصلهم إلى هدفهم

و منزلهم المقصود، لكن: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالآيَاتِ رَبِّهِمْ لَّهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ .

«الرجز» يعنى الاضطراب و الاهتزاز و عدم الانتظار، كما يقول الراغب فى مفرداته، و تقول العرب: رجز البعير إذا تقاربت خطواته و اضطرب لضعف فيه.

و تطلق هذه الكلمه أيضا على مرض الطاعون و الابتلاءات الصعبة، أو العواصف الثلجيه الشديده، و الوسواس الشيطانيه و أمثال ذلك، لأن كل هذه الأمور تبعث على الاضطراب و التزلزل و عدم الانتظام و الانضباط، و إنما يقال لأشعار الحرب (رجز) لأنها مقاطع قصيره متقاربه، أو لأنها تلقى الرعب و الاضطراب بين صفوف الأعداء.

ثم تحول زمان الحديث إلى بحث التوحيد الذى مرّ ذكره فى الآيات الأولى لهذه السوره، فتعطى المشركين دروسا، بليغه مؤثره فى توحيد الله سبحانه و معرفته.

فتاره تدغدغ عواطفهم، و تقول: [□] اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مِن فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

من الذى أودع فى ماده السفن الأصلية خاصيه الطفو على الماء و عدم الغطس؟ و من الذى جعل الماء فراشا ناعما حركتها حتى استطاعت أن تسير فيه بكل سهوله و يسر؟ و من الذى أمر الرياح أن تمرّ على سطح المحيطات بصورة منتظمه لتحرك السفن و تسيرها؟ أو يحل قوه البخار محل الهواء ليزيد من سرعه هذه السفن العظيمه؟ نحن نعلم أن أكبر وسائل نقل الإنسان و أهمها فى الماضى و الحاضر هى السفن الصغيره و الكبيره، و التى تنقل على مدار السنه ملايين البشر، و أكثر من ذلك البضائع التجاريه من أقصى نقاط العالم إلى المناطق المختلفه، و قد تكون السفن أحيانا بسعه مدينه صغيره، و سكانها بعدد سكانها، و هى مجهزه بمختلف الوسائل و الأموال.

حقا لو لم تكن هذه القوى الثلاث، أفيكون بمقدور الإنسان أن يحل مشاكل حمله و نقله بواسطة المراكب العاديه البسيطة؟حتى هذه المراكب و الوسائط البسيطة هي بحد ذاتها من نعمه سبحانه،و هي فعاله في مجالها.

و الطريف أنّ الآية(٣٢)من سوره إبراهيم تقول: وَ سَيَخَّرْ لَكُمْ الْفُلُوكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِ أَمِيَّا هُنَا فَإِنَّ الْآيَةَ تَقُول: سَيَخَّرْ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُوكَ فِيهِ لِأَنَّ التَّأَكِيدَ هُنَا كَانَ عَلَى تَسْخِيرِ الْبَحْرِ، و لذلك اتبعته بقولها: وَ سَيَخَّرْ لَكُمْ الْأَنْهَارَ أَمَا هُنَا فَإِنَّ الْآيَةَ نَاطِرَهُ إِلَى تَسْخِيرِ الْفُلُوكِ، و على أيه حال،فإنهما معا مسخران للإنسان بأمر الله سبحانه،و هما في خدمته.

إنّ الهدف من هذا التسخير هو أن تبتغوا من فضل الله،و هذا التعبير يأتي عادة في مورد تجاره و النشاطات الاقتصادية،و من الطبيعي أنّ نقل المسافرين من مكان الى آخر في ضمن هذا التسخير.

و الهدف من الاستفادة من فضل الله هو إثارة حسن الشكر لدى البشر،لتعبئه عواطفهم لأداء شكر المنعم،و بعد ذلك يسيرون في طريق معرفه الله سبحانه.

كلمه «الفلوك»-و كما قلنا سابقا-تستعمل للمفرد و الجمع.

و لمزيد من التفصيل حول تسخير البحار و الفلوك،و منافعها و بركاتها،راجعوا ذيل الآية(١٤)سوره النحل.

بعد بيان السفن التي لها تماس مباشر بحياه البشر اليوميه،تطرقت الآية التي بعدها إلى مسأله تسخير سائر الموجودات بصوره عامه،فتقول: وَ سَخَّرْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ .

فقد كرمكم إلى درجه أنّ سخر لكم كلّ موجودات العالم،و جعلها في خدمتكم و لتأمين مصالحكم و منافعكم،فالشمس و القمر،و الرياح و المطر،و الجبال و الوديان،و الغابات و الصحارى،و النباتات و الحيوانات،و المعادن و المنابع الغنيه التي تحت الأرض،و بالجملة فإنّه أمر كلّ هذه الموجودات أن تكون في خدمتكم،

و مطيعه لأمركم، و منفذه لإرادتكم، لتتمتعوا بنعمه و مواهبه سبحانه، و لا تذهلوا فى سكره الغفله عنه.

و مما يستحق الانتباه أنه يقول: **جَمِيعاً مِنْهُ (١)** فإذا كانت كلّ النعم منه، و هو خالقها و ربها و مدبرها جميعاً، فلما ذا يعرض الإنسان عنه و يلجأ إلى غيره، و يتسكع على اعتبار المخلوقات الضعيفه، و يبقى فى غفله و ذهول عن المنعم الحقيقى عليه؟ و لذلك تضيف الآيه فى النهايه: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** .

لقد كانت الآيه السابقه تلامس عاطفه الإنسان و تحاول إثارتها، و هنا تحاول هذه الآيه تحريك عقل الإنسان و فكره، فما أعظم رحمه ربنا سبحانه!! إنه يتحدث مع عباده بكلّ لسان و أسلوب يمكن أن يطبع أثره، فمرّه بحديث القلب، و أخرى بلسان الفكر، و الهدف واحد من كلّ ذلك، ألا و هو إيقاظ الغافلين و دفعهم إلى سلوك السبيل القويم.

و قد أوردنا بحثاً مفصلاً حول تسخير مختلف موجودات العالم فى ذيل الآيات ٣١-٣٣ من سوره إبراهيم.

ثمّ تطرقت الآيه التاليه إلى ذكر قانون أخلاقى يحدد كيفيه التعامل مع الكفار لتكامل أبحاثها المنطقيه السابقه عن هذا الطريق، فحولت الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلّم و قالت: **قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ** .

فمن الممكن أن تكون معامله هؤلاء قاسيه، و تعبيراتهم خشنه غير مؤدبه، و ألفاظهم بذيئه، و ذلك لبعدهم عن مبادئ الإيمان و أسس التربيه الإلهيه، غير أنّ عليكم أن تقابلوهم بكلّ رحابه صدر لئلا يصروا على كفرهم و يزيدوا فى تعصبهم،

ص: ١٩٩

١ - ١) - ثمّه احتمالات عديده فى إعراب (جميعاً منه) و تركيبها، فقد احتمل الزمخشري فى الكشاف احتمالين: الأول: إن (جميعاً منه) حال ل (ما فى السموات و ما فى الأرض) أى إنّها جميعاً مسخره لكم لكنّها منه سبحانه. و الآخر: إنه خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير: هى منه جميعاً. و احتمل البعض أيضاً أن تكون تأكيداً ل (ما فى السموات و ما فى الأرض).

فتعبد المسافه بينهم و بين الحق.

إنَّ حسن الخلق و الصّبح و رحابه الصدر يقلل من ضغوط هؤلاء و عدائهم من جهه، كما أنّه يمكن أن يكون عاملا لجذبهم إلى الإيمان و إقبالهم عليه.

و قد ورد نظير هذا الأمر الأخلاقي كثيرا في القرآن الكريم كقوله تعالى:

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

(١)

إنَّ التصلب في التعامل مع الجاهلين و الإصرار على عقوبتهم لا- يثمر في العاده، بل إن تجاهلهم و الاعتزاز بالنفس أمامهم هو الأسلوب الناجح في إيقاظهم، و هو عامل مؤثر في هدايتهم.

و ليس هذا قانونا عاما بالطبع، إذ لا يمكن إنكار وجود حالات لا يمكن معالجتها و مواجهتها إلا بالغلظه و الشده، غير أنّها قليلة.

و النكته الأخرى هنا أنّ كلّ الأيام هي أيام الله، إلا أنّ (أيام الله) قد أطلقت على أيام خاصه، للدلاله على عظمتها و أهميتها.

لقد ورد هذا التعبير في موضعين من القرآن المجيد: أحدهما في هذه الآيه، و الآخر في سوره إبراهيم، و له هناك معنى أوسع و أشمل.

و قد فسّرت «أيام» في الروايات الإسلاميه بتفاسير مختلفه، و من جملتها ما ورد في تفسير علي بن إبراهيم بأنّ أيام الله ثلاثه: يوم قيام المهدي، و يوم الموت، و يوم القيامة (٢).

و نقرأ في حديث آخر عن النبي الأكرم (صلى الله عليه و آله و سلم): «أيام الله نعمائوه و بلاؤه ببلائه» (٣).

و على آيه حال، فإنّ هذا التعبير يبين أهميه يوم القيامة، يوم تجلى حاكميه الله

ص: ٢٠٠

١-١) -سوره الزخرف، الآيه ٨٩.

٢-٢) -تفسير نور الثقلين، المجلد ٢، صفحه ٥٢٦.

٣-٣) -المصدر السابق.

تعالى على كل فرد، و على كل شيء، و هو يوم العدل و القانون و المحكمه الكبرى.

لكن، و من أجل أن لا يستغل مثل هؤلاء الأفراد هذا الصصح الجميل و العفو و التسامى، فقد أضافت الآية: لِيُجْزَى قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

لقد اعتبر بعض المفسرين هذه الجملة تهديدا للكفار و المجرمين، فى حين أن البعض الآخر اعتبرها بشاره للمؤمنين لهذا العفو و الصصح. لكن لا مانع من أن تكون تهديد لتلك الفئة من جانب، و بشاره لهذه الجماعه من جانب آخر، كما أشير إلى هذا المعنى فى الآيه التاليه أيضا.

تقول الآية: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

إن هذا التعبير الذى ورد فى القرآن الكريم مرارا، و عبارات مختلفه، يشكل جوابا لمن يقول: ماذا يضر عصياننا الله تعالى، و ما تنفعه طاعتنا؟ و لماذا هذا الإصرار على طاعه و أوامره، و الانتهاء عن معاصيه؟ فتقول هذه الآيات: إن كل ضرر ذلك و كل نفعه يعود عليكم، فأنتم الذين تسلكون مرقى الكمال فى ظل الأعمال الصالحه، و تحلقون إلى سماء قرب الله عزّ و جلّ، كما أنكم أنتم الذين تهوون إلى الحضيض نتيجة ارتكابكم الآثام و المعاصى، فتبتعدون عن الله عزّ و جلّ و تستحقون بذلك اللعنه الأبدية.

إن كل أمور التكليف، و إرسال الرسل، و إنزال الكتب تهدف إلى هذا المراد السامى، و لذلك يقرر القرآن الحكيم وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١) و يقول فى موضع آخر: فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا (٢) و نقرأ فى موضع ثالث: وَ مَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ وَ إِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ (٣)

ص: ٢٠١

١-١) - لقمان، الآية ١٢.

٢-٢) - الزمر، الآية ٤١.

٣-٣) - فاطر، الآية ١٨.

و خلاصه القول: إنّ أمثال هذه التعابير تبين حقيقه أنّ دعوه الداعين إلى الله سبحانه خدمه للبشر فى جميع أبعادها، و ليست خدمه لله الغنى عن كلّ شىء، و لا لأنبيائه الذين أجرهم على الله فقط.

إنّ الانتباه إلى هذه الحقيقه يعدّ عاملاً مهماً فى السير نحو طاعه الله سبحانه، و الابتعاد عن معصيته.

ص: ٢٠٢

اشاره

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيحَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعُهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)

التفسير

آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

كل ذلك، و لكن...

متابعه للبحوث التي وردت في الآيات السابقة حول نعم الله المختلفة و شكرها و العمل الصالح، تتناول هذه الآيات نموذجا من حياه بعض الأقبوام الماضين

الذين غمرتهم نعم الله سبحانه، إلا أنهم كفروا بها و لم يرفعوها حق رعايتها.

تقول الآية الأولى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ التُّبُوَّةَ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .**

تبيّن هذه الآية فى مجموعها خمس نعم أنعم الله بها على بنى إسرائيل، و بالإضافة إلى النعمة الأخرى التى سيأتى ذكرها فى الآية التالية تشكل ست نعم عظيمة.

النعمة الأولى هى الكتاب السماوى، أى التوراه التى كانت مبيّنه للمعارف الدينيه و الحلال و الحرام، طريق الهدايه و السعاده.

و الثانيه مقام الحكومه و القضاء، لأننا نعلم أنهم كانوا يمتلكون حكومه قويه متراميه الأطراف، فلم يكن داود و سليمان وحدهما حاكمين و حسب، بل إنّ كثيرا من بنى إسرائيل قد تسلموا زمام الأمور فى زمانهم و عصورهم.

«الحكم» فى التعبيرات القرآنيه يعنى عاده القضاء و الحكومه، لكن لما كان مقام القضاء، يشكل جزء من برنامج الحكومه دائما، و لا يمكن للقاضى أن يؤدى واجبه من دون حمايه الدوله و قوتها، فإنه يدل دلالة التزاميه على مسأله التصدى و تسلم زمام الأمور.

و نقرأ فى الآية (٤٤) من سوره المائده فى شأن التوراه: **يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا .**

أما النعمة الثالثه فقد كانت نعمه مقام التبوّه، حيث اصطفى الله سبحانه أنبياء كثيرين من بنى إسرائيل.

و قد ورد فى روايه أنّ عدد أنبياء بنى إسرائيل بلغ ألف نبي (١)، و فى روايه أخرى: إن عدد أنبياء بنى إسرائيل أربعه آلاف نبي (٢).

ص: ٢٠٤

١-١) -مجمع البيان، المجلد ٩، صفحه ٧٥.

٢-٢) -بحار الأنوار، الطبعة الجديده، المجلد ١١ صفحه ٣١.

و كل هذه كانت مواهب و نعماً من الله سبحانه.

و تتحدث الآيه فى الفقره الرابعه حديثاً جامعاً شاملاً عن المواهب الماديه، فتقول: وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ .

النعمه الخامسه، هى تفوقهم و قوتهم التى لا- ينازعهم فيها أحد، كما توضح الآيه ذلك فى ختامها فتضيف: وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .

لا- شك أنّ المراد من «العالمين» هنا هم سكان ذلك العصر، لأنّ الآيه (١١٠) من سوره آل عمران تقول بصراحه: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .

و كذلك نعلم أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلّم هو أشرف الأنبياء و سيدهم، و بناء على هذا فإنّ أمته أيضاً تكون خير الأمم، كما ورد ذلك فى الآيه (٨٩) من سوره النحل:

و يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ .

و تشير الآيه التاليه إلى الموهبه السادسه التى منحها الله سبحانه لهؤلاء المنكرين للجميل، فتقول: وَ آتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ .

«البيّنات» يمكن أن تكون إشاره إلى المعجزات الواضحه التى أعطاهها الله سبحانه موسى بن عمران عليه السلام و سائر أنبياء بنى إسرائيل، أو أنّها إشاره إلى الدلائل و البراهين المنطقيه الواضحه، و القوانين و الأحكام المتقنه الدقيقه.

و قد احتمل بعض المفسرين أن يكون هذا التعبير إشاره إلى العلامات الواضحه التى تتعلق بنبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلّم، و التى علمها هؤلاء، و كان باستطاعتهم أن يعرفوا نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلّم من خلالها كمعرفتهم بأبنائهم: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ (١) .

لكن لا مانع من أن تكون كلّ هذه المعانى مجتمعته فى الآيه.

و على أية حال، فمع وجود هذه المواهب و النعم العظيمه، و الدلائل البينه الواضحه لا- يبقى مجال للاختلاف، إلا أنّ الكافرين بالنعم هؤلاء ما لبثوا أنّ

ص: ٢٠٥

اختلفوا، كما يصور القرآن الكريم ذلك فى تتمه هذه الآيه إذ يقول: فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ .

نعم، لقد رفع هؤلاء رايه الطغيان، و أنشبت كل جماعه أظفارها فى جسد جماعه أخرى، و اتخذوا حتى عوامل الوحده و الألفه و الانسجام سببا للاختلاف و التباغض و الشحناء، و تنازعوا أمرهم بينهم فذهب ريحهم و ضعفت قوتهم، و أفل نجم عظمتهم، فزالت دولتهم، و أصبحوا مشردين فى بقاع الأرض ضربت عليهم الذله أينما ثقفوا.

و قال البعض: إنَّ المراد هو الاختلاف الذى وقع بينهم بعد علمهم و اطلاعهم الكافى على صفات نبى الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم.

و يهددهم القرآن الكريم فى نهايه الآيه بقوله: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ و بهذا فقد فقدوا قوتهم و عظمتهم فى هذه الدنيا بكفرانهم النعمه، و اختلافهم فيما بينهم، و اشتروا لأنفسهم عذاب الآخره.

بعد بيان المواهب التى منَّ الله تعالى بها على بنى إسرائيل، و كفرانها من قبلهم، ورد الحديث عن موهبه عظيمه أهداها الله سبحانه لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم و المسلمين، فقالت الآيه: ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيْعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ .

«الشريعه» تعنى الطريق التى تستحدث للوصول إلى الماء الموجود عند ضفاف الأنهر التى يكون مستوى الماء فيها أخفض من الساحل، ثم أطلقت على كل طريق يوصل الإنسان إلى هدفه و مقصوده.

إن استعمال هذا التعبير فى مورد دين الحق، بسبب أنه يوصل الإنسان إلى مصدر الوحي و رضى الله سبحانه، و السعاده الخالده التى هى بمثابة الماء للحياه المعنويه.

لقد استعملت هذه الكلمه مره واحده فى القرآن الكريم، و فى شأن الإسلام فقط.

و المراد من «الأمر» هنا هو دين الحق الذي مرّت الإشارة إليه في الآيه السابقه أيضا، حيث قالت: **بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ** .

و لما كان هذا المسير مسير النجاه و النصر، فإنّ الله سبحانه يأمر النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم بعد ذلك أنّ **فَاتَّبِعْهَا** .

و كذلك لما كانت النقطة المقابله ليس إلّا اتباع أهواء الجاهلين و رغباتهم، فإنّ الآيه تضيف في النهايه: **وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** .

في الحقيقه، لا يوجد إلّا طريقان: طريق الأنبياء و الوحي، و طريق أهواء الجاهلين و ميولهم، فإذا ولى الإنسان دبره للأوّل فسيقع في الثّاني، و إذا توجه الإنسان إلى ذلك السبيل فسينفصل عن خط الأنبياء و يتعد عنهم، و بذلك فإنّ القرآن أبطل كلّ البرامج الإصلاحيه التي لا تستمد تعليماتها من مصدر الوحي الإلهي.

و الجدير بالانتباه أنّ بعض المفسّرين قالوا: إنّ رؤساء قريش أتوا النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم و قالوا: ارجع إلى دين آباءك، فإنّهم كانوا أفضل منك و أسلم. و كان النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم لا يزال في مكّه، فنزلت الآيه أعلاه (1) و أجابتهم بأن طريق الوصول إلى الحق هو الوحي السماوي الذي نزل عليك، لا ما يمليه هوى هؤلاء الجاهلين و رغبتهم.

لقد كان القاده المخلصون يواجهون دائما وساوس الجاهلين هذه عند ما يأتون بدين جديد و يطرحون أفكارا بناءه طاهره، فقد كان الجهال يطرحون عليهم: أنتم أعلم أم الآباء السابقون و العظماء الذين جاؤوا قبلكم؟ و كانوا يصرون على الاستمرار في ذلك الطريق، و إذا كان مثل هذا الاقتراح يمكن أن ينزل إلى حيز التطبيق و الواقع العملي، فليس بوسع الإنسان أن يخطو خطوه في طريق التكامل.

و تعتبر الآيه التاليه تبيانا لعله النهي عن الاستسلام أمام مقترحات المشركين و قبول طلباتهم، فتقول: **إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً** فإذا ما اتبعت دينهم

ص: ٢٠٧

الباطل فأحاط بك عذاب الله تعالى فإنهم عاجزون عن أن يهبوا لنجدتك و إنقاذك، و لو أن الله سبحانه سلب منك نعمه فإنهم غير قادرين على إرجاعها إليك.

و مع أن الخطاب فى هذه الآيات موجه إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلا أن المراد منه جميع المؤمنين .

ثم تضيف الآية: **وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ فكلهم من جنس واحد، و يسلكون نفس المسير، و نسجهم واحد، و كلهم ضعفاء عاجزون.**

لكن لا تذهب بك الظنون بأنك وحيد، و من معك قليل و لا ناصر لكم و لا معين، بل: **وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ .**

صحيح أن جمع هؤلاء عظيم فى الظاهر، و فى أيديهم الأموال الطائلة و الإمكانيات الهائلة، لكن كل ذلك لا يعتبر إلا ذره عديمه القيمة إزاء قدره الله التى لا تقهر، و خزائنه التى لا تفتنى .

و تأكيد لما مر، و دعوه إلى اتباع دين الله القويم، تقول آخر آيه من هذه الآيات:

هَذَا بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ

«البصائر» جمع بصيره، و هى النظر، و مع أن هذه اللفظه أكثر ما تستعمل فى و جهات النظر الفكرية و النظريات العقلية، إلا أنها تطلق على كل الأمور التى هى أساس فهم المعانى و إدراكها.

و الطريف أنها تقول: إن هذا القرآن و الشريعة بصائر، أى عين البصيره، ثم أنها ليست، بصيره، بل بصائر، و لا تقتصر على بعد واحد، بل تعطى الإنسان الأفكار و النظريات الصحيحة فى كافة مجالات حياته.

و قد ورد نظير هذا التعبير فى آيات أخرى من القرآن الكريم، كآيئه (١٠٤) من سوره الأنعام، حيث تقول: **قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ .**

و قد طرحت هنا فى هذه الآيه ثلاثه مواضع: البصائر و الهدى و الرحمه، و هى حسب التسلسل عله و معلول لبعضها البعض، فإن الآيات الواضحه و الشريعه

المبصره تدفع الإنسان نحو الهدايه بدورها أساس رحمه الله.

و الجميل فى الأمر أنّ الآيه تذكر أنّ البصائر لعامه الناس، أمّا الهدى و الرحمه فخصت الموقنين بهما، و يجب أن يكون الأمر كذلك، لأنّ آيات القرآن ليست مقصوره على قوم بالخصوص، بل يشترك فيها كلّ البشر الذين دخلوا فى كلمه (الناس) فى كلّ زمان و مكان، غير أنّ من الطبيعى أن يكون الهدى فرع اليقين، و أن تكون الرحمه وليدته، فلا تشمل الجميع حينئذ.

و على أية حال، فإنّ ما تقوله الآيه من أنّ القرآن عين البصيره، و عين الهدايه و الرحمه، تعبير جميل يعبر عن عظمه هذا الكتاب السماوى و تأثيره و عمقه بالنسبه لأولئك السالكين طريقه، و الباحثين عن الحقيقه.

ص: ٢٠٩

اشاره

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَمْ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاءً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)

التفسير

اشاره

ليسوا سواء محياهم و مماتهم:

متابعه للآيات السابقة التي كان الكلام فيها يدور حول فئتين هما: المؤمنون و الكافرون، أو المتقون و المجرمون، فإن أولى هذه الآيات قد جمعتهما في مقارنه أصوليه بينهما، فقالت: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

هل يمكن أن يتساوى النور و الظلمه، و العلم و الجهل، و الحسن و القبيح،

و الإيمان و الكفر؟ هل يمكن أن تكون نتيجة هذه الأمور غير المتساوية متساوية؟ كلا، فإن الأمر ليس كذلك، إذ المؤمنون ذوو الأعمال الصالحات يختلفون عن المجرمين الكافرين، و يفترون عنهم في كل شيء، إذ أن كلا من الإيمان و الكفر، و العمل الصالح و الطالح، يصنع كل الحياه بلونه.

و هذه الآيه نظير الآيه (٢٨) من سوره ص، حيث تقول: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ؟ أو كالأيتين ٣٥، ٣٦، من سوره القلم حيث: أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۗ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟ «اجترحوا» في الأصل من الجرح الذي يصيب بدن الإنسان أثر مرض ضرر، و لما كان ارتكاب الذنب و المعصيه كأنما يجرح روح المذنب، فقد استعملت كلمه الاجتراح بمعنى ارتكاب الذنب، و تستعمل أحيانا بمعنى أوسع يدخل فيه كل اكتساب. و إنما يقال لأعضاء البدن: جوارح، لأن الإنسان يحقق مقاصده و رغباته بواسطتها، و يحصل على ما يريد، و يكتسب ما يشاء بواسطتها.

و على أيه حال، فإن الآيه تقول: إنه لظن خاطئ أن يتصوروا أن الإيمان و العمل الصالح، أو الكفر و المعصيه، لا يترك أثره في حياه الإنسان، فإن حياه هذين الفريقين و مماتهم يتفاوتان تماما:

فالمؤمنون يتمتعون باطمئنان خاص في ظل الإيمان و العمل الصالح، بحيث لا تؤثر في نفوسهم أصعب الحوادث و أقساها، في حين أن الكافرين و الملوئين بالمعصيه و الذنوب مضطربون دائما، فإن كانوا في نعمه فهم معذبون دائما من خوف زوالها و فقدانها، و إن كانوا في مصيبه و شدّه فلا طاقه لهم على تحملها و مواجهتها.

و تصور الآيه (٨٢) من سوره الأنعام حال المؤمنين، فتقول: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ يُظَلِّمَ أَوْلِيكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ .

إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مَطْمَئِنُونَ بِمَوَاعِيدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَهُمْ يَرْتَعُونَ فِي رَحْمَتِهِ وَ لَطْفِهِ: [□] إِنَّا لَنَنْصِرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُادُ .

فنور الهداية يضيء قلوب الفريق الأول لتشرق بنور ربها، فيسيرون بخطى ثابتة نحو هدفهم المقدس: [□] اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (١) .

أما الفريق الثاني، فليس لديهم هدف واضح يطمحون إلى بلوغه، ولا هدى بين يسيرون في ظله، بل هم سكارى تتقاذفهم أمواج الحيرة في بحر الضلالة والكفر:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ . [□]

هذا في الحياة الدنيا، أما عند الموت الذي هو نافذه تطل على عالم البقاء، و باب لآخره، فإن الحال كما تصوره الآية (٣٢) من سورة النحل حيث تقول:

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . [□]

أما المجرمون الكافرون، فإن الآيتين (٢٨) - (٢٩) من سورة النحل تتحدثان معهم بأسلوب آخر، فتقولان: [□] الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ [□] ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ [□] مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . [□] فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ .

و خلاصه القول، فإن التفاوت و الاختلاف موجود بين هاتين الفتيتين في كاهه شؤون الحياة و الموت، و في عالم البرزخ و القيامة . (٢) .

ص: ٢١٢

١- ١) - البقرة، الآية ٢٥٧.

٢- ٢) - ثم احتمالات أخرى في تفسير الآية المذكورة و من جملتها ما ذكر من أن المراد من جملة (سواء معيهاهم و مماتهم) أن موت المجرمين الكافرين و حياتهم واحد لا فرق فيه، فلا خير فيهم و لا طاعة لهم حال حياتهم، و لا في موتهم، فهم أحياء لكنهم أموات، و على هذا التفسير فإن كلا الضميرين يعودان على المجرمين. و الاحتمال الآخر: أن المراد من الحياة يوم القيامة، أي أن المؤمنين و الكافرين لا يتساوون عند الموت و عند بعثهم يوم القيامة.

أَمَّا الْآيَةُ التَّالِيَةُ فَإِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ تَفْسِيرٌ لِسَابِقَتِهَا وَتَعْلِيلٌ لَهَا، إِذْ تَقُولُ: وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ، فَكُلُّ الْعَالَمِ يُوحَىٰ بِأَنْ خَالِقُهُ قَدْ خَلَقَهُ وَجَعَلَهُ يَقُومُ عَلَىٰ مَحْوَرِ الْحَقِّ، وَأَنْ يَحْكُمَ الْعَدْلَ وَالْحَقَّ كُلَّ مَكَانٍ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُجْرِمِينَ الْكَافِرِينَ، فَيَكُونُ هَذَا الْأَمْرُ اسْتِثْنَاءً مِنْ قَانُونِ الْخَلْقِ؟ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَتِمَّتْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَتَحَرَّكُونَ حَرَكَهَ تَنْسَجِمُ مَعَ قَانُونِ الْحَقِّ وَالْعَدَالَةِ هَذَا، وَلَا يَحِيدُونَ عَنْهُ بِبَرَكَاتِ عَالَمِ الْوُجُودِ وَيَنْعَمُونَ بِالطَّافِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، كَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَسِيرُونَ عَكْسَ هَذَا الطَّرِيقِ وَيَخَالِفُونَ الْقَانُونَ طَعْمَهُ لِلنَّارِ الْمَحْرَقَةِ، وَمَحَطًا لَغَضَبِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا مَا تَقْتَضِيهِ الْعَدَالَةُ.

وَمِنْ هُنَا يَتَضَحُّ أَنَّ الْعَدَالَةَ لَا تَعْنِي الْمَسَاوَاهُ، بَلِ الْعَدَالَةُ أَنْ يَحْصَلَ كُلُّ فَرْدٍ عَلَىٰ مَا يَنَاسِبُهُ مِنَ الْمَوَاهِبِ وَالنِّعَمِ حَسَبَ مَوْهَلَاتِهِ وَقَابِلِيَاتِهِ.

وَكَذَلِكَ فَإِنَّ الْآيَةَ الْأُخْرَىٰ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ تَوْضِيحٌ وَتَعْلِيلٌ آخَرَ لِعَدَمِ الْمَسَاوَاهِ بَيْنَ الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، إِذْ تَقُولُ: أَمْ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ.

وَهُنَا سُؤَالَ يَطْرَحُ نَفْسَهُ، وَهُوَ: كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَّخِذَ الْإِنْسَانُ إِلَهَهُ هَوَاهُ؟ غَيْرَ أَنَّ مِنَ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ أَنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَ مَا يَضْرِبُ صَفْحًا عَنْ أَوْامِرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَيَتَّبِعُ مَا تَمْلِيهِ عَلَيْهِ شَهْوَاتِهِ، وَيَقْدُمُ طَاعَتَهَا عَلَىٰ طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَيَعْتَبِرُ ذَلِكَ حَقًّا، فَقَدْ عَبْدَ هَوَاهُ، وَهَذَا عَيْنُ مَعْنَى الْعِبَادَةِ، إِذْ أَنَّ أَحَدَ الْمَعَانِي الْمَعْرُوفَةِ لِلْعِبَادَةِ هُوَ الطَّاعَةُ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْكَثِيرُ مِمَّا يَبَيِّنُ هَذَا الْمَعْنَى كَعِبَادَةِ الشَّيْطَانِ أَوْ

(٢)

إِلَّا أَنْ ظَاهِرَ الْآيَةِ هُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ أَعْلَاهُ.

ص: ٢١٣

عباده أجبارة اليهود، فيقول القرآن -مثلا- في الآية (٦٠) من سورة يس: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ .

و يقول في الآية (٣١) من سورة التوبة: اتَّخَذُوا أَجْنَابَهُمْ وَرُهبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ .

و

جاء في حديث عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام أنهما قالوا: «أما و الله ما صاموا لهم، و لا صلوا، و لكنهم أحلوا لهم حراما و حرموا عليهم حلالا، فاتبعوهم، و عبدوهم من حيث لا يشعرون» (١).

غير أن بعض المفسرين يعتبر هذا التعبير إشارة إلى الوثنيين من قريش، الذين إذا ما عشقوا شيئا و أحبوه صنعوا على صورته صنما ثم عبدوه و عظموه، و كلما رأوا شيئا آخر أعجبهم أكثر من صنمهم أعرضوا عن الأول و توجهوا إلى عبادة الثاني، و على هذا فإن إلههم كان الشيء الذي ترتضيه أنفسهم و تهواه (٢).

إلا أن تعبير: مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أكثر انسجاما مع التفسير الأول.

أما في مورد جملة: أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ فالتفسير المعروف هو أن الله سبحانه قد أضلهم لعلمه بأنهم لا يستحقون الهداية، و هو إشارة إلى أن هؤلاء قد أطفأوا بأيديهم كل مصابيح الهداية و حطموها، و أغلقوا في وجوههم كل سبل النجاة، و دمروا وراءهم جسور العوده إلى طريق الحق، فعند ذلك سلبهم الله تعالى رحمته و لطفه، و أفقدهم قدره على تشخيص الصالح من الطالح، و تركهم في ظلمات لا يبصرون، و كأنما ختم على قلوبهم و سمعهم، و جعل على أبصارهم غشاوه.

و ما كل ذلك في الحقيقة إلا آثار لما اختط هؤلاء لأنفسهم من مسير، و نتيجة مشؤومه لعباده الآلهة التي اتخذوها.

و لا صنم في الحقيقة أخطر من إتباع هوى النفس الذي يوصل كل أبواب

ص: ٢١٤

١-١) -نور الثقلين، المجلد ٢، صفحہ ٢٠٩.

٢-٢) -تفسير الدر المنثور، المجلد ٦، صفحہ ٣٥.

الرحمه و طرق النجاه بوجه الإنسان؟ و كم هو بليغ و عميق

الحديث المروى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم: «ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى» (١).

إلا- أن بعض المفسرين يعتبر هذه الجملة إشاره إلى أن متبعى الهوى هؤلاء قد اختاروا طريق الضلاله طريقا لهم عن علم و درايه، لأن العلم لا يقارن الهدايه دائما، كما لا تكون الضلاله دائما قرينه الجهل.

إن العلم الذى يتمسك الإنسان بلوازمه أساس الهدايه، فعليه كى يصل إلى مراده و هدفه أن يتحرك على هدى هذا العلم، و ألا يكون كأولئك الكفار العنودين الذين قال بحقهم القرآن: وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ (٢) (٣).

إلا- أن التفسير الأول هو الأنسب بملاحظه أن مرجع الضمائر فى الآيه إلى الله سبحانه، لأنها تقول: أَضَلَّهُ اللَّهُ (على علم) وَ خَتَمَ عَلَيَّ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ .

مما قلناه يتضح جيدا أن الآيه تدل-من قريب أو بعيد-على مذهب الجبريه، بل هى تأكيد على أصل الإختيار و تعيين الإنسان مصيره بنفسه.

لقد أوردنا بحوثا أكثر تفصيلا و إيضاحا حول ختم الله على قلب الإنسان و سماعه، و إلقاء الغشاوه على قلبه فى ذيل الآيه (٧) من سوره البقره (٤).

ملاحظات

إشاره

١- أخطر الأصنام صنم هوى النفس

قرأنا فى حديث أن أبغض الآلهه إلى الله هوى النفس، و لا- مبالغه فى هذا الحديث قط، لأن الأصنام العاديه موجودات لا خصائص لها و لا صفات فعاله

ص: ٢١٥

١- ١) -تفسير القرطبي، المجلد ٩، صفحه ٥٩٨٧، و تفسير روح البيان، و تفسير المراغى ذيل الآيات مورد البحث.

٢- ٢) -النمل، الآيه ١٤.

٣- ٣) -تفسير الميزان، المجلد ١٨، صفحه ١٨٧.

٤- ٤) -المجلد الأول، التفسير الأمثل، ذيل الآيه (٧) من سوره البقره.

مهمه، أما صنم الهوى و أتباعه، فإنه يغوى الإنسان و يسوقه إلى ارتكاب أنواع المعاصى، و الانزلاق فى هاويه الانحراف.

و بصوره عامه، يمكن القول بأن لهذا الصنم من الخصوصيات ما جعله مستحقا لصفه أبغض الآلهه و الأصنام، فهو يزين القبائح و السيئات فى نظر الإنسان حتى يصل إلى درجه يفخر عندها بتلك الأعمال الطالحه، و يكون مصداقا لقوله تعالى:

وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا

(١)

٢- أفضل طريق لنفوذ الشيطان هو اتباع الهوى: فما دام الشيطان لا يمتلك قاعده و أساسا يستند إليه فى داخل الإنسان، فلا قدره له على الوسوسه و دفع الإنسان الى الانحراف و المعصيه، و ما تلك القاعده و الأساس إلا اتباع الهوى و هو ذات الشىء الذى أسقط الشيطان و أرداه، و طرده من صف الملائكه، و أبعده عن مقام القرب من الله.

٣- إن اتباع الهوى يسلب الإنسان أهم وسائل الهدايه، و هى الإدراك الصحيح للحقائق، و يلقي الحجب على عقل الإنسان و عينه، و قد أشارت هذه الآيات إلى هذا الموضوع بصراحه بعد ذكر مسأله اتباع الهوى و اتخاذها إلهًا، و آيات القرآن الأخرى شاهده على هذه الحقيقه أيضا.

٤- إن اتباع الهوى يوصل الإنسان إلى مرحله محاربه الله- و العياذ بالله- كما ابتلى بها إمام عباد الهوى- أى الشيطان الرجيم- فاعترض على حكمه الله سبحانه لئلا أمره بالسجود لآدم، و اعتبره أمرا عاريا عن الحكمة! ٥- عواقب اتباع الهوى مشؤومه و أليمه، بحيث أن لحظه من لحظات اتباع الهوى قد يصاحبها عمر من الندامه و الأسف و الحسره، و لحظه- يتبع فيها الهوى- قد تجعل كل حسنات الإنسان و أعماله الصالحه التى عملها طوال عمره هباء منثورا، و لذلك ورد التأكيد على الحيظه و اليقظه فى هذا الأمر و التحذير الشديد منه

ص: ٢١٦

فى آيات القرآن و الروايات الإسلاميه.

فقد ورد فى الحديث المعروف عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم: «إن أخوف ما أخاف على أمتى الهوى و طول الأمل، أما الهوى فإنه يصد عن الحق، و أما طول الأمل فينسى الآخره» (١).

و

فى حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه سئل: أى سلطان أغلب و أقوى؟ قال: «الهوى» (٢).

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «إن الله تعالى يقول:

و عزتى و عظمتى، و جلالى و بهائى، و علوى و ارتفاع مكانى، لا يؤثر عبد هواى على هواه إلا جعلت همه فى آخرته، و غناه فى قلبه، و كفت عنه ضيعته، و ضمنت السماوات و الأرض رزقه، و أتته الدنيا و هى راغمه» (٣).

و

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شىء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم و حصائد ألسنتهم» (٤).

و أخيرا

ورد فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنى لأرجو النجاه لهذه الأمة لمن عرف حقنا منهم إلا لأحد ثلاثة: صاحب سلطان جائر، و صاحب هوى، و الفاسق المعلن» (٥).

و فى هذا الباب آيات و روايات كثيره غنيه المضمون.

و ننهى هذا الحديث بجمله عميقه المعنى ذكرها البعض كسبب نزول، و كشاهد على مرادنا، فيقول أحد المفسرين: طاف أبو جهل بالبيت ذات ليله و معه الوليد بن المغيره، فتحدثا فى شأن النبى صلى الله عليه و آله و سلم، فقال أبو جهل: و الله إنى لأعلم أنه صادق.

ص: ٢١٧

١-١) -بحار الأنوار، المجلد ٧٠، صفحه ٧٦، ٧٧، ٧٥.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -المصدر السابق.

٤-٤) - أصول الكافي، المجلد ٢، باب أتباع الهوى الحديث ١.

٥-٥) - بحار الأنوار، المجلد ٧٠، صفحہ ٧٦.

فقال له:مه،و ما ذلك على ذلك؟ قال:يا أبا عبد شمس،كنا نسميه فى صباه الصادق الأمين،فلما تم عقله،و كمل رشده نسميه الكذاب الخائن!والله إنى لأعلم أنه صادق.

قال:فما يمنعك من أن تصدقه و تؤمن به؟ قال:تتحدث عنى بنات قريش أنى اتبعت يتيم أبى طالب من أجل كسره!واللات و العزى لن أتبعه أبدا.

فنزلت الآية: **وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ (١)**.

ص: ٢١٨

١- (١) - تفسير المراغى،المجلد ٢٥،صفحه ٢٧.

اشاره

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ لِّمَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)

التفسير

اشاره

عقائد الدهريين:

في هذه الآيات بحث آخر حول منكرى التوحيد، غايه ما هناك أنه ذكر هنا اسم جماعه خاصه منهم، وهم «الدهريون» الذين ينكرون وجود صانع حكيم لعالم الوجود مطلقا، فهم حين أن أكثر المشركين كانوا يؤمنون ظاهرا بالله، و كانوا يعتبرون الأصنام شفعاء عند الله، فتقول الآيه أولا: وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا فَمَا يَمُوتُ مِنْ يَمُوتٍ مَّا، يُولَدُ مِنْ يُولَدٍ مَّا و بذلك يستمر النسل البشرى: وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ و بهذا فإنهم ينكرون المعاد كما ينكرون المبدأ، و الجملة الأولى ناظره إلى إنكارهم المعاد، أما الجملة الثانية فتشير إلى إنكار

و الجديين بالانتباه أنّ هذا التعبير قد ورد في آيتين أخريين من آيات القرآن الأخرى، فنقرأ في الآية (٢٩) من سورة الأنعام: [□] وَقَالُوا
إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ .

و جاء في الآية (٣٧) من سورة المؤمنون: [□] إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ .

إلا أنّ التأكيد في الآيتين على إنكار المعاد و حسب، و لم يرد إنكار المبدأ و المعاد معا إلا في هذه الآية مورد البحث.

و من الواضح أنّ هؤلاء إنّما كانوا يؤكّدون على المعاد أكثر من المبدأ لخوفهم و اضطرابهم منه الذى قد يغير مسير حياتهم
المليئة بالشهوات و الخاضعة لها.

و قد ذكر المفسرون عدّه تفاسير لجمله نَمُوتُ وَ نَحْيَا :

الأول: و هو ما ذكرناه، بأنّ الكبار يغادرون الحياه ليحل محلهم المواليد.

الثانى: أنّ الجملة من قبيل التأخير و التقديم، و معناها: إنّنا نحيا ثم نموت، و لا شىء غير هذه الحياه و الموت.

الثالث: أنّ البعض يموتون و يبقى البعض الآخر، و إن كان الجميع سوف يموتون فى النهايه.

الرابع: أنّنا كنا فى البدايه أموات لا روح فىنا، ثم منحنا الحياه و دبت فىنا.

غير أنّ التفسير الأول هو أنسب الجميع و أفضلها.

و على أيه حال، فإنّ جماعه من الماديين فى العصور الخاليه كانوا يعتقدون أنّ الدهر هو الفاعل أو الزمان فى هذا العالم- أو بتعبير
جماعه آخرين: إنّ الفاعل هو دوران الأفلاك و أوضاع الكواكب- و كانوا ينهون سلسله الحوادث إلى الأفلاك، و يعتقدون أنّ
كلّ ما يقع فى هذا العالم بسببها (١)، حتى أنّ جماعه من فلاسفه

الدهريين و أمثالهم كانوا يقولون بوجود عقل للأفلاك، و يعتقدون أنّ تدبير هذا العالم بيدها.

إن هذه العقائد الخرافيه انقرضت بمرور الزمان، خاصّه و قد ثبت بتقدم علم الهيئه عدم وجود شيء باسم الأفلاك-الكرات المتداخله الصافيه-فى الوجود الخارجى أصلا، و أن لنجوم العالم العلوى بناء كبناء الكره الأرضيه بتفاوت ما غايه فى الأمر أنّ بعضها مظلم و يكتسب نوره من الكرات الأخرى، و بعضها الآخر مشتعل و منير.

إنّ الدهريين كانوا يذمون الدهر و يسبونه أحيانا عند ما تقع حوادث مرّه مؤلمه.

غير أنّه

ورد فى الأحاديث الإسلاميه عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم «لا تسبوا الدهر، فإنّ الله هو الدهر» (١)، و هو إشاره إلى أنّ الدهر لفظ ليس إلّا، فإنّ الله سبحانه هو مدبر هذا العالم و مديره، فإنّكم إنّ أسأتم القول بحق مدبر هذا العالم و مديره، فقد أسأتم بحق الله عزّ و جلّ من حيث لا تشعرون.

و الشاهد على هذا الكلام حديث آخر

روى كحديث قدسى عن الله تعالى أنّه قال: «يؤذنى ابن آدم يسب الدهر، و أنا الدهر! بيدى الأمر، أقلب الليل و النهار» (٢).

لكن قد استعمل الدهر فى بعض التعبيرات بمعنى أبناء الأيام، و أهل الزمان الذين شكوا العظماء من عدم وفائهم، كما نقل

فى الشعر المنقول عن الإمام الحسين عليه السلام، حيث أنشد ليله عاشوراء:

يا دهر أف لك من خليل* كم لك بالإشراق و الأصيل من صاحب و طالب قتيل* و الدهر لا يقنع بالقليل و على هذا فللدهر معنيان: الدهر بمعنى الأفلاك و الأيام، و الذى كان محل

(١)

-الوثنيين، حيث كانوا يقولون: إنّنا نموت دائما ثمّ نحيا فى أبدان أخرى فى هذا العالم. إلا أنّ هذا التفسير لا ينسجم مع جملة (و ما يهلكنا إلا الدهر) و التى تتحدث عن الهلاك و الفناء فقط. (فتأمل!).

ص: ٢٢١

١- (١) -تفسير مجمع البيان، المجلد ٩، صفحه ٧٨.

٢- (٢) -تفسير القرطبي، المجلد ٩، صفحه ٥٩٩١.

اهتمام الدهريين، حيث كانوا يظنونه حاكما على نظام الوجود و حياه البشر.

و الدهر بمعنى أهل العصر و الزمان و أبناء الأيام.

و من المسلم أنّ الدهر بالمعنى الأول أمر وهمي، أو نقول أنه اشتباه في التعبير حيث أطلق اسم «الدهر» بدل اسم الله المتعالى الحاكم على كل عالم الوجود. أما الدهر بالمعنى الثاني فهو الشيء الذي ذمه كثير من الأئمة و العظماء، لأنهم كانوا يرون أهل زمانهم خادعين مذبذبين لا وفاء لهم.

على أيه حال، فإنّ القرآن الكريم أجاب هؤلاء العبيثين بجمله وجزه عميقه، تلاحظ في موارد أخرى من القرآن الكريم أيضا، فقال: **وَ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ .**

و قد ورد نظير هذا المعنى في الآية (٢٨) من سورة النجم في من يظنون أنّ الملائكة بنات الله سبحانه: **وَ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا .**

و قد ورد هذا المعنى أيضا في القول بقتل المسيح، النساء-١٥٧، و عقيدته مشركي العرب في الأصنام، يونس-٦٦.

و هذا أبسط و أوضح دليل يلقي على هؤلاء بأنكم لا تملكون أى شاهد أو دليل منطقي على مدعاكم، بل تستندون في دعواكم إلى الظن و التخمين فقط.

و أشارت الآية التالیه إلى إحدى ذرائع هؤلاء الواهيه و حججهم الباطله فيما يتعلق بالمعاد، فقالت: **وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١) .**

كان هؤلاء يرددون أنّ إذا كان حياه الأموات و بعثهم حقًا فأحيوا آباءنا كنموذج لادعائكم، حتى نعرف مدى صدقكم، و لنسألهم عمّا يجرى بعد الموت، و هل يصدّقون ما تقولونه أم يكذبونه؟

ص: ٢٢٢

١-١) -«حجتهم» في الآية المذكوره خبر كان، و(أن قالوا...) اسمها.

نعم، هذا هو دليلهم الأ-جوف لأنّ الله سبحانه قد أبان للبشر قدرته على إحياء الأموات بطرق مختلفه، فإنشاء أوّل الإنسان من التراب، و تحولات النطفه العجيبه فى الرحم، و خلق السماء الواسعه و الأرض، و إحياء الأراضى الميتة بعد هطول الأمطار عليها، ذكرت كلها كأسانيد حيه على إمكان القيامه و البعث الجديد، و كأفضل دليل على هذا المعنى، و بعد كلّ هذا لا حاجه إلى دليل آخر.

و بغض النظر عن ذلك، فإنّ هؤلاء كانوا قد أثبتوا أنّهم لا هدف لهم إلاّ التذرع و التوسل بالحجج، للاستمرار فى ضلالهم و اعتقادهم المنحرف، فإذا كشف لهم عن مشهد إحياء الأموات فرضا فأروه بأمر أعينهم، فإنّهم سيقولون مباشرة: إنّه سحر، كما قالوا ذلك فى الموارد المشابهه.

إنّ التعبير ب«الحجه» فى مورد قول هؤلاء الفارغ هو كناية فى الحقيقه عن أنّ هؤلاء لا دليل لهم إلاّ عدم الدليل.

اشاره

قَالَ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ
الْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنَادِي بِحَسْرَتٍ الْمُعْطَلُونَ (٢٧) وَ تَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسِيحِينَ مِمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ
رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُلَقَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ
(٣١)

الكل جاث في محكمه العدل الإلهي:

هذه الآيات في الحقيقة جواب آخر على كلام الدهريين، الذين كانوا ينكرون المبدأ و المعاد، وقد أشير إلى كلامهم، في الآيات السابقة، فتقول الآية أولاً: قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ .

لم يكن هؤلاء يعتقدون بالله و لا باليوم الآخر، و محتوى هذه الآية استدلال عليهما معا، حيث أكدت على مسأله الحياه الأولى. و بتعبير آخر، فإن هؤلاء لا يستطيعون أن ينكروا أصل وجود الحياه الأولى، و نشأ الموجودات الحيه من موجودات ميتة، و هذا يشكل من جهه دليلا على وجود عقل و علم كلى شامل، إذ هل يمكن أن توجد الحياه على هذه الهيئه المدهشه، و التنظيم الدقيق و الأسرار العجيبه المعقده، و الصور المتعدده، و التى أذهلت عقول كل العلماء، من دون أن يكون لها خالق قادر عالم؟ و لهذا نرى آيات القرآن المختلفه تؤكد على مسأله الحياه كأحد آيات التوحيد و أدلته البيئه.

و من جهه أخرى، تقول لهم: كيف يكون القادر على إنشاء الحياه الأولى عاجزا عن إعادتها ثانيا؟ أمّا التعبير ب لا رَيْبَ فِيهِ حول القيامة، و الذى يخبر عن حتميه وقوعها و حدوثها، لا عن إمكانها، فهو إشاره إلى قانون العدل الإلهي، حيث لم يصل كل صاحب حق الى حقه فى هذه الحياه الدنيا، و لم يلاق كل المعتدين و الظالمين جزاءهم، و لو لا محكمه القيامة العادله، فإن العداله الإلهيه لا مفهوم لها حينئذ.

و لما كان كثير من الناس لا يتأمل هذه الدلائل و لا يدقق النظر فيها، فإن الآية تضيف فى النهايه: وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

إن أحد أسماء يوم القيامة المار ذكره فى هذه الآية هو: يَوْمَ الْجَمْعِ لِأَنَّ جَمِيعَ

الخلق من الأولين والآخرين، و على اختلاف طبقات البشر و أصنافهم يجمعون فى ذلك اليوم فى مكان واحد. و قد ورد هذا التعبير فى عدّه آيات أخرى من القرآن الكريم أيضا، و من جملتها الشورى-٧، و التغابن-٩.

أمّا الآية التالیه فهى دليل آخر على مسأله المعاد، و قد قرأنا الشبهه المطروحه حوله فى آيات القرآن الأخرى، فتقول: **وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَ الْأَرْضِ** فلما كان مالكا لتمام عالم الوجود الواسع و حاكما عليه، فمن المسلم أن يكون قادرا على إحياء الموتى، و مع وجود تلك القدره المطلقه لا تكون عمليه الإحياء بالأمر العسير.

لقد جعل الله سبحانه هذا العالم مزرعه للآخره، و متجرا وافر الربح إلى ذلك العالم، و لذلك يقول سبحانه فى نهايه الآية: **وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ** لأنهم فقدوا رأس مالهم- و هو العمر- و لم يتجروا فيه، و لم يشتروا متاعا إلا الحسره و الندم.

إنّ الحياه و العقل و الذكاء و مواهب الحياه الأخرى هى رأس مال الإنسان فى سوق التجاره هذا، لكن اتباع الباطل يبادلونه بمتاع فان سريع الزوال، و لذلك فإنهم حين يأتون يوم القيامه، يوم لا ينفع إلا القلب السليم و الإيمان و العمل الصالح سيرون خسارتهم الباهظه بأم أعينهم، و لات ساعه مندم.

«يخسر» من الخسران، و هو فقدان رأس المال، و ينسب أحيانا إلى نفس الإنسان- كما يقول الراغب فى المفردات- فيقال: خسر فلان، و أحيانا إلى تجارته فيقال: خسرت تجارته.

و مع أنّ أبناء الدنيا لا يستعملون هذا التعبير إلا فى موارد المال و المقام و المواهب الماديه، مع أنّ الأهم من خساره الماديه هو فقدان رأس مال العقل و الإيمان و الثواب.

أمّا «المبطل»- من ماده «إبطال»- فلها فى اللغه معان مختلفه، كإبطال الشىء،

و الكذب، و الاستهزاء و المزاح، و طرح أمر باطل و ذكره، و كل هذه المعاني يمكن أن تقبل في مورد الآية.

الأشخاص الذين أبطلوا الحق، و الذين نشروا عقيدته الباطل و أهدافه، و الذين كذبوا أنبياء الله، و سخروا من كلامهم، سيرون خسرانهم المبين في ذلك اليوم.

و تجسد الآية التالية مشهد القيامة بتعبير بليغ مؤثر جدا، فنقول: وَ تَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً .

يستفاد من بعض كلمات المفسيّرين أنّ أصحاب الدعوى في الماضي كانوا يجلسون على هذه الهيئه في مجلس القضاء ليميزوا عن الآخرين، و سيجتو الجميع يوم القيامة في تلك المحكمه الكبرى لتتم محاكمتهم.

و يمكن أيضا أن يكون هذا التعبير علامه على استعدادهم لتقبل أى أمر أو حكم يصدر بحقهم، لأنّ من كان على أهبه الاستعداد يجتو على الركب.

أو أنه إشاره إلى ضعف هؤلاء و عجزهم و خوفهم و اضطرابهم الذي سيعانونه.

و جمع كل هذه المعاني في مفهوم الآية ممكن أيضا.

و للجائيه معان أخرى، من جملتها الجمع الكثير المتراكم، أو جماعه جماعه، و يمكن أن تكون إشاره إلى تراكم البشر و ازدحامهم في محكمه العدل الإلهي، أو جلوس كل أمه و فئه على حده و بمعزل عن الأعمم الأخرى. إلاّ أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب و الأشهر.

ثمّ تبين الآية ثانی مشاهد القيامة، فنقول: كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فَإِنَّ هَذَا الْكِتَابَ صَحِيفَةٌ أَعْمَالٌ سَجِلَتْ فِيهَا كُلُّ الْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ، وَ الْقَبَائِحِ وَ الْأَفْعَالِ الْجَمِيلَةِ، وَ أَقْوَالِ الْإِنْسَانِ وَ أَعْمَالِهِ، وَ عَلَىٰ حَدِّ تَعْبِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا (١).

و تعبیر كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا يوحى بأنّ لكل أمه كتابا يتعلق بأفرادها

ص: ٢٢٧

جميعاً، إضافة إلى صحيفه الأعمال الخاصه بكل فرد و لا يبدو هذا الأمر عجيباً إذا علمنا أنّ للإنسان نوعين من الأعمال: الأعمال الفردية، والأعمال الجماعية، و لذلك فإن وجود نوعين من صحائف الأعمال يبدو طبيعياً جداً من هذه الناحية (١).

و التعبير ب«تدعى» يوحى بأن هؤلاء يدعون إلى قراءه ما فى كتبهم، و هذا المعنى نظير ما ورد فى الآيه (١٤) من سوره الإسراء: اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا .

ثمّ يأتيهم الخطاب من قبل الله مرّه أخرى، فيقول مؤكّداً: هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ فَقَدْ كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ كُلّ ما يحلو لكم، و لم تكونوا تصدقون مطلقاً أنّ كلّ أعمالكم هذه تسجل فى مكان ما، و لكن إنا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

«نستنسخ» من مادّه «استنسخ» و هى فى الأصل مأخوذه من النسخ، و هو إزالة الشىء بشىء آخر، فيقال مثلاً: نسخت الشمس الظل. ثمّ استعملت فى كتابه كتاب عن كتاب آخر من دون أن يمحي الكتاب الأوّل.

و هنا يبدو سؤال، و هو: إذا كان الله سبحانه قد أمر باستنساخ أعمال ابن آدم، ذلك يستلزم أن يكون هناك كتاب قبل النسخ تكتب فيه تلك الأعمال؟ و لذلك فإنّ البعض يعتقد أنّ صحائف أعمال كلّ البشر قد كتبت فى اللوح المحفوظ، و الملائكه الموكلون بحفظ أعمال الإنسان يستنسخونها من ذلك اللوح المحفوظ.

إلاّ أنّ هذا المعنى لا يتلاءم كثيراً مع الآيه مورد البحث، بل الملائم أحد معنيين هما: إمّا أن يكون الاستنساخ هنا بمعنى أصل الكتابه - كما قاله بعض المفسّرين - أو أنّ نفس أعمال الإنسان كالكتاب التكويني تنسخ عنه الملائكه الحفظه و تصوره، و لذلك فقد ورد فى آيات آخر من القرآن الكريم التعبير بالكتابه بدل

ص: ٢٢٨

١- ١) -احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من الكتاب فى الآيه أعلاه، هو الكتاب السماوى الذى أنزل على تلك الأمه. إلاّ ظاهر الآيه يدل على أنّه صحيفه الأعمال، خاصه بملاحظه الآيه التاليه، و أكثر المفسّرين على ذلك أيضاً.

الاستنساخ، كما نقرأ ذلك في الآية (١٢) من سورة يس: **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ (١)**.

وقد ورد تفصيل أوسع حول أنواع الكتب التي تسجل فيها الأعمال-صحيفه الأعمال الشخصية، و صحيفه أعمال الأمم، و الكتاب الجامع العام لكل أفراد البشر- في ذيل الآية (١٢) من سورة يس.

و تبين الآية التاليه جلسه الختاميه للمحكمه و إصدار قرار الحكم، حيث تنال كل فئه جزاء أعمالها، فتقول: **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ .**

إن ذكر «فاء التفریع» هنا دليل على أن نتیجه حفظ الأعمال و المحاسبه و تلك المحكمه الإلهيه العادله، هي دخول المؤمنین في رحمه الله سبحانه.

و طبقا لهذه الآية، فإن الإيمان-وحده- غير كاف لأن يجعل المؤمنین يتمتعون بهذه الموهبه العظيمه و العطيه الجزيله، بل إن العمل الصالح شرط لذلك أيضا.

و التعبير ب«رَبُّهُمْ» يحكى عن لطف الله الخاص، يكتمل بتعبير «الرحمه» بدل «الجَنَّة».

و تبلغ بهم نهايه الآية أوج الكمال حينما تقول: **ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ .**

إن ل«رحمه الله» معنى واسعاً يشمل الدنيا و الآخره، و قد أطلقت في آيات القرآن الكريم على معان كثيره، فتارة تطلق على مسأله الهدايه، و أخرى على الإنقاذ من قبضه الأعداء، و ثالثه على المطر الغزير المبارك، و رابعه على نعم أخرى كنعمة النور و الظلمه، و أطلقت في موارد كثيره على الجنة و مواهب الله سبحانه في القيامة.

ص: ٢٢٩

١-١) - ورد في روايه عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «إن لله ملائكه ينزلون كل يوم يكتبون فيه أعمال بني آدم». و يقول الشيخ الطوسي في التبيان في ذيل الآية مورد البحث بعد نقل هذه الروايه: و معنى نستنسخ نستكتب الحفظه ما يستحقونه من ثواب و عقاب، و نلقى ما عداه مما أثبتته الحفظه، لأنهم يشبثونه جميعا.

جمله ذَلِكُ الْفَوْزُ الْمُبِينُ تكررت مرّة أخرى في الآية (١٦) من سورة الأنعام، غايه ما هناك أنّ الفوز المبين قيل هناك لأولئك الذين ينجون من عذاب الله عزّ وجلّ: مَنْ يُصِِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذَلِكُ الْفَوْزُ الْمُبِينُ أما هنا فقد قيلت فيمن دخل الجنّة وفي رحمته الله، وكلاهما في الواقع فوز عظيم: النجاه من العذاب، والدخول في مستقر رحمته الله سبحانه.

و هنا قد يرد هذا السؤال، وهو: هل أنّ المؤمنين الذين ليس لهم عمل صالح لا يدخلون الجنّة؟ والجواب: إنهم يدخلونها لكن بعد أن يروا جزاءهم في جهنم حتى يطهروا، فإنّ الذين يردون مستقر رحمته الله هذا بعد الحساب مباشرة هم أصحاب العمل الصالح مضافا إلى إيمانهم، وحسب.

كلمه «الفوز» - كما يقول الراغب في مفرداته - تعنى الظفر المقترن بالسلامه، وقد استعملت في (١٩) موردا من آيات القرآن المجيد، فوصف الفوز مرّة بالمبين، وأخرى بالكبير، أمّا في غالب الآيات فقد وصف بالعظيم. وهو مستعمل عادة في شأن الجنّة، إلاّ أنّه استعمل في بعض الموارد في شأن التوفيق لطاعه الله و مغفره الذنوب و أمثال ذلك.

و تذكر الآية الآتية مصير من يقع في الطرف المقابل لأولئك السابقين، فتقول:

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ

و ممّا يلفت النظر أنّ الكلام في هذه الآية عن الكفر فقط، و أمّا أعمال السوء التي هي عامل الدخول في عذاب الله و سببه فلم يجر لها ذكر، و ذلك لأنّ الكفر وحده كاف لأنّ يدخل صاحبه العذاب، أو لأنّ التعبير بالمجرمين في ذيل الآية كاف لبيان هذا المعنى.

و النكته الأخرى هنا أنّه لم يرد كلام عن عقوبات الجحيم، بل الكلام عن التوبيخ الإلهي لهم و تقييعهم، وهو يعتبر أشد العذاب و أكبره، و تهون معه الجحيم

كلّ عذابها.

و هنا نكته تستحق الانتباه، و هي: أنه يستفاد من هذه الآية أنّ الله سبحانه لن يعذب أحدا من دون أن يبعث الأنبياء و يرسل الرسل و ينزل آياته- أو كما يصطلح عليه تأكيد أحكام العقل بأحكام الشرع- و هذا منتهى لطفه و رحمته سبحانه.

و آخر ملاحظه هي أنّ أكبر مشاكل هؤلاء القوم هو استكبارهم على آيات الله من جهه، و تماديهم في المعصيه و الإجرام من جهه أخرى، و هذا يستفاد من جمله وَ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ .

ص: ٢٣١

اشاره

وَ إِذَا قِيلَ إِنَّ وَعِيدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنظَّرُ إِلَّا ظَنًّا وَ مَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَ بَدَأَ لَهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْرِئُونَ (٣٣) وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَ مَاؤَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ
مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَ غَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ
الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَ لَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)

يوم تبدو السيئات:

الآية الأولى من هذه الآيات توضيح لما ذكر في الآيات السابقة بصوره مجمله، توضيح لمسأله استكبار الكافرين على آيات الله و دعوه الأنبياء، فتقول:

وَ إِذِ قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَ إِلَّا ظَنًّا وَ مَا نَحْنُ بِمُشْتَقِينَ

التعبير بـ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ في حين أنّ معنى القيامه لم يكن غامضا عليهم أو مبهما، وإن كان شك كلّ لديهم ففى وجودها، ممّا يوحي بأنهم كانوا فى موضع تكبر و عدم اهتمام، و لو كانت لدى هؤلاء روح تتبع الحق و طلبه لرأوا أنّ ماهيه يوم القيامه أمر واضح، كما أنّ الدليل عليها بين جلى. و من هنا يتّضح الجواب عن سؤال طرح هنا، هو: أنّ هؤلاء إنّ كانوا-حقا-فى شكّ الأمر، فلا- تثريب عليهم و لا- إثم؟ لكن الشك لم يكن ناشئا من عدم وضوح الحق، بل ناتج عن الكبر و الغرور و العناد التعصب.

و يحتمل أيضا أن يكون هدفهم من تهافت كلامهم و تناقضه السخريه و الاستهزاء.

و تتحدث الآيه التاليه عن جزاء هؤلاء و عقابهم، ذلك الجزاء الذى لا يشبه عقوبات المحاكم الدنيويه، فتقول: وَ بَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا فستتجسد القبائح و السيئات أمام أعينهم، و تتّضح لهم، و تكون لهم قرينا دائما يتأذون من وجوده إلى جانبهم و يتعذبون من صحبته: وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ (١).

و الأشدّ ألما من كلّ ذلك هو الخطاب الذى يخاطبهم به الله الرحمن الرحيم، فيقول سبحانه: وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا.

ص: ٢٣٣

١ - ١) - «حاق» من ماده (حوق)، و هى فى الأصل بمعنى الورود، و النزول، و الإصابه، و الإحاطه. و قال البعض: إنّ أصلها (حق) - بمعنى التحقيق - فأبدلت القاف الأولى إلى واو، ثم إلى ألف.

لقد ورد هذا التعبير بصيغ مختلفه فى القرآن الكريم مرارا، فى الآيه (٥١) من سورة الأعراف: فَالْيَوْمَ نُنَسِّأَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا .

و جاء هذا المعنى أيضا بأسلوب آخر فى الآيه (١٤) من سورة ألم السجده.

لا- شك أنّ النسيان لا- معنى له بالنسبه إلى الله سبحانه الذى يحيط علمه بكلّ عالم الوجود، لكنّه هنا كناية لطيفه عن احتقار الإنسان المجرم العاصى و عدم الاهتمام به، و يلاحظ هذا التعبير حتى فى محادثاتنا اليوميّه، فنقول: انس فلانا الذى لا وفاء له، أى عامله كإنسان منسى، و لا تمنحه المحبه و العطف و الوداد، و اترك تفقد أحواله، و لا تذهب إليه أبدا.

ثمّ إنّ هذا التعبير تأكيد آخر- بصوره ضمنيه- على مسأله تجسم الأعمال، و تناسب الجريمه و العقاب، لأنّ نسيانهم يوم القيامه فى الدنيا يؤدى إلى أن ينساهم الله يوم القيامه، و ما أعظم مصيبه نسيان الله الرحمن الرحيم لفرد من الأفراد، و حرمانه من جميع اللطافه و مننه.

و ذكر المفسّرون هنا تفاسير مختلفه للنسيان تتلخص جميعا فى المعنى المذكور أعلاه، و لذلك لا نرى حاجه لتكرارها.

ثمّ إنّ المراد من نسيان لقاء يوم القيامه، نسيان لقاء كلّ المسائل و الحوادث التى تقع فى ذلك اليوم، سواء الحساب أم غيره، حيث كانوا ينكرونها.

و يحتمل أيضا أن يكون المراد نسيان لقاء الله سبحانه فى ذلك اليوم، لأنّ يوم القيامه قد وصف فى القرآن المجيد بيوم لقاء الله، و المراد منه الشهود الباطنى.

و تتابع الآيه الحديث، فتقول: وَ مَا أَوْكُمُ النَّارُ إِذَا كُنْتُمْ تظنون أنّ أحدا سيهب لنصرتكم و غوثكم، فاقطعوا الأمل من ذلك، و اعلموا أنّه وَ مَا لَكُمْ مِنْ ناصرين .

أما لماذا ابتليتكم بمثل هذا المصير؟ ف ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ بَاتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءاً وَ غَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .

و أساسا فإنّ «الغرور» و «الاستهزاء» لا ينفصلان عن بعضهما عاده، فإنّ الأفراد

المغرورين و المتكبرين الذين ينظرون إلى الآخرين بعين الاحتقار يتخذونهم هزوا و يسخرون منهم، و مصدر الغرور فى الواقع هو متاع الدنيا و قدرتها و ثروتها الزائلة المؤقتة، و التى تدع الأفراد الضيقى الصدور فى غفله تامه لا يعيرون معها لدعوه رسل الله أدنى اهتمام، و لا يكلفون أنفسهم حتى النظر فيها للوقوف على صوابها من عدمه.

و تكرر الآيه ما ورد فى الآيه السابقه و تؤكده بأسلوب آخر، فتقول:

فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ

(١)

، فقد كان الكلام هناك عن مأواهم و مقرهم الثابت، و الكلام هنا عن عدم خروجهم من النار.. حيث قال هناك: ما لهم من ناصرين، و هنا يقول: لا يقبل منهم عذر، و النتيجة هى أن لا سبيل لنجاتهم.

و فى نهايه هذه السوره، و لإكمال بحث التوحيد و المعاد، و الذى كان يشكل أكثر مباحث هذه السوره، تبيّن الآيتان الأخيرتان وحده ربوبيه الله و عظمته، و قدرته و حكمته، و تذكر خمس صفات من صفات الله سبحانه فى هذا الجانب، فتقول أولا: فَلِلَّهِ الْحَمْدُ لِأَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبُّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

«الرب» بمعنى المالك و المدبر، و الحاكم و المصلح، و بناء على هذا فكل خير و بركه تأتي منه سبحانه و لذلك، ترجع إليه كل المحامد و الثناء، فحتى الثناء على الورد، و صفاء العيون، و عذوبه النسيم، و جمال النجوم، حمد له و ثناء عليه، فإنها جميعا تصدر عنه، و تنمو بفضلها و رعايته.

و الطريف أنه يقول مره: رب السماوات، و أخرى: رب الأرض، و ثالثه: رب عالم الوجود و العالمين، ليفند الاعتقاد بالآلهه المتعدده التى جعلوها للموجودات المختلفه، و يدعو الجميع إلى توحيد الله سبحانه و الاعتقاد بأحديته.

و بعد وصف ذاته المقدسه بمقام الحمد و الربوبيه، تضيف الآيه فى الصفه الثالثه:

وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ

لأن آثار عظمتها ظهره فى السماء

ص: ٢٣٥

(١ - ١) - أعطينا التوضيح اللازم حول معنى (يستعتبون) و أصلها فى ذيل الآيه (٥٧) من سوره الروم.

المترايمه الأطراف، و الأرض الواسعه الفضاء، و فى كل زوايه من زوايا العالم.

لقد كان الكلام فى الآيه السابقه عن مقام الربوبيه، أى كونه تعالى مالكا لأمرور عالم الوجود و مدبرا لها، و الكلام هنا عن عظمته، فكلما دققنا النظر فى خلق السماء و الأرض و تأملنا، سترداد معرفه بهذه الحقيقه، و ترداد بصيرتنا بها.

و أخيرا تقول الآيه فى الوصفين الرابع و الخامس: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ و بذلك تكمل مجموعه العلم و القدره و العظمه و الربوبيه و المحموديه، و التى هى مجموعه من أهم صفات الله، و أسمائه الحسنى.

و لعلها تشير إلى أن: له الحمد فاحمدوه، و هو الرب فاشكروا له، و له الكبرياء فكبروه، و هو العزيز الحكيم فأطيعوه.

و بوصف الله سبحانه بالعزیز و الحكيم تنتهى سوره الجاثيه كما بدأت بهما، و كل محتواها و ما تضمنته شاهد على عزه الله سبحانه و حكمته الساميه.

اللهم، إنا نقسم عليك بكبريائك و عظمتك، و بمقام ربوبيتك، و عزتك و حكمتك، تثبت أقدامنا فى طريق طاعه أوامرک.

اللهم، إن كل حمد و ثناء نؤديه فبتوفيق منك، و كل ما لدينا من بركاتك و أطافك، فأدم اللهم هذه النعم و زدها علينا.

إلهنا: نحن غارقون فى بحر إحسانك و كرمك، فوفقنا لأداء شكرک.

آمين يا رب العالمين.

نهايه سوره الجاثيه ***

بدايه الجزء السادس و العشرون من القرآن الكريم

سوره الأحقاف

اشاره

مكيه و عدد آياتها خمس و ثلاثون آيه

ص: ٢٣٧

محتوى السوره:

هذه السوره من السور المكيه-و إن كان جمع من المفسرين ذهبوا إلى أنّ بعض آياتها قد نزلت فى المدينه،و سنبحث ذلك فى شرح تلك الآيات إن شاء الله تعالى -و لما كان زمان نزولها و ظروفه زمان مواجهه الشرك،و الدعوه إلى التوحيد و المعاد و مسائل الإسلام الأساسيه،فإنها تتحدث حول هذه الأمور،و تدور حول هذه المحاور.

و يمكن القول باختصار،أنّ هذه السوره تتابع الأهداف التاليه:

١-بيان عظمه القرآن.

٢-محاربه كل أنواع الشرك و الوثنيه بشكل قاطع.

٣-توجيه الناس إلى مسأله المعاد و محكمه العدل الإلهى.

٤-إنذار المشركين و المجرمين من خلال بيان جانب من قصه قوم عاد،الذين كانوا يسكنون أرض «الأحقاف»،و منها أخذ اسم هذه السوره.

٥-الإشاره إلى سعه دعوه نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم و كونها عامه تتخطى حتى حدود البشر،أى إنّها تشمل طائفه الجن أيضا.

٦-ترغيب المؤمنين و ترهيب الكافرين و إنذارهم،و إيجاد دوافع الخوف و الرجاء.

٧-دعوه نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم إلى التحلى بالصبر و الاستقامه الى أبعد الحدود،

فضل هذه السوره:

ورد في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في فضل هذه السوره: «من قرأ سوره الأحقاف أعطى من الأجر بعدد كل رمل في الدنيا عشر حسنات، و محى عنه عشر سيئات، و رفع له عشر درجات» (١).

و لما كانت «الأحقاف» جمع حقف، و هي الكثبان الرملية التي تتجمع على هياث مختلفه، مستطيله و متعرجه نتيجة هبوب الرياح في الصحارى، و كان يقال لأرض قوم عاد «الأحقاف» لأنها كانت حصباء على هذه الشاكلة، فإنّ تعبير الحديث أعلاه ناظر إلى هذا المعنى.

و من البديهي أنّ كلّ هذه الحسنات و الدرجات لا تمنح لمجرد التلاوه اللفظيه، بل التلاوه البناءه المؤديه إلى السير في طريق الإيمان و التقوى، و لمحتوى سوره الأحقاف هذا الأثر حقًا إذا كان الإنسان طالب حقيقه و مستعدا للعمل و التطبيق.

و

جاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «من قرأ كلّ ليله أو كلّ جمعه سوره الأحقاف لم يصبه الله عزّ و جلّ بروعه في الحياه الدنيا، و آمنه من فزع يوم القيامة إن شاء» (٢).

ص: ٢٤٠

١-١) - تفسير مجمع البيان، بدايه سوره الأحقاف.

٢-٢) - تفسير مجمع البيان، و نور الثقلين بدايه سوره الأحقاف.

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ (٣)

التفسير

إشاره

خلق هذا العالم على أساس الحق:

هذه السوره هي آخر سوره تبدأ ب حم و تسمى جميعا الحواميم.

وقد كانت لنا بحوث كثيره حول الحروف المتقطعه بعامه، و(حم) بخاصه، في بدايات سور البقره و آل عمران و الأعراف سور الحواميم السابقه، فلا حاجه لتكرارها هنا.

و نكتفى هنا بالقول بأن هذه الآيات التي تهز الأعماق، و تحرك الوجدان، و التي تضمنها القرآن الكريم بين دفتيه تتكون من حروف الهجاء البسيطة، من الألف و الباء، و الحاء و الميم و أمثالها، و كفى بها دليلا على عظمه الله سبحانه إذ أظهر هذا المركب العظيم من مثل هذه المفردات البسيطة، و لو تأملنا فيه كثيرا، و فكرنا في أسراره حتى القيامه فسيبقى فيه من الأسرار الخافيه الكثير الكثير.

و ربّما كان هذا هو السبب فى أن تضيف الآيه مباشرة: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .

إنّه نفس التعبير الذى ورد فى بدايه ثلاث سور من الحواميم، و هى: المؤمن، و الجاثيه، و الأحقاف.

و لا شكّ فى الحاجه إلى قوّه لا تقهر، و حكمه لا حد لها، لكى تنزل مثل هذا الكتاب.

ثمّ تحولت الآيات من كتاب التدوين إلى كتاب التكوين، فتحدثت الآيه عن عظمه السماوات و الأرض و كونهما حقا، فقالت: **مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ فَلَا تَرَىٰ فِي كِتَابِ سَمَائِهِ كَلِمَةَ تَخَالَفَ الْحَقِّ، وَلَا تَجِدُ فِي مَجْمُوعِ عَالَمِ خَلْقِهِ شَيْئًا نَشَازًا لَا يَنْسَجَمُ وَالْحَقُّ، فَالْكَلِمَةُ مَنْسُوقَةٌ مِّنْظَمًا، وَكُلُّهَا مَقْتَرَنَةٌ بِالْحَقِّ.**

لكن، كما أنّ لهذا الكون بدايه، فإنّ له نهايه أيضا، و لذلك تضيف الآيه: **وَ أَجَلٌ مُّسَيَّمٌ لِّإِنْسَانٍ إِذَا حُلَّ الْأَجَلُ سَتَفَنَى الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا، وَ لَمَّا كَانَ هَذَا الْعَالَمُ مَقْتَرَنًا بِالْحَقِّ وَ يَسِيرًا ضَمِنَ مِنْهُجَهُ، وَ لَهُ هَدَفٌ مَّرْجُوعٌ، فَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنَّ يَوْجَدُ عَالَمٌ آخَرَ تَبْحَثُ فِيهِ الْأَعْمَالُ وَ تَعْلَنُ فِيهِ النَّتَائِجُ، وَ بِنَاءٍ عَلَى هَذَا، فَإِنَّ كَوْنَ هَذَا الْعَالَمِ حَقًّا دَلِيلٌ بِنَفْسِهِ عَلَى وَجُودِ الْمَعَادِ، وَ إِلَّا فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لَغْوًا وَ عِبَثًا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَ سَيَقْتَرَنُ حِينَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمِظَالِمِ وَ الْمَفَاسِدِ.**

لكن مع أنّ القرآن حق، و خلق العالم حق أيضا: **وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ** فالآيات القرآنيه تهددهم و تنذرهم بصوره متلاحقه متواليه، و تحذّرهم بأن محكمه عظمى أمامهم، هذا من جانب، و من جانب آخر فإنّ نظام الخلقه بدقته و أنظمتها الخاصيه يدل بنفسه على أنّ فى الأمر حسابا و نظاما، غير أنّ هؤلاء الغافلين لم يلتفتوا إلى هذا و لا إلى ذلك.

كلمه «معروضون» -من الإعراض- تشير إلى أنّ هؤلاء إذا نظروا إلى آيات

التكوين و التدوين فسيذكر كون الحقائق، إلا- أنهم أعرضوا بوجوههم عنها، و فروا من الحق لثلا- يغير من أسلوب تقاليدهم و أهوائهم و ميولهم و شهواتهم و إتباعهم لها.

ص: ٢٤٣

إشاره

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ إِيْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)

التفسير

إشاره

أضل الناس:

كان الكلام فى الآيات السابقه عن خلق السماوات و الأرض و أنها جميعا من صنع الله العزيز الحكيم، و لازم ذلك أن لا يكون فى الكون إله سواه، لأن من له أهليه الألوهيه هو خالق العالم و مدبره، و هاتان الصفتان قد جمعتا فى الذات المقدسه.

و من أجل تكمله هذا البحث، تخاطب هذه الآيات النبى صلى الله عليه و آله و سلم و تقول: قُلْ

أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ

إذا كنتم تقولون بأن الأصنام لا دخل لها في خلق الموجودات الأرضية مطلقا، ولا في خلق الشمس والقمر والنجوم وموجودات العالم العلوي، وتقولون بصراحه بأن الله هو خالقها جميعا (١)، فعلاهم تمدون أكفكم إلى الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تعقل، تستمدون منها العون في حلّ معضلاتكم، ودفع البلاء عنكم، واستجلاب البركات إليكم؟ وإذا قلت على سبيل الفرض -إنها شريكه في أمر الخلق والتكوين ف اثنتونى بكتاب من قبل هذا أو آثاره من علم إن كنتم صادقين .

و خلاصه القول، فإنّ الدليل إما أن يكون نقليا عن طريق الوحي السماوي، أو عقليا منطقيا، أو بشهادة العلماء و تقريرهم، أما أنتم فليستم مستندين إلى الوحي و الكتاب السماوي في دعواكم حول الأصنام، و غير قادرين من طريق العقل على إثبات اشتراكها في خلق السماوات و الأرض و بالتالى إثبات كونها آلهه، و لم يرد أثر من أقوال العلماء الماضين ما يؤيد رأيكم و يدعم اعتقادكم، و من هنا يتبين أنّ دينكم و معتقدكم لا يعدو كونه حفته من الخرافات المستهجنه، و الأوهام الكاذبه.

بناء على هذا، فإنّ جملة أروني ما ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ... إشارة إلى دليل العقل، و جملة اثنتونى بكتاب من قبل هذا إشارة إلى الوحي السماوي، و التعبير ب آثاره من علم إشارة إلى سنن الأنبياء الماضين و أوصيائهم، أو آثار العلماء السابقين (٢). و قد ذكر علماء اللغه و المفسّرون عدة معان لكلمه «آثاره» -على وزن حلاوه- فمنها: بقيه الشىء، الروايه، العلامه. لكنّ الظاهر أنّها تعود إلى معنى واحد،

ص: ٢٤٥

١- ١) -لقد ورد هذا المعنى في أربع آيات من القرآن، و طالعوا تفصيلا أكثر حول هذا المطلب في ذيل الآيه (٢٥) من سوره الزخرف من التفسير الأمثل.

٢- ٢) -نقرأ في حديث روى عن الإمام الباقر عليه السّلام في أصول الكافي في تفسير جملة (أو آثاره من علم) أنّه قال: «إنّما عنى بذلك علم أوصياء الأنبياء». نور الثقلين، المجلد ٥، صفحه ٩.

و هو الأثر الذى يبقى من الشىء و يدل على وجوده.

و قد وردت مثل هذه المناظره و المحاكمه مع الوثنيين فى الآيه (٤٠) من سوره فاطر، حيث تقول: قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُم كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا .

و ممَّا يلفت النظر أنه يقول فى مورد الأرض: مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمَا فى مورد السماء فيقول: أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَى إِنَّ الكلام فى الموردين عن الاشتراك، لأنَّ الشرك فى العباده يجب أن ينشأ من الشرك فى الخالقيه و تدبير النشأه.

و هنا يطرح سؤال، و هو: إذا كان المشركون يعتقدون-عاده-أنَّ أمر الخلق مختص بالله سبحانه، فلما ذا يطالبون بأحد هذه الأدله الثالثه؟ و يمكن الإجابة بأنَّ هذه المطالبه موجهه إلى فئه قليله بين عبده الأوثان، يحتمل أنَّهم كانوا يقولون باشتراك الأصنام فى الخلق، أو أنَّها طرحت على سبيل الفرض، أى إنكم إذا ظننتم يوما أنَّ الأصنام شريكه فى خلق العالم، فاعلموا أن لا دليل لكم على ذلك، لا من النقل و لا من العقل.

بعد ذلك تبين الآيه التاليه عمق ضلاله هؤلاء المشركين و انحرافهم، فتقول:

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

و لا يقف الأمر عند عدم إجابتهم و حسب، بل إنهم لا يسمعون كلامهم: وَ هُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ .

و يرى بعض المفسرين أنَّ مرجع الضمير فى هذه الآيه إلى الأصنام الجامده الميتة، باعتبار أنَّ أكثر آلهه مشركى العرب كانت الأصنام. و اعتبره البعض إشاره إلى الملائكه و البشر الذين عبدوا من دون الله، لأنَّ عبده الملائكه و الجن لم يكونوا قلَّه بين العرب، و التعبيرات المختلفه لهذه الآيه، و المتناسبه مع ذوى العقول تؤيد

هذا المعنى.

لكن لا- مانع من أن نفسر الآية بمعناها الواسع، فتدخل فيه كل هذه المعبودات، سواء الحيه و الميتة، العاقله و غير العاقله، فتكون التعابير متناسبه مع ذوى العقول من باب التغليب.

و عند ما تقول الآية: إنهم لا يجيبونهم إلى يوم القيامة، فإن ذلك لا يعنى أنهم سيجيبونهم يوم القيامة- ما ظن البعض ذلك- بل إن هذا التعبير متداول فى النفى المؤيد، كما نقول مثلا: لو أصررت على فلان إلى يوم القيامة لما أقرضك، أى أنه سوف لا يقوم بها العمل أبدا، لا أنه سيلبى طلبك فى يوم القيامة.

و سبب ذلك معلوم أيضا، لأن كل سعى و جهد و تلبيه طلب و قضاء حاجه نافع فى هذه الحياه الدنيا، فإذا انتهت انتهى معها إمكان القيام بكل هذه الأعمال.

و الأشد أسفا من ذلك أنه: وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَ كَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ .

أمّا المعبودات من العقلاء، فإنهم سيهبون لإظهار عدائهم لهؤلاء الضالين، فالمسيح عليه السلام يظهر اشتمزازه و تنفره من عابديه، و تتبرأ الملائكه منهم، بل و حتى الشياطين و الجن تظهر عدم رضاها. و أمّا المعبودات التى لا عقل لها و لا حياه، فإن الله سبحانه سمحها العقل و الحياه لتتطرق بالبراءه من هؤلاء العبد و تبدى غضبها عليهم.

لقد ورد نظير هذا المعنى فى آيات القرآن الأخرى، و من جملتها الآية (١٤) من سوره فاطر، حيث تقول: إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لَا يُبْتَلِكُمْ مِثْلُ خَبِيرٍ . و كررت فى الآيات مورد البحث كل هذه المسائل بتفاوت يسير.

لكن كيف ينكر المعبودون عباده عابديهم، و هى مميّ لا- ينكر؟ ربّما كان ذلك إشاره إلى أنهم كانوا يعبدون أهواءهم فى الحقيقه، و لم يكونوا

يعبدون تلك الآلهه، لأنَّ أساس الوثنيه عباده الهوى.

و هنا نكته تستحق الانتباه، وهى: إنَّ عداء المعبودين لعبدتهم يوم القيامة لم يرد التأكيد عليه هنا فقط، بل نقرأ ذلك أيضا فى الآيه (٢٥) من سوره العنكبوت على لسان إبراهيم عليه السلام بطل التوحيد و محطم الأصنام إذ يقول: [□] وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا .

و جاء فى الآيه (٨٢) من سوره مريم: [□] كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا .

ص: ٢٤٨

إشاره

وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَ مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَ لَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا لِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَ مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)

التفسير

إشاره

لم أكن أول نبي!!

يستمر الحديث في هذه الآيات عن حال المشركين، و كيفية تعاملهم مع آيات الله، فتقول: وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا

فهم لا يستطيعون إنكار نفوذ القرآن السريع في القلوب، و جاذبيته التي لا تقاوم من جهه، و هم من جهه أخرى غير مستعدين لأن يخضعوا أمام عظمته و كونه حقاً، و لذلك فإنهم يفسرون هذا النفوذ القوي بتفسير خاطئ منحرف و يقولون: إنّه سحر مبين، و هذا القول -بحد ذاته- اعتراف ضمنى واضح بتأثير القرآن الخارق في قلوب البشر.

بناء على هذا فإن «الحق» -في الآيه المذكوره- إشاره إلى آيات القرآن، و إن كان البعض قد فسرها بالنبوه، أو الإسلام، أو معجزات النبي صلى الله عليه و آله و سلم الأخرى، إلا أن التفسير الأول هو الأنسب بملاحظه بدايه الآيه.

غير أن هؤلاء لم يكتفوا بإطلاق هذه التهمه و إصاقها به، بل إنهم تمادوا فخطوا خطوه أوسع، و أكثر صراحه: أم يَقُولُونَ افْتِرَاءً .

إنّ الله سبحانه يأمر نبيه هنا بأن يجيبهم بجواب قاطع، و يعطيهم البرهان الجليّ بأنّه قل لهم إذا كان كذلك فاللزام أن يفضحنى و لا- تستطيعون الدفاع عنيّ مقابل عقابه: قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً (١) فكيف يمكن أن يظهر الله سبحانه هذه الآيات البينات و المعجزه الخالده على يد كذاب؟ إنّ هذا بعيد عن حكمه الله و لطفه.

و هذا كما ورد في الآيات (٤٤)-(٤٧) من سوره الحاقه: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ .

بناء على هذا، هل يمكن أن أقدم على مثل هذا العمل الخطير من أجلكم؟ و كيف تصدقون أنّ بالإمكان أن أكذب مثل هذه الكذبه ثم ييقينى الله حياً، بل و يمنحنى معجز آخر؟

ص: ٢٥٠

١- ١) -جملة (إن افتريته) جملة شرطيه حذف جزاؤها، و التقدير: إن افتريته أخذنى و عاجلنى بالعقوبه.

ثم يضيف مهرداداً: هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ (١) و سيعاقبكم فى الوقت اللازم.

نعم، إنه يعلم كل ما رमितمنى به من التهم، و أنكم وقفتم بوجه رسوله، و كنتم تصدون الناس عن الإيمان بالحق بنفثكم السموم بينهم.

ثم يقول فى الجملة التالية كناً كيد أكبر مقترن بتعامل مؤدب جداً: كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ فَهُوَ يَعْلَمُ صَدَقَ دَعْوَتِي، و سعى و جهدى فى إبلاغ رساله، كما يعلم كذبكم و افتراءكم و العوائق التى تضعونها فى طريقي، و هذا كاف لى و لكم.

و من أجل أن يدلهم على طريق الرجوع إلى الحق، و يعلمهم بأنه مفتوح إن أرادوا العوده، يقول: وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ فَهُوَ يَعْفُو عَنِ التَّائِبِينَ و يغفر لهم، و يدخلهم فى رحمته.

و يضيف فى الآيه التالية: قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاءٍ مِنَ الرُّسُلِ وَ مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَ لَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَ مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

إن هذه الجملة الوجيزه الغنيه المحتوى تجيب عن كثير من إشكالات المشركين، و من جملتها أنهم كانوا يتعجبون أحيانا-فى مسأله بعثه النبى صلى الله عليه و آله و سلم- كيف يمكن أن يتصل إنسان بالله و يرتبط به؟ و أحيانا كانوا يقولون: لماذا يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق؟ و تاره كانوا يطلبون معجزه عجيبه غريبه، و كان كل منهم يتمنى شيئا.

و كانوا يظنون أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم مستودع لعلم الغيب، فيطلبون منه أن يخبرهم بكل حوادث المستقبل.

و أخيراً فإنهم كانوا يعجبون أحيانا من دعوته لنبد الآلهه و التوجه إلى عباده الله

ص: ٢٥١

١-١) -«ما» فى جمله (ما تفيضون فيه) يمكن أن تكون موصوله، و تعنى التهم غير الصحيحه، و التى كان يعلمها النبى صلى الله عليه و آله و سلم و بناء على هذا فإن ضمير (فيه) يعود إليها. و إن كانت مصدرية فإن الضمير (فيه) يعود إلى القرآن أو إلى الحق، و هنا تكون (تفيضون) بمعنى الدخول فى عمل ما بقصد الإفساد و التخريب.

و هذه الآيه إشاره إجماليه إلى أجوبه جميع هذه الأسئلة، و قطع لكل تلك الأعذار الواهيه.

يقول النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنا لست أول نبي دعا إلى التوحيد، فقد جاء قبلي أنبياء كثيرون كلهم كانوا بشرا، و كانوا يلبسون الثياب و يأكلون الطعام، و لم يدع أحد منهم أنه يعلم الغيب المطلق، بل كانوا يقولون: إننا نعلم من أمور الغيب ما يعلمنا الله إياه فقط.

و لم يستسلم أحد منهم أمام المعاجز التي كان يقترحها الناس، و التي كانت تقوم على أساس الرغبه و الميول.

كل ذلك ليعلم الجميع أن النبي أيضا عبد من عباد الله، و علمه و قدرته محدوده بما يريد الله سبحانه و يمنحه، فإن العلم المطلق و القدره المطلقه لله جلّ و علاء و حسب.

هذه الحقائق كان يجب على الناس أن يعلموها و يدركوها، لينتهوا من إشكالاتهم الجوفاء.

كل ذلك ورد بعد البحث الذي مرّ في الآيات السابقه، حيث كانوا يرمون النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالسحر مرّه، و بالافتراء أخرى، ليعلم أن منبع هذه الاتهامات و مصدرها هو تلك الأوهام التي أوجب عنها في هذه الآيه.

و من هنا يتضح أن مفاد هذه الآيه لا- يتنافى مع الآيات الأخرى التي توحى بأن النبي صلى الله عليه و آله و سلم يعلم الغيب، كالذي ورد في سورة الفتح حول فتح مكّه و دخول المسجد الحرام- الآيه ٢٧ من سورة الفتح- أو ما ورد في شأن المسيح عليه السلام حيث يقول: **أُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ (١)**، و أمثال ذلك، لأن الآيه مورد البحث تنفي علم الغيب المطلق، لا مطلق علم الغيب، و بتعبير آخر، فإن الآيه

تنفى علم الغيب الاستقلالى، أما تلك الآيات فتتحدث عن علم الغيب الذى ينال ببركه التعليم الإلهى.

و الشاهد على هذا الكلام الآيتان (٢٦) - (٢٧) من سورة الجن: **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَيَّ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** .

و قد ذكر بعض المفسرين سبب نزول للآيه مورد البحث، فقالوا: إنَّ عبء المشاكل و ضغطها لما زاد على أصحاب النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى مكه، رأى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخيل و أشجار و ماء كثير، فذكر ذلك لأصحابه، ففرحوا لذلك و ظنوا أنهم سيرون فرجا وسعه بعد أذى المشركين، فصبروا مدّه فلم يروا أثرا لذلك، فقالوا: يا رسول الله، لم نر ما أخبرتنا به، فمتى سنهاجر إلى تلك الأرض التى رأيتها فى منامك؟ فسكت النبى صلى الله عليه و آله و سلم فنزلت هذه الآيه: **وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ (١)** .

إلا أن سبب النزول هذا يبدو بعيدا، لأن المخاطبين فى هذه الآيات أعداء النبى لا أصحابه، لكن يمكن أن يكون هذا من باب التطبيق، أى أنه صلى الله عليه و آله و سلم تمسك بهذه الآيه و أجاب بها أصحابه حينما طرحوا هذا السؤال.

و تضيف آخر آيه من هذه الآيات، و لتكمله ما ورد فى الآيات السابقه: **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيَّ مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ لَمْ يَهْدِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢)** .

و للمفسرين أقوال فى الشاهد من بنى إسرائيل الذى شهد على كون القرآن المجيد حقا...

قال البعض: إنه موسى بن عمران عليه السلام الذى أخبر فى عصره بظهور نبى الإسلام، و أعطى أوصافه و علاماته.

ص: ٢٥٣

١ - ١) - تفسير الفخر الرازى، المجلد ٢٨، صفحه ٨.

٢ - ٢) - جزاء الجملة الشرطيه: (إن كان من عند الله) محذوف، و تقديره: (من أضل منكم).

إلا أن هذا الاحتمال غير صحيح بملاحظه جمله: فَأَمَّنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ التى توحى بأن هذا الشاهد من بنى إسرائيل قد آمن بنبى الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم فى الوقت الذى استكبر فيه المشركون و لم يؤمنوا، لأن ظاهر الجملة يوحى بأن هذا الشاهد كان موجودا فى عصر نبى الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم و آمن به، بينما اختار الآخرون طريق الاستكبار و الكفر.

و قال آخرون: إنه كان رجلا من علماء أهل الكتاب، كان يحيا فى مكه. و مع أن أنصار الدين اليهودى و المسيحى كانوا قله فى مكه، لكن لا يعنى هذا أن أحدا منهم لم يكن فيها، و مع ذلك فلا يعرف من كان هذا العالم من بنى إسرائيل؟ و ما هو اسمه؟ و هذا التفسير باطل منهم أيضا لأنه لم يكن هناك عالم معروف من أهل الكتاب فى مكه فى عصر ظهور النبى صلى الله عليه وآله وسلم، و لم تذكر التواريخ اسما له (1).

طبعاً، يمتاز هذا التفسير و الذى قبله بأنهما ينسجمان مع كون كل سورة الأحقاف مكيه.

و التفسير الثالث الذى ارتضاه أكثر المفسرين، هو أن هذا الشاهد كان «عبد الله بن سلام» عالم اليهود المعروف، الذى آمن فى المدينة و التحق بصفوف المسلمين.

و

قد ورد فى حديث - أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انطلق حتى دخل كنيسة اليهود يوم عيدهم، فكرهوا دخوله عليهم، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا معشر اليهود أرونى اثنى عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله، يحط الله عن كل يهودى تحت أديم السماء الغضب الذى عليه» فسكتوا فما أجابه منهم أحد، ثم رد عليهم فلم يجبه أحد ثلاثا، فقال: «أبيتم، فو الله لأنا الحاشر، و أنا العاقب، و أن المقض، آمنتم أو كذبتم» ثم انصرف حتى كاد يخرج، فإذا رجل من خلفه، فقال: كما أنت يا محمدا فأقبل، فقال ذلك الرجل: أى رجل تعلمونى فيكم يا

ص: ٢٥٤

(١ - ١) - التعبير هنا ب(شاهد) بصيغه النكرة للتعظيم، و هو يوحى بأنه كان شخصا معروفا عظيما.

معشر اليهود؟ فقالوا: والله ما نعلم فينا رجلا أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدك، فقال: فإنني أشهد بالله إنه النبي الذي تجدونه مكتوبا في التوراه والإنجيل، قالوا: كذبت، ردوا عليه وقالوا شرا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كذبتكم، لن يقبل منكم قولكم» - ولم يكن هذا الرجل غير عبد الله بن سلام - فنزلت الآية:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ... □ □

(١)

و طبقا لهذا التفسير، فإن هذه الآية نزلت في المدينة بالرغم من أن السورة مكية، وهذا ليس منحصرا بالآية مورد البحث، بل يلاحظ - أحيانا - في سور القرآن الأخرى وجود آيات مكية في طيات السور المدنية و بالعكس، وهذا يبين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يأمر بوضع الآية مع ما يناسبها من مفاد السورة من دون الالتفات إلى تاريخ نزولها.

و يبدو من جهات عديدة أن هذا التفسير هو الأنسب.

ص: ٢٥٥

١ - ١) - تفسير المراغي، المجلد ٢٦، صفحته ١٤.

إشاره

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْ كُنَّا قَدِيمًا (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)

سبب النزول

ذكر المفسرون أسباب نزول عديده للآيه الأولى من هذه الآيات:

١- إن هذه الآيه نزلت في «أبي ذر الغفاري» الذي أسلم في مكه، ثم تابعته في الإيمان قبيلته-بنو غفار- ولما كانت قبيله بنى غفار من سكان الباديه و كانوا فقراء، قال كفار قريش-و كانوا أثرياء من أهل المدن:-لو كان الإسلام خيرا ما

سبقنا إليه غفار الحلفاء، فنزلت هذه الآية و أجابتهم.

٢- كانت في مكّه جاريه روميه يقال لها «زنيه» (١)، لبت دعوه النبي صلى الله عليه و آله و سلّم إلى الإسلام، فقال زعماء قريش: لو كان ما جاء به محمّد خيرا ما سبقتنا إليه زنيه.

٣- إنّ جماعه من قبائل البوادي أسلموا قبل سكان مكّه، فقال أشراف مكّه: لو كان الإسلام خيرا ما سبقتنا إليه رعاه الإبل.

٤- إنّ جماعه من الرجال الطاهرين و الفقراء كبلال و صهيب و عمار، قد اعتنقوا الإسلام، فقال زعماء مكّه: أ يمكن أن يكون دين محمّد خيرا و يسبقنا إليه هؤلاء؟ ٥- إنّ عبد الله بن سلام و جماعه من أصحابه لما آمنوا، قال جماعه من اليهود:

لو كان دين محمّد خيرا ما سبقونا إليه (٢).

و يمكن تلخيص أسباب النزول الأربعة الأولى بالقول بأنّ الإسلام لاقى ترحيبا واسعا و امتدادا سريعا بين الطبقات الفقيره و سكان البوادي، و ذلك لأنّهم لم يكونوا يمتلكون منافع غير مشروعه لتهدد بالخطر، و لم يكن الغرور قد ركبهم و ملأ عقولهم، و قلوبهم أطهر من قلوب المترفين و متبعي الشهوات و الرغبات.

لقد عدّ الإقبال الواسع على الإسلام من قبل هذه الفئة، و الذي كان يشكل أقوى نقاط هذا الدين، نقطه ضعف كبيره من قبل المستكبرين فقالوا: أي دين هذا الذي يتبعه سكان البوادي و الفقراء و الحفاه و الجوارى و العبيد؟ إذا كان دينا مقبولا و معقولا فلا ينبغي أن يكون أتباعه من طبقه فقيره واطئه اجتماعيا، و نتخلف نحن أعيان المجتمع و أشرافه عن اتباعه.

و الطريف أنّ نمط التفكير المنحرف هذا من أكثر أنماط التفكير رواجاً اليوم بين الأثرياء و المترفين فيما يتعلّق بالدين، حيث يقولون: إنّ الدين ينفع الفقراء و الحفاه، و كلّ منهما ينفع صاحبه و ينسجم معه، و نحن في مستوى أسمى منه

ص: ٢٥٧

١- ١) - كانت «زنيه» بكسر الزاي و تشديد النون من السابقات إلى الإسلام، و لذلك كان أبو جهل يؤذيها و يعذبها.

٢- ٢) - تفسير القرطبي، المجلد ٩، صفحه ٦٠٠٩.

و أعلى.

و قد أجب القرآن هؤلاء جوابا شافيا كافيا سيّضح في تفسير هذه الآيات.

أما سبب النزول الخامس الذى ذكر أعلاه، و القائل بأنّ المراد هو عبد الله بن سلام و أصحابه، فمع أنّه نقل عن أكثر المفسرين على قول الطبرسى فى مجمع البيان، و القرطبى فى تفسيره، إلاّ أنّه يبدو بعيدا من جهتين:

الأولى: إنّ التعبير بـ الَّذِينَ كَفَرُوا بصوره مطلقه يستعمل عادة فى مورد المشركين، لا فى أهل الكتاب و اليهود و النصارى.

و الأخرى: إنّ عبد الله بن سلام لم يكن رجلا مجهولات أو ضعيف الشخصيه بين اليهود ليقولوا فيه: إنّ الإسلام لو كان خيرا ما سبقنا هذا و أصحابه إليه.

التفسير

اشاره

شرط الإنتصار الإيمان و الاستقامه:

تستمر هذه الآيات فى تحليل أقوال المشركين و أفعالهم، ثمّ تقرّبعهم و ملامتهم بعد ذلك، فتشير أولاّ إلى ما نطق به هؤلاء من كلام بعيد عن المنطق السليم، مبنى على أساس الكبر و الغرور، فتقول: **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ** (١).

فما هؤلاء إلاّ حفنه من الفقراء الحفاه من سكان القرى، و العبيد الذين لا حظ لهم من العلم و المعرفه إلاّ القليل، فكيف يمكن أن يعلم هؤلاء الحق و أن يقبلوا عليه و نحن - أعيان المجتمع و أشرافه - فى غفله عنه؟

ص: ٢٥٨

١ - ١) - بحث المفسّرون كثيرا فى معنى «اللام» فى (الذين آمنوا) إلاّ - أنّ أنسب الاحتمالات جميعا هو أنّ «اللام» بمعنى (فى) و بناء على هذا فإنّ معنى الجملة: إنّ الكافرين قالوا فى المؤمنين، و لا يأتى فى هذه الحاله إشكال من جهه كون فعل (سبقونا) للغائب. فى حين أنّ البعض قد اعتبر اللام لام التعليل! و قال آخرون (الذين آمنوا) هنا مخاطبون، و جملة (سبقونا) بمعنى سبقتمونا!

لقد غفل هؤلاء عن أن العيب فيهم لا في الإسلام، فلو لا حجب الكبر و الغرور الملقاه على قلوبهم و لولا أنهم سكرى من خمرة المال و الجاه و المقام، و لو لا أن غرورهم و تكبرهم يمنعهم من التحقيق في أمر هذا الدين، إذن لا نجذبوا بسرعته الى الإسلام كما انجذب الفقراء إليه.

و لذلك فإن الآيه تجيبهم في نهايتها بهذا التعبير اللطيف: **وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْ هَؤُلَاءِ مَا أَرَادُوا** أن يهتدوا بآيات القرآن، لا أن القصور في قابليه القرآن على الهدايه.

و التعبير ب«الإفك القديم» شبيهه بتهمه أخرى حكيت عنهم في آيات القرآن الأخرى، إذ قالوا: **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢)**.

جملة «سيقولون» بصيغه المضارع، تدل على أنهم كانوا يرمون القرآن بهذه التهمه دائما، و كانوا يتخذون هذا الاتهام غطاء لعدم إيمانهم.

ثم تطرقت الآيه إلى دليل آخر لإثبات كون القرآن حقا، و لنفى تهمة المشركين إذ كانوا يقولون: هذا إفك قديم، فقالت: إن من علامات صدق هذا الكتاب العظيم أن كتاب موسى الذى يعتبر إماما أى قدوه للناس و رحمه قد أخبر عن هذا النبى و صفاته. و هذا القرآن أيضا كتاب منسجم فى آياته و فيه العلامم المذكوره فى التوراه: **وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَ رَحْمَةً وَ هَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ** و إذا كان الأمر كذلك، فكيف تقولون: هذا إفك قديم؟ لقد أكد القرآن فى آياته مرارا على أنه مصدق للتوراه و الإنجيل، أى إنه يتفق مع العلامات و الصفات التى وردت فى هذين الكتابين السماويين حول نبى الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم و قد كانت هذه العلامات دقيقه إلى الحد الذى يقول القرآن الكريم:

ص: ٢٥٩

١-١) - (إذ) فى هذه الآيه ظرفيه، و يعتقد البعض أنها متعلقه (سيقولون)، و يقولون: إن وجود الفاء غير مانع. إلا أن البعض الآخر - كالزمخشري فى الكشاف - يرى أنه بما أن الفعل بعدها ماض، و (سيقولون) فعل مضارع فلا يمكن أن يكون متعلقها، بل متعلقها محذوف، و التقدير: «و إذا لم يهتدوا به ظهر عنادهم» إلا أن الاحتمال الأول أكثر انسجاما مع معنى الآيه.

٢-٢) - الفرقان، الآيه ٥.

وقد ورد نظير معنى الآية مورد البحث فى الآية (١٧) من سورة هود: أَمْ مَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .

والتعبير بـ إِمَامًا وَرَحْمَةً يحتمل أن يكون من جهة أن ذكر الإمام يستدعى أحيانا أن تخطر فى الذهن مسأله التكليف الشاق الصعب، نتيجة الذكريات التى كانت لديهم عن أئمتهم، إلا أن ذكر الرحمة يبدل هذا الخطور الذهنى إلى ما يبعث على الاطمئنان، فهو يقول: إن هذا الإمام توأم الرحمة و مقترن بها، فحتى إذا أتاكم بالتكاليف و الأوامر فهى رحمة أيضا، و أى رحمة أعم و أسمى من تربيته نفوس هؤلاء القوم؟! ثم تضيف بعد ذلك: لِسَانًا عَرَبِيًّا يفهمه الجميع و يستفيدون منه.

ثم تبين فى النهايه الهدف الرئيسى من نزول القرآن فى جملتين قصيرتين، فتقول: لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ و إذا لا حظنا أن جملة (ينذر) مضارعه تدل على الاستمرار و الدوام، فسيوضح أن إنذار القرآن كبشارته دائمى مستمر، فهو يحذر الظالمين و المجرمين على مدى التاريخ و يخوفهم و ينذرهم، و يبشر المحسنين على الدوام.

و مِمَّا يلفت النظر أن الآية جعلت الظالمين فى مقابل المحسنين لأنّ للظلم هنا معنى واسعاً يشمل كل إساءه و مخالفه، و من الطبيعى أن الظلم إما بحق الآخرين أو بحق النفس.

و الآية التاليه تفسر للمحسنين الذين ورد ذكرهم فى الآية التى قبلها، فتقول:

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

١-١) -البقره، الآية ١٤٦. ٢-٢) - الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ مبتدأ، و جملة (لا خوف عليهم) خبره، و الفاء لا تأتى مع الخبر إلا فى الموارد التى يكون فى

لقد جمعت في الواقع كل مراتب الإيمان، وكل الأعمال الصالحة في هاتين الجملتين، لأن التوحيد أساس كل المعتقدات الصحيحة، وكل أصول العقائد ترجع الى أصل التوحيد. كما أن الاستقامه و الصبر و التحمل و الصمود أساس كل الأعمال الصالحة، لأننا نعلم أنه يمكن تلخيص كل أعمال الخير في ثلاثه: «الصبر على الطاعه»، و «الصبر عن المعصيه»، و «الصبر على المصيبه».

و بناء على هذا، فإن «المحسنين» هم السائرون على خط التوحيد من الناحيه العقائديه، و في خط الاستقامه و الصبر من الناحيه العمليه.

و من البديهي أن أمثال هؤلاء الأفراد لا يخافون من حوادث المستقبل، و لا يغمون لما مضى.

و قد ورد نظير هذا المعنى - بتوضيح أكثر - في الآيه (٣٠) من سوره فصلت حيث تقول: **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ .**

إن هذه الآيه تضيف شيئين:

الأول: أنهم بشروا بعدم الخوف و الحزن من قبل الملائكه، في حين سكت الآيه مورد البحث عن هذا.

و الثاني: أنه إضافه إلى نفى الخوف و الحزن عنهم، فقد وردت البشاره بالجنه أيضا في آيه سوره فصلت، في حين أن هذه البشاره وردت في الآيه اللاحقه في محل كلامنا.

و على آيه حال، فإن الآيتين تبحثان مطلقا واحدا، غايته أن أحدهما أكثر تفصيلا من الأخرى.

و نقرأ في تفسير على بن إبراهيم في تفسير جمله: **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا** قال: استقاموا على و لايه على أمير المؤمنين عليه السلام. و ذلك أن إدامه خط

(٢)

الجمله مفهوم الشرطيه كالآيه مورد البحث.

ص: ٢٤١

أمير المؤمنين عليه السلام في جوانب العلم والعمل، والعدالة والتقوى، وخاصة في العصور المظلمة الحالكة، أمر لا يمكن تحقيقه بدون الاستقامة، وبناء على هذا فإنه يعد أحد مصاديق الواضحة للآية مورد البحث، لا أن معناها منحصر به، بحيث لا تشمل الاستقامة في الجهاد وطاعة الله سبحانه، ومحاربه هوى النفس والشيطان.

وقد أوردنا شرحاً مفصلاً حول مسألة الاستقامة في ذيل الآية (٣٠) من سورة فصلت (١).

و تبشر آخر آية من هذه الآيات الموحدين المحسنين بأهم بشاره و أثنها، فتقول: **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**.

إن ظاهر الآية يعطى مفهوم الحصر، كما استفاد ذلك البعض، أى أن أصحاب الجنة هم أهل التوحيد والاستقامة فقط، أما الذين ارتكبوا المعاصي منهم، فإنهم وإن كانوا فى النتيجة من أصحاب الجنة، إلا أنهم ليسوا من أصحابها منذ بدايه الأمر.

التعبير بـ«الأصحاب» إشاره إلى اجتماعهم الدائم و تنعمهم الخالد بنعم الجنة.

و تعبير: **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** يدل من جهه على أن الجنة لا تمنح مجاناً، بل إن لها تمنا يجب أن يؤدي، و يشير من جهه أخرى إلى أصل حريه الإنسان و اختياره.

ص: ٢٦٢

١-١) - راجع التفسير الأمثل، سورة فصلت، الآية ٣٠.

إشاره

وَصَيَّنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصُّدُوقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)

التفسير

إشاره

أيها الإنسان أحسن إلى والديك:

هذه الآيات و التي تليها، توضيح في الحقيقه-لما يتعلق بالفريقين:الظالم و المحسن،الذين أشير إليهما إجمالاً في الآيات السابقه.

و تتناول الآيه الأولى وضع المحسنين،و تبدأ بمسأله الإحسان إلى الوالدين

و شكر جهودهم و أتعبهم التي بذلوها،و الذي يعتبر مقدمه لشكر الله سبحانه، فتقول: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا (١).

«الوصيه»و«التوصيه»بمعنى مطلق الوصيه،و لا- ينحصر معناها بالوصايا بما بعد الموت،و لذلك فسّررها جماعه هنا بأنّها الأمر و التشريع.

ثم تطرقت إلى سبب وجوب معرفه حقّ الأم،فقال: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَ وَضَعَتْهُ كُرْهًا وَ حَمَلُهُ وَ فَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا تضحى خلالها الأم أعظم التضحيات،و تؤثر ولدها على نفسها أيما إيثار.

إنّ حاله الأم تختلف منذ الأيام الأولى لانعقاد النطفه،فتتوالى عليها الصعوبات،و هناك حاله تسمى حاله (الوحام)هى أصعب الحالات التي تواجهها الأم،و يقول الأطباء عنها:إنّها تنشأ نتيجة قلّه المواد التي تحدث في جسم الأم نتيجة إيثارها ولدها على نفسها.

و كلما تكامل نمو الجنين امتص موادا أكثر من عصاره روح الأم و جسدها، تترك أثرها على عظامها و أعصابها،فيسلبها أحيانا نومها و غذاءها و راحتها و هدوؤها،أمّا في آخر فتره الحمل فيصعب عليها حتى المشى و الجلوس و القيام، إلا أنّها تتحمل كلّ هذه المصاعب بصبر و رحابه صدر و عشق للوليد الذي سيفتح عينيه على الدنيا عمّا قريب،و يتسم بوجه أمه.

و تحل فتره وضع الحمل،و هى من أعسر لحظات حياه الأم،حتى أنّ الأم أحيانا تبذل نفسها و حياتها من أجل سلامه الوليد.

على كلّ حال،تضع الأم حملها الثقيل لتبدأ مرحله صعبه أخرى،مرحله مراقبه الطفل المستمره ليل نهار...مرحله يجب أن تلبى فيها كلّ احتياجات الطفل الذي

ص: ٢٦٤

١ - ١) -«التوصيه»تعدى عاده بمفعولين،غايته أنّ المفعول الثّانى يقترن بالباء أو(الى)،و بناء على هذا فإنّ(إحسانا)لا يمكن أن تكون المفعول الثّانى فى الجمله،إلا- أن نعتبر(وصينا)بمعنى(ألزمتنا)التي تتعدى بمفعولين دون حاجه إلى حرف جر،أو أن نقول:إنّ فى الآيه محذوفاً،نقدره:و وصينا الإنسان بأن يحسن بوالديه إحسانا،ففى هذه الحاله تكون(إحسانا)مفعولا مطلقا لفعل محذوف.

ليست لديه أية قدره على بيانها و توضيحها، فإن آلمه شيء لا- يقوى على تعيين محل الألم، و إذا كان يشكو من الجوع و العطش، و الحر و البرد، فهو عاجز عن التعبير عن شكواه، إلا بالصراخ و الدموع، و يجب على الأم أن تحدد كل واحد من هذه الاحتياجات و تؤمنها بتفحصها و صبرها و طول أناةها.

إن نظافة الوليد في هذه المرحلة مشكله مضنيه، و تأمين غذائه الذى يستخلص من عصاره الأم، إثارة كبير.

و الأمراض المختلفه التى تصيب الطفل فى هذه المرحلة، مشكله أخرى يجب على الأم أن تتحملها بصبرها الخارق.

إن القرآن الكريم عند ما تحدت عن مصاعب الأم هنا، و لم يورد شيئاً عن الأب، لا لأنه لا أهميه للأب، فهو يشارك الأم فى كثير من هذه المشاكل، بل لأن سهم الأم من المصاعب أوفر، فلهذا أكد عليها.

و هنا يطرح سؤال، و هو: إن فترة الرضاع ذكرت فى الآيه (٢٣٣) من سوره البقره على أنها سنتان كاملتان-٢٤-شهرًا-: وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضِينَ عَنْ أَوْلَادِهِنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ فى حين أن الآيه مورد البحث قد ذكرت أن مجموع فترة الحمل و الرضاع ثلاثون شهرًا، فهل من الممكن أن تكون مدّة الحمل ستة أشهر؟ لقد أجاب الفقهاء و المفسرون، عن هذا السؤال- استلهاما من الروايات الإسلاميه- بالإيجاب و قالوا: إن أقل مدّة الحمل ستة أشهر، و أكثر مدّة تفيده فى الرضاع (٢٤) شهرًا، حتى نقل عن جماعه من الأطباء القدامى كجالينوس و ابن سينا أنهم قالوا: إنهم كانوا قد شاهدوا بأم أعينهم وليدا ولد ستة أشهر.

ثم إنه يمكن أن يستفاد من هذا التعبير القرآنى أنه كلما قصرت فترة الحمل يجب أن تطول فترة الرضاع بحيث يكون المجموع (٣٠) شهرًا.

و قد نقل عن ابن عباس أن فترة الحمل إن كانت (٩) أشهر فيجب أن يرضع

الولد (٢١) شهرا، و إن كان الحمل سته أشهر وجب أن يرضع الطفل (٢٤) شهرا.

و القانون الطبيعى يوجب ذلك أيضا. لأن نواقص فتره الحمل يجب أن تجبر بفترة الرضاع.

ثم تضيف الآية: إِنَّ حَيَاةَ هَذَا الْإِنْسَانِ تَسْتَمِرُّ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً (١).

يعتقد بعض المفسرين أن بلوغ الأشد منسجم مع بلوغ الأربعين سنة، وهو للتأكيد، إلا أن ظاهر الآية هو أن بلوغ الأشد إشارة إلى البلوغ الجسمى، و بلوغ الأربعين سنة إشارة إلى البلوغ الفكرى و العقلى، لأن من المعروف أن الإنسان يصل إلى مرحلة الكمال العقلى فى سن الأربعين غالبا، و قالوا: إِنَّ أَغْلَبَ الْأَنْبِيَاءِ قَدْ بَعَثُوا فِي سِنِ الْأَرْبَعِينَ.

ثم إن هناك بحثا فى أن بلوغ القدره الجسميه فى أى سن يتم؟ فالبعض يعتبره سن البلوغ المعروف، و الذى أشير إليه فى الآية (٣٤) من سورة الإسراء فى شأن اليتامى، فى حين صرحت بعض الروايات بأنه سن الثامنة عشره عاما.

طبعاً، لا مانع من أن يعطى هذا التعبير معانى مختلفه فى موارد مختلفه تتضح من خلال القرائن.

و

قد ورد فى حديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَمُرُّ يَدَهُ عَلَى وَجْهِ مَنْ زَادَ عَلَى الْأَرْبَعِينَ وَ لَمْ يَتَّبِعْهُ، وَ يَقُولُ: بِأَبَى وَجْهِ لَا يَفْلَحُ» (٢).

و نقل عن ابن عباس: من أتى عليه الأربعون سنة فلم يغلب خيره شره، فليتنجس إلى النار.

و على أى حال، فإن القرآن الكريم يضيف فى متابعه هذا الحديث: إِنَّ الْإِنْسَانَ

ص: ٢٦٦

١ - ١) - (حتى) هنا غايه لجمله محذوفه، و التقدير: و عاش الإنسان و استمرت حياته حتى إذا بلغ أشده. و اعتبرها البعض غايه ل(وصينا) أو لمراقبه الوالدين لولدهما، و كلاهما يبدو بعيدا، إذ لا تنتهى توصيه الله سبحانه بالإحسان إلى الوالدين فى سن الأربعين، و لا تستمر مراقبه الوالدين لولدهما حتى يصل الأربعين.

٢ - ٢) - تفسير روح المعانى، المجلد ٢٦، صفحه ١٧.

العاقل المؤمن إذا بلغ سن الأربعين، يطلب من ربه ثلاث طلبات، فيقول أولاً:

قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ

(١)

إنّ هذا التعبير يوحي بأنّ الإنسان يدرك في هذه السن عمق نعم الله سبحانه وسعتها، وكذلك يدرك ما تحمله أبواه من الجهود المضنيه حتى بلغ هذا المقدار من العمر، وذلك لأنّه غالباً ما يصبح في هذا العمر أبا إن كان ذكراً، وأمّا إن كانت أنثى، و يرى بأمر عينه كلّ تلك الجهود التي بذلت من أجله، ومدى الإيثار الذي آثره أبواه في سبيله، وشكراً لسعيهما يتوجّه لا إرادياً لشكر الله سبحانه.

أما طلبه الثاني فهو: وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ .

و أخيراً يقدم طلبه الأخير فيقول: وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي .

إنّ التعبير ب(لي) يشير ضمنيه إشاره إلى أنّه يرجو أن يكون أولاده في وضع من الصلاح والخير بحيث تعود نتائجه و حسناته عليه.

و التعبير ب(في ذريتي) بصوره مطلقه، يشير الى استمرار الخير و الصلاح في كلّ نسله و ذريته.

و الطريف أنّه يشرك أبويه في دعائه الأوّل، و أولاده في الدعاء الثالث، أمّا الدعاء الثاني فيخص نفسه به، و هكذا يكون الإنسان الصالح، فإنّه إذا نظر إلى نفسه بعين، ينظر بالأخرى إلى الآخرين الذين تفضلوا عليه و لهم حق في رقبته.

و تبين الآيه في نهايتها مطلين، كلّ منهما تبيان لبرنامج عملي مؤثر، فتقول:

إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ

فقد بلغت مرحله يجب أن أعين فيها مسير حياتي، و أسير في ذلك الخط ما حييت.

نعم، لقد بلغت الأربعين، و يقبح بعد مثلي أن يأتيك و لم يغسل نفسه بماء التوبه، و لم يطهرها بالعوده إلى طريق ربه و يقرع باب رحمته.

و الآخر: وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

١-١) - «أوزعنى» من ماده (الإيزاع) التى وردت بعدّه معان: الإلهام، و المنع من الانحراف، و إيجاد العشق و المحبه، و التوفيق.

إِنَّ هَاتَيْنِ الْجَمْلَتَيْنِ تَأْكِيدٌ لَتِلْكَ الْأَدْعِيَةِ الثَّلَاثَةِ وَمُرْتَبَةٌ عَلَيْهَا، وَمَعْنَاهُمَا: بِمَا إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ، وَأَسَلَمْتُ لِأَوْامِرِكَ، فَأَنْتَ أَيْضًا مَنَّ عَلَيَّ بِرَحْمَتِكَ، وَاشْمَلَنِي بِنِعْمِكَ وَفَضْلِكَ.

وَالْآيَةُ التَّالِيَةُ، بَيَانٌ بَلِيغٌ لِأَجْرِ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّاكِرِينَ وَثَوَابِهِمْ، وَقَدْ أَشَارَتْ إِلَى مَكَافَأَتِ مَهْمَةٍ ثَلَاثٍ، فَقَالَتْ أَوَّلًا: **أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا**.

أَيُّ بَشَارَةٍ أَكْبَرٍ مِنْ أَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ الْقَادِرَ الْمَنَّانَ عَمَلِ عَبْدٍ ضَعِيفٍ لَا قَدْرَ لَهُ، وَهَذَا الْقَبُولُ بِحَدِّ ذَاتِهِ، وَبِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ آثَارِهِ الْأُخْرَى، فَخَرَّ عَظِيمٌ، وَمَوْهَبٌ مَعْنَوِيٌّ عَالِيٌّ.

إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يَقْبَلُ كُلَّ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَلَمَّا ذَا يَقُولُ هُنَا: **نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا؟** وَفِي مَعْرُضِ الْإِجَابَةِ عَلَيَّ هَذَا السُّؤَالِ، قَالَ جَمَعَ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنْ أَحْسَنِ الْأَعْمَالِ: الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَاتِ الَّتِي تَكُونُ فِي مَقَابِلِ الْمُبَاحَاتِ الَّتِي هِيَ أَعْمَالٌ حَسَنَةٌ لَكِنَّهَا لَا تَقَعُ مَوْقِعَ الْقَبُولِ، وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهَا أَجْرٌ وَثَوَابٌ (١).

وَالْجَوَابُ الْآخِرُ: إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يَجْعَلُ أَحْسَنَ أَعْمَالِ هَؤُلَاءِ مَعْيَارًا لِلْقَبُولِ، وَحَتَّى أَعْمَالِهِمُ الَّتِي تَأْتِي فِي مَرْتَبَةِ أَدْنَى مِنَ الْأَهْمِيَّةِ، فَإِنَّهُ يَجْعَلُهَا كَأَحْسَنِ الْأَعْمَالِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ. إِنَّ هَذَا يَشْبَهُ تَمَامًا أَنْ يَعْضُضَ بَائِعٌ أَجْنَاسًا مُخْتَلِفَةً بِأَسْعَارٍ مُتَفَاوِتَةٍ، إِلَّا أَنَّ الْمُشْتَرِيَ يَشْتَرِيهَا جَمِيعًا بِثَمَنٍ أَعْلَاهَا وَأَفْضَلُهَا تَكْرَمًا مِنْهُ وَفَضْلًا، وَمَهْمًا قِيلَ فِي لَطْفِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ فَلَيْسَ عَجَبًا.

وَالْهَبَةُ الثَّانِيَةُ هِيَ تَطْهِيرُهُمْ، فَتَقُولُ: **وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ**.

وَالْمَوْهَبَةُ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَنَّهُمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ (٢)، فَيَطْهَرُونَ مِنَ الْهَفَوَاتِ الَّتِي

ص: ٢٦٨

١-١) -الطبرسي في مجمع البيان، والعلامة الطباطبائي في الميزان، والفخر الرازي في التفسير الكبير، وغيرهم في ذيل الآية مورد البحث.

٢-٢) - (في أصحاب الجنة) متعلق بمحذوف هو حال لضمير (هم) والتقدير: حال كونهم موجودين في أصحاب الجنة.

كانت منهم، و يكونون في جوار الصالحين المطهرين المقربين عند الله سبحانه.

و يستفاد بصوره ضمنيه من هذا التعبير أنّ المراد من أصحاب الجنّة هنا العباد المقربون الذين لم يصبهم غبار المعاصي، و هؤلاء المؤمنون التائبون يكونون في مصافهم بعد أن ينالوا غفران الله و رضاه.

و تضيف الآية في نهايتها-كتأكيد على هذه النعم التي مرّ ذكرها- وَعَدَ الصّدقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١) و كيف لا يكون وعد صدق في حين أنّ خلف الوعد أمّا أن يكون عن ندم أو جهل، أم عن ضعف و عجز، و الله سبحانه منزّه عن هذه الأمور جميعا.

ملاحظات

١- إنّ هذه الآيات تجسيد للإنسان المؤمن من أصحاب الجنّة، الذي يطوى أولاً-مرحلة الكمال الجسمي، ثمّ مرحلة الكمال العقلي، ثمّ يصل إلى مقام شكر نعم الله تعالى، و شكر متاعب والديه، و التوبه عمّا بدر منه من هفوات و سقطات و معاص، و يهتم أكثر بالقيام بالأعمال الصالحه، و من جملتها تربيته الأولاد، و أخيرا يرقى إلى مقام التسليم المطلق لله تعالى و لأوامره، و هذا هو الذي يغمره في رحمه الله و مغفرته و نعمه المختلفه التي لا تحصى.

نعم، ينبغي أن يعرف أهل الجنّة من هذه الصفات.

٢- إنّ التعبير ب وَصِيَّتِنَا الْإِنْسَانَ إشاره إلى أنّ مسأله الإحسان إلى الوالدين من الأصول الإنسانيه، ينجذب إليها و يقوم بها حتى أولئك الذين لا- يلتزمون بدين أو مذهب، و بناء على هذا، فإنّ الذين يعرضون عن أداء هذه الوظيفه، و يرفضون القيام بهذا الواجب، ليسوا مسلمين حقيقيين، بل لا يستحقون اسم الإنسان.

ص: ٢٦٩

١- ١) - (وعد الصدق) مفعول مطلق لفعل محذوف، و التقدير: يعدهم وعد الصدق الذي كانوا يوعدون بلسان الأنبياء و الرسل.

٣- إنَّ التعبير بـ«إحسانا» و بملاحظه أنَّ النكره فى هذه الموارد لبيان عظمه الأمر و أهميته، و يشير إلى أنَّه يجب-بأمر الله سبحانه- الإحسان إلى الأبوين إحسانا جميلا مقابله لخدماتهم الجليله التى أسدوها.

٤- لأنَّ آلام و معاناه الأم فى طريق تربيته الطفل محسوسه و ملموسه أكثر، و لأنَّ جهود الأم أكثر أهميه إذا ما قورنت بجهود الأب، كان التأكيد أكثر على قدر الأم فى الروايات الإسلاميه.

فقد ورد فى حديث أنَّ رجلا- أتى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم و قال: من أبر؟ قال: «أُمَّكِ»، قال: ثمّ من؟ قال: «أُمَّكِ»، قال: ثمّ من؟ قال: «أُمَّكِ»، قال: ثمّ من؟ قال: «أُمَّكِ» (١).

و

جاء فى حديث آخر، أنَّ رجلا- كان قد حمل أمّه العجوز العاجزه، و كان يطوف بها، فأتى النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم، و قال: هل أديت حقّها؟ قال: «لا و لا بزفره واحده» (٢).

٥- لقد أولت الآيات القرآنيه العلاقات العائليه، و احترام الأبوين و إكرامهم، و العنايه بتربيته الأولاد، اهتماما فائقا، و قد أشير إليها جميعا فى الآيات المذكوره، و ذلك لأنَّ المجتمع الإنسانى الكبير يتكون من خلايا و تشكيلات أصغر تسمى العائله، كما أنَّ البناء الضخمه تتكون من غرف، و هى بدورها من الطابوق و الحجر.

من البديهي أنَّه كلما كانت هذه التقسيمات الصغيره أكثر انسجاما و ترابطا، كان أساس المجتمع أقوى و أشد ثباتا، و أحد عوامل التمزق و الاختلال الاجتماعى فى المجتمعات الصناعيه فى عصرنا الحاضر هو انحلال نظام العائله، فلا احترام من قبل الأولاد، و لا عطف من الآباء و الأمهات، و لا علاقه حب و حنان و عاطفه من الأزواج.

إنَّ المشهد المؤلم لدور رعايه المسنين فى المجتمعات الصناعيه اليوم، و التى

ص: ٢٧٠

١- (١) -روح المعانى، المجلد ٢٦، صفحه ١٦.

٢- (٢) -فى ظلال القرآن، المجلد ٧، صفحه ٤١٥.

تحتضن العجزه من الآباء و الأمهات الذين طردوا من العائله، شاهد معبر جدًا عن هذه الحقيقه المرّه.

فالرجال و النساء الذين صرفوا عمرا طويلا فى الخدمه لمنح المجتمع أبناء عديدين، يطردون تماما فى الأيام التى يكونون فيها بأشد الحاحه إلى عواطف الأبناء و محبتهم و معونتهم، و يبقون فى تلك الدور يعدون الأيام فى انتظار لحظه الموت، و قد سمروا أعينهم فى الباب بانتظار صديق أو قريب يفتحها... و لا تفتح عليهم إلا مرّه أو مرّتين فى السنه! حقا، إنّ تصور مثل هذه الحاله ينغص على الإنسان عيشه منذ البدايه، و هذا هو عرف دنيا الماده و التمدن و أسلوبها حينما يطرح منها الإيمان و الدين.

٦- إنّ جملة: **وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ** تبيّن أنّ العمل الصالح هو العمل الذى يبعث على رضى الله سبحانه، و تعبير: **أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا** و الذى ورد فى آيات عديده من القرآن المجيد، يبيّن فضل الله الذى لا يحصى فى مقام مكافأه العباد و جزائهم، حيث يجعل أحسن أعمالهم معيارا لكلّ أعمالهم الحسنه فى الحساب.

و المثوبه.

ص: ٢٧١

إشاره

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَنْغِثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا سُلْطَانُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا
خَاسِرِينَ (١٨) وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُؤْفِقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩)

التفسير

إشاره

مضيعو حقوق الوالدين:

كان الكلام في الآيات السابقه عن المؤمنين الذين سلكوا طريق القرب من الله، فبلغوا الغايه و وسعتهم رحمه الله، و كرمهم لطفه، و كل ذلك في ظل الإيمان و العمل الصالح، و شكر نعم الله سبحانه، و الالتفات إلى حقوق الأبوين و الذريه و أدائها.

أمّا هذه الآيات، فيدور الكلام فيها عمن يقفون في الطرف المقابل، و هم الكافرون المنكرون للجميل و الحق، و العاقون لوالديهم، فتقول: وَ الَّذِي قَالَ

لِوَالِدَيْهِ أَفٍّ لِّكَمَا أَتَعَدَّانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي

(١)

إِلَّا أَنْ أَبُويهِ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَسْتَسْلِمَا أَمَامَ هَذَا الْوَلَدِ الْعَاقِ الضَّالِّ، فَتَقُولُ الْآيَةَ:

وَهُمَا يَسْتَعِيجَانِ اللَّهَ وَيَلْتَكِمَانِ مِنْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا

غير أنه ينبغي ألا أن يسير في طريق الضلالة و العناد الذي اختطه لنفسه، و لذلك نراه يجيئهما بكل تكبر و غرور و لا مبالاه: فَيَقُولُ
مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، فما تقولانه عن المعاد و الحساب ليس إلا خرافات و قصص كاذبه أتتكم من الماضين من قبلكم، و
لست بالذي يعتقد بها و ينقاد لها.

إن الصفات التي يمكن أن تستخرج من هذه الآية حول هذه الفئة من الأبناء الضالين عدّه صفات: عدم احترام منزله الأبوين، و
الإساءة لهما، لأن (أف) في الأصل تعني كل شيء قدر، و هي تقال في مقام التحقير و الإهانه (٢).

و قال البعض: إنها تعني الأقدار التي تجتمع تحت الأظافر، و هي قدره ملوثة، و لا قيمه لها (٣).

و الصفة الأخرى هي أنهم مضافا إلى عدم إيمانهم بيوم القيامة و البعث و الجزاء، فإنهم يسخرون منه و يستهزئون به، و يعدونه من
الأساطير و الأوهام الخرافية الباطلة.

و الصفة الأخرى أنهم لا أذن سامعه لهم، و لا يذعنون للحق، و قد امتلأت نفوسهم بروح الغرور و الكبر و الأنانية.

نعم، فبالرغم من أن الأبوين الحريصين يبذلان قصارى جهودهما، و كل ما في

ص: ٢٧٣

(١ - ١) - «و الذي قال» مبتدأ، و خبره - باعتقاد كثير من المفسرين - (أولئك الذين).. الذي ورد في الآية التالية، و لا منافاه بين كون
المبتدأ مفردا و الخبر - أولئك - جمعا، لأن المراد منه الجنس. لكن يحتمل أيضا أن يكون خبره محذوفا، و تقديره الكلام: «و في
مقابل الذين مضى و صفهم الذي قال لوالديه» و في هذه الحالة تكون الآية التالية مستقلة، كما أن آية: أولئك الذين نتقبل عنهم...
مستقلة.

(٢ - ٢) - مفردات الراغب.

(٣ - ٣) - أوردنا بحثا أخرى حول معنى (أف) في سورة الإسراء الآية ٢٣.

وسعهما لإنقاذه من دوامه الجهل و الغفله، لثلا بيتلى هذا الابن العزيز بعذاب الله الأليم، إلا أنه يأبى إلا الاستمرار فى طريق غيه و كفره، و يصر على ذلك، و أخيرا يتركه أبواه و شأنه بعد اليأس منه.

و كما بيّنت الآيات السابقه ثواب المؤمنين العاملين للصالحات، فإنّ هذه الآيات تبين عاقبه أعمال الكافرين الضالين المتجرئين على الله، فتقول: **أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّمْ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١)**، و أى خساره أعظم من أنّهم خسروا كلّ رأس مال وجودهم إذا اشتروا به غضب الله عزّ و جلّ و سخطه.

و من خلال المقارنه بين هذين الفريقين - أصحاب النعيم و أصحاب الجحيم - فى هذه الآيات نقف على هذه الأمور:

إنّ أولئك يطوون مدارج رشدهم و كمالهم، فى حين أنّ هؤلاء فقدوا كلّ ما يملكون، فهم خاسرون.

أولئك يقدرّون الجميل و يشكرونه حتى من أبويهم، و هؤلاء منكرون للجميل معتقدون لا أدب لهم حتى مع والديهم.

أولئك مع المقربين إلى الله فى الجنّه، و هؤلاء مع الكافرين فى النّار، فكلّ منهم يلتحق بأمثاله و من على شاكلته.

أولئك يتوبون من الهفوات التى تصدر عنهم، و يذعنون للحق، أمّا هؤلاء فهم قوم طغاه عتاه متمردون، أنانيون و متكبرون.

و ممّا يستحق الالتفات أنّ هؤلاء المعاندين يستندون فى انحرافاتهم إلى وضع الأقسام الماضين و سيحشرون معهم إلى النّار أيضا.

أمّا الآيه الأخيره من هذه الآيات فإنّها تشير أولا إلى تفاوت درجات كلا

ص: ٢٧٤

١ - ١) - جملة (حقّ عليهم القول) إشاره إلى كلام الله الذى قاله سبحانه فى عقوبه الكافرين و المجرمين، و التقدير: حقّ عليهم القول بأنّهم أهل النّار... و (فى أمم) فى محل حال.

الفريقين، فتقول: وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا (١) فليس كل أصحاب الجنه أو أصحاب النار في درجه واحده، بل إن لكل منهما درجات و مراتب تختلف باختلاف أعمالهم، و حسب خلوص نيتهم و ميزان معرفتهم، و أصل العداله هو الحاكم هنا تماما.

«الدرجات» جمع درجه، و تقال عاده للسلالم التي يصعد الإنسان بتسلقها إلى الأعلى، و «الدركات» جمع درك، و هي تقال للسلّم الذي ينزل منه الإنسان إلى الأسفل، و لذلك يقال في شأن الجنه: درجات، و في شأن النار: دركات، لكن لما كانت الآيه مورد البحث قد تحدثت عنهما معا، و لأهميه مقام أصحاب الجنه، و ورد لفظ (الدرجات) للثنتين، و هو من باب التغليب (٢).

ثمّ تضيف الآيه: وَ لِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ و هذا التعبير إشاره أخرى إلى مسأله تجسم الأعمال، حيث أنّ أعمال ابن آدم ستكون معه هناك، فتكون أعماله الصالحه باعثا على الرحمه به و اطمئنانه، و أعماله الطالحه سببا للبلاء و العذاب الأليم.

و تقول الآيه أخيرا كتأكيد على ذلك: وَ هُمْ لَا يُظَلَّمُونَ لِأَنَّهُمْ سَيَرُونَ أعمالهم و جزاءها، فكيف يمكن تصور الظلم و الجور؟ هذا إضافه إلى أنّ درجات هؤلاء و دركاتهم قد عيّنت بدقه، حتى أنّ لأصغر الأعمال، حسنا كان أم قبيحا، أثره في مصيرهم، و مع هذه الحال لا معنى للظلم حينئذ.

ملاحظه كيف حُرِّفَت هذه الآيه من قبل بني أميه؟

ورد في روايه أنّ «معاويه» أرسل رساله إلى «مروان» -و إليه على المدينه-

ص: ٢٧٥

- ١- ١) - (من) في (مما عملوا) للابتداء - أو كما تسمى نشويه - أو بمعنى التعليل، أي: من أجل ما عملوا.
- ٢ - ٢) - «درك» - بسكون الوسط - و درك - بفتحه - بمعنى أعمق نقطه في العمق، و جاءت - أحيانا - الدرک - بالفتحه - بمعنى الخساره، و الدرک - بالسكون - بمعنى فهم الشيء و إدراكه، لمناسبه الوصول إلى عمقه و حقيقته.

يأمره بأخذ البيعه من الناس لابنه يزيد، وكان «عبد الرحمن بن أبي بكر» حاضرا في المجلس، فقال: يريد معاوية أن يجعل هذا الأمر هرقليا و كسرويا-ملكى الروم و فارس-إذا مات الآباء جعلوا أبناءهم مكانهم، و إن لم يكونوا أهلا لذلك، أو كانوا فساقا؟ فصاح مروان من على المنبر: صه، فأنت الذى نزلت فيه: وَ الَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا .

و كانت «عائشه» حاضره، فقالت: كذبت، و إني لأعلم فيمن نزلت هذه الآية، و لو شئت لأخبرتكم باسمه و نسبه، لكن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لعن أباك و أنت فى صلبه، فأنت فضض من لعنه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم (١) .

أجل... و لقد كان ذنب عبد الرحمن عشقه و محبته لأمير المؤمنين على عليه السلام، و هو أمر كان يسوء بنى أميه كثيرا، هذا من جهه.

و من جهه أخرى فإنه كان مخالفا لصيروره الخلفه وراثيه، و تبديلها إلى سلطنه، و كان يعتبر أخذ البيعه ليزيد نوعا من الانحراف نحو الكسرويه و الهرقليه، و لذلك أصبح غرضا لأعداء الإسلام الألداء، أى آل أميه، فحرّفوا آيات القرآن فيه.

و كم هو مناسب الجواب الذى أجابت به عائشه مروان بأنّ الله سبحانه لعن أباك إذ كنت خلفه، و هو إشاره إلى الآية (٦٠) من سوره الإسراء حيث تقول:

وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ

(٢)

ص: ٢٧٤

١-١) - أبو الفتوح الرازى فى تفسيره، المجلد ١٠، صفحه ١٥٩، و نقل هذه الروايه بتفاوت يسير فى مجلد ٩، صفحه ٦٠١٧.
٢-٢) - يراجع لتفسير هذه الآية ذيل الآية (٦٠) من سوره الإسراء. و ينبغى الالتفات إلى أنّ «مروان بن الحكم» هو ابن «أبى العاص»، و هذا بدوره ابن «أميه» أيضا.

إشارة

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)

التفسير

إشارة

الزهد و الادخار للآخرة:

تستمر هذه الآيه فى البحث حول عقوبه الكافرين و المجرمين، و تذكر جانباً من أنواع العذاب الجسمى و الروحى الذى سينال هؤلاء، فتقول: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا... (١).

نعم، فقد كنتم غارقين فى الشهوات، و لم تكونوا تعرفون شيئاً إلا التمتع بطيبات هذا العالم و نعمه الماديه، و من أجل أن تكونوا متحللين من كل القيود فى هذا المجال، أنكرتم المعاد لتطلقوا لأنفسكم العنان، و سخرتم هذه المواهب من أجل إنزال كل أنواع الظلم و الجور بحق الآخرين.

ص: ٢٧٧

١ - ١) - (يوم) ظرف متعلق بفعل محذوف يستفاد من الجمل التالى، و التقدير: و يوم يعرض الذين كفروا على النار يقال لهم أذهبتم طيباتكم...

فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ

فاليوم ترون جزاء كل ذلك التمتع الباطل، واتباع الشهوات الأعمى، وعبادة الهوى، والاستكبار و الفسق و الفجور و تذوقون العذاب المذل و المهين بسبب تلکم الأعمال.

بحوث

١- تقول هذه الآية: إن الكفار يعرضون على النار في القيامة، وقد ورد نظير هذا في الآية (٤٦) من سورة المؤمنين حول عذاب الفراغ في البرزخ، إذ تقول:

الَّذِينَ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا فِي حِينِ أَنْتُمْ تَقْرَأُ فِي بَعْضِ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْأُخْرَى أَنَّ جَهَنَّمَ تُعْرَضُ عَلَى الْكَافِرِينَ: وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا (١).

لذلك قال بعض المفسرين: إن في القيامة نوعين من العرض: فقبل الحساب تعرض جهنم على المجرمين ليملاً وجودهم الخوف و الهلع، و هذا بحد ذاته عقاب و عذاب نفسى، و بعد الحساب و إلقاءهم في جهنم يعرضونهم على عذاب الله (٢).

و قال البعض: إن في العبارة نوع قلب، و إن المراد من عرض الكفار على النار هو عرض الكافرين، إذ لا عقل و لا إدراك للنار حتى يعرض عليها الكافرون، في حين أن العرض يتم في الموارد التي يكون المعروض عليه فيها ذا شعور و إدراك.

لكن لا يمكن أن يرد على هذا الجواب بأن بعض الآيات ذكرت وجود إدراك و شعور لدى النار، حتى أن الله سبحانه يخاطبها و تجيب، فيقول سبحانه:

ص: ٢٧٨

١- (١) - الكهف، الآية ١٠٠.

٢- (٢) - تفسير الميزان، المجلد ١٨، صفحته ٢٢٣ ذيل الآيات مورد البحث.

هَلِ امْتَلَأَتْ فَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (١).

و الحق أنّ حقيقه العرض هى رفع الموانع بين شيئين حتى يتقابلا- و يكونا وجهها لوجه، و كذا الحال بالنسبه إلى الكافرين و النار، فإنّ الحواجز ترفع من بينهما، فيمكن القول فى هذه الصورة: إنّ الكافرين يعرضون على النار، كما تعرض عليهم، و كلا التعبيرين صحيح.

و على أية حال، فلا حاجة لأن نعتبر العرض بمعنى الدخول فى النار كما ذكره «الطبرسى» فى مجمع البيان، بل إنّ هذا العرض بحدّ ذاته نوع من العذاب الأليم المرعب، حيث يرى الكافرون بأعينهم كلّ أقسام جهنّم من الخارج قبل أن يردوها، و ليشاهدوا مصيرهم المشؤوم و يتعدّبوا و يتألّموا له.

٢- إنّ جملة: أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ تعنى التمتع بلذائد الدنيا، و التعبير ب«أذهبتم» لأنّ هذه اللذائد و النعم تبنى بالتمتع بها و استهلاكها. و من المسلم أنّ التمتع بمواهب الله و نعمه فى هذه الدنيا ليس أمرا مذموما قبيحا، بل المذموم هو الغرق فى اللذات المادية، و نسيان ذكر الله و القيامة، أو التمتع بها بصورة غير مشروعه و التلوث بالمعاصى عن طريقها، و غضب حقوق الآخرين فيما يتعلق بها.

و ممّا يلفت الانتباه أنّ هذا التعبير لم يرد إلاّ فى هذه الآية من القرآن الكريم، و هو إشارة إلى أنّ الإنسان يعزب أحيانا عن لذات الدنيا و يعرض عنها، أو أنّه لا يأخذ منها إلاّ ما يقوم به صلبه، و يتقوى به على القيام بالواجبات الإلهية، و كأنّه فى هذه الصورة قد ادخر هذه الطيبات لآخرته.

غير أنّ الكثيرين يتكالبون على هذه التمتعات الدنيوية كالحيوانات و لا يحدهم شىء فى الالتذاذ بهذه الطيبات و افنائها جميعا، و لا يكتفون بعدم ادخار شىء لآخرتهم، بل يحملون معهم أحمالا من الأوزار، و لهؤلاء يقول القرآن:

ص: ٢٧٩

و قد نقل في بعض كتب اللغة أنّ المراد من الجملة: أنفقتم طيبات ما رزقتم في شهواتكم و في ملاذ الدنيا، و لم تنفقوها في مرضاه الله (١).

٣- للطيبات معنى واسع يشمل كلّ مواهب الدنيا، مع أنّ بعض المفسّرين قد فسّرها بقوّه الشباب فقط، إلا أنّ الحق هو أنّ الشباب يمكن أن يكون مصداقا لا غير.

٤- إنّ التعبير بَعَذَابِ الْهُونِ بِمِثَابِهِ رَدٌّ فَعَلٌ لاسْتِكْبَارِ هَؤُلَاءِ فِي الْأَرْضِ، لِأَنَّ الْعُقُوبَةَ الْإِلَهِيَّةَ، تَنْتَاسِبُ تَمَامًا مَعَ نَوْعِ الذَّنْبِ وَ الْمَعْصِيَةِ، فَأَوْلَتْكَ الَّذِينَ تَكْبَرُوا عَلَى خَلْقِ اللَّهِ، بَلْ وَ حَتَّى عَلَى أَنْبِيَائِهِ، وَ لَمْ يَخْضَعُوا لِأَيِّ تَشْرِيْعِ إِلَهِيٍّ، يَجِبُ أَنْ يَلِاقُوا جَزَاءَهُمْ بِذَلِكَ وَ حَقَّارَهُ وَ مَهَانَهُ.

٥- لقد ذكر في ذيل هذه الآية ذنبان لأصحاب الجحيم، الأوّل: الاستكبار، و الثّاني: الفسق. و يمكن أن يكون الأوّل إشارة إلى عدم إيمانهم بآيات الله و بعث عن ترك أصول الدين، و الآخر عن تضييع فروع الدين (٢).

٦- إنّ التعبير بغير الحق لا يعنى أنّ الاستكبار نوعان: حق، و غير حق، بل إنّ هذه التعابير تقال عادة للتأكيد، و نظائرها كثير.

٧- زهد الأئمة العظاماء لقد وردت في مختلف مصادر الحديث و التّفسير روايات كثيرة عن زهد أئمة الإسلام العظاماء، و استندوا فيه بالخصوص إلى الآية مورد البحث، و من جملتها:

جاء في حديث أنّ عمر أتى يوما رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم في مشربه أم إبراهيم - و هو

ص: ٢٨٠

١- ١) - مجمع البحرين، مادة ذهب.

٢- ٢) - تفسير الميزان، المجلد ١٨، صفحته ٢٢٤.

موضع قرب المدينة-و كان مضطجعا على حصير من الخوص، و جزء من بدنه الشريف على التراب، و كانت تحت رأسه و ساده من ليف النخل، فسلم و جلس، و قال: أنت نبي الله و أفضل خلقه، هذا كسرى و قيصر ينامان على أسره الذهب و فرش الديباج و الحرير، و أنت على هذا الحال؟! فقال صلى الله عليه و آله و سلم: «أولئك قوم عجلت طبياتهم و هي و شيكه الانقطاع، و إنما أخرت لنا طبياتنا» (١).

و نقراً

في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه أتى يوماً بحلوى، فامتنع من تناولها، فقالوا: أ تراها حراماً؟ قال: «لا، و لكني أخشى أن تتوق نفسي فأطلبه، ثم تلا هذه الآية: أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا... (٢).

و

جاء في حديث آخر: «أن أمير المؤمنين عليه السلام اشتهى كبدا مشويه على خبزه لينة، فأقام حولا يشتهيها، و ذكر ذلك للحسن عليه السلام و هو صائم يوماً من الأيام فصنعها له، فلما أراد أن يفطر قربها إليه، فوقف سائل بالباب، فقال: يا بني احملها إليه، لا تقرأ صحيفتنا غدا: أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا (٣).

ص: ٢٨١

١-١ - مجمع البيان، المجلد ٩، صفحة ٨٨.

٢-٢ - تفسير البرهان، المجلد ٤، صفحة ١٧٥، ذيل الآية مورد البحث.

٣-٣ - سفينة البحار، الجزء الثاني، مادة كبد.

إشارة

وَ أَذْكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنِ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ أَنِي بِرَأْوِهِ عَارِضٌ مُسْتَقْبِلٌ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمِطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)

التفسير

إشارة

قوم عاد و الريح المدمره:

لما كان القرآن يذكر قضايا كليه، ثم يتطرق إلى بيان مصاديق واضحه لها،

ليطبق تلك الكليات. فإنه هنا يسلك نفس السبيل، فبعد أن فصل حال المستكبرين المتمردين، تطرّق إلى ذكر قصه قوم عاد الذين هم صورته واضحة لأولئك العتاه، فتقول الآية: **وَ اذْكُرْ اَخَا عَادٍ** .

إنّ التعبير بالأخ يعكس منتهى صفاء هذا النبي العظيم و حرصه على قومه، وقد ورد هذا التعبير في القرآن المجيد- كما نعلم- في مورد عده أنبياء عظام كانوا إخوه لأقوامهم حريصين رحماء بهم، لم يبخلوا من أجلهم بأى نوع من الإيثار و التضحية.

و يمكن أن يكون هذا التعبير إشاره إلى علاقه القرابه و الرحم بين هؤلاء الأنبياء و أقوامهم.

ثم تضيف الآية: **إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ** .

«الأحقاف»- كما قلنا سابقا- تعنى الكثبان الرملية التي تتشكل على هيئة مستطيل أو تعرجات و منحنيات، على أثر هبوب العواصف في الصحارى، و يتّضح من هذا التعبير أنّ أرض قوم عاد كانت أرضا حصباء كبيره.

و ذهب البعض أنّها في قلب جزيره العرب بين نجد و الأحساء و حضرموت و عمان.

إلا أنّ هذا المعنى يبدو بعيدا، حيث يظهر من آيات القرآن الأخرى- في سوره الشعراء- أنّ قوم عاد كانوا يعيشون في مكان كثير المياه و الأشجار الجميله، و مثل هذا الحال بعيد جدّا عن قلب الجزيره.

و ذهب جمع آخر من المفسرين أنّها في الجزء الجنوبي للجزيره حول اليمن، أو في سواحل بحر العرب (1).

و احتمال البعض أنّ الأحقاف كانت منطقه في أرض العراق في مناطق كلده

ص: ٢٨٣

و بابل (١).

و نقل عن الطبرى أنّ الأحقاف اسم جبل فى الشام (٢).

لكن يبدو أنّ القول بأنّ هذه المنطقه تقع جنوب الجزيره العرييه قرب أرض اليمن، هو الأقرب، بملاحظه ملاءمته المعنى اللغوى للأحقاف، و بملاحظه أنّ أرضهم كانت غزيره المياه و فيره الأشجار، فى نفس الوقت الذى لم تكن فيه بمأمن من العواصف الرملية.

و جمله: وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ إشاره إلى الأنبياء الذين بعثوا قبله، بعضهم قريب عهد به، و هم الذين عبّر عنهم القرآن ب مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ و البعض الآخر تقادمت الفتره الزمنيه بينهم و بينه الذين عبّر عنهم ب مِنْ خَلْفِهِ .

أمّا ما احتمله البعض من أنّ المراد من هذه الجملة الأنبياء الذين جاؤوا قبل هود و بعده، فيبدو بعيدا جدّا، و لا ينسجم مع جمله: وَقَدْ خَلَّتِ التى تعنى الزمن الماضى.

و لنر الآن ماذا كان محتوى دعوه هذا النبى العظيم؟ يقول القرآن الكريم: [□] أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ [□] ثُمَّ هَدَّوْهُمْ بِقَوْلِهِ: [□] إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ [□] عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

و بالرغم من أنّ التعبير ب يَوْمٍ عَظِيمٍ جاء بمعنى يوم القيامه غالبا، إلاّ أنّه أطلق أحيانا فى آيات القرآن على الأيام القاسيه المرعبه التى مرّت على الأمم، و هذا المعنى هو المراد هنا، لأننا نقرأ فى متابعه هذه الآيات أنّ قوم عاد قد ابتلوا بعذاب الله فى يوم عسر مرعب و انتهى أمرهم.

إلاّ أنّ هؤلاء القوم المتمردين وقفوا بوجه هذه الدعوه الإلهيه، و خاطبوا هودا:

ص: ٢٨٤

١-١) -طبقا لنقل المرحوم الشعرانى فى هامش تفسير أبى الفتوح الرازى، المجلد ١٠، صفحه ١٦٥.

٢-٢) -المصدر السابق.

قَالُوا أَجِئْنَا لِنُؤْفِكَ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

(١).

هاتين الجملتين تبيينان بوضوح مدى انحراف هؤلاء القوم و تعصبهم، فهم فى الجملة الأولى يقولون: إن دعوتك كاذبه: لأنها تخالف آلهتنا التى تعودنا على عبادتها، و هى إرث وورثناه عن آباءنا.

و نراهم فى الجملة الثانية يطلبون وقوع العذاب! ذلك العذاب الذى إن نزل بهم فلا رجعه معه مطلقا، و أى ذى لب يتمنى نزول مثل هذا العذاب، حتى و إن لم يكن لديه يقين بوقوعه؟ إلا أن هودا عليه السلام قال فى رده على هذا الطلب المتهور الذى يدل على الجنون:

قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ

فهو الذى يعلم متى و فى أى ظروف ينزل عذاب الاستئصال، فلا- هو مرتبط بطلبكم و تمنىكم، و لا هو تابع لرغبتى، بل يجب أن يتم الهدف و يتحقق، ألا و هو إتمام الحجة عليكم، فإن حكيمته سبحانه تقتضى ذلك.

ثم يضيف: وَ أبلغكم ما أرسلت به فهو مهمتى الأساسيه، و مسئوليتى الرئيسيه، أما اتخاذ القرار فى شأن طاعه الله و أوامره فهو أمر يتعلق بكم، و إرادته نزول العذاب و مشيئته تتعلق به سبحانه.

وَ لِكِنِّي أُرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ

و جهلكم هذا هو أساس تعاستكم و شقائكم، فإن الجهل المقترن بالكبر و الغرور و هو الذى يمنعكم من دراسه دعوه رسل الله، و لا يأذن لكم فى التحقيق فيها... ذلك الجهل الذى يحملكم على الإصرار على نزول عذاب الله ليهلككم، و لو كان لديكم أدنى وعى أو تعقل لكنتم تحتملون- على الأقل- وجود احتمال إيجابى فى مقابل كل الاحتمالات السلبيه، و الذى إذا ما تحقق فسوف لا يبقى لكم أثر.

و أخيرا لم تؤثر نصائح هود عليه السلام المفيده، و إرشاداته الأخويه فى قساة القلوب أولئك، و بدل أن يقبلوا الحق لجوا فى غيهم و باطلهم، و تعصبوا له، و حتى نوح عليه السلام

ص: ٢٨٥

كذّبه قومه بهذا الادعاء الواهي و هو أنّك إن كنت صادقاً فيما تقول فأين عذابك الموعود؟ و الآن، و قد تَمَّت الحجة بالقدر الكافي، و أظهر أولئك عدم أهليتهم للبقاء، و عدم استحقاقهم للحياه، فإنّ حكمه الله سبحانه توجب أن يرسل عليهم «عذاب الاستئصال»، ذلك العذاب الذي يجتث كل شيء و لا يبقى و لا يذر.

و فجأه رأوا سحاباً قد ظهر في الأفق، و اتسع بسرعه: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا (١).

قال المفسّرون: إنّ المطر انقطع مدّه عن قوم عاد، و أصبح الهواء حاراً جافاً خانقاً، فلَمَّا وقع بصر قوم عاد على السحب المظلمه الواسعه في الأفق البعيد، و هي تتجه صوبهم فرحوا لذلك جدّاً و هبّوا لاستقبالها، و جاؤوا إلى جوانب الوديان و السهول و مجارى السيول و المياه. ليروا منظر نزول المطر المبارك ليحيوا من جديد، و تسر بذلك نفوسهم.

لكن، قيل لهم سريعاً بأنّ هذا ليس سحاباً ممطراً: بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

و الظاهر أنّ المتكلم بهذا الكلام هو الله سبحانه، أو أنّ هوداً لَمَّا سمع صرخات فرحهم و استبشارهم قال لهم ذلك.

نعم، إنّها ريح مدّمّره: تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .

قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من كلّ شيءٍ البشر و دوابهم و أموالهم، لأنّ الجملة التاليه تقول: فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ و هذا يوحي بأنّ مساكنهم كانت سالمه، أمّا هم فقد هلكوا، و أُلقت الرياح القويه أجسادهم في الصحارى البعيده، أو في البحر.

ص: ٢٨٦

١ - ١) - «عارض» من ماده (عرض)، و هنا بمعنى السحاب الذي ينتشر في عرض السماء، و ربّما كان هذا أحد علامات السحب الممطره بأنّها تتسع في ذلك الأفق ثمّ تصعد. و «الأوديه» جمع واد، و هو المنخفض و مجرى السيول و المياه.

وقال البعض: إنهم لم يلتفتوا إلى أنّ هذه السحب السوداء هي رياح قويه مغبره، إلا- عند ما وصلت قريبا من ديارهم، و رفعت دوابهم و رعاتهم -الذين كانوا فى الصحارى المحيطه بهم- من الأرض و رمتهم فى الهواء، و رأوا أنّها تقتلع الخيام من مكانها و تلقيها فى الهواء حتى كانت تبدو كالجواد! عند ما رأوا ذلك المشهد، فروا و التجأوا إلى دورهم و أغلقوا الأبواب عليهم، إلا أنّ الأعاصير اقتلعت الأبواب و ألقته على الأرض- أو حملتها معها- و رمت أجساد هؤلاء بالأحقاد، و هى الرمال المتحركه.

و جاء فى الآيه (٧) من سوره الحاقه: سَيَخْرُهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ تَمَائِيهَ أَيَّامٍ وَ هَكَذَا بَقِيَ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ يَشُونَ تَحْتَ تَلٍ مِنَ الرَّمَالِ وَ التُّرَابِ، ثُمَّ أزالَتِ الرِّياحُ الْقويهَ التُّرَابَ فَظَهَرَتِ أبدانُهُمْ مَرَّةً أُخرى، فَحَمَلَتْها وَ ألقَتْها فى الْبَحْرِ (١).

و تشير الآيه فى النهايه إلى حقيقه، و هى أنّ هذا المصير غير مختص بهؤلاء القوم الضالين، بل: كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ .

و هذا إنذار و تحذير لكلّ المجرمين العصاه، و الكافرين المعاندين الأنانيين، بأنكم إن سلكتم هذا الطريق فسوف لن يكون مصيركم أحسن حالا من هؤلاء، فإنّه تعالى قد يأمر الرياح بأن تهلككم، ذات الرياح التى يعبر القرآن الكريم بأنّها:

بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ لِأَنَّ الرِّياحَ تَتَصَفَّ بِصَفِّهِ الْأمرِ الْإلهِيِّ الْمَطْلُوبِ مِنْها.

و قد يبدل الأرض التى هى مهد استقرار الإنسان و اطمئنانه، إلى قبر له بزلزله شديد.

و قد يبدل المطر الذى هو أساس حياه كلّ الكائنات الحيه، إلى سيول جارفه تغرق كل شىء.

نعم، إنّه عزّ و جلّ يجعل جنود الحياه جنود موت و فناء، و كم هو مؤلم الموت

ص: ٢٨٧

١- ١) - تفسير الفخر الرازى، المجلد ٢٨، صفحه ٢٨، ذيل الآيات مورد البحث، و جاء هذا المعنى أيضا فى تفسير القرطبي، المجلد

٩، صفحه ٢٦٠٦.

الذى يأتى من سبب الحياه و أساسها؟خاصه إذا كان الأمر كما فى قوم هود إذ فرحوا و سرّوا فى البدايه ثمّ جاءتهم البطشه ليكون العذاب أشد و ألم.

و الطريف أنّه يقول: إنّ هذه الرياح، هى فى الأصل أمواج هوائيه لطيفه تتحوّل إعصار يدمّر كلّ شىء بأمر الله (١).

ص: ٢٨٨

١-١) -«تدمّر» من ماده تدمير، و هو الإهلاك و الإفناء.

اشاره

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَا أَبْصَارُهُمْ وَ لَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ حَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا كَانُوا مِنَ الْقُرَىٰ وَ مَا يَرَوْنَ إِلَّا آيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذَلِكِ إِفْكَهُمُ وَ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

التفسير

اشاره

لستم بأقوى من قوم عاد أبدا:

إن هذه الآيات بمثابة استنتاج للآيات السابقة التي كانت تتحدث عن عقاب قوم عاد الأليم، فتخاطب مشركي مكة و تقول: وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ

فقد كانوا أقوى منكم من الناحية الجسميه، وأقدر منكم من ناحية المال و الثروه و الإمكانيات الماديه، فإذا كان بإمكان القوه الجسميه و المال و الثروه و التطور المادى أن تنقذ أحدا من قبضه الجزاء الإلهي، فكان ينبغي على قوم عاد أن يصمدوا أمام العاصفه و لا- يكونوا كالقشه فى مهب الرياح، تتقاذفهم كيف شاءت و لا يبقى من آثارهم إلا أطلال مساكنهم! إن هذه الآيه شبيهه بما ورد فى سوره الفجر فى شأن قوم عاد: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٢).

أو هى نظير ما جاء فى الآيه (٣٦) من سوره ق: وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا .

و خلاصه القول: إن الذين كانوا أشد منكم و أقوى، عجزوا عن الوقوف أمام عاصفه العذاب الإلهي، فكيف بكم إذن؟ ثم تضيف الآيه: وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْتِدَةً (٣) فقد كانوا أقوياء فى مجال إدراك الحقائق و تشخيصها أيضا، و كانوا يدركون الأمور جيدا، و كانوا يستغلون هذه المواهب الإلهيه من أجل تأمين حاجاتهم و مآربهم الماديه على أحسن وجه، لكن: فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَا أَبْصَارُهُمْ وَ لَا أَفْتِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ (٤) و أخيرا: وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

نعم، لقد كان أولئك مجهزين بالوسائل الماديه، و بوسائل إدراك الحقيقه، إلا- أنهم لما كانوا يتعاملون مع آيات الله بمنطق الاستكبار و العناد، و كانوا يتلقون كلام

ص: ٢٩٠

١ - ١) - «إن» فى جمله (إن مكناكم فيه) نافية و لدينا شواهد متعدده من آيات القرآن الكريم وردت فى المتن. إلا- أن البعض اعتبرها شرطيه، أو زائده و لا نرى ذلك صوابا.

٢ - ٢) - الفجر، الآيات ٦ إلى ٨.

٣ - ٣) - يجدر الانتباه إلى أن الأبصار و الأفئده وردت بصيغه الجمع، فى حين أن السمع قد ورد بصيغه المفرد، و يمكن أن يكون هذا الاختلاف بسبب أن للسمع معنى المصدر، و المصدر يستعمل دائما بصيغه المفرد، أو لوحده المسموعات أما تفاوت المرثيات و المدركات.

٤ - ٤) - من فى (من شىء) زائده و للتأكيد، أى لم ينفعهم أى شىء.

الأنبياء بالسخرية و الاستهزاء، لم ينفذ نور الحق إلى قلوبهم، وهذا الكبر و الغرور و العداء للحق هو الذى أدى إلى أن لا يستفيدوا و لا يستخدموا وسائل الهداية و المعرفة كالعين و الأذن و العقل، ليجدوا طريق النجاه و يسلكوه، فكانت عاقبتهم أن ابتلوا بذلك المصير المشؤوم الذى أشارت إليه الآيات السابقة.

فإذا كان أولئك القوم قد عجزوا عن القيام بأى عمل مع كل تلك القدرات و الإمكانيات التى كانوا يمتلكونها، و أصبحت جشهم الهامده، كالريشه فى مهب الرياح تتقاذفهم من كل جانب بكلّ مذله و احتقار، أولى لكم أن تعتبروا إذا أنتم أضعف منهم و أعجز.

و ليس عسيرا على الله تعالى أن يأخذكم بأشد العذاب نتيجة أعمالكم و جرائمكم، و أن يجعل عوامل حياتكم أسباب فنائكم، و هذا خطاب لمشركى مكه، و لكلّ البشر المغرورين الظالمين العتاه على مر التاريخ، و فى كلّ الأعصار و الأمصار.

و حقا فإنّ الأمر كما يقول القرآن الكريم، فلسنا أول من وطأ الأرض، فقد كان قبلنا أقوام كثيرون يعيشون فيها، و لديهم الكثير من الإمكانيات و القدرات، فكم هو جميل أن نجعل تاريخ أولئك مرآه لأنفسنا لنعتبر به، و لنرى من خلاله مستقبلنا و مصيرنا.

ثمّ تخاطب الآيه مشركى مكه من أجل التأكيد على هذا المعنى، و لزياده الموعظه و النصيحه، فتقول: **وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى .**

أولئك الأقوام الذين لا تبعد أوطانهم كثيرا عنكم، و كان مستقرهم فى أطراف جزيره العرب، فقوم عاد كانوا يعيشون فى أرض الأحقاف فى جنوب الجزيره، و قوم ثمود فى أرض يقال لها «حجر» فى شمالها، و قوم سبأ الذين لاقوا ذلك المصير المؤلم فى أرض اليمن، و قوم شعيب فى أرض مدين فى طريقكم الشام، و كان قوم لوط يعيشون فى هذه المنطقه، و ابتلوا بأنواع العذاب لكثره معاصيهم و كفرهم.

لقد كان كل قوم من أولئك عبره، و كان كل منهم شاهدا ناطقا معبرا، يسأل: كيف لا يستيقظ هؤلاء و لا يعون مع كل وسائل التوعيه هذه؟! ثم تضيف الآيه بعد ذلك: وَ صِرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فتارة أريناهم المعجزات و خوارق العادات، و أخرى أنعمنا عليهم، و ثالثه بلوناهم بالبلاء و المصائب، و رابعه عن طريق وصف الصالحين المحسنين، و أخرى بوصف المجرمين، و أخرى وعضناهم بعذاب الاستئصال الذي أهلكنا به الآخرين. إلا أن الكبر و الغرور و العجب لم يدع لهؤلاء سيلا إلى الهدايه.

و توبخ الآيه الأخيره من هذه الآيات هؤلاء العصاة، و تدمهم بهذا البيان: فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً (١).

حقًا، إذا كانت هذه آلهه على حق، فلما ذا لا تعين أتباعها و عبادها، و تنصرهم في تلك الظروف الحساسه، و لا تنقذهم من قبضه العذاب المهول المرعب؟ إن هذا بنفسه دليل محكم على بطلان عقيدتهم حيث كانوا يظنون أن هذه الآلهه المخترعه هي ملجأهم و حماهم في يوم تعاستهم و شقائهم.

ثم تضيف: بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ فإِنَّ هذه الموجودات التي لا قيمه لها و لا أهميه، و التي ليست مبدأ لأي أثر، و لا تأتي بأى فائده، و هي عند العسر صماء عمياء، فكيف تستحق الألوهيه و تكون أهلا لها؟ و أخيرا تقول الآيه: وَ ذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ فإِنَّ هذا الهلاك و الشقاء، و هذا العذاب الأليم، و اختفاء الآلهه وقت الشده و العسر، كان نتيجة لأكاذيب أولئك و أوهامهم و افتراءاتهم (٢).

ص: ٢٩٢

١ - ١) - المفعول الأول ل (اتخذوا) محذوف، و (آلهه) مفعولها الثاني، و (قربانا) حال، و التقدير: اتخذوهم آلهه من دون الله حال كونهم متقربا بهم، و يحتمل أيضا أن تكون (قربانا) مفعولا لأجله. و قد احتملت احتمالات أخرى في تركيب الآيه، لكنّها لا تستحق الاهتمام.

٢ - ٢) - بناء على هذا فإنّ للآيه محذوف، و التقدير: و ذلك نتيجة إفكهم. و يحتمل أيضا أن لا يحتاج الآيه إلى محذوف، و في هذه الحاله يصبح المعنى: كان هذا كذبهم و افتراءهم، غير أن المعنى الأول يبدو هو الأنسب.

أشاره

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا
 إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ
 آمِنُوا بِهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٣١) وَمِنْ لَّا يُجِبُ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ
 دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢)

سبب النزول

وردت روايات مختلفه فى سبب نزول هذه الآيات، و من جملتها: أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم خرج من مكه إلى سوق عكاظ فى الطائف- و كان معه زيد بن حارثه- من أجل أن يدعو الناس إلى الإسلام، إلا أن أحدا لم يجبه، فاضطر الى الرجوع إلى مكه، و فى طريق عودته وصل إلى موضع يقال له: وادى الجن، فبدأ بتلاوه القرآن

فى جوف الليل، و كانت طائفه من الجن يمرون من هناك، فلما سمعوا قراءه النبى صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن أصغوا إليه وقال بعضهم لبعض: اسكتوا و أنصتوا، فلما أتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلاوته آمنوا به، و أتوا قومهم كرسل يدعونهم إلى الإسلام، فأمن لهم جماعه، و أتوا جميعا إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فعلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإسلام، فنزلت هذه الآيات و آيات سوره الجن (١).

و نقل جماعه عن ابن عباس سبب نزول آخر يقرب من سبب النزول السابق، باختلاف: إن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان مشتغلا بصلاه الصبح و كان يقرأ القرآن فيها، و كان جماعه من الجن فى حاله بحث و تحقيق، إذا كان انقطاع أخبار السماء عنهم قد أقلقهم، فسمعوا صوت تلاوه النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: هذا سبب انقطاع أخبار السماء عنا، فرجعوا إلى قومهم و دعوهم إلى الإسلام (٢).

و قد أورد العلامه الطبرسى فى مجمع البيان سببا ثالثا للنزول هنا، و هو يرتبط بقصه سفر النبى صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف و خلاصته:

بعد وفاه أبى طالب صعب الأمر على النبى صلى الله عليه وآله وسلم فرحل إلى الطائف لعله يجد أنصار، فبرز إليه أشراف الطائف و كذبوه أشد تكذيب، و رموا النبى بالحجاره حتى سالت الدماء من قدميه، فأعياه التعب، فأتى إلى جنب بستان و استظل بظل نخله، و كانت الدماء تسيل منه.

و كان البستان لعته بن ربيعه و شبيهه بن ربيعه، و كانا من أثرياء قريش، فتأذى النبى صلى الله عليه وآله وسلم من رؤيتهما لعلمه بعدائهما للإسلام من قبل، فأرسلا غلامهما «عداسا» - و كان رجلا نصرانيا - إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم بطبق من العنب، فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم لعداس:

«من أى أرض أنت؟» قال: من نينوى، قال: «من مدينه العبد الصالح يونس بن

ص: ٢٩٤

(١ - ١) - تفسير على بن إبراهيم طبقا لنقل نور الثقلين، المجلد ٥، صفحه ١٩، باختصار يسير.

(٢ - ٢) - ورد هذا الحديث الذى أوردنا ملخصه فى صحيح البخارى و مسلم و مسند أحمد بصورة مفصله، طبقا لنقل فى ظلال القرآن، المجلد ٧، صفحه ٤٢٩.

متى»، فقال: «و ما يدريك من يونس بن متى؟ قال: «أنا رسول الله، والله تعالى أخبرني خبر يونس بن متى» فعرف عداس صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم فخرّ ساجداً لله تعالى، و وقع على قدمي النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقبلهما.

فلما رجع لأمه عتبه و شيبه على ما صنع، فقال: لقد أخبرني هذا الرجل الصالح بما يجهله أهل هذه البلاد من أمر نبينا يونس، فضحكا و قالوا: لا يفتنك عن نصرانيتك، فإنه رجل خداع! فرجع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكّه، و لم يكن حاصل سفره هذا إلاّ مؤمن واحد، فوصل نخلا في جوف الليل، فما إن حلّ حتى تهياً للصلاه، و كان جماعه من الجن من أهل نصيبين أو اليمن يمرون من هناك، فسمعوا صوت تلاوه القرآن في صلاه الصبح فأصغوا إليه و آمنوا (1).

التفسير

إشارة

إيمان طائفه من الجن:

جاء في هذه الآيات - و كما أشير في سبب النزول - بحث مختصر حول إيمان طائفه من الجن بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم و كتابه السماوى، لتوضح لمشركى مكّه حقيقه، هى: كيف تؤمن طائفه من الجن البعيدين - ظاهراً - بهذا النبي الذى هو من الإنس، و بعث من بين أظهركم، و أنتم تصرون على الكفر، و تستمرون فى عنادكم و مخالفتكم؟ و سيكون لنا بحث مفصل حول (الجن) و خصوصياته فى تفسير سوره الجن إن شاء الله تعالى، و نتناول هنا تفسير الآيات مورد البحث فقط.

ص: ٢٩٥

١ - ١) - مجمع البيان، المجلد ٩، صفحه ٩٢. و أورد هذه القصة باختلاف يسير ابن هشام فى تاريخه (السيره النبويه)، المجلد ٢، صفحه ٦٢-٦٣.

لقد كانت قصه قوم عاد تحذيرا لمشركى مكه فى الحقيقه، و قصه إيمان طائفه من الجن تحذيرا آخر.

تقول الآيه أولا: وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ .

إنّ التعبير ب(صرفنا)-من ماده صرف، يعنى نقل الشىء و تبديله من حاله إلى اخرى-و لعله إشاره إلى أنّ الجن كانوا يصغون إلى أخبار السماء عن طريق استراق السمع، و مع ظهور نبى الإسلام صلى الله عليه و آله و سلّم رجعوا إليه و اتّجهوا نحو القرآن. و«النفر» كما يقول الراغب فى مفرداته-عدّه رجال يمكنهم النفر، و المشهور بين أرباب اللغه أنّه الجماعه من الثلاثه إلى العشره، و أوصلها البعض إلى الأربعين.

ثمّ تضيف الآيه: فَلَمَّا خَصَّزُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا و ذلك حينما كان النبى صلى الله عليه و آله و سلّم يتلو آيات القرآن فى جوف الليل، أو فى صلاه الصبح.

«انصتوا» من ماده إنصات، و هو السكوت مع الاستماع و الانتباه.

و أخيرا أضاء نور الإيمان قلوب هؤلاء، فلمسوا فى أعماقهم كون آيات القرآن حقا، و لذلك: فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ و هذا دأب المؤمنين دائما، فى أن يطلعوا الآخرين على الحقائق التى اطلعوا عليها، و يدلّوهم على مصادر إيمانهم و منابعه الفياضه.

و تبين الآيه التاليه كيفيه دعوه هؤلاء قومهم عند عودتهم إليهم، تلك الدعوه المتناسقه الدقيقه، الوجيزه و العميقه المعنى: قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ .

و من صفاته أنا رأيناه يصدق الكتب السماويه السالفه و يتطابق معها فى محتواها، و فيه العلامه الوارده فى تلك الكتب: مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ (١).

و صفته الأخرى أنّه: يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ بَحِثَ أَنْ كُلِّ مَن يَسْتَنِدُ إِلَى عَقْلِهِ وَ فِطْرَتِهِ يَرَى آيَاتِ حَقَانِيَّتِهِ وَاضِحَةً جَلِيَّةً.

ص: ٢٩٦

و آخر صفه أنه يهدى إلى الرشد: وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ .

إنّ التفاوت بين الدعوه إلى الحق و الى الصراط المستقيم، يكمن ظاهرا فى أنّ الأوّل إشاره إلى العقائد الحقه، و الثانى إلى البرامج العمليه المستقيمه الصحيحه.

و جمله: أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ وَجَمَلَهُ: مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ تُوَيْدَانُ أَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةُ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِالْكِتَابِ السَّمَاوِيِّ السَّابِقِ، وَخَاصَهُ كِتَابَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانُوا يَبْحَثُونَ عَنِ الْحَقِّ.

و إذا رأينا أنّ الكلام لم يرد عن كتاب عيسى الذى أنزل بعد موسى عليه السّلام، فليس ذلك بسبب ما روى عن ابن عباس من أنّ الجن لم يكونوا مطلعين على نزول الإنجيل مطلقا، إذ أنّ الجن كانوا مطلعين على أخبار السماوات و عالمين بها، فكيف يمكن أن يغفلوا عن أخبار الأرض إلى هذا الحد؟ بل بسبب أنّ التوراه كانت هى الكتاب الأساسى، فحتى المسيحيون كانوا قد أخذوا و يأخذون أحكام شريعتهم عنها.

ثم أضافوا: يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ إِذْ سَتَمْنَحُونَ حِينَهَا مَكَافَأَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ: يُغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجْزِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١).

المراد من: دَاعِيَ اللَّهِ نَبِيَّ الْإِسْلَامِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الَّذِي كَانَ يُرْشِدُهُمْ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ لَمَّا كَانَ أَغْلَبُ خَوْفِ الْإِنْسَانِ وَ اضْطِرَابِهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَ عَذَابِ الْقِيَامَةِ الْأَلِيمِ، فَقَدْ ذَكَرُوا لَهُمُ الْأَمْنَ تَجَاهَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، لِيَلْفِتَ انْتِبَاهَهُمْ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ.

و اعتبر جمع من المفسّرين كلمه (من) فى (من ذنوبكم) زائده، ليكون ذلك تأكيدا على غفران جميع الذنوب فى ظل الإيمان. فى حين اعتبرها البعض تبعيضيّه، و أنّها إشاره إلى تلك الذنوب التى اقترفوها قبل إيمانهم، أو الذنوب التى تتعلق باللّه سبحانه، لا بحق الناس.

غير أنّ الأنسب هو كون (من) زائده و للتأكيد، و الآيه الشريفه تشمل كلّ

ص: ٢٩٧

١- (١) - «يجركم» من مادّه (إجاره)، و قد وردت بمعان مختلفه: الإغاثه، الإنقاذ من العذاب الإيواء، و الحفظ.

و تذكر الآيه الأخيره-من هذه الآيات-كلام مبلغى الجن،فتقول: وَمَنْ لَا يُجِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أُوْلِيَاءٌ ينصرونه من عذاب الله،و لذلك فإنَّ: أُوْلِيَاءَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

أى ضلال أشد و أسوأ و أجلى من أن يهَبَّ الإنسان إلى محاربه الحق و نبى الله، بل حتى إلى محاربه الله الذى لا ملجأ له سواه فى كلَّ عالم الوجود،و لا يستطيع الإنسان أن يفر من حكومته إلى مكان آخر؟! و قد قلنا مرارا:إنَّ(معجز)-أو سائر مشتقات هذه الكلمه-تعنى فى مثل هذه الموارد العجز عن المطارده و التعقيب و المجازاه،و بتعبير آخر:الفرار من قبضه العقاب.

و عباره(فى الأرض)إشاره إلى أنكم حيثما تذهبون فى الأرض فإنه ملك الله و سلطانه،و لا يمكن أن تكونوا خارج حدود قدرته و قبضته،و إذا كانت الآيه لا تتحدث عن السماء،فلأنَّ مكان الإنس و الجن هو الأرض على كلِّ حال.

بحثان

إشاره

١-الإعلام المؤثر

كما قلنا سابقا،فإنَّ البحث حول الجن و كيفية حياتهم و الخصوصيات الاخرى المتعلقة بهم ستأتى فى تفسير سوره الجن إن شاء الله تعالى،و الذى يستفاد من هذه الآيات أنَّ الجن موجودات عاقله لها إدراك و شعور،و هم مكلفون بالواجبات الإلهيه،و فيهم المؤمن و الكافر،و لديهم الاطلاع الكافى على الدعوات الإلهيه.

و المسأله المملفته للنظر فى هذه الآيات هو الأسلوب الذى اتبعه هؤلاء للتبليغ من أجل الإسلام بين قومهم،فهم بعد حضورهم عند النَّبى صلى الله عليه و آله و سلم و سماعهم آيات

القرآن، واطلاعهم على محتواها، أتوا قومهم مسرعين و شرعوا بدعوتهم.

لقد تحدّثوا أوّلا عن كون القرآن حقًا، وأثبتوا ذلك بأدله ثلاثه، ثمّ بدأوا بترغيبهم، فبشروهم بالنجاه و الخلاص من قبضه عذاب الآخره فى ظل الإيمان بهذا الكتاب السماوى، و كان ذلك تأكيدا على مسأله المعاد من جانب، و صرف الاهتمام إلى قيم الآخره الأصيله فى مقابل قيم الدنيا الزائله الفانيه من جانب آخر.

ثمّ تبهوههم فى المرحله الثالثه على أخطار ترك الإيمان، و حذروهم تحذيرا مقترنا بالاستدلال و الحرص، و أخيرا بينوا لهم عاقبه الانحراف عن هذا المسير، فالانحراف عنه هو الضلال الممين.

إنّ هذا الأسلوب فى التبليغ و الإعلام أسلوب مؤثر نافع لكل فرد و لكلّ فئه.

٢- أفضل دليل على عظمه القرآن محتواه

يظهر جليا من الآيات أعلاه- و آيات سوره الجن- أنّ هذه الفرقه من الجن قد انجذبوا إلى القرآن و انشدوا إليه بمجرّد سماع آياته، و لا يوجد أى دليل على أنّهم قد طلبوا من نبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله و سلّم معجزه أخرى.

لقد اعتبر هؤلاء انسجام القرآن المجيد مع آيات الكتب السابقه من جهه، و أنّه يدعو الى الحق من جهه ثانيه، و استقامه برامجه العمليه و تخطيطه من جهه ثالثه، كافيا لأن يدل على كونه حقًا.

و الحق أنّ الأمر كذلك، فإنّ التدبّر فى محتوى القرآن و التحقيق فيه يغنينا عن الحاجه إلى أى دليل آخر.

إنّ كتابا لشخص أمى لم يدرس، و فى محيط ملئ بالجهل و الخرافات، يكون فيه هذا المحتوى السامى، و العقائد الطاهره النقيه، و التوحيد الخالص، و القوانين المحكمه المنسجمه، و الاستدلالات القويه القاطعه، و البرامج المتينه البناءه،

والمواعظ و الإرشادات العاليه الجليه، و بتلك الجاذبيه القويه، و الجمال المذهل، كل ذلك يشكل بنفسه أفضل دليل على حقانيه هذا الكتاب السماوى، فإنّ ظهور الشمس دليل على ظهورها- كما يقول المثل - (١).

ص: ٣٠٠

١- ١) - كان لنا بحث مفصّل حول إعجاز القرآن فى التفسير الأمثل، ذيل الآيه (٢٣) من سوره البقره.

اشاره

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِمْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
(٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ
كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا
الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ (٣٥)

التفسير

اشاره

فاصبر كما صبر أولوا العزم:

تواصل هذه الآيات-وهي آخر آيات سوره الأحقاف-البحث حول المعاد، حيث جاءت الإشارة إلى مسأله المعاد في الآيات
السابقه حكاية عن لسان مبلغى الجن. هذا من جهه.

و من جهة أخرى فإنّ سورة الأحقاف تتحدث في فصولها الأولى عن مسأله التوحيد، و عظمه القرآن المجيد، و إثبات نبوه نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم، و تبحث في آخر فصل من هذه السوره مسأله المعاد لتكمل بذلك البحث في الأصول الاعتقديه الثلاثه.

تقول الآيه الأولى: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْمَ يَعْبُدُ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَإِنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَعَ مَوْجُودَاتِهَا الْمَخْتَلَفِ الْمَتَوَعَّه عِلَامَهُ قَدْرَتَهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، لِأَنَّ كُلَّ مَا يَقَعُ فِي دَائِرِهِ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ فِي هَذَا الْعَالَمِ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَاجِزًا عَنِ إِعَادَةِ حَيَاةِ الْبَشَرِ؟ وَ هَذَا بِحَدِّ ذَاتِهِ دَلِيلٌ قَاطِعٌ مَفْحَمٌ عَلَىٰ مَسْأَلِهِ إِمْكَانِ الْمَعَادِ.

و أساسا فإنّ أفضل دليل على إمكاني أي شيء و وقوعه، فكيف ندع إلى أنفسنا سبيلا للشك في قدره الله المطلقة على مسأله المعاد و نحن نرى نشأه الموجودات الحيه و تولدها من موجودات ميته، و على هذا النطاق الواسع؟ هذا أحد أدله المعاد العديده التي يؤكد عليها القرآن و يستند إليها في آيات مختلفه، و من جملتها الآيه (٨١) من سوره يس (١).

و تجسد الآيه التاليه مشهدا من العذاب الأليم المحيط بالمجرمين و منكري المعاد، فتقول: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ . أَجَلٌ، فَمَرَّةً تَعْرَضُ النَّارُ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَ أُخْرَى يُعْرَضُونَ الْكَافِرِينَ عَلَى النَّارِ، وَ لِكُلِّ مِنَ الْعَرِضِينَ هَدَفٌ أَشِيرُ إِلَيْهِ قَبْلَ عَدَّةِ آيَاتٍ. وَ عِنْدَ مَا يُعْرَضُونَ الْكَافِرِينَ عَلَى النَّارِ، وَ يَرُونَ أَلْسِنَهُ لَهَا الْعَظِيمَةَ الْمَحْرَقَةَ الْمَرْعَبَةَ يَقَالُ لَهُمْ: أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟ وَ هَلْ تَسْتَطِيعُونَ الْيَوْمَ أَنْ تَنْكُرُوا الْبَعْثَ وَ مُحْكَمَةَ اللَّهِ الْعَادِلَةَ، وَ ثَوَابَهُ وَ عِقَابَهُ، وَ تَقُولُونَ: مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ؟

ص: ٣٠٢

غير أن أولئك الذين لا حيلة لهم: **قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا** فهذا يقول الله سبحانه، أو ملائكة العذاب: **قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ**

و بهذا فإنهم يرون كل الحقائق بأعينهم في ذلك اليوم و يعترفون بذلك الاعتراف الذي لن ينفعهم، و سوف لن تكون نتيجته إلا الهم و الحسرة، و تأنيب الضمير و العذاب الروحي.

و يأمر الله سبحانه نبيه في آخر آيه من هذه الآيات، و هي آخر آيه في سورة الأحقاف، على أساس ملاحظه ما مرّ في الآيات السابقه حول المعاد و عقاب الكافرين، أن: **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** فلست الوحيد الذي واجه مخالفه هؤلاء القوم و عداوتهم، فقد واجه أولو العزم هذه المشاكل و ثبتوا أمامها و استقاموا، فنبى الله العظيم نوح عليه السلام دعا قومه (٩٥٠) سنه، و لم يؤمن به إلا فئه قليله، و كان قومه يؤذونه دائما، و يسخرون منه.

و ألقوا إبراهيم عليه السلام في النار، و هددوا موسى عليه السلام بالقتل، و كان قلبه قد امتلأ قيحا من عصيانهم، و كانوا يريدون قتل المسيح عليه السلام بعد أن آذوه كثيرا، فأنجاه الله منهم.

و خلاصه القول: إن الأمر كان و ما يزال كذلك ما كانت الدنيا، و لا يمكن التغلب على هذه المشاكل إلا بقوه الصبر و الاستقامه و الثبات.

من هم أولو العزم من الرسل؟

هناك بحث و اختلاف كبير جدّا بين المفسّرين في: من هم أولو العزم؟ و قبل أن نحقق في هذا، ينبغي أن نحقق في معنى (العزم)، لأنّ (أولو العزم) بمعنى ذوى العزم.

«العزم» بمعنى الإراده الصلبه القويه، و يقول الراغب في مفرداته: إنّ العزم هو عقد القلب على إمضاء الأمر.

و قد استعملت كلمه العزم في مورد الصبر في آيات القرآن المجيد أحيانا، كقوله

تعالى: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١).

و جاءت أحيانا بمعنى الوفاء بالعهد، كقوله تعالى: وَ لَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (٢).

لكن بملاحظه أنّ أصحاب الشرائع و الأديان الجديده من الأنبياء قد ابتلوا بمشاكل أكثر، و واجهوا مصاعب أشد، و كانوا بحاجة إلى عزم و إرادته أقوى و أشد لمواجهةها، فقد أطلق على هذه الفئة من الأنبياء (أولو العزم) و الآيه مورد البحث إشاره إلى هذا المعنى ظاهرا. و هي تشير ضمنا إلى أن نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم من هذه الفئة، لأنها تقول: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ .

و إذا كان البعض قد فسّر العزم و العزيمه بمعنى الحكم و الشريعة فمن هذه الجهه، و إلا فإنّ كلمه العزم لم تأت في اللغه بمعنى الشريعة.

و على أيه حال، فطبقا لهذا المعنى تكون (من) في (من الرسل) تبعيضيّه، و إشاره إلى فئه خاصه من الأنبياء كانوا أصحاب شريعه، و هم الذين أشارت إليهم الآيه ٧ من سوره الأحزاب: وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا .

فقد أشارت الآيه إلى هؤلاء الأنبياء الخمسه بعد ذكر جميع الأنبياء بصيغه الجمع، و هذا دليل على خصوصيتهم.

و تتحدث الآيه (١٣) من سوره الشورى عنهم أيضا، فتقول: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى .

و قد رويت في هذا الباب روايات كثيره في مصادر الشيعة و السنّه، تدل على أنّ الأنبياء أولى العزم كانوا خمسهم، كما

ورد في حديث عن الإمامين الباقر

ص: ٣٠٤

١-١) -الشورى، الآيه ٤٣.

٢-٢) -سوره طه، الآيه ١١٥.

و الصادق عليهما السلام: «و منهم خمسة: أولهم نوح، ثم إبراهيم ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمد» (١).

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام: «منهم خمسة أولو العزم من المرسلين: نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد». و عند ما يسأل الراوى: لم سماوا (أولو العزم)؟

يقول الإمام عليه السّلام مجيباً: «لأنهم بعثوا إلى شرقها و غربها، و جنّها و إنسها» (٢).

و كذلك

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «ساده النبيّن و المرسلين خمسة، و هم أولو العزم من الرسل، و عليهم دارت الرّحى: نوح، و إبراهيم، و موسى، و عيسى، و محمد» (٣).

و روى هذا المعنى فى تفسير الدر المنثور عن ابن عباس أيضاً، بأنّ الأنبياء أولى العزم هم هؤلاء الخمسة (٤).

إلا أنّ بعض المفسّرين يعتقد أنّ (أولو العزم) إشارة إلى الأنبياء الذين أمروا بمحاربه الأعداء و جهادهم.

و اعتبر البعض عددهم (٣١٣) نفراً (٥)، و يرى البعض أنّ جميع الأنبياء (أولو عزم) أى أصحاب إرادته (٦) صلبه و طبقاً لهذا القول، فإنّ (من) فى (من الرسل) بيانيه لا تبعيضية.

إلا أنّ التفسير الأوّل أصح منها جميعاً، و تؤيده الروايات الإسلاميه.

ثمّ يضيف القرآن بعد ذلك: **وَ لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ** أى للكفار لأنّ قيامه ستحل

ص: ٣٠٥

١-١) -مجمع البيان، المجلد ٩، صفحه ٩٤، ذيل الآيات مورد البحث.

٢-٢) -بحار الأنوار، المجلد ١١، صفحه ٥٨، حديث ٦١، و يتحدث الحديث ٥٥، صفحه ٥٦، من المجلد المذكور بصراحه فى هذا الباب.

٣-٣) -الكافى، المجلد ١، باب طبقات الأنبياء و الرسل، حديث ٣.

٤-٤) -الدر المنثور، المجلد ٦، صفحه ٤٥.

٥-٥) -المصدر السابق.

٦-٦) -المصدر السابق.

سريعا، و سيرون بأعينهم ما أطلقوه عليها و ادعوه فيها، و يجزون أشد العذاب، و عندها سيطلقون على أخطائهم، و يعرفون ما كانوا عليه من الضلاله و الغي.

إِنَّ عَمْرَ الدُّنْيَا قَصِيرٌ جَدًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَمْرِ الْآخِرَةِ، حَتَّى: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ.

إِنَّ هَذَا الْإِحْسَاسَ بِقَصْرِ عَمْرِ الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ، إِمَّا بِسَبَبِ أَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ لَيْسَتْ إِلَّا سَاعَةٌ أَمَامَ تِلْكَ الْحَيَاةِ الْخَالِدَةِ حَقِيقَةً وَ وَاقِعًا، أَوْ لِأَنَّ الدُّنْيَا تَنْقُضِي عَلَيْهِمْ سَرِيعًا حَتَّى كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا سَاعَةً، أَوْ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ حَاصِلَ كُلِّ عَمْرِهِمُ الَّذِي لَمْ يَسْتَغْلَوْهُ وَ يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ الْإِسْتِفَادَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَّا سَاعَةً لَا أَكْثَرَ.

هنا سيغطى سيل الأحزان و الحسره قلوب هؤلاء، و لات حين ندم، إذ لا سبيل الى الرجوع.

لهذا نرى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و

قد سئل: كم ما بين الدنيا و الآخرة؟ فقال: «غمضه عين، ثم يقول: قال الله تعالى: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ» (١). و هذا يوحى بأن التعبير بالساعة لا تعنى مقدار الساعه المتعارفه، بل هو إشاره إلى الزمان القليل القصير.

ثم تضيف الآيه كتحذير لكل البشر «بلاغ» (٢) لكل أولئك الذين خرجوا عن خط العبوديه لله تعالى.. لأولئك الغارقين فى بحر الحياه الدنيا السريعه الزوال و الفناء، و العابدين شهواتها.. و أخيرا هو بلاغ لكل سكان هذا العالم الفانى.

و تقول فى آخر جملة تتضمن استفهاما عميق المعنى، و ينطوى على التهديد:

فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ

***؟

ص: ٣٠٦

١-١) - روضه الواعظين، طبقا لنقل نور الثقلين، المجلد ٥، صفحه ٢٥.

٢-٢) - «بلاغ» خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير: هذا القرآن بلاغ، أو: هذا الوعظ و الإنذار بلاغ.

إنّ حياه أنبياء الله العظام-و خاصه نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم- تبيان لمقاومتهم اللامحدوده أمام الحوادث الصعبه و الشدائد العسيره،و العواصف الهوجاء، و المشاكل القاصمه،و لما كان طريق الحق مليئا بهذه المشاكل دائما،فيجب على سالكيه أن يستلهموا العبر من أولئك العظماء فى هذا المسير.

إنّنا ننظر عاده من نقطه مضيئه فى تاريخ الإسلام إلى أيام مرّت على الإسلام و نبيّه صلى الله عليه و آله و سلم صعبه مظلّمه،و هذه النظرة من المستقبل إلى الماضى تجسم الوقائع و الحقائق بشكل آخر،فينبغى علينا أن ندرك أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلم كان وحيدا فريدا لا يرى فى أفق الحياه أيه علامه للانتصار.

فأعداؤه شمروا عن سواعدهم للفتك به،حتى أنّ أقرابه و عشيرته كانوا فى الخط الأول فى هذه المجابهه! كان يذهب دائما إلى قبائل العرب و يدعوهم،و لكن لم يكن يجيبه أحد.

كانوا يرمونه حتى تسيل الدماء من عقيقه،لكنه لم يكن يكف عن عمله.

لقد فرضوا عليه الحصار الاجتماعى و الاقتصادى و السياسى بحيث أغلقوا جميع الأبواب و الطرق بوجهه و بوجه أتباعه،حتى مات بعضهم جوعا،و أقعد المرض بعضهم الآخر.

لقد مرّت على النبي صلى الله عليه و آله و سلم أيام يصعب على القلم و اللسان وصفها،فعند ما جاء إلى الطائف ليدعو الناس إلى الإسلام،لم يكتفوا بعدم إجابته دعوته،بل رموه بالحجاره حتى سال الدم من قدميه.

لقد كانوا يحثون الجهلاء من الناس على أن يصرخوا،و يسيثوا فى كلامهم إليه، فيضطر إلى أن يلتجئ إلى بستان و يستظل بظل شجره،و يناجى ربّه

فيقول: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى،و قله حيلتى،و هو انى على الناس،يا أرحم الراحمين: أنت

رب المستضعفين، و أنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي...» (١).

كانوا يسمونه ساحرا تاره، و أخرى يخاطبونه بالمجنون.

كانوا يلقون التراب و الرماد على رأسه حيناً، و حيناً يجمعون على قتله، فيحاصرون بيته بالسيوف و الرماح.

إلا أنه رغم كل تلك الظروف استمر في صبره و صموده و استقامته.

و أخيراً جنى الثمره الطيبه لهذه الشجره المباركه، فقد عمّ دينه شرق العالم و غربه، لا جزيره العرب و حدها، و يدوى اليوم صوت انتصاره صباح مساء في كل أرجاء الدنيا، و في قارات العالم الخمسه، و هذا هو معنى: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .

و هذا هو طريق محاربه الشياطين، و طريق الإنتصار عليهم، و الوصول إلى الأهداف الإلهيه الساميه.

إذا كان الأمر كذلك، فكيف يطمح طلاب الراحه و السلامه إلى أن يصلوا إلى أهدافهم الكبيره من دون صبر و تحمل للعذاب و الآلام؟ و كيف يأمل مسلمو اليوم أن ينتصروا على كل هؤلاء الأعداء الذين اجتمعت كلمتهم على إفنائهم و القضاء عليهم، دون الاستلهم من دين نبي الإسلام الأصيل؟ و القاده الإسلاميون بخاصه مأمورون بهذا الأمر قبل الجميع، كما

ورد في حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «إِنَّ الصَّبْرَ عَلَى وِلاهِ الْأَمْرِ مَفْرُوضٌ، لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ و إيجابه مثل ذلك على أوليائه و أهل طاعته بقوله: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» (٢).

اللهم امنحنا هذه الموهبه العظيمه، هذه العطيهِ السماويه، و هذا الصبر و الثبات

ص: ٣٠٨

١-١ - سيره ابن هشام، المجلد ٢، صفحه ٦١.

٢-٢ - احتجاج الطبرسي طبقا لنقل نور الثقلين، المجلد ٥، صفحه ٢٣.

و الاستقامه أمام المشاكل.

اللهم وفقنا لحفظ مشعل النور الذى حمله أولو العزم من أنبيائك، و خاصه خاتم النبيين محمد صلى الله عليه و آله و سلم، من أجل هدايه البشريه بعد تحملهم الجهود المضنيه، و وفقنا لأن نكون أهلا لحراسته.

إلهنا! إن أعداء الحق متحدون و متحزبون ضده، و لا يرتدعون عن اقتراف أيه جريمه و جنايه، اللهم فامنحنا صبيرا و ثباتا أعظم مما لديهم لئلا نركع أمام سيل المشاكل و عظمتها، و وفقنا لأن نتخطى الأمواج و العواصف و نتركها وراءنا، و هذا لا يتم إلا بعونك و لطفك اللامحدود.

آمين يا رب العالمين.

نهايه سوره الأحقاف ***

ص: ٣٠٩

مدتیہ و عدد آیاتہا ثمان و ثلاثون آیه

ص: ۳۱۱

محتوى السوره:

سمّيت هذه السوره بسوره محمّد صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ اسمه الشريف قد ذكر في الآيه الثانيه، واسمها الآخر هو سوره القتال، والواقع أنّ مسأله الجهاد و قتال أعداء الإسلام هو أهم موضوع ألقى ظلاله على هذه السوره، في حين أنّ جزءا مهما آخر من آيات هذه السوره يتناول المقارنه بين حال المؤمنين و الكافرين و خصائصهم و صفاتهم، وكذلك المصير الذى ينتهى إليه كلّ منهما فى الحياه الآخره.

و يمكن تلخيص محتوى السوره بصوره عامه فى عدّه فصول:

- ١- مسأله الإيمان و الكفر، و المقارنه بين أحوال المؤمنين و الكفار فى هذه الدنيا و فى الحياه الآخره.
- ٢- بحوث معبره بليغه و صريحه حول مسأله الجهاد و قتال المشركين، و التعليمات الخاصه فيما يتعلق بأسرى الحرب.
- ٣- شرح أحوال المنافقين الذين كان لهم نشاطات هدّامه كثيره حين نزول هذه الآيات فى المدينه.
- ٤- فصل آخر يتناول مسأله السير فى الأرض، و تدبر مصير الأقسام الماضين و عاقبتهم، كدرس للاعتبار و الاتعاظ.
- ٥- و فى جانب من آيات هذه السوره ذكرت مسأله الاختبار الإلهى لمناسبتها موضوع القتال و الجهاد.
- ٦- ورد الحديث فى فصل آخر عن مسأله الإنفاق الذى يعتبر بحدّ ذاته نوعا

من الجهاد، وجاء الحديث عن مسأله البخل الذى يقع فى الطرف المقابل.

٧- و تناولت بعض آيات هذه السوره-لمناسبه موضوعها-مسأله الصلح مع الكفار-الصلح الذى يكون أساسا لهزيمة المسلمين و ذلّتهم-و نهت عنه.

و بالجمله،فبملاحظه أنّ هذه السوره قد نزلت فى المدينه حينما كان الاشتباك شديدا بين المسلمين و أعداء الإسلام،و على قول بعض المفسرين أنّها نزلت أثناء معركة أحد أو بعدها بقليل،فإنّ أهم مسأله فيها هى قضيه الجهاد و الحرب،و تدور بقيه المسائل حول ذلك المحور..الحرب المصيريه التى تميّز المؤمنين عن الكافرين و المنافقين..الحرب التى كانت تثبت دعائم الإسلام،و ردّت كيد الأعداء الذين هبوا للقضاء على الإسلام و المسلمين فى نحورهم-و أوقفتهم عند حدّهم.

فضل تلاوه السوره:

جاء فى حديث عن نبي الإسلام الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم: «من قرأ سوره محمّد كان حقّا على الله أن يسقيه من أنهار الجنّه» (١).

و

روى فى كتاب ثواب الأعمال عن الصادق عليه السّلام،أنّه قال: «من قرأ سوره الذين كفروا-سوره محمّد لم يرتب أبدا،و لم يدخله شكّ فى دينه،و لم يبتله الله بفقر أبدا،و لا خوف سلطان أبدا،و لم يزل محفوظا من الشرك و الكفر أبدا حتى يموت، فإذا مات و كلّ الله به فى قبره ألف ملك يصلون فى قبره،و يكون ثواب صلاتهم له و يشيعونه حتى يوقفوه موقف الأمن عند الله عزّ و جلّ،و يكون فى أمان الله،و أمان محمّد» (٢).

من الواضح أنّ الذين جرى محتوى هذه السوره فى دمائهم،و تشبعت به

ص: ٣١٤

١-١) -مجمع البيان،المجلد ٩،بدايه سوره محمّد.

٢-٢) -ثواب الأعمال،طبقا لنقل نور الثقلين،المجلد ٥،صفحه ٢٥.

أرواحهم، و هم أشداء فى جهاد الأعداء اللدودين القساء، و الذين لم يدعوا للشك و التزلزل الى أنفسهم سييلا، تكون أسس دينهم قوية، و إيمانهم صلبا، و لا يملكهم خوف و لا تنالهم ذلة و لا يعتريهم فقر، و هم فى الآخره منعمون فى جوار رحمة الله.

و

جاء فى حديث آخر أنّ الإمام عليه السّلام قال: «من أراد أن يعرف حالنا و حال أعدائنا فليقرأ سورة محمد فإنه يراها آية فىنا و آية فىهم» (١).

و قد نقل هذا الحديث مفسرو السنّه أيضا، كالألوسى فى روح المعانى (٢) و السيوطى فى الدر المنثور (٣).

و هذه السوره تبيان لحقيقه أنّ أهل بيت النبى عليه السّلام كانوا نموذجا لأكمل الإيمان و أتمه، و أنّ بنى أميه كانوا المثل البارز للكفر و النفاق.

صحيح أنّه لم يرد تصريح باسم أهل البيت و لا- باسم بنى أميه فى هذه السوره، لكن لَمّا كان البحث فيها عن فئه المؤمنين و المنافقين و خصائص كلّ منهما، فإنّها تشير قبل كلّ شىء إلى مصداقين واضحين، و لا مانع فى نفس الوقت من أن تشمل السوره سائر المؤمنين و المنافقين.

ص: ٣١٥

١- ١) -مجمع البيان، المجلد ٩، أوّل السوره.

٢- ٢) -روح المعانى، المجلد ٢٦، صفحه ٣٣.

٣- ٣) -الدر المنثور، المجلد ٦، ص ٤٦.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣)

التفسير

اشاره

المؤمنون أنصار الحق، والكافرون أنصار الباطل:

إن هذه الآيات الثلاث تعتبر في الحقيقة مقدمه لأمر حربي مهم صدر في الآيه الرابعه، فبينت الأولى منها وضع الكافرين و حالهم، والثانيه حال المؤمنين، وقارنت ثالثتهما بين الإثنين، وذلك لتتهيأ الأرضيه والاستعداد للجهاد الديني ضد الأعداء الظالمين العتاه باتضح حال الفئتين.

تقول الآيه الأولى: الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَ هِيَ

إشاره الى زعماء الكفر و مشركى مكه الذين كانوا يشعلون نار الحروب ضد الإسلام، و لم يكتفوا بكونهم كفارا، بل كانوا يصدون الآخرين عن سبيل الله بأنواع الحيل و الخدع و المخططات.

و مع أنّ بعض المفسّرين - كالزمخشري في الكشاف- فسّر «الصدّ» هنا بمعنى الإعراض عن الإيمان، في مقابل الآيه التاليه التى تتحدث عن الإيمان، إلّا- أنّ الإحاطه بموارد استعمال هذه الكلمه فى القرآن الكريم توجب الحفاظ على معناها الأصلي، و هو المنع.

و المراد من: أَضَلَّ أَعْمَأَهُمْ أَنَّهُ يَحْبِطُهَا وَيَجْعَلُهَا هَبَاءً مَثْوَرًا، لأنّ الإحباط و الإضاعه كناية عن بقاء الشىء بدون حمايه و لا عماد، و لازم ذلك زواله و فناؤه.

و على آيه حال، فإنّ بعض المفسّرين يرون أنّ هذه الجملة إشاره إلى الذين نحروا الإبل يوم بدر و أطعموها الناس، إذ نحر أبو جهل عشره من الإبل، و مثله صفوان، و سهيل بن عمرو، لإطعام جيش الكفر (1). لكن لمّا كانت هذه الأعمال من أجل التفاخر و مكائد الشيطان فقد أحبطت جميعا.

غير أنّ الظاهر أنّها لا- تنحصر بهذا المعنى، بل إنّ كلّ أعمالهم التى قاموا بها، و ظاهرها معونه للفقراء و الضعفاء، أو إقراء للضيف، أو غير ذلك ستحبط لعدم إيمانهم.

و بغض النظر عن ذلك، فإنّ ذلك، فإنّ الله سبحانه قد أحبط كلّ مؤامراتهم و ما قاموا به من أعمال لمحو الإسلام و القضاء على المسلمين، و حال بينهم و بين الوصول إلى أهدافهم الخبيثه.

و الآيه التاليه وصف لوضع المؤمنين الذين يقفون فى الصف المقابل للكافرين الذين وردت صفاتهم فى الآيه السابقه، فتقول:

ص: ٣١٧

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ كَذَبًا كَذِبًا وَأَصْلَحَ اللَّهُ بِهِمْ

(١)

إن ذكر الإيمان بما نزل على نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذكر الإيمان بصورة مطلقة، تأكيد على تعليمات هذا النبي العظيم و مناهجه، وهو من قبيل ذكر الخاص بعد العام، و تبيان لحقيقته أن الإيمان بالله سبحانه لا يتم أبدا بدون الإيمان بما نزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

و يحتمل أيضا أن تكون الجملة الأولى إشارة إلى الإيمان بالله تعالى، و لها جانب عقائدى، و هذه الجملة إشارة إلى الإيمان بمحتوى الإسلام و تعليمات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، و لها الجانب العملى.

و بتعبير آخر، فإن الإيمان بالله سبحانه لا يكفى وحده، بل يجب أن يؤمنوا بما نزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، و أن يكون لهم إيمان بالقرآن، إيمان بالجهاد، إيمان بالصلاة و الصوم، و إيمان بالقيم الأخلاقية التى نزلت عليه. ذلك الإيمان الذى يكون مبدأ للحركة، و تأكيدا على العمل الصالح.

و مما يستحق الانتباه أن الآيه تقول بعد ذكر هذه الجملة: وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ هى تعنى أن إيمانهم لم يكن تقليدا، أو أنه لم يقم على دليل و حجه، بل إنهم آمنوا بعد أن رأوا الحق فيه.

و عبارته مِنْ رَبِّهِمْ تأكيد على حقيقته أن الحق يأتى دائما من قبل الله سبحانه، فهو يصدر منه، و يعود إليه.

و الجدير بالالتفات إليه أن الآيه تبيّن ثوابين للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، فى مقابل العقابين اللذين ذكرا للكفار الصادقين عن سبيل الله: أو لهما:

التكفير عن السيئات التى لا يخلو منها أى إنسان غير معصوم، و الثانى: إصلاح البال.

لقد جاء «البال» بمعان مختلفه، فجاء بمعنى الحال، العمل، القلب، و على قول

ص: ٣١٨

(١-١) - اعتبر جماعه من المفسرين جمله (و هو الحق من ربهم) جمله معترضه.

الراغب: بمعنى الحالات العظيمة الأهمية، و بناء على هذا فإنّ إصلاح الباطل يعنى تنظيم كلّ شؤون الحياه و الأمور المصيريه، و هو يشمل-طبعاً- الفوز فى الدنيا، و النجاه فى الآخرة، على عكس المصير الذى يلاقيه الكفار، إذ لا يصلون إلى ثمره جهودهم و مساعيهم، و لا نصيب لهم إلاّ الهزيمة و الخسران بحكم: **أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**.

و يمكن القول بأنّ غفران ذنوبهم نتيجة إيمانهم، و أنّ إصلاح باطلهم نتيجة أعمالهم الصالحه.

إنّ للمؤمنين هدوءاً فكرياً و اطمئناناً روحياً من جهة، و توفيقاً و نجاحاً فى برامجهم العمليه من جهة ثانية، فإنّ لإصلاح الباطل إطاراً واسعاً يشمل الجميع، و أى نعمه أعظم من أن تكون للإنسان روح هادئه، و قلب مطمئن، و برامج مفيده بنّاءه.

و بيّنت الآيه الأخيره العله الأساسيه لهذا الإنتصار و تلك الهزيمة من خلال مقارنه مختصره بليغه، فقالت: **ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ**.

هنا يكمن سرّ المسأله بأنّ خطيئ الإيمان و الكفر يتفرعان عن خطيئ الحق و الباطل، فالحق يعنى الحقائق العينيه، و أسماها ذات الله المقدسه، و تليها الحقائق المتعلقة بحياه الإنسان، و القوانين الحاكمه فى علاقته بالله تعالى، و فى علاقته بالآخرين.

و الباطل يعنى الظنون، و الأوهام، و المكائد و الخدع، و الأساطير و الخرافات، و الأفعال الجوفاء التى لا هدف من ورائها، و كلّ نوع من الانحراف عن القوانين الحاكمه فى عالم الوجود.

نعم، إنّ المؤمنين يتبعون الحق و ينصرونه، و الكفار يتبعون الباطل و يؤازرونه، و هنا يكمن سرّ انتصار هؤلاء، و هزيمه أولئك.

يقول القرآن الكريم: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا (١).

و فسر البعض «الباطل» بالشيطان، و آخرون بالعبثيه، لكن كما قلنا، فإنّ للباطل معنى واسعا يشمل هذين التفسيرين و غيرهما.

و تضيف الآيه فى النهايه: كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ أَي: كما أنّه سبحانه قد بين الخطوط العامه لحياه المؤمنين و الكفار، و عقائدهم و برامجهم العمليه و نتائج أعمالهم فى هذه الآيات، فإنّه يوضح مصير حياتهم و عواقب أعمالهم.

يقول الراغب فى مفرداته: المثل عباره عن قول يشبه قولاً فى شىء آخر بينهما مشابهه يبين أحدهما الآخر.

و يستفاد من كلام آخر له أنّ هذه الكلمه تستعمل أحيانا بمعنى «المشابهه»، و أحيانا بمعنى «الوصف».

و الظاهر أنّ المراد فى هذه الآيه هو المعنى الثانى، أى إنّ الله سبحانه يصف حال الناس هكذا، كما مثل الجنه فى الآيه (١٥) من سوره محمّد: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .

و على أيه حال، فالذى يستفاد من هذه الآيه جيداً، أنّنا كلما اقتربنا من الحق اقتربنا من الإيمان، و سنكون أبعد عن حقيقه الإيمان و أقرب إلى الكفر بتلك النسبه التى تميل بها أعمالنا نحو الباطل، فإنّ أساسى الإيمان و الكفر هما الحق و الباطل.

ص: ٣٢٠

اشاره

فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَخْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ
وَ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوًا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ
بِأَلْهِمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦)

التفسير

اشاره

يجب الحزم في ساحه الحرب:

كما قلنا سابقا، فإن الآيات السابقه كانت مقدمه لتهيئه المسلمين من أجل إصدار أمر حربى مهم ذكر فى الآيات مورد
البحث، فتقول الآية: فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ (١).

ص: ٣٢١

١- ١) - «ضرب» مصدر مفعول مطلق لفعل مقدر، و التقدير: اضربوا ضرب الرقاب، كما صرحت الآية (١٢) من سوره الأنفال بذلك
إذ قالت: فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْتَاقِ .

من البديهي أن «ضرب الرقاب» كناية عن القتل، و على هذا فلا ضروره لأن يبذل المقاتلون قصارى جهدهم لأداء هذا الأمر بالخصوص، فإنّ الهدف هو دحر العدو و القضاء عليه، و لما كان ضرب الرقاب أوضح مصداق له، فقد أكّدت الآية عليه.

و على أية حال، فإنّ هذا الحكم مرتبط بساحه القتال، لأنّ «لقيتم» -من ماله اللقاء- تعنى الحرب و القتال فى مثل هذه الموارد، و فى نفس هذه الآية قرائن عديده تشهد لهذا المعنى كمسأله أسر الأسرى، و لفظه الحرب، و الشهاده فى سبيل الله، و التى وردت فى ذيل الآية.

و خلاصه القول: إنّ اللقاء يستعمل -أحيانا- بمعنى اللقاء بأى شكل كان، و أحيانا بمعنى المواجهه و المجابهه فى ميدان الحرب، و استعمل فى القرآن المجيد بكلا المعنيين، و الآية مورد البحث ناظره إلى المعنى الثانى.

و من هنا يتّضح أنّ أولئك الذين حوّروا هذه الآية و فسّروها بأنّ الإسلام يقول:

حيثما وجدتم كافرا فاقتلوه، لم يريدوا إلاّ الإساءه إلى الإسلام، و اتخاذ الآية بمعناها المحرّف حربه ضد الدين الحنيف، محاوله منهم لتشويه صوره الإسلام الناصعه، و إلاّ فإنّ الآية صريحه فى اللقاء فى ساحه الحرب و ميدان القتال.

من البديهي أنّ الإنسان إذا واجه عدوا شرسا فى ميدان القتال، و لم يقابله بحزم و لم يكل له الضربات القاصمه و لم يذقه حرّ سيفه ليهلكه، فإنّّه هو الذى سيهلك، و هذا القانون منطقى تماما.

ثمّ تضيف الآية: **حَتَّىٰ إِذَا أَثَخْتُمُوهُم فَشُدُّوا وَوَتَاقَ .**

«أثختموهم» من ماله ثخن، بمعنى الغلظه و الصلابه، و لهذا تطلق على النصر و الغلبه الواضحه، و السيطرة الكامله على العدو.

و بالرغم من أنّ أغلب المفسّرين فسّروا هذه الجملة بكثرة القتل فى العدو و شدّته، إلاّ- أنّ هذا المعنى لا- يوجد فى أصلها اللغوى، كما قلنا، و لكن لما كان دفع

خطر العدو غير ممكن أحيانا إلا بكثرة القتل فيه، فيمكن أن تكون مسألة القتل أحد مصاديق هذه الجملة في مثل هذه الظروف، لا أنها معناها الأصلي (١).

و على كل حال، فإن الآيه المذكوره تبين تعليما عسكريا دقيقا، و هو أنه يجب أن لا يقدم على أسر الأسرى قبل تحطيم صفوف العدو و القضاء على آخر حصن لمقاومته، لأن الإقدام على الأسر قد يكون سببا في تزلزل وضع المسلمين في الحرب، و سيعوق المسلمين الاهتمام بأمر الأسرى و نقلهم إلى خلف الجبهات عن أداء واجبهم الأساسى.

و عبارته فَشُدُّوا الْوَثَاقَ و بملاحظه أن الوثاق هو الحبل، أو كل ما يربط به، يشير الى إتقان العمل فى شدّ وثاق الأسرى، لئلا يستغل الأسير فرصه يفر فيها، ثم يوجه ضربه إلى الإسلام و المسلمين.

و تبين الجملة التاليه حكم أسرى الحرب الذى يجب أن يقام بحقهم بعد انتهاء الحرب، فتقول: فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِدَاءً و على هذا لا يمكن قتل الأسير الحربى بعد انتهاء الحرب، بل إن ولى أمر المسلمين - طبقا للمصلحه التى يراها - يطلق سراحهم مقابل عوض أحيانا، و بلا عوض أحيانا أخرى، و هذا العوض - فى الحقيقه - نوع من الغرامه الحربيه التى يجب أن يدفعها العدو.

طبعا يوجد حكم ثالث فى الإسلام فيما يتعلق بهذا الموضوع، و هو استعباد الأسرى، إلا أنه ليس أمرا واجبا، بل هو راجع إلى ولى أمر المسلمين ينقذه عند ما يراه ضروره فى ظروف خاصه، و لعله لم يرد فى القرآن بصراحه لهذا السبب، بل بينته الزوايات الإسلاميه فقط.

يقول فقيها المعروف «الفاضل المقداد» فى «كنز العرفان»: إن ما روى عن مذهب أهل البيت عليهم السّلام أن الأسير لو أسر بعد انتهاء الحرب فإن إمام المسلمين مخير بين ثلاث: إمّا إطلاقه دون شرط، أو تحريره مقابل أخذ الفديه، أو جعله

ص: ٣٢٣

(١ - ١) - ينقل صاحب لسان العرب عن ابن الأعرابى أن: أثخن: إذا غلب و قهر.

عبدا، ولا يجوز قتله بأى وجه.

و يقول فى موضع آخر من كلامه: إنَّ مسأله الرق استفيدت من الروايات، لا من متن الآيه (١).

و قد وردت هذه المسأله فى سائر الكتب الفقهيّه أيضا (٢).

و سنشير إلى هذا المطلب فى بحث الرق الذى سيأتى فى ذيل هذه الآيات.

ثمّ تضيف الآيه بعد ذلك: **حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** (٣) فلا تكفوا عن القتال حتى تحطّموا قوى العدو و يصبح عاجزا عن مواجهتكم، و عندها سيخمد لهيب الحرب.

«الأوزار» جمع وزر، و هو الحمل الثقيل، و يطلق أحيانا على المعاصى، لأنها تنقل كاهل صاحبها.

و الطريف أنّ هذه الأوزار نسبت إلى الحرب فى الآيه، إذ تقول: **حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** و هذه الأحمال الثقيله كناية عن أنواع الأسلحه و المشاكل الملقاه على عاتق المقاتلين، و التى يواجهونها، و هى بعهدتهم ما كانت الحرب قائمه.

لكن متى تنتهى الحرب بين الإسلام و الكفر؟ سؤال أجاب عنه المفسرون إجابات مختلفه:

فالبعض - كابن عباس - قال: حتى لا تبقى و ثنيه على وجه البسيطه، و حتى يقتلع دين الشرك و تجتث جذوره.

و قال البعض الآخر: إنّ الحرب بين الإسلام و الكفر قائمه حتى ينتصر المسلمون على الدجال، و هذا القول يستند إلى

حديث روى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «و الجهاد ماض مذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتى

ص: ٣٢٤

١-١) - كنز العرفان، المجلد ١، صفحه ٣٦٥.

٢-٢) - الشرائع، كتاب الجهاد. شرح اللمعه، أحكام الغنيمه.

٣-٣) - «حتى» غايه ل (فضرب الرقاب). و احتملت احتمالات أخرى لا تستحق الاهتمام.

البحث حول «الدجال» بحث واسع، لكن القدر المعلوم أنّ الدجال رجل خدّاع، أو رجال خدّاعون ينشطون في آخر الزمان من أجل إضلال الناس عن أصل التوحيد و الحق و العدالة، و سيقضى عليهم المهدي (عج) بقدرته العظيمه، و على هذا فإنّ الحرب قائمه بين الحق و الباطل ما عاش الدجالون على وجه الأرض.

إنّ للإسلام نوعين من المحاربه مع الكفر: أحدهما الحروب المرحليه كالمغزوات التي غزاها النبي صلى الله عليه و آله و سلّم حيث كانت السيوف تغمد بعد انتهاء كل غزوه. و الآخر هو الحرب المستمره ضد الشرك و الكفر، و الظلم و الفساد، و هذا النوع مستمر حتى زمن اتساع حكمه العدل العالميه، و ظهورها على الأرض جميعا على يد المهدي (عج).

ثمّ تضيف الآيه: ذَلِكْ وَ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْتَصِرَ مِنْهُمْ (٢) بالصواعق السماويه، و الزلازل، و العواصف، و الابتلاءات الأخرى، لكن باب الاختبار و ميدانه سيغلق في هذه الصوره: وَ لَكِنْ لِيُنَبِّئُوا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ .

هذه المسأله هي فلسفه الحرب، و النكته الأساسيه في صراع الحق و الباطل، ففي هذه الحروب ستميز صفوف المؤمنين الحقيقيين و العاملين من أجل دينهم عن المتكلمين في المجالس المتخاذلين في ساعه العسره، و بذلك ستفتح براعم الاستعدادات، و تحيا قوه الاستقامه و الرجوله، و يتحقق الهدف الأصلي للحياه الدنيا، و هو الابتلاء و تنميه قوه الإيمان و القيم الإنسانيه الأخرى.

إذا كان المؤمنون يتوقعون على ذواتهم و ينشغلون بالحياه اليوميه الرتيبه، و في كل مره تطغى فيها جماعه من المشركين و الظالمين يدحضهم الله سبحانه بالقوى الغيبيه، و يدمرهم بالطرق الإعجازيه، فإنّ المجتمع سيكون خاملا ضعيفا

١- ١) - مجمع البيان، المجلد ٩، صفحه ٩٨.

٢- ٢) - «ذلك» خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير: الأمر كذلك.

عاجزاً، ليس له من الإسلام و الإيمان إلا اسمه.

و خلاصه القول: إن الله سبحانه غنى عن سعينا و جهادنا من أجل تثبيت دعائم دينه، بل نحن الذين نتربى في ميدان جهاد الأعداء، و نحن الذين نحتاج إلى هذا الجهاد المقدس.

و قد ذكر هذا المعنى في آيات القرآن الأخرى بصيغ أخرى، فنقرأ في الآية (١٤٢) من سورة آل عمران: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ .

و جاء في الآية التي سبقتها: وَ لِيَمَّحُصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ .

و تحدت آخر جملة من الآية مورد البحث عن الشهداء الذين قدموا أرواحهم هديه لدينهم في هذه الحروب، و لهم فضل كبير على المجتمع الإسلامي، فقالت:

وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ

فلن تذهب جهودهم و آلامهم و تضحياتهم سدى، بل كلها محفوظة عند الله سبحانه، فستبقى آثار تضحياتهم في هذه الدنيا، و كل نداء (لا إله إلا الله) يترق سمع البشر يمثل ثمره جهود أولئك الشهداء، و كل سجده يسجدها مسلم بين يدي الله هي من بركات تضحياتهم، فبمساعيهم تحطمت قيود المذلة و العبودية، و عزه المسلمين و رفعتهم رهينه ما بذلوه من الأرواح و التضحيات.

هذه هي إحدى مواهب الله في شأن الشهداء.

و هناك ثلاث مواهب أخرى أضيفت في الآيات التالية:

تقول الآية أولاً: سَيَهْدِيهِمْ إِلَى الْمَقَامَاتِ السَّامِيَةِ، و الفوز العظيم، و رضوان الله تعالى.

و الأخرى: يُضِلِّحُ بِاللَّهِمْ فِيهِمْ هُدُوءَ الرُّوحِ، و اطمئنان خاطر، و النشاط المعنوي و الروحي، و الانسجام مع صفاء ملائكة الله و معنوياتهم، حيث يجعلهم جلساءهم و ندماءهم في مجالس أنسهم و لذتهم، و يدعوهم إلى ضيافته في جوار

و الموهبه الأخيره هي: وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ .

قال بعض المفسرين: إنه تعالى لم يبين لهم الصفات الكليه للجنات العلى و روضه الرضوان و حسب، بل عرف لهم صفات قصورهم فى الجنة و علاماتها، بحيث أنهم عند ما يردون الجنة يتوجهون إلى قصورهم مباشرة (١).

و فسر البعض (عرّفها) بأنّها من ماده «عرف»-على زنه فكر-و هو العطر الطيب الرائحه، أى إنّ الله سبحانه سيدخلهم الجنة التى عطرها جميعا استقبالا لضيوفه.

إلا أنّ التفسير الأوّل يبدو هو الأنسب.

وقال البعض: إذا ضمنا هذه الآيات إلى آية: وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً (٢)، سيّضح أنّ المراد من إصلاح البال إحيائهم حياه يصلحون بها للحضور عند ربهم بانكشاف الغطاء (٣).

بحون

اشاره

١-مقام الشهداء السامى

تمرّ فى تاريخ الشعوب أيام تحدى الأخطار فيها بتلك الأمم و الشعوب، و لا يمكن دفع هذه الأخطار و الحفاظ على الأهداف المقدسه العظيمه إلاّ بالتضحيه و الفداء و تقديم القرابين الكثيره، و هنا يجب أن يتوجه المؤمنون المضحون إلى ساحات القتال، ليحفظوا دين الحق بسفك دماهم، و يسمى هؤلاء الأفراد فى

ص: ٣٢٧

١-١) -مجمع البيان، المجلد ٩، صفحه ٩٨.

٢-٢) -آل عمران، الآيه ١٦٩.

٣-٣) -الميزان، المجلد ١٨، صفحه ٢٤٤.

إنَّ إطلاقَ كلمه الشهيد-من ماده الشهود-على هؤلاء، إِمَّا لحضورهم في ميدان الجهاد ضد أعداء الحق، أو لأنَّهم يشاهدون ملائكة الرحمة لحظه شهادتهم، أو لمشاهدتهم النعم العظيمه التي أعدت لهم، أو لحضورهم عند الله، كما جاء في الآيه الشريفه: **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١)**.

وقلَّ من يصل إلى درجه الشهيد في الإسلام.. أولئك الشهداء الذين يذهبون ساحه الحرب بين الحق والباطل عن وعى و خلوص نيه، ويقدمون آخر قطره من دمائهم الزكيه في هذا السبيل.

و تلاحظ في المصادر الإسلاميه روايات عجيبيه حول مقام الشهداء، تحكى عظمه عمل الشهداء، و قيمته الفذه.

فتقرأ

في حديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «إنَّ فوق كلِّ بر برا حتى يقتل الرجل شهيدا في سبيل الله» (٢).

و

جاء في حديث آخر روى عنه صلى الله عليه و آله و سلم: «المجاهدون في الله قواد أهل الجنه» (٣).

و نطالع

في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «ما من قطره أحب إلى الله من قطره دم في سبيل الله، أو قطره من دموع عين في سواد الليل من خشيه الله، و ما من قدم أحب إلى الله من خطوه إلى ذى رحم، أو خطوه يتم بها زحفا في سبيل الله» (٤).

و إذا قلبنا أوراق تاريخ الإسلام، فسنرى الشهداء قد سجّلوا القسم الأعظم من الافتخارات، و هم الذين قدّموا القسط الأوفر من الخدمه.

ص: ٣٢٨

١-١) -آل عمران، الآيه ١٦٩.

٢-٢) -بحار الأنوار، المجلد ١٠٠، صفحه ١٥.

٣-٣) -المصدر السابق.

٤-٤) -بحار الأنوار، المجلد ١٠٠، صفحه ١٤.

و ليس هذا فى الأمس فقط، فإن ثقافه الشهاده المصيريه اليوم ترعب العدو أيضا، و تمرق صفوفه، و تمنعه من النفوذ إلى حصون الإسلام، و تزرع اليأس فى نفسه من إمكان تخطيها، فما أكثر برکه ثقافه الشهاده للمسلمين، و ما أشدها على أعداء الدين.

لكن، لا شك أن الشهاده ليست هدفا، بل الهدف هو الانتصار على العدو، و حراسه دين الله و الحفاظ عليه، إلا أن هؤلاء الحراس على دينهم يجب أن يكونوا على أهبة الاستعداد، بحيث إذا احتاج الحال بذل النفوس و الدماء فإنهم لا يتأخرون عن بذلها، بل يبادرون إلى البذل و التضحية و الإيثار، و هذا هو معنى كون الأمة منجبه للشهداء، لا أنهم يطلبون الشهاده كههدف نهائى.

لهذا نقرأ

فى نهايه حديث مفصل روى عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى شأن مقام الشهداء أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أقسم و قال: «و الذى نفسى بيده، لو كان الأنبياء فى طريقهم لترجلوا لهم لما يرون من بهائمهم، و يشفع الرجل منهم فى سبعين ألفا من أهل بيته و جيرته» (١).

و هناك نكته تستحق الاهتمام، و هى أن للشهاده فى ثقافه الإسلام معنيين مختلفين: معنى «خاص»، و آخر «عام» واسع.

أما الخاص فهو القتل فى سبيل الله فى معركة الجهاد، و له أحكامه الخاصه فى الفقه الإسلامى، و من جملتها أن الشهيد لا يغسل و لا يكفن، بل يدفن بشبابه و دمائه إذا توفى فى ميدان المعركة!! أما المعنى العام الواسع للشهاده، فهو أن يقتل الإنسان فى طريق تأديه الواجب الإلهى، فإن كل من يرحل عن الدنيا و هو فى حاله أداء هذا الواجب يعد شهيدا، و لذلك ورد فى الروايات الإسلاميه أن عده فئات يغادرون الدنيا و هم شهداء:

-١

روى عن نبى الإسلام الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم: «إذا جاء الموت طالب العلم و هو على

ص: ٣٢٩

هذا الحال مات شهيدا» (١).

٢-

يقول أمير المؤمنين على عليه السلام: «من مات على فراشه و هو على معرفه حق ربّه، و حق رسوله و أهل بيته، مات شهيدا» (٢).

٣-نقرأ

في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «من قتل دون ماله فهو شهيد» (٣).

و كذلك آخرون يقتلون في طريق الحق، أو يموتون فيه، و من هنا تتضح عظمه ثقافه الإسلام هذه، و مدى سعتها.

و ننهي هذا البحث بحديث

عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام، عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «أول من يدخل الجنّة الشهيد» (٤).

٢- أهداف القتال في الإسلام

إنّ القتال لا- يعتبر في الإسلام قيمه من القيم، بل يعتبر ضد القيم من جهه كونه باعثا على الخراب و التدمير، و إزهاق الأنفس، و إهدار القوى و الإمكانيات التي يمكن أن تسخر لخدمه الإنسان و سعادته و رفاهه، و لذلك جعل في بعض الآيات القرآنيه في مصاف العقوبات الإلهيه، فرى الآيه (٦٥) من سوره الأنعام تقول:

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ .

فقد اعتبر القتال هنا بمثابة الصاعقه و الزلزله و الابتلاءات الأرضيه و السماويه، و لذلك فإنّ الإسلام يمتنع عن القتال و الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

أمّا إذا تعرّض وجود الأمّة للخطر، أو أنّ أهدافه المقدّسه الساميه أصبحت

ص : ٣٣٠

١-١ -سفينه البحار، المجلد الأول، ماده شهد.

٢-٢ -نهج البلاغه، الخطبه ١٩٠، آخر الخطبه.

٣-٣ -سفينه البحار، المجلد الأول، ماده شهد.

٤-٤ -بحار الأنوار، المجلد ٧١، صفحه ٢٧٢.

مهده بالسقوط، فإن القتال هنا يعتبر قيمه ساميه، و يكتسب عنوان الجهاد فى سبيل الله، و لذلك توجد فى الإسلام أنواع من الجهاد: الجهاد الابتدائى، المحرر للأمم، و الجهاد الدفاعى، و الجهاد من أجل إخماد نار الفتنة و الشرك و الوثنيه، و قد أوردنا تفصيلها فى موضع آخر (١).

بناء على هذا فإن الجهاد الإسلامى على خلاف ما يدّعه أعداء الإسلام من أنه يعنى فرض العقيدته على الآخرين، بل إن العقيدته المفروضه لا قيمه لها فى الإسلام، لكن الجهاد يتعلق بالموارد التى يشن فيها العدو الحرب ضد الأمتة الإسلاميه، أو عند ما يسلبها الحريات التى منحها الله إياها، أو أنه يريد أن يهدر حقوقها و يصادرها، أو أن ظالما قد أخذ بأنفاس مظلوم فيجب على المسلمين حينئذ أن يهبوا لنصره المظلوم، حتى و إن أدى الأمر إلى قتال القوم الظالمين.

و قد عكست الآيات السابقه هذا المعنى فى عبارته لطيفه و جيزه، حينما تقول:

ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ

و على هذا فإن الحرب هى حرب بين الحق و الباطل، لا أنها وسيله لتكوين الدوله، و محاوله توسيع رقعتها، و الإغاره على أموال الآخرين، و التسلّط و إعمال القوه و الإرهاب.

و لهذا السبب- أيضا- قرأنا فى الروايه التى أوردناها فى تفسير هذه الآيات أن نار الحرب لن تخدم فى المجتمع الإنسانى إلا بعد القضاء على الدجالين، و تطهير الأرض من دنسهم.

و هنا نكته تستحق الانتباه، و هى أن الإسلام قد أكد على مسأله التعايش السلمى مع أتباع الأديان السماويه الأخرى، و قد وردت فى الآيات و الروايات و الفقه الإسلامى بحوث مفصله فى هذا الباب تحت عنوان (أحكام أهل الذمّه) فإذا كان الإسلام يؤيد فرض العقيدته و الإكراه عليها، و يتوسل بالقوه و السيف من أجل

ص: ٣٣١

تحقيق أهدافه، فأى معنى إذن لقانون أهل الذمه و التعايش السلمى؟

٣- أحكام أسرى الحرب

قلنا: يجب على المسلمين أن لا يفكروا فى أسر أفراد العدو إلاّ بعد هزيمة العدو الكامله و اندحاره التام، لأنّ هذا التفكير و الانشغال بالأسرى قد يتضمّن أخطارا جسيمة.

غير أنّ أسلوب الآيات-مورد البحث- يدل على وجوب الإقدام على أسر أفراد العدو بعد هزيمته، فالآية تقول: فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ ثُمَّ تَضْيَعُ: حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ و على هذا يجب أسرهم بدل قتلهم بعد الإنتصار عليهم، و هو أمر لا بدّ منه، لأنّ العدو إذا ترك و شأنه فمن الممكن أن ينظم قواه مرّه أخرى ليهاجم على المسلمين من جديد.

إلا أنّ الحال يختلف بعد الأسر، إذ يكون الأسير أمانه إلهيه بيد المسلمين رغم كلّ الجرائم التى ارتكبتها، و يجب أن تراعى فيه حقوق كثيره.

إنّ القرآن يمجّد أولئك الذين آثروا الأسير على أنفسهم، و قدّموا له طعامهم، فيقول: وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا و هذه الآيه-طبقا لروايه معروفه- نزلت فى على و فاطمه و الحسن و الحسين عليهم السّلام، إذ كانوا صائمين و أعطوا إفطارهم لمسكين مرّه و ليتيم أخرى، للأسير ثالثه.

و حتى الأسرى الذين يقتلون بعد الحرب استثناء، إمّا لكونهم خطرين، أو لارتكابهم جرائم خاصه، فإنّ الإسلام أمر أن يحسن إليهم قبل تنفيذ الحكم بحقهم، كما نرى ذلك

فى حديث عن على عليه السّلام: «إطعام الأسير و الإحسان إليه حق واجب، و إنّ قتلته من الغد» (١).

ص: ٣٣٢

و الأحاديث فى هذا الباب كثره (١)، حتى أنه

ورد فى حديث عن الإمام على بن الحسين عليه السلام أنه قال: «إذا أخذت أسيراً فعجز عن المشى و ليس معك محمل فأرسله و لا تقتله، فإنك لا تدري ما حكم الإمام فيه» (٢).

بل ورد فى التاريخ فى أحوال أئمه أهل البيت عليهم السلام أنهم كانوا يطعمون الأسرى من نفس الطعام الذى كانوا يتناولونه.

إلا أن حكم الأسير-و كما قلنا فى تفسير الآيات-بعد انتهاء الحرب أحد ثلاثة: إما إطلاق سراحه من دون قيد أو شرط، أو إطلاق سراحه مقابل دفع غرامه مالىة هى الفديه، أو استرقاقه، و اختيار أحد هذه الأمور الثلاثة منوط بنظر إمام المسلمين، فهو الذى يختار ما يراه الأصح بعد الأخذ بنظر الإعتبار ظروف الأسرى، و مصالح الإسلام و المسلمين من الناحية الداخلية و الخارجية، و بعد ذلك يأمر بتنفيذ ما اختاره.

بناء على هذا، فليس لأخذ الفديه أو الاسترقاق صفة الإلزام و الوجوب، بل هما تابعان للمصالح التى يراها إمام المسلمين، فإذا لم تكن مصلحة فيهما فله أن يغض النظر عنهما، و يطلق سراح الأسرى دون طلب الفديه.

و قد بحثنا حول فلسفه أخذ الفديه بصوره مفصله لدى تفسير الآيه ٧٠ من سوره الأنفال.

٤- الرق فى الإسلام

إشارة

بالرغم من أن مسألة «استرقاق أسرى الحرب» لم ترد فى القرآن المجيد كحكم حتمى، لكن لا- يمكن إنكار ورود أحكام فى القرآن فيما يتعلق بالعبيد، و هى تثبت وجود أصل الرقيه حتى فى زمان النبى صلى الله عليه و آله و سلم و صدر الإسلام، كالأحكام المتعلقة

ص: ٣٣٣

١- ١) -يراجع فروع الكافى، المجلد ٥، صفحه ٣٥، باب الرفق بالأسير و إطعامه.

٢- ٢) -المصدر السابق.

بالزواج من العبيد، أو كونهم محرماً، أو مسأله المكاتبه (و هي اتفاق يتحرر بموجبه العبد بعد أدائه مبلغاً من المال يتفق عليه) وقد وردت هذه الأحكام فى آيات عديده من القرآن فى سورة النساء، النحل، المؤمنون، النور، الروم، والأحزاب.

و هنا يعترض البعض على الإسلام بأنه: لماذا لم يبلغ هذا الدين الإلهى مسأله الرق تماماً مع ما يحتويه من القيم الإنسانية الساميه، و لم يعلن تحرير كل العبيد من خلال إصدار حكم قطعى؟! صحيح أنّ الإسلام أوصى كثيراً بالرق، إلا أنّ المهم هو تحريرهم بدون قيد شرط، فلما ذا يكون الإنسان مملوكاً لإنسان آخر مثله، و يفقد الحريه التى هى أعظم عطايا الله سبحانه؟!!

الجواب:

يجب القول فى جملة موجزه: إنّ للإسلام برنامجاً دقيقاً مدروساً لتحرير العبيد، تؤدى نهايته إلى تحرير جميع العبيد تدريجياً، دون أن يكون لهذه الحريه ردّ فعل سلبى فى المجتمع.

و قبل أن نتناول توضيح هذه الخطه الإسلاميه الدقيقه، نرى لزاماً ذكر عدّه نقاط كمقدمه:

١- الإسلام لم يكن المبتدع للرق مطلقاً، بل إنّهُ لَمّا ظهر كانت مسأله العبوديه و الرقيق قد عمّت أرجاء العالم، و كانت معجونه بظلام المجتمعات البشريه و بوجودها، بل استمرت مسأله الرقيق فى كل المجتمعات حتى بعد الإسلام أيضاً، و بقيت مستمره حتى قبل مائه عام حيث بدأت ثوره تحرير الرقيق، حيث لم تعد مسأله الرقيق مقبوله بشكلها القديم نتيجة اختلاف نظام حياه البشر، و تغييره عمّا كان عليه.

إنّ إلغاء العبوديه بدأ من أوروبا، ثمّ اتسع فى سائر الدول و من جملةاها أمريكا

لقد استمر الرق فى إنجلترا حتى سنة ١٨٤٠، و فى فرنسا حتى سنة ١٨٤٨، و فى هولندا إلى سنة ١٨٦٣، و فى أمريكا إلى سنة ١٨٦٥، ثم عقد مؤتمر بروكسل فأصدر قرارا بإلغاء الرق فى أنحاء العالم، و كان ذلك سنة ١٨٩٠، أى قبل أقل من مائه عام.

٢- تغيير شكل الرق فى دنيا اليوم: صحيح أنّ الغربيين كانوا قد سبقوا إلى إلغاء الرق، إلا أنّنا عند ما نحقق فى المسألة بدقه، نرى أنّ الرق لم تقتلع جذوره، بل إنّ تحور من حاله إلى أخرى أخطر و أكثر رعبا، أى إنّ اتخذ شكل استعمار الشعوب، و استرقاق المستعمرات، بحيث كلما ضعف الرق الفردى قوى الاسترقاق الجماعى و الاستعمار، فإنّ الإمبراطوريه البريطانيه التى كانت سبّاقه إلى إلغاء الرق، تعتبر السبّاقه أيضا فى استعمار الشعوب.

إنّ الجرائم التى ارتكبتها المستعمرون الغربيون طوال مده استعمارهم لم تكن أقل من جرائم مرحله العبوديه، بل كانت أوسع و أشدّ إجراما.

و حتى بعد تحرر المستعمرات، فإنّ استعباد الأمم قد استمر، لأنّ هذه الحريه كانت حريه سياسيه، أمّا الاستعمار الاقتصادى و الثقافى فلا يزال حاكما فى كثير من المستعمرات التى نالت حريتها، و غيرها.

و أمّا الدول الشيوعيه التى نادى قبل الجميع بإلغاء العبوديه، و اتخذتها ذريعه فى ثورتها، فإنّها بالذات مبتلاه بنوع من الاسترقاق العام الذى يندى له الجبين، فإنّ الشعوب التى تعيش فى ظل هذه الدول تكون كالعبيد تماما لا يملكون من أمرهم شيئا، و يعين أعضاء الحزب الشيوعى كلّ مقدراتهم و ما يتعلق بشؤون حياتهم، و إذا ما أبدى أحد وجهه نظر مخالفه فإمّا أن يرسل إلى المخيمات الإجباريه، أو يلقى فى دهاليز السجون، و إذا كان من العلماء فإنّه يبعث إلى دار المجانين باعتباره مختل العقل و مصابا بمرض نفسى و عصبى.

و الخلاصه: إنَّ الرق لا- يتبع الاسم، فإنَّ القبيح و المرفوض هو محتوى الرق، و نحن نعلم أنَّ مفهوم الرق قائم فى الدول الاستعماريه و الدول الشيوعيه بأسوأ أشكاله.

و النتيجة: إنَّ إلغاء الرق فى العالم كان صوريا، و لم يكن فى الحقيقه إلاَّ تبديل للصوره و الشكل الظاهرى.

٣- مصير الرقيق المؤلم فى الماضى

لقد كان للرق على مرِّ التاريخ مصير مؤلم جدًّا، و لناخذ على سبيل المثال عبيد الرومان- باعتبارهم قوما متمدينين- كنموذج، فإنَّهم- على حدِّ قول كاتب «روح القوانين»- كانوا تعساء بحيث لم يكونوا عبيدا لفرد، و إنما كانوا يعتبرون عبيدا لكل المجتمع، و كان باستطاعه كلِّ شخص أن يعذب عبده و يؤذيه كما يحلو له دون خوف من القانون. لقد كانت حياه أولئك أسوأ من حياه الحيوانات فى الواقع.

لقد كان الكثير من الرقيق يموتون فى الفتره بين اصطيادهم من المستعمرات الأفريقيه و حتى عرضهم فى الأسواق للبيع، و ما تبقى منهم كان يتخذ وسيله للاستغلال فى العمل. و كان تجار العبيد الطامعون لا يعطونهم من الغذاء إلاَّ ما يبقيههم أحياء و قادرين على العمل، أمَّا عند كبرهم و عجزهم و ابتلائهم بأمراض يصعب علاجها، فإنَّهم كانوا يتركونهم و شأنهم ليسلموا الروح بشكل أليم. و لذلك كان اسم الرق يقترن بسيل من الجرائم المرعبه على مرِّ التاريخ.

و باتضح هذه النكات نعود إلى خطه الإسلام فى تحريره العبيد تدريجيا، و نتناولها بصوره مختصره.

٤- خطه الإسلام لتحرير العبيد

إشاره

إنَّ ما يغفل عنه غالبا هو أنَّ ظاهره سلبيه إذا توغَّلت فى مفاصل المجتمع،

فهناك حاجة إلى فترة زمنية لاقتلاع جذورها، و لكل حركة غير مدروسة رد فعل سلبي، تماما كما إذا ابتلى إنسان بمرض خطير، و قد استفحل هذا المرض فى بدنه، أو من اعتاد على تناول المخدرات لعشرات السنين حتى تطبع على هذه الطبيعه المستهجنه، ففى هذه الموارد يجب الاعتماد على برامج زمنيه لعلاجها قد تطول و قد تقصر.

و نقول بأسلوب أكثر صراحه: لو أنّ الإسلام كان قد أصدر أمرا عاما بتحرير كل العبيد، فربّما كان الضرر أكثر، و قد يهلك منهم عدد أكثر، لأنّ الرقيق كانوا يشكلون نصف المجتمع أحيانا، و ليس لهم عمل مستقل يتكسبون به، و لا دار أو ملجأ، أو وسيله ما لإدامه الحياه.

إنّ هؤلاء لو تحرّروا فى ساعه معينه من يوم معين فستظهر على الساحه فجأه جماعه عظيمه عاطله عن العمل، و عندها ستكون حياتهم مهدده و ربّما أذى إلى إرباك نظام المجتمع، و عند ما يلح عليه الحرمان فسيجد نفسه مضطرا إلى الهجوم على ممتلكات الآخرين، فتنشب الصراعات و الاشتباكات و نرف الدماء.

هنا ندرك الغايه من التحرير التدريجى، و ذلك ليستوعبهم المجتمع و لا- يشمئز منهم، و حينئذ سوف لا- تتعرض أرواحهم للخطر، كما لا يتهدد أمن المجتمع، و قد اتبع الإسلام هذا البرنامج الدقيق تماما.

إنّ تطبيق و ترجمه هذا البرنامج الإنسانى على أرض الواقع العملى له قواعد كثيره نذكر هنا رؤوس نقاطها بصوره موجزه و كفهرس، أمّا تفصيلها فيحتاج إلى كتاب مستقل:

الماده الأولى: غلق مصادر الرق

لقد كان للرق على طول التاريخ أسباب كثيره، فلم يقتصر الاستبعاد على أسرى الحرب، و المدنيين الذين يعجزون عن أداء ديونهم، حيث كانت القوّه

و الغلبه تبیح الاسترقاق و الاستعباد، بل إنّ الدوله القويه كانت ترسل فرق من جيوشها و هم مدججون بأنواع الأسلحه إلى الدول الأفريقيه المتخلفه و أمثالها، ليأسروا شعوب تلك الدول جماعات جماعات، ثم يرسلونهم بواسطه السفن إلى أسواق بلدان آسيا و أوروبا.

لقد منع الإسلام كل هذه المسائل، و وقف حائلا دونها، و لم يبيح الاسترقاق إلا في مورد واحد، و هو أسرى الحرب، و حتى هذا لم يكن يتصف بالوجوب و الإلزام، بل إنّ الإسلام قد أجاز—و كما قلنا في تفسير الآيات المذكوره—إطلاق سراح الأسرى مقابل فديه يؤدونها تبعا لمصلحه الإسلام و المسلمين.

و لم تكن في تلك الأيام سجون يسجن فيها أسرى الحرب حتى يتبين وضعهم و ماذا يجب فعله معهم، بل كان الطريق الوحيد هو تقسيمهم بين العوائل، و الاحتفاظ بهم كرقيق.

من البديهي أنّ هذه الظروف إذا تغيرت فلا دليل على أنّ إمام المسلمين ملزم بأن يرضى بربق الأسرى، بل هو قادر على تحريرهم إمّا مَنّا أو فداء، لأنّ الإسلام خير الإمام المسلمين في هذا الأمر، كي يقدم على اختيار الأصلح من خلال مراعاة المصلحه، و بهذا فإنّ مصادر الرق الجديده قد أغلقت في الإسلام.

الماده الثانيه:فتح نافذه الحريه

لقد وضع الإسلام برنامجا واسعا لتحرير العبيد، بحيث أنّ المسلمين لو عملوا بموجبه فإنّ كل العبيد كانوا سيتحررون في مده وجيزه و بصوره تدريجيّه، و كان المجتمع سيستوعبهم و يؤمن لهم ما يحتاجونه من اللوازم الحياتيه، من عمل و مسكن و غير ذلك.

و إليك رؤوس نقاط هذا البرنامج:

أ- إنَّ أحدَ الموارد الثمانية لصرف الزكاه فى الإسلام شراء العبيد و عتقهم (١) ، و بهذا فقد خصصت ميزانيه دائميهِ فى بيت المال لتنفيذ هذا الأمر، و هى مستمره حتى إعتاق العبيد جميعا.

ب- و لتكميل هذا المطلب وضع الإسلام أحكاما يستطيع العبيد من خلالها أن يعقدوا اتفاقيات مع مالكيهم، على أن يؤدوا إليهم مبلغا من المال يتفق عليه مقابل الحصول على حريتهم. و قد جاء فى الفقه الإسلامى فصل فى هذا الباب تحت عنوان المكاتبه (٢).

ج- إنَّ عتق العبيد يعتبر أحد أهم العبادات و الأعمال الصالحه فى الإسلام، و قد كان أئمه أهل البيت عليهم السّلام من السابقين فى هذا المضمار، حتى كتبوا فى أحوال على عليه السّلام أنّه أعتق ألف مملوك من كد يده (٣).

د- لقد كان أئمه أهل البيت عليهم السّلام يعتقدون العبيد لأدنى عذر ليكونوا قدوه للآخرين، حتى أنّ أحد غلمان الإمام الباقر عليه السّلام عمل عملا صالحا،

فقال له الإمام:

«اذهب فأنت حر، فإننى أكره أن أستخدم رجلا من أهل الجنّه» (٤).

و جاء فى أحوال الإمام السجاد على بن الحسين عليه السّلام، أنّ جاريه كانت تسكب عليه الماء، فسقط الإبريق من يدها فشجّه، فرفع رأسه إليها، فقالت: وَ الْكَاطِمِينَ الْعَيْظَ، قال: «قد كظمت غيظى» قالت: وَ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ، قال: «عفا الله عنك»، قالت: وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ قال: «فاذهبى فأنت حرّه لوجه الله» (٥).

ه- ورد فى بعض الروايات الإسلاميه أنّ العبيد يتحرّرون تلقائيا بعد مرور سبع سنين،

ففى روايه عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من كان مؤمنا فقد عتق بعد سبع سنين،

ص: ٣٣٩

١- ١) - التوبه، الآيه ٦٠.

٢- ٢) - كان لنا بحث مفصل حول المكاتبه و أحكامها الرائعه فى ذيل الآيه (٣٤) من سوره النور.

٣- ٣) - بحار الأنوار، المجلد ٤١، صفحه ٤٣.

٤- ٤) - الوسائل، المجلد ١٦، صفحه ٣٢.

٥- ٥) - نور الثقلين، المجلد ١، ص ٣٩٠.

أعتقه صاحبه أم لم يعتقه، ولا يحل خدمه من كان مؤمنا بعد سبع سنين» (١).

و

روى فى هذا الباب حديث من النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «ما زال جبرئيل يوصينى بالمملوك حتى ظننت أنه سيضرب له أجلا يعتق فيه» (٢).

و- إذا كان العبد مشتركا بين اثنين، وأعتق أحدهما نصيبه، وجب عليه شراء نصيب شريكه وأعتقا العبد (٣).

و إذا أعتق مالك العبد بعضه سرت الحرية إلى باقيه فيعتق جميعه (٤).

ز- إذا ملك إنسان أباه، أو أمه، أو أجداده، أو أبناءه، أو عمه، أو خاله، أو خالته، أو أخاه، أو أخته، أو ابن أخيه، أو ابن أخته، فإنهم يعتقون فوراً.

ح- إذا استولد المالك جاريته فلا يجوز بيعها، وتعتق من سهم ولدها من الميراث. وقد كان هذا الأمر سبباً فى عتق الكثير من العبيد، لأن الجوارى كن بمنزل زوجات مالكيهن، وكان لهن أولاد منهم.

ط- لقد جعل عتق العبيد كفاره لكثير من الذنوب من الإسلام، ككفاره القتل الخطأ، وكفاره ترك الصوم عمداً، وكفاره اليمين، وغيرها.

ى- إذا عاقب المالك عبده ببعض العقوبات الشديده، فإن العبد يعتق تلقائياً (٥).

الماده الثالثه: إحياء شخصيه الرقيق

عند ما كان العبيد يطوون مسيرهم نحو الحرية طبقاً لبرنامج الإسلام الدقيق، أقدم الإسلام على خطوات واسعة لإحياء حقوقهم و شخصيتهم الإنسانية، حتى أنه

ص: ٣٤٠

١- ١) - وسائل الشيعه، المجلد ١٦، صفحه ٣٦.

٢- ٢) - المصدر السابق، صفحه ٣٧.

٣- ٣) - الشرائع، كتاب العتق، ووسائل الشيعه، المجلد ١٦، صفحه ٢١.

٤- ٤) - الشرائع، كتاب العتق.

٥- ٥) - وسائل الشيعه، المجلد ١٦، صفحه ٢٦.

لم يفرق أبدا بين العبيد والأحرار من ناحية الشخصية الإنسانية، وجعل التقوى معيارا للتمييز بينهم، ولذلك أجاز للعبيد أن يتقلدوا مسؤوليات مهمّة، ويتسّموا مناصب اجتماعية مهمّة، حتى أن العبيد يمكنهم أن يشغلوا منصب القضاء (١).

وقد أنيطت بالعبيد في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مراكز هامه وحساسه، ابتداء من قياده الجيش، وحتى المناصب الحساسه الأخرى.

وقد كان الكثير من كبار صحابه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عبيدا، أو رقيقا أعتقوا، وكان الكثير منهم يؤدّون واجبههم كمستشارين ومعاونين لعظماء الإسلام وقادته، ويمكن ذكر أسماء سلمان وبلال وعمار بن ياسر وقنبر من ضمن هذه القافله.

وبعد أن انتهت غزوه بنى المصطلق تزوّج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بجاريه عتيقه من هذه القبيله، وكان هذا الزواج سببا في إطلاق سراح كلّ أسرى القبيله.

الماده الرابعه: المعامله الإنسانيه مع العبيد

لقد وردت في الإسلام تعليمات كثيره حول الرفق بالعبيد ومداراتهم، حتى أنها أشركتهم في حياه مالكيهم.

يقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممّا يأكل، وليكسه ممّا يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كان ما يغلبه فليعنه» (٢).

و

يقول على عليه السلام لغلامه قنبر: «أنا أستحيى من ربّي أن أتفضل عليك، لأنّ رسول الله يقول: ألبسوهم ممّا يلبسون، وأطعموهم ممّا تأكلون» (٣).

و

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «وإن كان أبي ليأمرهم - أي غلمانهم - فيقول: كما

ص: ٣٤١

١- ١) - الشرائع، كتاب القضاء.

٢- ٢) - بحار الأنوار، المجلد ٧٤، صفحه ١٤١، حديث ١١.

٣- ٣) - المصدر السابق، صفحه ١٤٤، حديث ١٩.

أنتم، فيأتي، فإن كان ثقيلًا قال: بسم الله، ثم عمل معهم» (١).

لقد كانت معاملته الإسلام مع العبيد في هذه المرحلة الانتقالية حسنة إلى الحد الذي أكد عليها حتى الغرباء عن الإسلام وحمدوها و مجدوها.

و كنموذج لذلك نذكر ما يقوله «جرجي زيدان» في تاريخ تمدنه: إن الإسلام رحيم بالعبيد كل الرحمة، وقد أوصى نبي الإسلام بالعبيد كثيرًا، و من جملة ما قاله:

لا تكلفوا العبد ما لا يطيق، و أطعموه مما تأكلون.

و يقول في موضع آخر: لا- تنادوا ممالئكم بيا غلام، و يا جاريه، بل قولوا: يا بني، و يا ابنتي! و القرآن أيضا أوصى بالرقيق وصايا رائعه، فهو يقول: اعبدوا الله و لا- تشركوا به شيئا، و لا تعاملوا آباءكم و أمهاتكم و أولى أرحامكم و اليتامى و الفقراء و الجيران، البعيد منهم و القريب، و الأصدقاء، و المشردين، و الرقيق، إلا بالحسنى، فإن الله لا يرضى بالعجب و الرضى من النفس (٢).

المادة الخامسة: أقبح الأعمال بيع الإنسان

يعد بيع العبيد و شراؤهم من أبغض المعاملات في الإسلام، حتى ورد في

حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم: «شر الناس من باع الناس» (٣). و هذا التعبير كاف لتوضيح وجهه نظر الإسلام في شأن العبيد، و يبين اتجاه حركة البرامج الإسلامية، و ما تريد تحقيقه و الوصول إليه.

و الأروع من ذلك أن الإسلام قد اعتبر سلب حريه البشر، و تبديلهم إلى سلعه تباع و تشتري، من الذنوب التي لا تغفر،

فقد ورد في حديث عن نبي الإسلام

ص: ٣٤٢

١-١) -المصدر السابق، صفحه ١٤٢، حديث ١٣.

٢-٢) -تاريخ التمدن، المجلد ٤، صفحه ٥٤.

٣-٣) -المستدرک، المجلد ٢، كتاب التجاره، باب ١٩، حديث ١.

الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَافِرُ كُلِّ ذَنْبٍ إِلَّا مِنْ جَحْدِ مَهْرًا، أَوْ اغْتِصَبَ أُجِيرًا أَجْرَهُ، أَوْ بَاعَ رَجُلًا حُرًّا» (١).
و طبقاً لهذا الحديث فإنَّ اغتصاب حقوق النساء، و العمال، و سلب حريه البشر ثلاثه ذنوب لا تغفر.

و كما قلنا سابقاً، فإنَّ الإسلام لم يبيح الاسترقاق إلاَّ في مورد أسرى الحرب، و حتى في هذا المورد لا يكون الاسترقاق إلزامياً، و كان ذلك في عصر ظهور الإسلام، غير أننا نرى العبوديه و الاسترقاق متفشيه في الدول الغربيه بعد عدّه قرون من ظهور الإسلام حيث كان المستعمرون يشنون الحملات و الهجمات الشرسه على بلدان السود، و يقبضون على البشر الأحرار و يحولونهم إلى رقيق يباعون و يشترون، و قد بلغ بيع و شراء العبيد حدّاً رهيباً، بحيث كان يباع في كلّ سنه (٢٠٠، ٠٠٠) عبداً في بريطانيا أواخر القرن الثامن عشر، و كانوا يأخذون مائه ألف نسمة من أفريقيا كل عام، و يرسلونهم إلى أمريكا كعبيد (٢).

و خلاصه القول: إنَّ الذين يعترضون على برنامج الإسلام في مسأله الرقيق قد سمعوا كلاماً لم يتأملوا فيه، و لم يطلعوا الاطلاع الكافي على أصول البرنامج و هدفه، و هو «تحرير العبيد تدريجياً»، و من دون خسائر، أو إنهم وقعوا تحت تأثير المغرضين الذين يظنون أنّ هذه نقطه ضعف كبيره في الإسلام، و طلبوا لها و زمروا، و سخّروا لها وسائل الإعلام، إلاَّ أنّ الظنَّ لا يغنى من الحق شيئاً.

ص: ٣٤٣

١- ١) -بحار الأنوار، المجلد ١٠٣، صفحه ١٦٨، حديث ١١.

٢- ٢) -الميزان، الجزء ٦، صفحه ٣٦٨.

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١)

التفسير

إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ:

تستمر هذه الآيات في ترغيب المؤمنين في جهاد أعداء الحق، وهي ترغبهم في الجهاد بتعبير رائع بليغ، فتقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ .

إن التأكيد على مسأله «الإيمان» إشاره إلى أن إحدى علامات الإيمان الحقيقي هو جهاد أعداء الحق.

و عباره تَنْصُرُوا اللَّهَ تَعْنَى -بوضوح- نصره دينه، و نصره نبيّه، و شريعته و تعليماته، و لذلك وردت نصره الله إلى جانب نصره رسوله في بعض آيات القرآن الكريم، كما نقرأ في الآية (٨) من سورة الحشر: وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ .

و مع أنّ قدره الله سبحانه غير محدود، و لا قيمه لقدره المخلوقات حيال قدرته، غير أنّه يعبر بنصره الله ليوضح أهميه الجهاد و الدفاع عن دين الله، و لا يوجد تعبير أعظم من هذا لتبيان أهميه هذا الموضوع.

و لئلا ما هو هذا الوعد الذي وعد الله به المجاهدين إذا ما دافعوا عن دينه؟ يقول أولاً يَنْصُرِكُمْ أمّا كيف يتم ذلك؟ فإنّ الطرق كثيره، فهو سبحانه يلقى في قلوبكم نور الايمان، و في نفوسكم و أرواحكم التقوى، و في إرادتكم القوه و التصميم أكثر، و في أفكاركم الهدوء و الاطمئنان.

و من جانب آخر يرسل الملائكه لمدكم و نصرتكم، و يغيّر مسار الحوادث لصالحكم، و يجعل أفئده الناس تهوى إليكم، و يجعل كلماتكم نافذه في القلوب، و يصيّر نشاطاتكم و جهودكم مثمره. نعم، إنّ نصره الله تحيط بالجسم و الروح، من الداخل و الخارج.

إلا أنّه سبحانه يؤكّد على مسأله تثبيت الأقدام من بين كلّ أشكال النصره، و ذلك لأنّ الثبات أمام العدو أهم رمز للانتصار، و إنّما يكسب الحرب الذين يصمدون و يستقيمون أكثر، و لذلك نقرأ في قصه محاربه طالوت -القائد العظيم لبنى إسرائيل- لجالوت -المتسلّط الجائر القوي- أنّ المؤمنين القليلين الذين كانوا معه عند ما واجهوا جيش العدو الجرار، قالوا: رَبَّنَا أفرغ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَبَّتْ أقدامَنَا وَ انصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ .

و نقرأ في الآية التي بعدها: فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ .

أجل، إنّ نتيجة ثبات القدم هي النصر المؤرّر على العدو.

و لما كانت حشود العدو العظيمة، و أنواع معداتهم و تجهيزاتهم قد تشغل فكر المجاهدين في سبيل الله أحيانا، فإن الآيه التاليه تضيف: وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ (١).

«تعس»-على وزن نحس-بمعنى الانزلاق و الهوى، و ما فسره البعض بأنه الهلاك و الانحطاط، فهو لازمه في الواقع لا معناه.

و على كل حال، فإن المقارنه بين هذين الفريقين عميقه المعنى جدا، فالقرآن يقول في شأن المؤمنين يُبَيِّنُ أَقْدَامَكُمْ و في شأن الكافرين أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ .

و بصيغه اللعنه، ليكون التعبير أبلغ و أكثر جاذبيه و تأثيرا.

نعم، إن الكافرين إذا انزلقوا و زلت أقدامهم، فليس هناك من يأخذ بأيديهم لينقذهم من الهلكه، بل إنهم سينحدرون إلى الهاويه سريعا و بسهولة، أمّا المؤمنون، فإن الملائكه الرحمه تهب لنجدتهم و نصرتهم، و يحفظونهم من المنزلات و المنحدرات، كما نقرأ ذلك في موضع آخر، حيث تقول الآيه (٣٠) من سوره فصلت: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ .

إن أعمال المؤمنين مباركه، أمّا أعمال الكافرين فإنها باثره و لذلك فهي تزول و تفنى سريعا.

و تبين الآيه التاليه علّه سقوط هؤلاء، و جعل أعمالهم هباء منثورا، فتقول:

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ

لقد أنزل الله سبحانه دين التوحيد قبل كل شيء، إلا أن هؤلاء نبذوه وراء ظهورهم و أقبلوا نحو الشرك.

لقد أمر الله سبحانه بالحق و العداله، و العفه و التقوى، غير أنهم عرضوا عنها جميعا، و اتجهوا صوب الظلم و الفسّاد، بل إنهم تشمئز قلوبهم إذا ذكر اسم الله تعالى

ص: ٣٤٦

١-١) -«تعسا» مفعول مطلق لفعل مقدر، و التقدير: تعسهم تعسا، و جمله (أضل أعمالهم) عطف على هذا الفعل المقدر، و كلاهما بصيغه اللعنه، مثل (قاتلهم الله)، و من الواضح أن اللعنه من قبل الله تعنى وقوعها.

وحده: وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ (١).

وإذا كان هؤلاء يتنّفرون من هذه الأمور، فمن الطبيعي أن لا يخطوا خطوه في هذا المسير، ولقد كانت كل مساعيهم و جهودهم في مسير الباطل و خدمته، فمن الطبيعي أيضا أن تحبط كل هذه الأعمال.

و جاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «كرهوا ما أنزل الله في حق علي» (٢).

و معلوم أن التعبير [□]م أنزل الله معنى واسعاً، و مسأله و لايه أمير المؤمنين علي عليه السلام أحد مصاديقه الواضحه، لا أن معناه منحصر فيها.

و لَمَّا كان القرآن الكريم في كثير من الموارد يعرض للظالمين العاصين نماذج محسوسه، فقد دعاهم هنا أيضا إلى التدبر في أحوال الماضين، فقال: أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؟ و من أجل أن لا يظن هؤلاء أن ذلك المصير المشؤوم كان مختصاً بالأقوام الطاغين الماضين، فقد أضاف الآية: وَ لِلْكَافِرِينَ أَهْلُهَا (٣).

فلا يظنوا أنهم في منأى من العقاب المشابه لذلك العقاب إن هم عملوا أعمالا تشابه أعمال الماضين، فليسيروا في الأرض و لينظروا آثار الذين من قبلهم، ثم لينظروا مستقبلهم من خلال سنن التاريخ.

و الجدير بالانتباه أن (دمر) من ماده (تدمير)، و هي من الأصل بمعنى الإهلاك و الإفناء، أما إذا أتت مع (على) فإنها تعنى إهلاك كل شيء حتى الأولاد و الأهل و العشيره و الأموال الخاصه بالإنسان (٤). و على هذا فإن هذا التعبير بيان لمصيبه أليمه، خاصه بملاحظه لفظ (على) الذي يستعمل عادة في مورد التسلط، و بذلك يصبح معنى الجملة، إن الله عز و جل قد صب عذابه على رؤوس هؤلاء الأقوام

ص: ٣٤٧

١-١) - الزمر، الآية ٤٥.

٢-٢) - مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

٣-٣) - ضمير «أهلها» يعود إلى العاقبه التي تستفاد من الجملة السابقه.

٤-٤) - تفسير روح المعاني، و روح البيان، و الفخر الرازي.

و أموالهم و كل ما يتعلق بهم فأفناها جميعا.

و قد بحثنا موضوع «السير في الأرض»-و الذى يؤكد عليه القرآن المجيد مرارا كبرنامج توعيه مؤثر-بصوره مفضّله فى ذيل الآيه (١٣٧) من سوره آل عمران، و الآيه (٤٥) من سوره الروم.

و تناولت آخر آيه-من الآيات مورد البحث-سبب حمايه الله المطلقه للمؤمنين و دفاعه عنهم، و إهلاكه الكافرين الطغاه، فتقول:
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١).

«المولى» بمعنى الولى و الناصر، و بذلك فإنّ الله سبحانه قد تولى أمر المؤمنين و دفاعه عنهم، و إهلاكه الكافرين الطغاه، فتقول:
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (٢).

«المولى» بمعنى الولى و الناصر، و بذلك فإنّ الله سبحانه قد تولى أمر المؤمنين و نصرتهم، أما الكافرون فقد أخرجهم من ظل ولايته، و من الواضح أنه تعالى يعين أولئك المستظلين بظل ولايته، و يدفع عنهم النوائب، و يزيل عن طريقهم العراقيل، و يثبت أقدامهم، و أخيرا فإنّهم ينالون مرادهم بنصره الله و معونته. أمّا أولئك الخارجون عن ولايته فإنّ أعمالهم ستحبط، و تكون عاقبتهم الهلاك.

و هنا يأتى سؤال، و هو: إنّ الآيه مورد البحث قد ذكرت أنّ الله سبحانه مولى المؤمنين فقط، فى حين أنه سبحانه و وصف فى بعض آيات القرآن الأخرى بأنّه مولى الجميع حتى الكافرين، كما فى الآيه (٣٠) من سوره يونس حيث تقول: وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

و تتضح الإجابة على هذا السؤال بملاحظه نكته واحده، و هى: إنّ ولايه الله العامه-و هى كونها خالقا مدبرا-تعم الجميع، أما الولايه الخاصه، و عنايته الخاصه المقترنه بأنواع الحمايه و النصره، فإنّها لا تشمل إلا المؤمنين (٣).

و قال البعض: إنّ هذه الآيه أرجى آيه فى القرآن، لأنّها أدخلت كل المؤمنين،

ص: ٣٤٨

١- ٢، ١)- المشار إليه ب(ذلك) هى عاقبه المؤمنين الحسنه، و عاقبه الكافرين المشؤومه، و اللتان أشير إليهما فى الآيات السابقه.

٢- ٣)- فسير البعض- كالألوسى فى روح المعانى-«المولى» فى الآيه مورد البحث بالناصر، و فى آيه سوره يونس و أمثالها.

بالمالك

-٣-

العالم منهم و الجاهل، الزاهد و الراغب، الصغير و الكبير، المرأه و الرجل، الشاب و الكهل، أدخلتهم تحت حمايه الله و رعايته الخاصه، و لم تستثن حتى المؤمنين العاصين، فهو سبحانه يظهر رعايته فى المواقف الحساسه و اللحظات الحرجه، و الحوادث و المصائب و النكبات، و كل فرد منا قد أحس بهذه الرعايه طيله مده حياته، و فى التاريخ شواهد كثيره على ذلك.

و

قد ورد فى حديث أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان بعد غزوه تحت شجره وحيدا فحمل عليه مشرك بسيف فقال له: من يخلصك منى؟ فقال النبى صلى الله عليه و آله و سلم: «الله» فسقط المشرك - فأخذت الكافر رعه، و هوى على الأرض - السيف، فأخذه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و قال له: «فمن يخلصك منى؟» قال: لا أحد، ثم أسلم (١).

نعم، الله مولى الذين آمنوا، و إن الكافرين لا مولى لهم.

ص: ٣٤٩

اشاره

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) وَكَأَيُّنْ مِنْ قَوْمِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَوْمِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زِينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤)

التفسير

اشاره

عاقبه المؤمنين و الكافرين:

لَمَّا كَانَتِ الْآيَاتُ السَّابِقَةَ تَتَحَدَّثُ عَنِ الصَّرَاحِ الدَّائِمِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، فَإِنَّ الْآيَاتِ مُرَدِّدَةَ الْبَحْثِ تَبَيَّنَ عَاقِبَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ مِنْ خِلَالِ مُقَارَنَةِ وَاضِحِهِ، وَهِيَ بِذَلِكَ تُرِيدُ أَنْ تُوَضِّحَ أَنَّ هَذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ لَا يَخْتَلِفَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَحَسَبَ، بَلْ إِنَّ الْإِخْتِلَافَ بَيْنَهُمَا سَيَكُونُ أَوْسَعُ فِي الْآخِرَةِ، فَتَقُولُ:

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَمْتَتِعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ

(١)

صحيح أن كلا- الفريقين يعيشون في الدنيا، و يتنعمون بمواهبها و لذاتها، إلا- أن الفرق يكمن في أن هدف المؤمنين هو القيام بالأعمال الصالحة، و الأعمال المفيدة البناءه لجلب رضى الله تعالى. أما الكافرون فإن هدفهم ينصب على الأكل و الشرب و النوم و التمتع بالذات الحياه.

المؤمنون يتحرّكون حركه واعيه هادفه، و الكافرون يحيون بلا هدف، و يموتون بلا هدف، كالأنعام تماما.

المؤمنون يضعون شروطا كثيره للتمتع بنعم الحياه، فهم يدققون في مشروعيه طرق الحصول عليها، كما يدققون كيف ينفقونها، أما الكافرون فإنهم كالذباب لا يهتمها أن يكون علفها من أرض صاحبها أن يكون مغصوبا، و سواء كان من حق يتيم أو عجوز بائسه أم لا؟ عند ما يتنعم المؤمنون بنعمه، فإنهم يفكرون في واهبها، و يتدبرون في آياته، و يشكرونه عليها، أما الكافر الغافل فلا يفكر في أى شىء لغفلته، و هو يضيف إلى حملة حملا جديدا من الظلم و الذنوب باستمرار، و يدنى نفسه من الهلاك بعد أن تثقله الأوزار، حاله في ذلك حال الأغنام السمينه، فهى كلما تأكل أكثر، و تسمن أكثر، تكون أقرب إلى الذبح.

و قال البعض: إن الفرق بين المؤمنين و الكافرين، أن المؤمن لا يخلو أكله من ثلاث: الورع عند الطلب، و استعمال الأدب، و الأكل للسبب. و الكافر يطلب للنهمه، و يأكل للشهوه، و عيشه في غفله.

و ممّا يستحق الانتباه أن القرآن الكريم يقول في شأن المؤمنين: [□] إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ [□] و يقول في الكافرين وَ النَّارُ مَثْوًى لَهُمْ [□] فَإِنَّ التَّعْبِيرَ الْأَوَّلَ يدلّ على احترام المؤمنين و تقديرهم، و إنَّ الله سبحانه يدخلهم

ص: ٣٥١

١-١) - كما تأكل.. في محل نصب مفعول مطلق مقدر، و التقدير: يأكلون أكلا كما تأكل الأنعام.

الجَنَّة، أمَّا التعبير الثَّاني، فإنَّه يوحى باحتقار الكفَّار الذين خرجوا من ولايته، و عدم الاهتمام بهم.

و استفاد بعض المفسِّرين من جملة: **وَ الدَّارُ مَثْوَىٰ لَهُمْ** - أي محلهم النَّار - أنَّهم الآن في النَّار، لأنَّ الجملة ليست بصيغه الفعل المضارع و المستقبل، و إنما هي تخبر عن الحال.

و الحقيقة كذلك، لأنَّ أعمال هؤلاء و أفكارهم نار بحد ذاتها، و هم مبتلون بها، و قد أحاطت بهم جهنم من كلِّ مكان، و إن كان هؤلاء الذين هم كالأنعام في غفله، كما نقرأ ذلك في الآية (٤٩) من سورة التوبة: **وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**.

و في بعض آيات القرآن الأخرى شبَّه أصحاب النَّار بالأنعام، بل هم أضلَّ منها:

أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ

(١)

و قد أوردنا في ذيل هذه الآية شرحاً مفصلاً.

و من أجل إكمال هذا الهدف تقارن الآية التالیه بين مشرکی مکّه و عبده الأوثان الماضين، و بعبارة أوضح، فإنَّها تهدددهم تهديداً شديداً، و تؤكِّد ضمناً على بعض جرائمهم الشنيعة التي تدلُّ على جواز قتالهم فتقول: **وَ كَأَيِّنَ مِنْ قَرْبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلُكِنَاهُمْ فَلَا تَصِرْ لَهُمْ**.

فلا يظنَّ هؤلاء أنَّ الدنيا مستوسقه لهم إلى درجه أنَّهم اجترؤوا على إخراج أشرف رسل الله من أقدس المدن، فإنَّ الأمر لا يدوم كذلك، فهم بالقياس إلى قوم عاد و ثمود و الفراعنة، و جيش أبرهه موجودات ضعيفه عاجزه، و الله قادر على تدميرهم بكلِّ سهوله، و القضاء عليهم يسير على الله سبحانه.

و

جاء في روايه عن ابن عباس: **إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَمَّا خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ، تَوَجَّهَ إِلَى مَكَّةَ وَ قَالَ: «أَنْتَ أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ، وَأَنْتَ أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَيَّ، وَ لَوْلَا الْمَشْرُكُونَ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي لَمَّا خَرَجْتَ مِنْكَ»**، فنزلت الآية أعلاه تبشِّر النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ

ص: ٣٥٢

بنصر الله، و تهدد الأعداء بالعذاب والعقاب (١).

و طبقا لسبب النزول هذا تكون الآية مكيهه، لكن يبدو أنّ سبب النزول هذا يتعلّق بالآيه (٨٥) من سوره القصص، و قد ذكره كثير من المفسرين هناك، فهو ينسجم مع تلك الآيه أكثر، إذ تقول: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيَّ مَعَادٍ (٢).

و الملفت للنظر أنّ الآيه نسبت الإخراج إلى نفس مكّه، في حين أنّ المراد أهلها، و هذه كناية لطيفه عن تسلط فئه معينه، على مقدرات المدينه، و قد ورد نظير ذلك في مواضع أخرى من القرآن المجيد.

ثمّ إنّ التعبير بالقريه- و كما قلنا ذلك مرارا- يطلق على كلّ مدينه و أرض عامره مسكونه، و لا يخص المعنى المتعارف للقريه.

و طرح آخر الآيات-مورد البحث-مقارنه أخرى بين المؤمنين و الكفار...بين فئتين تختلفان في كلّ شيء، فإحدهما مؤمنه تعمل الصالحات، و تحيا الاخرى حياه حيوانيه بكلّ معنى الكلمه..بين فريقين، أحدهما مستظل بظل ولايه الله سبحانه، و الآخر لا مولى له و لا ناصر، فتقول: أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ؟ إنّ الفريق الأوّل قد اختاروا طريقهم عن معرفه صحيحه، و رؤيه واقعيه، و عن يقين و دليل و برهان قطعي، و هم يرون طريقهم و هدفهم بوضوح، و يسرون نحوه بسرعه.

أمّا الفريق الثّاني فقد ابتلوا بسوء التشخيص، و عدم إدراك الواقع، و ظلمه المسير و الهدف، فهم في ظلمات الأوهام حائرون. و العامل الأساس في هذه الحيره و الضلاله هو اتباع الهوى و الشهوات، لأنّ الهوى و الشهوات تلقى الحجب

ص: ٣٥٣

(١-١) - تفسير القرطبي، المجلد ٩، صفحه ٦٠٥٥.

(٢-٢) - لمزيد من التفصيل حول هذا المطلب يراجع تفسير الآيه (٨٥) من سوره القصص.

على عقل الإنسان و فكره، فتصوّر له القبيح حسنا، كما نرى أناسا يفخرون بأعمالهم التي يندى لها الجبين، و هي و صمه عار في جباههم، كما جاء ذلك في الآية (١٠٣) من سورة الكهف: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًّا .

«البينه» تعنى الدليل الواضح الجلى، و هي هنا إشاره إلى القرآن، و معاجز الرّسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلّم، و الدلائل العقلية الأخرى.

و من الواضح أنّ الاستفهام فى جملة: أَمْ مَنْ كَانَ... استفهام إنكارى، أى إنّ هذين الفريقين لا يتساويان أبدا.

و لكن من الذى يزيّن أعمال السوء فى أنظار عبده الهوى و متبعيه؟ أهو الله سبحانه، أم هم أنفسهم، أم الشياطين؟ ينبغى أن يقال: إنّها تصح جميعا، لأنّ التزيين نسب إلى الثلاثة فى آيات القرآن، فتقول الآية (٤) من سورة النمل: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ .

و جاء فى آيات عديده أخرى، و من جملتها الآية (٣٨) من سورة العنكبوت، التى تقول: وَ زَيَّنَّا لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ .

و ظاهر الآية مورد البحث، و بملاحظه الجملة: وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ أنّ هذا التزيين ناشئ عن اتباع الهوى، و قضيه كون الهوى و الشهوات تسلب الإنسان قدره على الحس و التشخيص و الإدراك الصحيح للحقائق، قضيه يمكن إدراكها بوضوح.

إنّ نسبه التزيين إلى الشيطان -طبعاً- صحيحه أيضاً، لأنّه هو الذى ينصب المكائد و يوسوس للإنسان أن يلجها، و يزيّن له اتباع الهوى.

و أمّا نسبه إلى الله سبحانه فلاّنه مسبب الأسباب، و إليه يرجع كلّ سبب، فهو الذى أعطى النار الأحراق، و منح الهوى قدره تغطيه الحقائق و إلقاء الحجب عليها

لئلا يدركها من يتبعه، وقد أظهر هذا التأثير و أعلنه من قبل، و لذلك فإن أصل المسؤولية يرجع إلى نفس الإنسان.

و يعتقد البعض أن جملة: أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ إِشَارَةٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ الْجَمْلَةُ التَّالِيَةُ نَازِرَةٌ إِلَى كِفَارِ مَكَّةَ، غير أن الظاهر هو أن للآية معنى واسعاً، و هذا من مصاديقه.

ص: ٣٥٥

اشاره

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)

التفسير

اشاره

وصف آخر للجنة:

إنّ هذه الآيه وصف لمصير كلّ من المؤمنين و الكافرين، فالفئه الأولى الذين يعملون الصالحات، و الثانيه زين لهم سوء أعمالهم.

وقد رفعت هذه الآيه الغطاء عن ستة أنواع من نعم أهل النعيم، و عن نوعين من أنواع العذاب الأليم لأصحاب الجحيم، و هي تحدد عاقبه كلا الفريقين و توضحها.

تتحدث الآيه عن أربعة أنهار في الجنة، لكلّ منها سائله و محتواه الخاص، ثمّ تتحدث عن فواكه الجنة، و أخيرا عن بعض المواهب المعنويه.

تقول الآية أولاً: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ (١).

«الآسن» يعنى التتن، و بناء على هذا، فإنَّ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ تعنى الماء الذى لا يتغير طعمه و رائحته لطول بقائه و غيره ذلك، و هذا أوّل نهر من أنهار الجنّة، و فيه ماء زلال جار طيب الطعم و الرائحة.

ثمّ تضيف: وَ أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ و ذلك أنّ الجنّة مكان لا يعتريه الفساد، و لا تتغير أطعمه الجنّة بمرور الزمن، و إنّما تتغير الأطعمه فى هذه الحياه الدنيا، لوجود أنواع الميكروبات التى تفسد المواد الغذائيه بسرعه.

ثمّ تطرقت إلى ثالث نهر من أنهار الجنّة، فقالت: وَ أَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ .

و أخيراً تبين الآية رابع أنهار الجنّة بأنه: وَ أَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .

و علاوه على هذه الأنهار المختلفه التى خلق كل منها لغرض، فقد تحدّثت الآية عن فواكه الجنّة فى الموهبه الخامسه، فقالت الآية: وَ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ (٢) فستوضع بين أيديهم و تحت تصرفهم كلّ الثمرات و الفواكه المتنوّعه الطعم و الرائحة، سواء التى يمكن تصوورها، أو التى لا يمكن أن تخطر على أذهاننا اليوم و يصعب تصوورها.

و أخيراً تتحدث عن الموهبه السادسه التى تختلف عن المواهب الماديه السابقه، إذ أنّ هذه الهبه معنويه روحيه، فتقول: وَ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ إذ ستمحو رحمته الواسعه كل هفواتهم و سقطاتهم، و سيمنحهم الله الاطمئنان و الهدوء و الرضى، و يجعلهم من المرضيين عنده و المحببين إليه، و سيكونون مصداق لقوله

ص: ٣٥٧

١ - ١) - للمفسّرين بحوث كثيره حول تركيب هذه الآية الشريفه، و الأنسب منها جميعاً أن يقال: (مثل الجنّة) مبتدأ، و خبره محذوف، و التقدير: مثل الجنّة التى وعد المتقون جنّه فيها أنهار، و هذه الآية تشبه فى الحقيقه - الآية (٣٥) من سوره الرعد التى تقول: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .

٢ - ٢) - للجمله محذوف، و للتقدير: لهم فيها أنواع من كل الثمرات.

تعالى: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١).

و بذلك فإن المؤمنين الطاهرين الصالحين يتمتعون بأنواع المواهب الماديه و المعنويه فى الجنان الخالده، و فى جوار رحمه الله.

و لئر الآن ماذا سيكون مصير الفريق المقابل للمؤمنين، أى الكفار؟ تقول الآية متابعه لحديثها: كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (٢).

«الأمعاء» جمع «معى»-على وزن سعى-و«معا»-على وزن غنا-و تطلق أحيانا على كل ما فى البطن، و تقطيعها إشاره إلى شدّه حراره هذا الشراب الجهنمى المرعب، و قوّه إحراقه.

ملاحظات

إشارة

١-أنهار الجنة الأربعة

يستفاد من آيات القرآن المجيد جيدا أنّ فى الجنة أنهارا و عيونا مختلفه، و لكلّ منها فائده و لذّه خاصه، و قد ورد ذكر أربعة نماذج منها فى الآية المذكوره، و ستأتى نماذج أخرى فى سورة الدهر، و سندكرها فى تفسيرها، إن شاء الله تعالى.

إنّ التعبير ب«الأنهار» فى شأن هذه الأنواع الأربعة، يوحى بأنّ كلا منها ليس نهرا واحدا، بل أنهار عديده.

لقد قلنا مرارا: إنّ نعم الجنة ليست بالشىء الذى يمكن التحدّث عنه بألفاظ محادثتنا اليوميه فى حياتنا الدنيا، فإنّ هذه الألفاظ قاصره عن أن تجسدها

ص: ٣٥٨

١-١) -سوره المائده، ١١٩.

٢-٢) -لقد وردت أبحاث كثيره فى تركيب هذه الآية أيضا، و الأنسب منها جميعا أنّ للآيه تقديرا هو: أ فمن هو خالد فى الجنة التى هذه صفاتها كمن هو خالد فى النار؟

تماماً، أو أن تعبر عنها بما يعكس حقيقتها، وكل ما تقدر عليه هو أن ترسم في الأذهان شيحا باهت اللون عن تلك الحقائق العظيمة.

لقد أشارت الآيه-مورد البحث-إلى أنهار الماء و اللبن و الخمر و العسل، إذ يمكن أن يكون الأول لرفع العطش، و أمّا الثاني كغذاء، و الثالث يبعث النشاط و الحيويه، و الرابعه يوجد القوه و اللذه.

و الطريف أنه يستفاد من آيات القرآن الأخرى أن كل أصحاب الجنه لا يشربون من كل هذه الأشربه، بل أن لها مراتب يشرب أصحاب كل مرتبه من الأشربه الموجوده في درجاتهم، فنقرأ في الآيه (٢٨) من سوره المطففين: عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ .

٢-الشراب الطهور

لا يخفى أن خمر الجنه و شرابها لا علاقته له بخمر الدنيا الملوث مطلقاً، بل هو كما يصفه القرآن في موضع آخر: لا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (١) ، و ليس فيه إلا العقل و النشاط و اللذه الروحيه.

٣-أشربه لا يعتربها الفساد

جاء في وصف أنهار الجنه مره أن ماءها غير آسِنٍ ، و أخرى لم يتغير طعمه ، و هو يوحى بأن أشربه الجنه و أطعمتها تبقى على طراوتها وجدتها، و لم لا تكون كذلك؟ و إنما تتغير الأطمعه و تفسد بفعل الميكروبات المفسده، و لولاها فإن أطعمه الدنيا تبقى هي الأخرى على حالتها الأولى، و لما لم يكن للموجودات المفسده مكان في الجنه، فإن كل أشياءها صافيه و نظيفه و طريه طازجه دائماً.

ص: ٣٥٩

لقد أكدت الآيه مورد البحث، و كثير من آيات القرآن الأخرى على الفواكه من بين الأطعمة، الفواكه المتنوعه المذاق، و هذا يبين أنّ الفاكهه أهم أغذيه الجنّه، و حتى في هذه الدنيا، فإنّ الفاكهه أفضل و أسلم غذاء للإنسان.

٥- جمله شيقوا بصيغه الفعل المبنى للمجهول، توضح أنّ أصحاب الجحيم يسقون الماء الحميم بالقوه، لا يارادتهم، و بدل الارتواء في تلك النار المحرقه فإنه يقطع أمعاءهم، و كما هي طبيعه الجحيم، فإنهم يرجعون إلى حالتهم الأولى، حيث لا موت هناك.

اشاره

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاغْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمُنْوَاعَكُمْ (١٩)

التفسير

اشاره

ظهرت علامات القيامة!

تعكس هذه الآيات صورته عن وضع المنافقين، وطريق تعاملهم مع الوحي الإلهي، وكلمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ومسأله قتال أعداء الإسلام و محاربتهم.

وقد ورد الحديث حول المنافقين في السور المدنيه كثيرا، في حين لا نرى أثرا

للحديث حولهم في السور المكيه، و ذلك لأنّ مسأله النفاق ظهرت بعد انتصار الإسلام و تسلّمه السلطه و القوّه، حيث أصبح المشركون في موقع ضعف و انهيار، بحيث لم يكن باستطاعتهم إظهار مخالفتهم، و لذلك اضطروا إلى التلبس بالإسلام ليأمنوا غضب المسلمين الحقيقيين، أمّا في الباطن فإنّهم لم يألوا جهدا في التآمر ضد الإسلام، و كان يهود المدينه الذين كانوا يتمتّعون بقوه عسكريه و اقتصاديه لا يستهان بها، يعتبرون سندا للمنافقين.

و على أى حال، فقد توغل هؤلاء بين المسلمين المخلصين، و كانوا يحضرون عند النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم و يشاركون في صلاه الجمعه، إلا أنّ تعاملهم تجاه آيات القرآن كان يفضح ما تنطوى عليه سرائرهم و قلوبهم المريضة.

تقول الآيه الأولى من الآيات مورد البحث: **وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا** و كان مرادهم من ذلك الرجل هو النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم.

إنّ تعبير هؤلاء في شأن النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم و كلماته البليغه، كان من القبح و البذاءه إلى درجه تدل على أنّهم لم يؤمنوا بالوحي السماوى قط.

«آنفا» من ماده (أنف)، و لما كان للأنف بروزا متميّزا في وجه الإنسان، فإنّ هذه الكلمه تستعمل في شأن أشراف القوم، و كذلك تستعمل في مورد الزمان المتقدم على زمان الحال، كما جاء في الآيه مورد البحث.

ثمّ إنّ التعبير بـ **لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** يوحى بأنّ إحدى علامات المؤمن امتلاكه الوعى الكافى، فكما أنّ العلم مصدر الإيمان، فكذلك هو وليد الإيمان و حاصله.

إلاّ أنّ القرآن الكريم قد أجابهم جوابا قاطعا، فقال: **إِنَّ كَلَامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ لَمْ يَكُنْ غَامِضًا وَ لَا مَعْقُودًا، بَلْ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ**.

و فى الحقيقه فإنّ الجملة الثّانيه علّه للجملة الاولى، أى إنّ اتباع الهوى يسلب الإنسان القدره على إدراك الحقائق و تمييزها، و يلقى الحجاب على قلبه، بحيث

أَنَّ قُلُوبَ مُتَّبِعِي الْهَوَىٰ تَصْبِحُ كَالظَّرْفِ الْمَخْتُومِ، فَلَا يَدْخُلُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ.

و يقف المؤمنون الحقيقيون في الطرف المقابل لهؤلاء، و عنهم تتحدّث الآيه التاليه فتقول: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ اتَّاهَمُ تَقْوَاهُمْ .

نعم، لقد خطا هؤلاء الخطوه الأولى بأنفسهم، و استخدموا عقلهم و فطرتهم في هذا المسير، ثم أخذ الله سبحانه بيدهم كما وعدهم من قبل، فزادهم هدى إلى هداهم، و ألقى نور الإيمان في قلوبهم، و شرح صدورهم و رزقهم حسن الفكره و النظر. هذا من الناحيه العقائديه.

و أمّا من الناحيه العمليه فإنّه سبحانه يحيى فيهم روح التقوى، حتى أنّهم يشمئزون من الذنب و المعصيه، و يعشقون الطاعه و العمل الصالح.

إنّ هؤلاء يقفون من الناحيتين في الطرف المقابل للمنافقين الذين أشارت إليهم الآيه السابقه، فقد طبع على قلوبهم فلا يفقهون شيئاً من جهه، و من جهه اخرى فإنّهم يتبعون أهواءهم في العمل، أمّا المؤمنون فإنّ هدايتهم تعظم يوماً بعد يوم، و تتضاعف تقواهم في مجال العمل.

و تحذّر الآيه التاليه أولئك المستهزئين الذين لا إيمان لهم، فتقول: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ .

أجل، إنّ هؤلاء لم يدعوا للحق حيث كان الإيمان واجبا عليهم، و مفيدا لهم، بل كانوا في طغيانهم يعمهون، و بآيات الله يستهزئون، غير أنّهم يوم يرون الحوادث المرعبه و بدايه القيامه تهزّ العالم و تزلزله، يصيبهم الفزع و يظهرون خضوعهم و يؤمنون، و لا ينفعهم يومئذ إيمانهم و خضوعهم.

إنّ هذه العبارة تشبه تماما أن نقول لإنسان: أ تنتظر حتى يشرف بك مرضك على الموت، و لا ينفع حينئذ علاج، ثم تدعو الطبيب و تأتي بالدواء؟ انهض و اسرع إلى المعالجه و تناول الدواء قبل أن تفقد هذه الفرصه، فإنّ السعي الآن ذو فائده،

و بعد اليوم لا ينفع.

«الأشراط» جمع (شرط)، و هي العلامه، و على هذا فإنّ أشراط الساعه إشاره إلى علامات اقتراب القيامة.

و للمفسرين أقوال كثيره حول المراد من علامات اقتراب القيامة هنا، حتى كتبت رسائل مختصره و مفضّله، في هذا الباب. إلا أنّ الكثير يعتقدون أنّ المراد من «أشراط الساعه» في الآيه-مورد البحث- هو ظهور شخص النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم، و يشهد لذلك

الحديث المروى عنه صلى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «بعثت أنا و الساعه كهاتين» و ضمّ إصبعيه السبابه و الوسطى (١).

و عدّ البعض مسأله «شقّ القمر»، و قسما آخر من حوادث عصر النبي صلى الله عليه و آله و سلّم من أشراط الساعه أيضا.

لقد وردت أحاديث عديده في هذا الباب، و قد اعتبرت شيوع كثير من المعاصى بين الناس بالذات من علامات اقتراب القيامة، كالحديث الذي

يرويه «الفتال النيسابورى» (ره) في روضه الواعظين، عن النبي صلى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من أشراط الساعه أن يرفع العلم، و يظهر الجهل، و يشرب الخمر، و يفشو الزنا» (٢).

بل، حتى الحوادث المهمّه و المؤثره، كقيام المهدي-أرواحنا له الفداء- عدّت من أشراط الساعه.

لكن ينبغي أن نذكر أنّنا نبحت تاره في أشراط الساعه بصوره مطلقه، فنسأل: ما هي علامات اقتراب القيامة؟ و أخرى نبحت في مورد خصوص الآيه. و المطلب في مورد الآيه هو ما قلناه. و أمّا حول علامات اقتراب القيامة بصوره مطلقه فقد وردت بحوث و روايات كثيره في الكتب الإسلاميه المعروفه، و سنشير إليها فيما يأتي (٣).

ص: ٣٦٤

١ - ١) - مجمع البيان، تفسير القرطبي، تفسير في ظلال القرآن، و تفاسير أخرى، في ذيل الآيات مورد البحث، بتفاوت يسير في التعبير.

٢ - ٢) - نور الثقلين، المجلد ٥، صفحه ٣٧.

٣ - ٣) - يتّضح ممّا قلناه أنّ ليس المراد من جمله: (فقد جاء أشراطها) تحقق كلّ علامات القيامة و ظهورها في عصر النبي صلى الله عليه و آله و سلّم بل المراد أنّ بعضها قد ظهر، و هو يخبر عن اقتراب القيامة، و إنّ كانت بعض الأشراط ستتحقق و تتّضح فيما بعد.

هل أن ظهور النبي من علامات قرب القيامة؟ يطرح هنا سؤال، وهو: كيف عدوا ظهور النبي صلى الله عليه وآله وسلم من علامات اقتراب القيامة، وقد مرّ إلى الآن خمسه عشر قرنا ولا أثر للقيامة؟ والإجابة عن هذا السؤال تتضح بملاحظته واحده، وهي أننا يجب أن نقارن بين ما مرّ من الدنيا وما بقي منها، وسيظهر من خلال هذه المقارنه أن ما بقي من عمر الدنيا قليل جدا، وهو سريع الانقضاء، كما

ورد في حديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، أنه كان يخطب في أصحابه قبيل الغروب، فقال: «و الذي نفس محمد بيده ما مثل ما مضى من الدنيا فيما بقي منها إلا مثل ما مضى من يومكم هذا فيما بقي منه، و ما بقي منه إلا اليسير» (1).

و تقول آخر آيه من هذه الآيات و كاستخلاص لنتيجه البحوث التي وردت في الآيات السابقه حول الإيمان و الكفر، و مصير المؤمنين و الكفار: فاعلم أنه لا إله إلا الله أي: أثبت على خط التوحيد، فإنه الدواء الشافي، و اعلم أن أفضل وسيله للنجاه هو التوحيد الذي بينت الآيات السالفه آثاره.

و بناء على هذا، فلا يعنى هذا الكلام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن عالما بالتوحيد بل المراد الاستمرار فى هذا الخط، و هذا يشبه تماما ما ذكره فى تفسير الآيه: إهدنا الصراط المستقيم فى سورة الحمد، بأنها لا تعنى عدم الهدايه من قبل، بل تعنى:

ثبتنا على خط الهدايه.

و يحتمل أيضا أن يكون المراد التدبّر فى أمر التوحيد أكثر، و الارتقاء إلى المقامات الأسمى، حيث أنه كلما تدبّر البشر فيه أكثر، و طالعوا آيات الله بدقه أكبر، فإنهم سيصلون إلى مراتب أرقى، و التدبّر بما قيل فى الآيات السالفه فى مورد الإيمان و الكفر، عامل يؤثر بحد ذاته فى زياده الإيمان و الكفر.

ص: ٣٦٥

والتفسير الثالث أنّ المراد: الجوانب العمليه للتوحيد، أى: اعلم أنّ الملجأ و المأوى الوحيد فى العالم هو الله تعالى، فالتجئ إليه، و لا تطلب حل معضلاتك إلا منه، و لا تخف سيل المشاكل، و لا تخش كثره الأعداء.

و لا تنافى بين هذه التفاسير الثلاثة، فمن الممكن أن تجمع فى معنى الآية.

و بعد هذه المسأله العقائديه، تعود الآية إلى مسأله التقوى و العفّه عن المعصيه، فتقول: **وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ** .

لا- يخفى أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم لم يرتكب ذنبا قط بحكم مقام العصمه، و أمثال هذه التعابير إشاره إلى ترك الأولى، فإنّ حسنات الأبرار سيئات المقرّبين، أو إلى أنّه قدوه للمسلمين.

و

جاء فى حديث: أنّ حذيفه بن اليمان يقول: كنت رجلا- ذرب اللسان على أهلى، فقلت: يا رسول الله إننى لأخشى أن يدخلنى لسانى فى النار، فقال صلى الله عليه و آله و سلم:

«فأين أنت من الاستغفار؟ إننى لأستغفر الله فى اليوم مائه مرّه» (1). و جاء فى بعض الروايات أنّه كان يستغفر فى اليوم سبعين مرّه.

إذا كان الآخرون يستغفرون ممّا ارتكبوا من المعاصى و الذنوب، فإنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم يستغفر الله من تلك اللحظه التى شغل فيها عن ذكره، أو أنّه ترك فعل الأحسن و فعل الحسن.

و هنا نكته جديره بالانتباه، و هى أنّ الله سبحانه قد شفع للمؤمنين و المؤمنات، و أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يستغفر لهم لتسعهم رحمته، و من هنا يتبين عمق مسأله «الشفاعه» فى الدنيا و الآخره، و كذلك تتبين أهميه التوسّل و كونه مشروعا.

و يقول سبحانه فى ذيل الآيه، و كتيبان للعلمه و الله يعلمم مُتَقَلِّبِكُمْ وَ مَثْوَاكُمْ فهو يعلم ظاهركم و باطنكم، كتمانكم و علانيتكم، سرّكم و نجواكم، بل و يعلم حتى نياتكم، و ما توسوس به أنفسكم، و يخطر على أذهانكم، و ما يجرى فى ضمائركم،

ص: ٣٦٦

و يعلم حركاتكم و سكناتكم، و لهذا وجب عليكم التوجه إليه و رفع الأكف بين يديه و طلب العفو و المغفره و الرحمه منه.

«المتقلب»: هو المكان الذى يكثر التردد عليه، و«المثوى» هو محل الاستقرار (1).

و الظاهر أنّ لهاتين الكلمتين معنى واسعاً يشمل كلّ حركات ابن آدم و سكناته، سواء التى فى الدنيا أم فى الآخرة، فى فتره كونه جنينا أم كونه من سكان القبور، و إن كان كثير من المفسرين قد ذكر لهما معانى محدده:

فقال بعضهم: إنّ المراد حركه الإنسان فى النهار، و سكونه فى الليل.

و قال آخرون: إنّ المراد مسير الإنسان فى الحياه الدنيا، و استقراره فى الآخرة.

و قال بعض آخر: إنّ المراد تقلّب الإنسان فى أصلاب الآباء و أرحام الأمهات، و ثباته فى القبر.

و أخيراً ذكر البعض أنّ المراد: حركاته فى السفر، و سكناته فى الحضر.

و لكن كما قلنا، فإنّ للآيه معنى واسعاً يشمل كلّ هذه المعانى.

بحث

اشاره

ما هي أشرط الساعه؟

قلنا سابقاً: إنّ الأشرط جمع شرط، و هى العلامه، و يقال لعلامات اقتراب القيامة: أشرط الساعه، و قد بحثت كثيراً فى مصادر الشيعة و السنّه، و لم يشر القرآن إليها إلاّ فى هذه الآيه.

و من أجمع الأحاديث و أكثرها تفصيلاً فى هذا الباب، الحديث الذى

رواه ابن

ص: ٣٦٧

١- ١) -بناء على هذا، فإنّ (متقلب) اسم مفعول جاء هنا بمعنى المكان، إلاّ أنّ جماعه يعتبرونه مصدراً ميمياً يعنى الانتقال من حال الى حال. غير أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب بملاحظه قرينه مقابلته بالمشوى الذى لا ريب فى كونه اسم مكان.

عباس عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في قضية حجّج الوداع، وهو يعلمنا كثيرا من المسائل، و يحتوى على نكات و دقائق كثيرة، و لهذا نوردّه كاملا:

قال ابن عباس: حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجّج الوداع و هي آخر حجّج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حياته- فأخذ بحلقه باب الكعبة ثم أقبل علينا بوجهه فقال:

«ألا أخبركم بأشراط الساعة؟» فكان أدنى الناس منه يومئذ سلمان رحمه الله عليه فقال: بلى يا رسول الله.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ من أشراط الساعة إضاعة الصلوات، و اتباع الشهوات، و الميل مع الأهواء، و تعظيم أصحاب المال، و بيع الدين بالدين، فعندها يذاب قلب المؤمن في جوفه كما يذاب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيّره».

قال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: «إي و الذي نفسى بيده. يا سلمان: إنّ عندها يليهم أمراء جوره، و وزراء فسقه، و عرفاء ظلمه، و أمناء خونه».

فقال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: «إي و الذي نفسى بيده. يا سلمان: إنّ عندها يكون المنكر معروفا، و المعروف منكرا، و يؤتمن الخائن، و يخون الأمين، و يصدّق الكاذب، و يكذب الصادق».

قال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: «إي و الذي نفسى بيده. يا سلمان: فعندها تكون إماره النساء، و مشاوره الإمام، و قعود الصبيان على المنابر، و يكون الكذب ظرفا، و الزكاه مغرما، و الفئء مغنما، و يجفو الرجل والديه و يبرّ صديقه، و يطلع الكوكب المذنب».

قال سلمان: و إنّ هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: «إي و الذي نفسى بيده. يا سلمان: و عندها تشارك المرأة زوجها في التجاره [و يبذل كل منهما قصارى جهده خارج المنزل لتحصيل المال]

و يكون

ص: ٣٤٨

المطر غيضا، و يغيض الكرام غيضا، و يحتقر الرجل المعسر، فعندها تقارب الأسواق، قال هذا: لم أبع شيئا، و قال هذا: لم أربح شيئا، فلا ترى إلا ذاما لله».

قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: «إي و الذي نفسى بيده. يا سلمان: فعندها يليهم أقوام إن تكلموا قتلوهم، و إن سكتوا استباحوهم، ليستأثرون بفيئهم، و ليطؤون حرمتهم، و ليسفكن دماءهم، و ليملؤن قلوبهم دغلا- و رعبا، فلا تراهم إلا و جلين خائفين مرعوبين مرهوبين».

فقال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: «إي و الذي نفسى بيده. يا سلمان: إن عندها يؤتى بشيء من المشرق، و شيء من المغرب [فقوانين من الشرق، و قوانين من الغرب]

يلون أمتي، فالويل لضعفاء أمتي منهم، و الويل لهم من الله، لا يرحمون صغيرا، و لا يوقرون كبيرا، و لا يتجافون عن مسيء، جثتهم جثه الأدميين، و قلوبهم قلوب الشياطين».

قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: «إي و الذي نفسى بيده. يا سلمان: و عندها يكتفى الرجال بالرجال و النساء بالنساء، و يغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها، و تشبه الرجال بالنساء، و النساء بالرجال، و تركب ذوات الفروج السروج [و يظهرن أنفسهن]

فعليهن من أمتي لعنه الله».

قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: «إي و الذي نفسى بيده. يا سلمان: إن عندها تزخرف المساجد كما تزخرف الكنائس و تحلى المصاحف [دون أن يعمل بها]

و تطول المنارات، و تكثر الصفوف، قلوب متباغضة، و ألسن مختلفة».

قال سلمان: و إن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: «إي و الذي نفسى بيده. يا سلمان: و عندها تحلى ذكور أمتي بالذهب، و يلبسون الحرير و الديباج، و يتخذون جلود النمر صفافا».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: «إي و الذي نفسى بيده. يا سلمان: و عندها يظهر الزنا، و يتعاملون بالعينه و الرشا، و يوضع الدين و ترفع الدنيا».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: «إي و الذي نفسى بيده. يا سلمان: و عندها يكتر الطلاق، فلا يقام لله حد، و لن يضروا الله شيئاً [و إنّما يضرون أنفسهم]

..

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: «إي و الذي نفسى بيده. يا سلمان: و عندها تظهر القينات و المعازف، و تليهم أشرار أمتي».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: «إي و الذي نفسى بيده. يا سلمان: و عندها يحج أغنياء أمتي للنزّهه، و يحج أوساطها للتجاره، و يحج فقراؤهم للرياء و السمعه، فعندها يكون أقوام يتعلمون القرآن لغير الله، و يتخذونه مزامير، و يكون أقوام يتفقهون لغير الله، و يكتر أولاد الزنا، و يتغنون بالقرآن، و يتهافتون بالدنيا».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: «إي و الذي نفسى بيده. يا سلمان: ذاك إذا انتهكت المحارم، و اكتسبت المآثم، و سلط الأشرار على الأخيار، و يفشو الكذب، و تظهر اللجاجه، و تفشو الفاقه، و يتباهون فى اللباس، و يمطرون فى غير أوان المطر، و يستحسنون الكوبه و المعازف، و ينكرون الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، حتى يكون المؤمن فى ذلك الزمان أذلّ من الأمه، و يظهر قرأؤهم و عبادهم فيما بينهم التلاوم، فأولئك يدعون فى ملكوت السماوات الأرجاس الأنجاس».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: «إي و الذي نفسى بيده. يا سلمان: فعندها لا يخشى الغنى على الفقير،

حتى أنّ السائل يسأل في الناس فيما بين الجمعيتين لا يصيب أحدا يضع في كفه شيئا».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: «إي و الذي نفسى بيده. يا سلمان: فعندها يتكلم الروبيضة».

قال سلمان: ما الروبيضة يا رسول الله فداك أبي و أمي؟ قال: «يتكلم في أمر العامه من لم يكن يتكلم، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى تخور الأرض خوره، فلا يظن كل قوم إلا أنّها خارت في ناحيتهم، فيمكثون ما شاء الله، ثم يمكثون في مكثهم، فتلقى لهم الأرض أفلاذ أكبادها» قال: «ذهبا و فضه»، ثم أوما بيده إلى الأساطين، فقال: مثل هذا، فيومئذ لا ينفع ذهب و لا فضه—و يحل أمر الله—فهذا يعنى معنى قوله: فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا (١).

ص: ٣٧١

١-١) - تفسير على بن إبراهيم طبقا لنقل نور الثقلين، و تفسير الصافي، ذيل الآيه مورد البحث.

اشاره

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَأِذَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَ فَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)

التفسير

اشاره

يخافون حتى من اسم الجهاد!

تبيّن هذه الآيات المواقف المختلفه للمؤمنين و المنافقين تجاه الأمر بالجهاد، تكمله للأبحاث التي مرّت في الآيات السابقه حول هذين الفريقين.

تقول الآيه الأولى: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ سوره يكون فيها أمر بالجهاد، يوضح واجبنا تجاه الأعداء القساة الجلادين الذين لا منطق لهم...

سوره تبعث آياتها نور الهدايه فى قلوبنا، وتضىء أرواحنا بنورها الوهاج، هذا حال المؤمنين.

و أمّا المنافقون: فَإِذَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .

فعند سماع اسم الحرب يصيبهم الهلع، و يضطرب كيانهم أجمع، و تتوقف عقولهم عن التفكير، و تتسمر عيونهم، و ينظرون إليك كمن يوشك على الموت، و هذا أبلغ و أروع تعبير عن حال المنافقين الجبناء الخائفين.

إنّ سبب اختلاف تعامل المؤمنين و المنافقين مع أمر الجهاد، ينبع من أن الفريق الأول قد علقوا آمالهم بالله سبحانه لإيمانهم القوى به، فهم يرجون عنايته و لطفه و نصرته، و لا خوف لديهم من الشهاده فى سبيله.

إنّ ميدان الجهاد بالنسبه إلى هؤلاء ميدان إظهار عشقهم لمحبوبهم، ميدان الشرف و الفضيله، ميدان تفجّر الاستعدادات و القابليات، و هو ميدان الثبات و المقاومه و الإنتصار، و لا معنى للخوف فى مثل هذا الميدان.

إلاّ أنّه بالنسبه إلى المنافقين ميدان موت و فناء و تعاسه، ميدان هزيمه و مفارقه لذائد الدنيا، و هو أخيرا ميدان مظلم يعقبه مستقبل مرعب غامض! و المراد من «السوره المحكمه»-باعتقاد بعض المفسرين-هى السور التى ذكرت فيها مسأله الجهاد. لكن لا دليل على هذا التفسير، بل الظاهر أنّ «المحكم» هنا بمعنى المستحكم و الثابت و القاطع، و الخالى من أى غموض أو إبهام، حيث يقع المتشابه فى مقابله أحيانا، و لمّا كانت آيات الجهاد تتمّع عادة بحزم استثنائى، فإنّها تنسجم مع مفهوم هذه اللفظ أكثر، إلاّ أنّها ليست منحصره فيه.

و التعبير ب الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ تعبير يستعمل فى لسان القرآن فى شأن

المنافقين عادة، وما احتمله بعض المفسرين من أن المراد ضعفاء الإيمان لا- ينسجم مع سائر آيات القرآن، بل ولا مع الآيات السابقة لهذه الآيات والتي بعدها، التي تتحدث جميعاً عن المنافقين.

و على أية حال، فإن الآية تضيف في النهاية جملة قصيرة، فتقول: فَأُولَئِكَ لَهُمْ .

إن جملة فَأُولَئِكَ لَهُمْ تعبر في الأدب العربي عن التهديد و اللعنه، و تمنى التعاسه و الفناء للآخر (١).

و فسرها البعض بأنها تعنى: الموت أولى لهم، و لا مانع من الجمع بينها كما أوردنا في تفسير الآية.

و تضيف الآية التاليه: طَاعَهُ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ (٢).

إن التعبير ب قَوْلٌ مَعْرُوفٌ يمكن أن يكون في مقابل الكلمات الهزيلة المنكره التي كان يتفوه بها المنافقون بعد نزول آيات الجهاد، فقد كانوا يقولون تاره لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ (٣)، و أخرى: وَ إِذْ يَقُولُ الْمُدَّافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (٤)، و ثالثه كانوا يقولون: هَلُمَّ إِلَيْنَا (٥)، من أجل إضعاف المؤمنين و إعاقتهم عن التوجه إلى ميدان الجهاد.

و لم يكونوا يكتفون بعدم ترغيب الناس في أمر الجهاد، بل كانوا يبذلون قصارى جهودهم من أجل صددهم عن الجهاد، أو تشييط معنوياتهم و عزائمهم على الأقل.

ثم تضيف الآية: فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ و سيرفع

ص: ٣٧٤

١-١) -اعتقد جماعه أن معنى الجملة يصبح: يليه مكروه، و هو يعادل معنى ويل لهم.

٢-٢) - (طاعه) مبتدأ، و خبره محذوف، و التقدير: طاعه و قول معروف أمثل لهم، و اعتبرها البعض خبراً لمبتدأ محذوف، و كان التقدير: أمرنا طاعه، إلا أن المعنى الأوّل هو الأنسب.

٣-٣) -التوبه، الآية ٨١.

٤-٤) -الأحزاب، الآية ١٢.

٥-٥) -الأحزاب، الآية ١٨.

رؤوسهم في الدنيا، و يمنحهم العزّه و الفخر، و يؤدّي إلى أن ينالوا الثواب الجزيل، و الأجر الكبير، و الفوز العظيم في الآخرة.

و جملة عَزَمَ الْأَمْرُ تشير في الأساس إلى استحكام العمل، إلا أنّ المراد منها هنا الجهاد، بقريته الآيات التي سبقتها و التي تليها.

و تضيف الآية التالية: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (١) لأنكم إن أعرضتم عن القرآن و التوحيد، فإنكم سترجعون إلى جاهليّتكم حتماً، و لم يكن في الجاهلية إلا الفساد في الأرض، و الإغارة و القتل و سفك الدماء، و قطيعه الرحم، و وأد البنات. هذا إذا كانت «تولّيتكم» من ماده «تولّى» بمعنى الإعراض.

غير أنّ كثيرا من المفسّرين احتمل أن تكون من ماده «ولايه»، أي: الحكومه، فيكون المعنى: إنكم إذا تولّيتم زمام السلطه فلا يتوقع منكم إلا الضلال و الفساد و سفك الدماء و قطيعه الرحم.

و كأنّ جمعا من المنافقين قد اعتذر من أجل أن يفزّ من ميدان الجهاد بأنّا كيف نطأ ساحه الحرب و نقتل أرحامنا و نسفك دماءهم، و عندها سنكون من المفسدين في الأرض؟ فيجيبهم القرآن قائلا: ألم تقتلوا أرحامكم و تسفكوا دماءهم، و لم يظهر منكم إلا الفساد في الأرض يوم كانت الحكومه بأيديكم؟ إن هذا إلا تذرع و تهزّب، فإنّ الهدف من الحرب في الإسلام هو إخماد نار الفتنة، لا الفساد في الأرض، و الهدف اقتلاع جذور الظلم و إزالته من الوجود، لا قطع الرحم.

و قد ورد في بعض الروايات الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ هذه الآية في بني

ص: ٣٧٥

١- ١) - بالرغم من أنّ القليل من المفسّرين قد بحث في تركيب هذه الآية، لكن يبدو أنّ (إن تولّيتم) جملة شرطيه وقعت بين اسم «عسى» و خبرها، و جزاء إن الشرطيه مجموع جملة (فهل عسيتم أن تفسدوا في الأرض)، و التقدير: إن تولّيتم عن كتاب الله فهل يترب منكم إلا الفساد في الأرض؟

أمية الذين لم يرحموا صغيرا ولا كبيرا، بل سفكوا دماء الجميع حتى أقاربهم لما تسلّموا زمام الحكم (١).

من المعلوم أنّ بنى أمية جميعا، ابتداء من أبي سفيان إلى أبنائه و أحفاده، كانوا مصداقا واضحا لهذه الآية، وهذا هو المراد من الرواية، إذ أنّ للآية معنى واسعا يشمل كلّ المنافقين الظالمين و المفسدين.

و توضح الآية التاليه المصير النهائى لهؤلاء القوم المنافقين المفسدين المتذرّعين بأوهى الحجج فتقول: **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ**.

إنّ هؤلاء يظنون أنّ الجهاد الإسلامى القائم على أساس الحق و العدالة، قطيعه للرحم، و فسادا فى الأرض، أمّا كلّ الجرائم التى ارتكبوها فى الجاهليه، و الدماء البريئه التى سفكوها أيّام تسلطهم، و الأطفال الأبرياء الذين أذوهم و دفنوهم و هم أحياء يستغيثون، كانت قائمه على أساس الحق و العدل! لعنهم الله إذ لا أذن و اعيه لهم، و لا عين ناظره بصيره! و نقرأ

فى روايه عن الإمام على بن الحسين، أنّه قال لولده الإمام الباقر عليه السلام:

«إِيَّاكَ و مصاحبه القاطع لرحمه، فإنّى وجدته ملعونا فى كتاب الله عزّ و جلّ فى ثلاثه مواضع، قال الله عزّ و جلّ: فهل عسيتم...» (٢).

«الرحم» فى الأصل محل استقرار الجنين فى بطن أمّه، ثم أطلق هذا التعبير على كل الأقرباء، لأنهم نشأوا و ولدوا من رحم واحد.

و

جاء فى حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم: «ثلاثه لا يدخلون الجنّه: مدمن خمر، و مدمن سحر، و قاطع رحم» (٣).

ص: ٣٧٦

١- ١) - راجع: نور الثقلين، المجلد ٥، صفحه ٤٠.

٢- ٢) - أصول الكافى، المجلد ٢، باب «من تكره مجالسته»، الحديث ٧. أمّا الآيتان اللتان وردتا فى بقيه الحديث فأحدهما الآية (٢٥) من سوره الرعد، و الأخرى الآية (٢٧) من سوره البقره، و قد ورد اللعن فى إحدهما صريحا، و فى الأخرى كنايه و تلميحا.

٣- ٣) - التفسير الأمثل ذيل الآية (٧٧) من سوره المائده (نقلا عن الخصال).

ولا يخفى أن لعن الله تعالى لهؤلاء القوم، وطردهم من رحمته، وكذلك سلبهم القدره على إدراك الحقائق، لا يستلزم الجبر، لأن ذلك جزاء أعمالهم، وردّ فعل لسلوكلهم و أفعالهم.

و تناول آخر آيه من هذه الآيات ذكر العله الحقيقيه لانحراف هؤلاء القوم التعساء، فقالت: أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا؟ نعم، إن عامل مسكنه هؤلاء و ضياعهم أحد اثنين: إما أنهم لا يتدبرون فى القرآن، برنامج الهدايه الإلهيه، و الوصفه الطبيه الشافيه تماما، أو أنهم يتدبرونه، إلا أن قلوبهم مقفله نتيجة اتباع الهوى و الأعمال التى قاموا بها من قبل، و هى مقفله بشكل لا تنفذ معه أى حقيقه إلى قلوبهم.

و بتعبير آخر، فإنهم كرجل ضلّ طريقه فى الظلمات، فلا سراج فى يده، و لا هو يبصر إذ هو أعمى، فلو كان معه سراج، و كان مبصرا، فإنّ الاهتداء إلى الطريق فى أى مكان سهل و يسير.

«الأقفال» جمع قفل، و هى فى الأصل من ماده القفول أى الرجوع، أو من القفيل، أى الأشياء اليابسه، و لما كان المتعارف أنهم إذا أغلقوا الباب و قفلوها بقفل، فكلّ من يأت يقفل راجعا، و كذلك لما كان القفل شيئا صلبا لا ينفذ فيه شىء، لذا فقد أطلقت هذه الكلمه على هذه الآله الخاصه.

بحث

اشاره

القرآن كتاب فكر و عمل:

تؤكد آيات القرآن المختلفه على حقيقه أن هذا الكتاب السماوى العظيم ليس للتلاوه و حسب، بل إنّ الهدف النهائى منه هو الذكر، و التدبّر فى عواقب الأمور و الإنذار، و إخراج البشر من الظلمات، و الشفاء و الرحمه و الهدايه.

ص: ٣٧٧

فقرأ في الآية (٥٠) من سورة الأنبياء: وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ .

و في الآية (٢٩) من سورة ص: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ .

و جاء في الآية (١٩) من سورة الأنعام: وَ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ .

و تقول الآية الأولى من سورة إبراهيم: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .

و أخيراً، جاء في الآية (٨٢) من سورة الإسراء: وَ نُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .

و لهذا، فإنَّ القرآن الكريم يجب أن يأخذ مكانه من حياة المسلمين، و يكون في صميمها لا على هامشها، و عليهم أن يجعلوه قدوتهم و أسوتهم، و أن ينفذوا كلَّ أوامره، و أن يجعلوا خطوط حياتهم و طبيعتها منسجمة معه.

لكنَّ، جماعه من المسلمين -مع الأسف الشديد- لا- يتعاملون مع القرآن إلا- على أنه مجموعه أورد و أذكار، فهم يتلونه جميعاً تلاوه مجرّده، و يهتمون أشدَّ الاهتمام بالتجويد و مخارج الحروف و حسن الصوت، و أكثر شقاء المسلمين و تعاستهم يكمن في أنهم أخرجوا القرآن عن كونه دستوراً جامعاً لحياه البشر، و اكتفوا بترديد ألفاظه، و قنعوا بذلك.

و الجدير بالانتباه أنّ الآيات مورد البحث تقول بصراحه: إنّ هؤلاء المنافقين المرضى القلوب لم يتدبّروا في القرآن، فلاقوا هذا المصير الأسود.

«التدبّر» من ماده دبر، و هو تحقيق و بحث نتائج الشئ و عواقبه، بعكس «التفكر» الذي يقال غالباً عن علل الشئ و أسبابه، و استعمل كلا التعبيرين في القرآن.

لكن، ينبغي أن لا- ننسى أنّ الاستفادة من القرآن تحتاج إلى نوع من تهذيب النفس و جهادها، و إن كان القرآن بنفسه معينا في تهذيبها، لأنَّ القلوب إذا كانت

مقفله بأقفال الهوى و الشهوه، و الكبر و الغرور، و اللجاجه و التعصب، فسوف لا- يلجها نور الحق، و قد أشارت الآيات-مورد البحث-إلى هذا المعنى.

و ما

أروع كلام أمير المؤمنين على عليه السلام فى خطبته حول صفات المتقين، إذ يقول: «أمّا الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلون، يترتلون، يحزنون به أنفسهم، و يستثيرون به دواء دائهم، فإذا مرّوا بآيه فيها تشويق ركنوا إليها طمعا، و تطلعت نفوسهم إليها شوقا، و ظنّوا أنّها نصب أعينهم، و إذا مرّوا بآيه فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، و ظنّوا أنّ زفير جهنّم و شهيقها فى أصول آذانهم» (١).

حديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير جملة: أمّ عليّ قلوب أقفالها: «إنّ لك قلبا و مسامع، و إنّ الله إذا أراد أن يهدى عبدا فتح مسامع قلبه، و إذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح أبدا، و هو قول الله عزّ و جلّ: أمّ عليّ قلوب أقفالها (٢).

ص: ٣٧٩

١- (١) -نهج البلاغه، الخطبه ١٩٣، المعروفه بخطبه همام.

٢- (٢) -نور الثقلين، المجلد ٥، صفحه ٤١.

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَشْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)

التفسير

اشاره

أفلا يتدبرون القرآن:

تواصل هذه الآيات الكلام حول المنافقين و مواقفهم المختلفه، فتقول: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ .

و بالرغم من أن البعض احتمال أن هذه الآيه تتحدّث عن جماعه من الذين

كفروا من أهل الكتاب الذين كانوا يذكرون علامات النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل ظهوره، وذلك استناداً إلى ما ورد في كتبهم السماويه، وكانوا ينتظرونه على أحر من الجمر، إلا أنهم أعرضوا عنه بعد ظهوره و اتضح هذه العلامات و تحقّقها، و منعتهم شهواتهم و مصالحهم من الإيمان به.

بالرغم من ذلك، فإنّ القرائن الموجوده في الآيات السابقه و اللاحقه تبين جيداً أنّ هذه الآيه تتحدث أيضاً عن المنافقين الذين جاؤوا و رأوا بأنّ أعينهم الدلائل الداله على حقانيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، و سمعوا آياته، إلا أنّهم أدبروا اتباعاً لأهوائهم و شهواتهم، و طاعه لوساوس الشيطان.

«سؤل» من ماده سؤل-على وزن قفل-و هي الحاجه التي يحرص عليها الإنسان (1)، و«التسويل» بمعنى الترغيب و التشويق إلى الأمور التي يحرص عليها، و نسبته إلى الشيطان بسبب الوسوس التي يلقها في نفس الإنسان، و تمنع من هدايته.

و جملة و أملي لهم من ماده «إملاء»، و هو زرع طول الأمل فيهم، و الآمال البعيده المدى، و التي تشغل الإنسان، فتصدّه عن الحق و الهدى.

و تشرح الآيه التاليه علّه هذا التسويل و التزيين الشيطاني، فتقول: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَيُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ و هذا دأب المنافقين في البحث عن العصاه و المخالفين، و إذا لم يكونوا مشتركين و متفقين معهم في كلّ المواقف، فإنّهم يتعاونون معهم على أساس المقدار المتفق عليه من مواقفهم، بل و يطيعونهم إذا اقتضى الأمر.

بل قد اتجه منافقو المدينه نحو يهود المدينه-و هم «بنو النضير» و«بنو قريظه»

ص: ٣٨١

(١-١) -و لذلك فإنّ البعض قد فسرها بمعنى الأمل، كما نقرأ ذلك في الآيه (٣٦) من سوره طه: قَدْ أُوتِيَ سَوْلَكَ يَا مُوسَى .

الذين كانوا يبشرون بالإسلام قبل بعثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أما بعد ظهوره وبعثه، و تعرض مصالحهم للخطر، و لحسد هم و كبرهم، فإنهم اعتبروا الإسلام ديناً باطلاً و غير سليم - ولما كان هناك قدر مشترك بين المنافقين و اليهود في مخالفتهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، و تأمرهم ضد الإسلام، فإنهم اتفقوا مع اليهود على العمل المشترك ضد الإسلام و المسلمين.

و ربما كان تعبير في بعض الأثر إشارة إلى أننا نتعاون معكم في هذا الجزء فقط، فإنكم تخالفون عبادة الأصنام، و تعتقدون بالبعث و القيامة، و نحن لا نتفق معكم في هذه الأمور (١).

هذا الكلام شبيه بما جاء في الآية (١١) من سورة الحشر: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ .

و تهدد الآيات هؤلاء في نهايتها فتقول: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسِرَارَهُمْ فهو عليم بكفرهم الباطن و نفاقهم، و بتآمرهم مع اليهود، و سيعاقبهم و يجازيهم في الوقت المناسب. و عليم بما كان يخفيه اليهود من حسدهم و عدائهم و عنادهم، فقد كانوا يعرفون علامات نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم كما يعرفون أبناءهم بشهادته كتابهم، و كانوا يذكرون هذه العلامات للناس من قبل، إلا أنهم أخفوها جميعاً بعد ظهوره، و الله عليم بهذا الإخفاء و محاوله طمس الحق.

و

جاء في حديث عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام: أن المراد من كرهوا ما أنزل الله بنو أمية الذين كرهوا نزول أمر الله تعالى في ولايه على عليه السلام (٢).

ص: ٣٨٢

١-١) - ثم احتمالات عديده أخرى في تفسير هذه الآية، لا ينسجم أى منها مع الآيات السابقة و اللاحقه، و لذلك أعرضنا عن ذكرها.

٢-٢) - مجمع البيان، المجلد ٩، صفحہ ١٠٥.

و واضح أنّ هذا النوع تطبيق و بيان مصداق، و ليس حصرا لمعنى الآية.

و الآية التاليه بمثابه توضيح لهذا التهديد المبهم، فتقول: فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ (١).

نعم، إنّ هؤلاء الملائكه مأمورون أن يذيقوا هؤلاء العذاب و هم على أعتاب الموت ليدوقوا و بال الكفر و النفاق و العناد، و هم يضربون و وجوههم لأنّها اتجهت نحو أعداء الله، و يضربون أديبارهم لأنّهم أدبروا عن آيات الله و نبيه.

و هذا المعنى نظير ما ورد فى الآية (٥٠) من سوره الأنفال حول الكفار و المنافقين: وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

و تناولت آخر آيه من هذه الآيات بيان علّه هذا العذاب الإلهي و هم على إعتاب الموت، فتقول: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ .

لأنّ رضى الله سبحانه هو شرط قبول الأعمال و كلّ سعى و جهد، و بناء على هذا، فمن الطبعي أن تحبط أعمال أولئك الذين يصرون على إغضاب الله عزّ و جلّ و إسخاطه، و يخالفون ما يرتضيه، و يودعون هذه الدنيا و هم خالو الوفاض، قد أثقلتهم أوزارهم، و أرهقتهم ذنوبهم.

إنّ حال هؤلاء القوم يخالف تماما حال المؤمنين الذين تستقبلهم الملائكه بوجه ضاحكه عند ما يشرفون على الموت، و تبشّروهم بما أعد الله لهم: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢).

و ممّا يلفت النظر أنّ الجملة فعلية فى مورد غضب الله تعالى: مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَ هِيَ أَسْمِيه فى مورد رضاه: رِضْوَانُهُ، و قال بعض المفسرين: إنّ هذا التفاوت

ص: ٣٨٣

١- ١) - كيف، خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير: فكيف حالهم...

٢- ٢) - النحل، الآية ٣٢.

فى التعبير يتضمن نكته لطيفه، و هى أنّ غضب الله قد يحدث و قد لا يحدث، أمّا رضاه و رحمته فهى مستمره دائمه.

و واضح أيضا أنّ غضب الله تعالى و سخطه لا- يعنى التأثر النفسى، كما أنّ رضاه سبحانه لا- يعنى انبساط الروح و انشراح الأَسَارِير، بل هما كما

ورد فى حديث الإمام الصادق عليه السّلام: «غضب الله عقابه، و رضاه ثوابه» (١).

ص: ٣٨٤

١- ١) - توحيد الصدوق، طبق نقل الميزان، المجلد ١٨، صفحه ٢٤٤.

إشاره

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلاَعْرِفْتَهُمْ بِسَيِّئَاتِهِمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَنَّكُمْ (٣١)

التفسير

إشاره

يعرف المنافقون من لحن قولهم:

تشير هذه الآيات إلى جانب آخر في صفات المنافقين و علاماتهم، و تؤكد بالخصوص على أنهم يظنون أن باستطاعتهم أن يخفوا واقعهم و صورتهم الحقيقيه عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين دائما، و أن ينقدوا أنفسهم بذلك من الفضيحه الكبرى، فتقول أولا: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (١).

«الأضغان» جمع ضغن، و هو الحقد الشديد.

ص: ٣٨٥

(١-١) - اعتبر البعض (أم) في الآية أعلاه استفهاميه، و البعض الآخر اعتبرها منقطعه بمعنى بل، و يبدو أن الأول هو الأفضل.

نعم، لقد كانت قلوب هؤلاء مملوءة غيظاً وحقداً شديداً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم و المؤمنين، وكانوا يتحينون الفرص لإنزال الضربة بهم، فهنا يحذّرهم القرآن بأن لا يظنّوا أنّ بإمكانهم أن يخفوا وجههم الحقيقي دائماً، و لذلك فإنّ الآيه التاليه تضيف:

وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ

فنجعل فى وجوههم علامات تعرفهم بها إذا رأيتهم، و تراهم رأى العين فتتظر واقعهم عند ما تنظر ظاهرهم.

ثمّ تضيف: وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ فيمكنك فى الحال أن تعرفهم من خلال نمط كلامهم.

يقول الراغب فى مفرداته: «الحن» عباره عن صرف الكلام عن قواعده و سنته، أو إغرابه على خلاف حاله، أو الكنايه بالقول بدلا من الصراحه. و المراد فى الآيه مورد البحث هو المعنى الثالث، أى: يمكن معرفه المنافقين مرضى القلوب من خلال الكنايه فى كلامهم، و تعبيراتهم المؤذيه التى تنطوى على النفاق.

حينما يكون الكلام عن الجهاد، فإنّهم يسعون إلى إضعاف إراده الناس و معنوياتهم، و حينما يكون الكلام عن الحق و العداله، فإنّهم يحزّفونه بنحو من الأنحاء، و إذا ما أتى الحديث عن الصالحين المتّقين السابقين إلى الإسلام، فإنّهم يسعون إلى تشويه سمعتهم، و تقليل أهميتهم و مكانتهم، و لذلك روى عن «أبى سعيد الخدرى» حديثه المعروف الذى يقول فيه: لحن القول بغضهم على بن أبى طالب، و كُنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ببغضهم على بن أبى طالب (1).

نعم، لقد كانت إحدى العلامات البارزه للمنافقين أنّهم كانوا يعادون أوّل من آمن من الرجال، و أول مضح فى سبيل الإسلام، و يبغضونه.

ص: ٣٨٦

١- ١) - مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث. ثمّ إنّ جماعه من كبار العامّه نقلوا مضمون هذا الحديث فى كتبهم، و من جملتهم: أحمد بن حنبل فى كتاب الفضائل، و ابن عبد البر فى الإستيعاب، و الذهبى فى تاريخ أوّل الإسلام، و ابن الأثير فى جامع الأصول، و العلامه الكنجى فى كفايه الطالب، و محب الدين الطبرى فى الرياض النضره، و السيوطى فى الدر المنثور، و الآلوسى فى روح المعانى، و أورده جماعه آخرون فى كتبهم، و هو يبيّن أنّها إحدى الروايات المسلمه عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله و سلم لمزيد من الإيضاح يراجع إحقاق الحق، المجلد الثالث، صفحه ١١٠ و ما بعدها.

إنّ الإنسان لا يستطيع عادة أن يكتف ما ينطوى عليه ضميره لمدته طويله دون أن يظهر ذلك في كنايات كلامه و إشاراتة و لحنه، و لذلك نقرأ

في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ما أضمر أحد شيئاً إلاّ ظهر في فلتات لسانه، و صفحات وجهه» (١).

و قد ذكرت آيات القرآن الأخرى كلمات المنافقين الجارحه، و التي هي مصداق للحن القول هذا، أو حركاتهم المشبوهه، و لعلّه لهذا السبب قال بعض المفسرين: إنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلم كان يعرف المنافقين جيداً، من خلال علاماتهم، بعد نزول هذه الآيه.

و الشاهد على هذا الكلام هو أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلم أمر بأن لا يصلّي على من مات منهم و لا يقوم على قبره داعياً الله له: **وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ** (٢).

لقد كان الجهاد بالذات من المواقف التي كان المنافقون يعكسون فيها ما يعيشونه في داخلهم، و قد أشارت آيات كثيره في القرآن الكريم، و خاصّه في سوره التوبه و الأحزاب إلى وضع هؤلاء قبل الحرب حين جمع المساعدات و إعداد العده للحرب، و في أثناء الحرب في ساحتها إذا اشتد هجوم العدو و استعرت حملته، و بعد الحرب عند تقسيم الغنائم، حتى وصل الأمر بالمنافقين إلى أن يعرفهم حتى المسلمون العاديون في هذه المشاهد و المواقف.

و اليوم أيضاً لا- تصعب معرفه المنافقين من لحن قولهم و مواقفهم المضاده في المسائل الاجتماعيه المهمه، و خاصه عند الاضطرابات أو الحروب، و يمكن التعرف عليهم بأدنى دقه في أقوالهم و أفعالهم، و ما أروع أن يعي المسلمون أمرهم و يستيقظوا و يستلهموا من هذه الآيه تعليماتها ليعرفوا هذه الفئه الحاقده الخطره

ص: ٣٨٧

١-١) - نهج البلاغه، الكلمات القصار، الجمله ٢٦.

٢-٢) - التوبه، الآيه ٨٤.

و يفضحوها.

و أخيرا تضيف الآية: **وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ** فهو يعلم أعمال المؤمنين ما ظهر منها و ما بطن، و يعلم أعمال المنافقين، و إذا افترضنا أنّ هؤلاء قادرون على إخفاء واقعهم الحقيقي عن الناس، فهل باستطاعتهم إخفاءه عن الله الذي هو معهم في سرهم و علانيتهم، و خلوتهم و اجتماعهم؟ و تضيف الآية التالية مؤكّده و موضحة طرقا أخرى لتمييز المؤمنين عن المنافقين: **وَ كَتَبْنَا لَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ الْحَقِيقِينَ** من المتظاهرين بالجهاد و الصبر.

و مع أنّ لهذا الابتلاء و الاختبار أبعادا واسعة، و مجالات رحبه تشمل الصبر و الثبات في أداء كلّ الواجبات و التكليف، و لكن المراد منه هنا الامتحان في ساحه الحرب و القتال لمناسبتة كلمه «المجاهدين»، و الآيات السابقه و اللاحقه، و الحق أنّ ميدان الجهاد ساحه اختبار عسير و شديد، و قلّما يستطيع المرء أن يخفى واقعه في أمثال هذه الميادين.

و تقول الآية الأخيرة: **وَ تَبَلَّوْا أَنْبَارَكُمْ**.

قال كثير من المفسرين: إنّ المراد من الأخبار هنا أعمال البشر، و ذلك أن عملا ما إذا صدر من الإنسان، فإنّه سينتشر بين الناس كخبر.

و قال آخرون: إنّ المراد من الأخبار هنا: الأسرار الداخليه، لأنّ أعمال الناس تخبر عن هذه الأسرار.

و يحتمل أن تكون الأخبار هنا بمعنى الأخبار التي يخبر بها الناس عن وضعهم و عهودهم و مواعيقهم، فالمنافقون -مثلا- كانوا قد عاهدوا النبي صلى الله عليه و آله و سلّم أن لا يرجعوا عن القتال، في حين أنّهم نقضوا عهدهم: **وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَارَ (١)**.

ص: ٣٨٨

و نراهم فى موضع آخر: وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١).

و بهذا فإن الله سبحانه يختبر أعمال البشر، كما يختبر أقوالهم و أخبارهم. و طبقا لهذا التفسير فإن لهاتين الجملتين فى الآية مورد البحث معنيين متفاوتين، مع أن إحداهما تؤكد الأخرى طبقا للتفسير السابقه.

و على أية حال، فليست هذه المره الأولى التى يخبر الله سبحانه الناس فيها بأننى أبلوكم لتمييز صفوفكم، و ليعرف المؤمنون الحقيقون و ضعفاء الإيمان و المنافقون، و قد ذكرت مسأله الامتحان و الابتلاء هذه فى آيات كثيره من القرآن الكريم.

و قد بحثنا المسائل المتعلقة بالاختبار الإلهى فى ذيل الآية (١٥٥) من سورة البقره، و كذلك وردت فى بدايه سورة العنكبوت.

ثم إن جملته حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ لَا - تعنى أن الله لا - يعلمهم، بل المراد تحقق هذا المعلوم عمليا، و تشخيص هؤلاء المجاهدين، فالمعنى: ليتحقق علم الله سبحانه فى الخارج، و تحصل العينيه، و تتميز الصفوف.

ص: ٣٨٩

إشاره

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَ سَيُحِبُّ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤)

التفسير

إشاره

الذين يموتون على الكفر لن يغفر الله لهم:

بعد البحوث المختلفه التي دارت حول المنافقين في الآيات السابقه، تبحث هذه الآيات وضع جماعه أخرى من الكفار، فتقول: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَ سَيُحِبُّ أَعْمَالَهُمْ حتى وإن عملوا خيرا، لأنه لم يكن مقتربا بالإيمان.

هؤلاء يمكن أن يكونوا مشركي مكه، أو الكفار من يهود المدينه، أو كليهما، لأن التعبير ب«الكفر»، و«الصد عن سبيل الله»، و شاقوا الرسول قد ورد بحق

«أما «تبيين الهدى» فقد كان عن طريق المعجزات بالنسبة إلى مشركي مكة، و عن طريق الكتب السماوية بالنسبة إلى أهل الكتاب.

و«إحباط أعمالهم» إمّا أن يكون إشاره إلى أعمال الخير التي قد يقومون بها أحيانا كإقراء الضيف، و الإنفاق، و معونه ابن السبيل، أو أن يكون إشاره إلى عدم تأثير خطط هؤلاء و مؤامراتهم ضد الإسلام.

و على أيه حال، فقد كان هؤلاء الجماعه متّصفين بثلاث صفات: الكفر، و الصد عن سبيل الله، و العداة للنبي صلى الله عليه و آله و سلّم، إذ كانت إحداها تتعلق بالله سبحانه، و الأخرى بعباد الله، و الثالثه برسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم.

و بعد أن تبين حال المنافقين، و الخطوط العامه لأوضاعهم، و جّهت الآيه التاليه الخطاب إلى المؤمنين مبيّنه خطهم و حالهم، فقالت: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ .

في الواقع، إنّ أسلوب حياه المؤمنين و برنامجهم يقع في الطرف المقابل للكفار و المنافقين في كلّ شيء، فهؤلاء يعصون أمر الله سبحانه، و أولئك يطيعونه، هؤلاء يعادون النبي، و أولئك يطيعون أمر هو هؤلاء تحبط أعمالهم لكفرهم و ريائهم و منتهم، أما أولئك فإنّ أعمالهم محفوظه عند الله سبحانه و سيثابون عليها، لاجتنابهم هذه الأمور.

و على كلّ حال، فإنّ أسلوب الآيه يوحى بأنّ من بين المؤمنين أفرادا كانوا قد قصرُوا في طاعه الله و رسوله و في حفظ أعمالهم عن التلوث بالباطل، و لذلك فإنّ الله سبحانه يحذّرهم في هذه الآيه.

و الشاهد لهذا الكلام سبب النزول الذي ذكره البعض لهذه الآيه، و هو: إنّ «بنى أسد» كانوا قد أسلموا و أتوا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم فقالوا: إنّنا نؤثرك على أنفسنا، و نحن و أهلونا رهن إشارتك و أمرك. غير أنّ أسلوبهم في الكلام كانت تلوح منه المنّه،

فنزلت الآيه أعلاه، و حذرتهم من ذلك.

و استدل بعض الفقهاء بجملة: **وَلَا تُبْطَلُوا أَعْمَالَكُمْ عَلَى حَرَمِهِ قَطْعَ الصَّلَاةِ**، و لكن الآيه مورد البحث و ما قبلها و ما بعدها شاهده على أنها لا تتعلق بهذا الأمر، بل عدم الإبطال عن طريق الشرك و الرياء و المن و أمثال ذلك.

و جاءت الآيه الأخيره من هذه الآيات موضحة و مؤكده لما مرّ في الآيات السابقه حول الكفار، و تهدي إلى الصراط المستقيم من يريد التوبه إلى طريق الرجوع، فتقول: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** لأن أبواب التوبه ستغلق بنزول الموت، و يحمل هؤلاء أوزارهم و أوزار الذين يضلّونهم، فكيف يغفر الله لهم؟ و بهذا، فقد ورد الحديث في مجموع هذه الآيات عن ثلاث مجموعات: الكفار، و المنافقون، و المؤمنون، و تحدت صفات كل منهم و مصيره.

بحث

إشارة

عوامل إحباط ثواب العمل:

من المسائل الأساسية التي أكدت عليها آيات القرآن المختلفة، و منها الآيه مورد البحث، هي أن يحذر المؤمنون من أن تحبط أعمالهم كالكفار، و بتعبير آخر:

فإنّ نفس العمل شيء، و الحفاظ عليه شيء أهمّ، فإنّ العمل الصالح السالم المفيد، هو العمل الذي يكون منذ البدايه سالما من العيوب و أن يحافظ عليه من الخلل و العيب حتى نهايه العمر.

و العوامل التي تؤدي إلى إحباط أعمال الإنسان، أو تهددها بذلك الخطر كثيره، و من جملتها:

١- المن و الأذى كما يقول القرآن الكريم: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطَلُوا**

ص: ٣٩٢

صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

(١)

فهنا ذكر عاملان لبطلان العمل: أحدهما المنّ والأذى، والآخر الرياء والكفر، فالأول يأتي بعد العمل والثاني قرينه، وهما كالنار يحرقان الأعمال الصالحة.

٢- العجب عامل آخر في إحباط آثار العمل، كما

ورد ذلك في الحديث:

«العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» (٢).

٣- الحسد-أيضا-أحد هذه الأسباب، والذي ورد فيه تعبير شبيه بما ورد في العجب، فقد روى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» (٣).

و كما تذهب الحسنات السيئات إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ (٤)، فإن السيئات تمحو كل الحسنات أحيانا.

٤- المحافظة على الإيمان إلى آخر لحظات العمر، وهذا أهم شرط لبقاء آثار العمل، لأن القرآن يقول بصراحه: وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥).

من هنا نعرف أهميه و مشاكل و صعوبات مسألة المحافظة على الأعمال، و لذلك

ورد في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «الإبقاء على العمل أشد من العمل»، قال-أى الراوى-: وما الإبقاء على العمل؟ قال: «يصل الرجل بصله، و ينفق نفقه لله وحده لا شريك له فكتب له سراً، ثم يذكرها فتمحى فكتب له علانية، ثم

ص: ٣٩٣

(١-١) -البقره، الآيه ٢٦٤.

(٢-٢) -روح البيان، المجلد ٨، صفحه ٥٢٢.

(٣-٣) -بحار الأنوار، المجلد ٧٣، صفحه ٢٥٥.

(٤-٤) -هود، الآيه ١١٤.

(٥-٥) -الزمر، الآيه ٦٥.

يذكرها فتمحى و تكتب له رياء» (١).

و قد أشارت الآية-مورد البحث-إشاره خفيه إلى هذه الأمور حيث تقول:

وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ

(٢)

ص: ٣٩٤

١-١) -الكافي،المجلد الثاني،باب الرياء،الحديث ١٦.

٢-٢) -لمزيد من الإيضاح و التفصيل حول مسأله إحباط العمل راجع ذيل الآية(٢١٧)من سوره البقره.

اشاره

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالُكُمْ (٣٥)

التفسير

اشاره

الصلح المذل!!

متابعه للآيات السابقه التي كانت تتحدّث حول مسأله الجهاد، تشير هذه الآيه إلى أحد الأمور الهامه في مسأله الجهاد، وهو أنّ ضعفاء الإيمان يطرحون غالباً مسأله الصلح للفرار من مسئوليّه الجهاد، ومصاعب ميدان الحرب.

من المسلم أنّ الصلح خير و حسن جدّاً، لكن في محله، إذ يكون حينها صلحاً يحقق الأهداف الإسلاميه الساميه، و يحفظ ماء وجه المسلمين و حيثيتهم و هيبتهم و عظمتهم. أمّا الصلح الذي يؤدي إلى ذلتهم و انكسار شوكتهم فلا، و لذلك تقول الآيه الشريفه: الآن و قد سمعتم الأوامر الإلهيه في الجهاد فلا تهنّوا و تدعوا إلى السلم و أنتم الأعْلَوْنَ (١).

أى: الآن و قد لاحت علائم انتصاركم و تفوّقكم، كيف تذلّون أنفسكم و ترضون

ص: ٣٩٥

١ - ١) - «تدعوا» مجزوم، و هو معطوف على (لا تهنوا)، و المعنى: لا تهنوا و لا تدعوا إلى السلم.

بالمهانه باقتراح الصلح الذى لا يعنى إلا التراجع و الهزيمة؟فليس هذا صلحا فى الواقع،بل هو استسلام و خضوع ينبع من الضعف و الانهيار، و هو نوع من طلب الراحة و العافيه،و يقبح بكم أن تتحملوا عواقبه الأليمه الخطره.

□
و من أجل رفع معنويات المسلمين المجاهدين تضيف الآيه: **وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتْرُكُمْ أَعْمَالُكُمْ** فَإِنَّ من كان الله معه تكون كل عوامل الإنتصار مسخره له، فلا يحس بالوحشه أبدا،و لا يدع للضعف و الانهزام سبيلا إلى نفسه،و لا يستسلم للعدو باسم الصلح و لن يدع نتائج دماء الشهداء و مكاسبها تذهب سدى فى اللحظات الحساسه.

لَنْ يَتْرُكُمْ

من ماده «الوتر»،و هو المنفرد،و لذلك يقال لمن قتل قريبه،و بقى وحيدا:وتر.و جاء أيضا بمعنى النقصان.

و فى الآيه-مورد البحث-كنايه جميله عن هذا المطلب،بأن الله سبحانه لن يترككم وحدكم،بل سيقرنكم بثواب أعمالكم،خاصه و أنكم تعلمون أنكم لن تخطوا خطوه إلا كتبت لكم،فلم يكن الله لينقص من أجركم شيئا،بل سيضاعفه و يزيد عليه من فضله و كرمه.

□
اتضح ممّا قلناه أنّ الآيه مورد البحث لا تنافى مطلقا الآيه (٦١) من سوره الأنفال حيث تقول: **وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ لنجعل إحداهما ناسخه للأخرى،بل إنّ كلا منها ناظره إلى مورد خاص، فأحداهما تنظر إلى الصلح المعقول، و الأخرى إلى الصلح الذى ليس فى محله فإنّ أحدهما صلح يحفظ مصالح المسلمين،و الآخر صلح يطرحه ضعفاء المسلمين و هم على أبواب النصر،و لذلك فإنّ تنمّه آيه سوره الأنفال تقول: **وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ** .

و

قد أشار أمير المؤمنين على عليه السلام إلى كلا الصالحين فى عهده لمالك الأشر،

حيث يقول: «و لا تدفعنّ صلحا دعاك إليه عدوك و لله فيه رضى» (١).

إنّ طرح قضيه الصلح من ناحيه العدو من جهه، و كونه مقتربنا برضى الله سبحانه من جهه أخرى، يبين انقسام الصلح إلى القسمين اللذين أشرنا إليهما فيما قلناه.

و على أيه حال، فإنّ أمراء المسلمين و أولياء أمورهم يجب أن يكونوا في غايه الحذر في تشخيص موارد الصلح و الحرب، و التي هي من أعقد المسائل و أدقّها، لأنّ أدنى اشتباه في المحاسبه سيستتبع عواقب و خيمه في هذا المجال.

ص: ٣٩٧

١ - ١) - نهج البلاغه، الرساله ٥٣.

اشاره

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْئَلْكُمْ هَا فَيُخْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعُونَ لِنُفُوقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)

التفسير

اشاره

إن تولوا سيمنح الله رساله قوما آخرين:

قلنا: إن سوره محمّد هي سوره الجهاد، فبأمر الجهاد بدأت، و به تنتهي، و الآيات مورد البحث -و هي آخر آيات هذه السوره- تتناول مسأله أخرى من مسائل حياه البشر في هذا الميدان، فتطرح كون الحياه الدنيا لا قيمه لها لزياده ترغيب المسلمين و دعوتهم إلى طاعه الله سبحانه عموماً، و إلى أمر الجهاد بالخصوص، لأنّ حبّ الدنيا و الانشداد إليها أحد عوامل المهمّه التي تعوّق عن

الجهاد، فتقول: إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ .

«اللعب» يقال للأعمال التى تتصف بنوع من الخيال للوصول إلى هدف خيالى، و«اللهو» يقال لكل عمل يشتغل الإنسان به فيصرفه عن المسائل الأساسية.

و الحق أنّ الدنيا لعب و لهو ليس إلاّ- فلا يحصل منها أنس و ارتياح، و ليس لها دوام و بقاء، و إنّما هى لحظات كلمح البصر، و لذات زائله تحفّها الآلام و المتاعب.

ثمّ تضيف الآية: وَ إِنْ تُوْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (١) فلا أنّ الله يسألكم أجرا مقابل الهدايه و الرشاد و كلّ تلك الهبات العظيمه فى الدنيا و الآخره، و لا رسوله، فإنّ الله تعالى غنى عن العالمين، و لا يحتاج رسوله إلى غير الله.

و إذا كان الشىء الزهيد من أموالكم يؤخذ كزكاه و خمس و حقوق شرعيه أخرى، فإنّه يعود عليكم و يصرف فيكم، لحيمايه يتاماكم و مساكينكم و ضعفائكم و أبناء السبيل منكم، و للدفاع عن أمن بلادكم و استقلالها، و لاستقرار النظام و الأمن، و لتأمين احتياجاتكم، و عمران دياركم.

بناء على هذا، فحتى هذا المقدار اليسير هو من أجلكم و منفعتكم، فإنّ الله و رسوله فى غنى عنكم، و بذلك فلا منافاه بين مفهوم هذه الآيه و آيات الزكاه و الإنفاق و أمثالها.

ثمّه احتمالات أخرى عديده فى تفسير جمله: وَ لَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ و لرفع ما يبدو فى الظاهر تناقضا:

فقال البعض: إنّّه تعالى لا يسألكم شيئا من أموالكم مقابل الهدايه و الثواب.

و قال آخرون: إنّّه تعالى لا يسألكم كلّ أموالكم، بل يريد قسما منها فقط.

و قال جماعه: إنّ هذه الجملة إشاره إلى أنّ أموال الجميع من الله سبحانه، و إن كانت ودائع بأيدينا أيّاما قليله.

ص: ٣٩٩

(١-١) - جمله (لا يسألكم) مجزومه، و معطوفه على جزاء الجملة الشرطيه، أى: يؤتكم.

لكن أفضلها جميعا هو التفسير الأول.

و على أية حال، فلا ينبغي نسيان أنّ جانبا من الجهاد هو الجهاد بالأموال، و من الطبيعي أنّ كلّ جهاد للعدو و قتال ضده يحتاج إلى أموال و ميزانيات يجب أن تجمع و تهَيّأ من قبل المسلمين الزاهدين فى الدنيا و غير المتعلقين بها. و الآيات مورد البحث تهىء فى الحقيقة-الأرضيه الفكرية و الثقافيه لهذه المسأله.

و لتبيان تعلق أغلب الناس بأموالهم و ثروتهم الشخصيه تضيف الآيه التاليه:

إِنْ يَسْئَلْكُمْ مَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ

«يحفكم» من ماده إحفاء، أى: الإصرار و الإلحاح فى المطالبه و السؤال، و هى فى الأصل من حفا، و هو المشى حافيا، و هذا التعبير كناية عن الأعمال التى يتابعها الإنسان إلى أبعد الحدود، و من هنا كان إحفاء الشارب يعنى تقصيره ما أمكن.

و«الأضغان» جمع ضغن، و هو بمعنى الحقد الشديد، و قد أشرنا إليه سابقا.

و خلاصه القول: فإنّ الآيه تبين التعلق الشديد لكثير من الناس بالأموال المالىه، و هى فى الحقيقة نوع من اللوم و لتوبيخ لهؤلاء، و فى نفس الوقت ترغيب فى ترك هذا الارتباط، و تشويق إلى هذا المعنى، فإنّ تعلقهم بلغ حدّا أنّ الله سبحانه إذا سألهم شيئا من أموالهم فإنهم يغضبون و يحقدون عليه! و بذلك فإنّ الآيه ترديد أن توقظ أرواح البشر الغاطّه فى نومها العميق بسوط التقرير و الملامه و العتاب، ليرفعوا عن أعناقهم قيود الذل و العبوديه للأموال، و يصبحوا فى حال يضخون عندها بكلّ ما لديهم فى سبيل الله، و يقدّمون ما عندهم بين يديه، و لا يرجون فى مقابل ما يعطون إلاّ الإيمان به و تقواه و رضاه عنهم.

و الآيه الأخيره-من الآيات مورد البحث، و هى آخر آيه من سوره محمّد- تأكيد آخر على ما مرّ فى الآيات السابقه حول المسائل الماديه و تعلق الناس بها، و مسأله الإنفاق فى سبيل الله، فتقول: **هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ .**

و هنا يأتى سؤال، وهو: إن الآيات السابقة قد ذكرت أن الله لا يسألكم أموالكم، فكيف أمرت هذه الآية بالإنفاق فى سبيل الله؟ غير أن تتمه الآية تجيب عن هذا السؤال عن طريقين، فتقول أولاً: وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّهُ يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ (١) لأن ثمره الإنفاق تعود عليكم أنفسكم فى الدنيا والآخرة، حيث يقل التفاوت الطبقي، وعندها سيعم الأمن والهدوء فى المجتمع، وتحل المحبة والصفاء محل العداوة والحقد. هذا ثوابكم الدنيوى.

و أما فى الآخرة، فستمنحون مقابل كل درهم أو دينار تنفقونه الهبات والنعمة العظيمة التى لم تخطر على قلب بشر، وعلى هذا فإن من يبخل يبخل عن نفسه! وبتعبير آخر: فإن الإنفاق هنا يعنى أكثر ما يعنى الإنفاق فى أمر الجهاد، والتعبير بـ فى سبيل الله يلائم هذا المعنى أيضاً، ومن الواضح أن أى نوع من المساهمة فى تقدم أمر الجهاد سيضمن وجود المجتمع واستقلاله و شرفه.

و الجواب الآخر هو: وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَالْغَنِيُّ وَالْفُقَرَاءُ فهو غنى عن إنفاقكم فى سبيله، و غنى عن طاعتكم، وإنما أنتم الفقراء إلى لطفه و رحمته و ثوابه و كرمه فى الدنيا والآخرة.

إن الموجودات الممكنة- وما سوى الله سبحانه- متسربله فى الفقر جميعاً، و الغنى بذاته هو الله سبحانه لا غير، فإنها فقيرة إليه دائماً، حتى فى أصل وجودها، و تستمد العون من منبع الفيض الأزلى كل لحظة، فإذا انقطعت عنها رعايته و لطفه لحظه، فسيتهدى وجودها، و تحز أبدانها جثثاً هامده! و تحذر الجملة الأخير جميع المسلمين أن اعرفوا قدر هذه النعمة الجليلة، و الموهبة العظيمة، حيث جعلكم سبحانه حماه دينه القويم و أنصار دينه و أتباع رسوله و أصحابه، فحذار أن تقصروا فى تعظيم هذه النعمة و إكبارها، إذ: وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ .

ص: ٤٠١

أجل، إنَّ هذا الحمل لن يسقط على الأرض أبداً، وهذه الرسالة العظيمة لا يمكن أن يتوقف مسيرها، فإنَّ أنتم لم تستمروا في موقفكم في الذب عن دين الله، و استصغرت شأن هذه الرسالة العظيمة، فإنَّ الله سبحانه سوف يأتي بقوم يتحملون أعباء هذه الرسالة.. أولئك قوم يفوقونكم مرات في الإيثار و التضحية و بذل الأنفس و الأموال و الإنفاق في سبيل الله! و قد جاء نظير هذا التهديد في الآية (٥٤) من سورة المائدة، حيث تقول: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ .**

و الطريف أنَّ أكثر المفسرين قد نقلوا في ذيل الآية-مورد البحث-

أنَّ جماعه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم سألوه بعد نزول هذه الآية: من هؤلاء الذين ذكرهم الله في كتابه؟ و كان «سلمان» جالسا قريبا من النبي صلى الله عليه و آله و سلم، فضرب النبي صلى الله عليه و آله و سلم بيده على فخذ سلمان- و في روايه على كتفه- و قال: «هذا و قومه، و الذي نفسى بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس».

لقد أورد هذا الحديث و أمثاله محدثو السننه المعروفون في كتبهم المعروفه، كالبيهقي و الترمذي، و عليه اتفاق مفسري الشيعة و السننه المشهورين، كصاحب تفسير القرطبي، و روح البيان، و مجمع البيان، و الفخر الرازي، و المراعي، و أبي الفتوح الرازي و أمثالهم.

و ورد في تفسير الدر المنثور عدده أحاديث في هذا الباب في ذيل الآية مورد البحث (١).

و

روى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، يكمل الحديث السابق، إذ يقول:

«و الله أبدل بهم خيرا منهم الموالى» (٢).

ص: ٤٠٢

١- (١) - الدر المنثور، المجلد ٦، صفحه ٦٧.

٢- (٢) - تفسير مجمع البيان، الجزء ٩، صفحه ١٠٨.

إذا نظرنا إلى تاريخ الإسلام و العلوم الإسلاميه بدقه، و بنظره بعيده عن التعصب، و لا حظنا سهم المسلمون غير العرب الإيرانيين خاصه-في ميادين الجهاد و محاربه العدو من جهه، و تنقيح العلوم الإسلاميه، و تدوينها من جهه أخرى، فسنطلع على حقيقه هذا الحديث، و تفصيل هذا الكلام طويل.

اللهم! ثبت أقدامنا في طريق الجهاد و الإيثار و التضحيه في سبيل دينك القويم.

اللهم! لا تسلبنا ما منحتنا من الفخر العظيم إذ جعلتنا دعاه لدينك الحنيف.

إلهنا! زد في قوتنا و إيماننا، و تضحياتنا و إخلاصنا في هذا الوقت الذي هبت فيه عواصف الشرق و الغرب الهوجاء لمحو آثار دينك.

أمين يا رب العالمين.

نهايه سوره محمد ***

ص: ٤٠٣

سوره الفتح

اشاره

مدتيه و عدد آياتها تسع و عشرون آيه

ص: ٤٠٥

محتوى السوره

هذه السوره كما هو ظاهر من اسمها تحمل رساله الفتح و النصر! الفتح و النصر على أعداء الإسلام، الفتح المبين و الأكيد «سواء كان هذا الفتح متعلقا بفتح مكّه أو بصلح الحديبيه أو فتح خيبر أو كان هذا الفتح بشكل مطلق».

و من أجل أن نفهم محتوى هذه السوره فينبغى أن نعرف-قبل كلّ شيء-أنّ هذه السوره نزلت فى السنه السادسه للهجره بعد قضيه «صلح الحديبيه».

و بيان ذلك..أنّ النبى الكريم صلى الله عليه و آله و سلّم صمّم فى السنه السادسه للهجره مع أصحابه من المهاجرين و الأنصار و باقى المسلمين أن يتحرّكوا نحو مكّه للعمرة، و كان من قبل قد أخبر المسلمين بأنّه رأى رؤيا فى منامه و كأنّه مشغول بأداء مناسكه مع أصحابه فى المسجد الحرام معتمرين فعقد المسلمون إحرامهم عند «ذى الحليفه» «المنطقه التى تقرب من المدينه المنوره» و تحرّكوا نحو مكّه المكرّمه فى إبل كثيره لتنحر «يوم الهدى» هناك.

و كانت الحاله التى يتحرك النبى صلى الله عليه و آله و سلّم عليها توحى بصوره جيده أنّه لا هدف لديه سوى هذه العباده الكبرى...إلى أن وصل النبى منطقته الحديبيه «و هى قريه على مقربه من مكّه و لا تبعد عنها أكثر من عشرين كيلو مترا».

إلا أنّ قريشا علمت بوصول النبى إلى الحديبيه فأوصدت بوجهه الطريق و منعت من الدخول إلى مكّه المكرمه.

و بهذا ألغت قريش جميع السنن التي ترتبط بأمن المسجد الحرام و ضيوف الله و الشهر الحرام و وضعتها تحت أقدامها.. إذ كانت تعتقد بحرمه الأشهر الحرام«و من ضمنها شهر ذى القعدة الذى عزم النبي صلى الله عليه و آله و سلم فيه على العمرة» و خاصه إذا كان الناس حال الإحرام فلا ينبغي التعرض لهم حتى لو كان المحرم قاتل واحد من رجالهم، و رئي محرما فى مناسكه فلا يمس بسوء أبدا».

و فى هذا المكان أى«الحدييه» جرى ما جرى بين رسول الله و المشركين من الكلام حتى انتهى إلى عقد معاهده الصلح بين المسلمين و بين المشركين من أهل مكه و قد سمى هذا الصلح بصلح الحدييه و ستحدث عنه فى الصفحات المقبله بإذن الله.

و على كل حال فقد منع النبي أن يدخل مكه و يؤدى مناسك العمرة.. فاضطر النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يأمر أصحابه بأن ينحروا إبلهم و يحلقوا رؤوسهم و يحلوا من إحرامهم! و أن يعودوا نحو المدينه! و هنا غمر المسلمين طوفان من الحزن و الغم و ربما تغلب الشك و التردد على قلوب بعض الأفراد ضعيفى الإيمان! و عن عبد الله بن مسعود قال: أقبل رسول الله من الحدييه فجعلت ناقته تثقل فتقدمنا فأنزل الله عليه **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** فأدركنا رسول الله و به من السرور ما شاء الله. فأخبر أنها نزلت عليه (١).

و من هنا فإنه يبدو واضحا هذا الجو الخاص الحاكم على هذه السوره و بمراجعته إجماليه للسوره يمكن القول إنها تتألف من سبعة أقسام!..

١- تبدأ السوره بموضوع البشرى بالفتح كما أن آياتها الأخيره لها علاقه بهذا الموضوع أيضا، و فيها تأكيد على تحقق رؤيا النبي التي تدور حول دخوله و أصحابه مكه و أداء مناسك العمرة.

ص: ٤٠٨

(١-١) -مجمع البيان، سوره الفتح، و مثله فى تفسير القمى و فى ظلال القرآن.

٢- يتحدّث قسم آخر من هذه السوره عن الحوادث المتعلّقه بصالح الحديبيه و نزول السكينه على قلوب المؤمنين و«بيعه الرضوان» و ما إلى ذلك!..

٣- و يتحدّث قسم ثالث منها عن مقام النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم و هدفه الأسمى.

٤- و يكشف القسم الرابع الستار عن غدر المنافقين و نقضهم العهد و نكثهم له و يعطى أمثله من أعدارهم الواهيه فى مسأله عدم مشاركتهم النّبي جهاده المشركين و الكفّار.

٥- و فى قسم آخر يقع الكلام على طلبات «المنافقين» فى غير محلّها.

٦- و القسم السادس يوضح من هم المعذورون الذين لا- حرج عليهم! ٧- و أخيراً... فإنّ القسم السابع يتحدّث عن خصائص أصحاب النّبي و أتباعه فى طريقته و سنّته و صفاتهم التى يتميّزون بها.. و بشكل عام فإنّ آيات هذه السوره حسّاسه للغايه كما أنّها مصيريه و خاصّه لمسلمى اليوم الذين يواجهون الحوادث المختلفه فى مجتمعاتهم الإسلاميه فيها إلهام كبير لهم!...

فضيله تلاوه سوره الفتح:

تلاحظ روايات عجيبيه فى فضيله هذه السوره فى المصادر الإسلاميه فى حديث عن أنس أنّه قال: حين كنّا نعود من الحديبيه و كان المشركون قد منعونا من الدخول الى مكّه و أداء مناسك العمرة فكنا فى حزن و غم شديدين فأنزل الله آيته **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا...**

فقال النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم: «لقد أنزلت على آيه هى أحبّ إلى من الدنيا كلّها» و

فى بعض الروايات: «لقد أنزلت على سوره هى أحبّ من الدنيا كلّها» (١).

و يقول عبد الله بن مسعود حين كنّا نرجع من الحديبيه و نزلت **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ**

ص: ٤٠٩

النبي سرّ سرورا لا يعلم مداه إلا الله (١).

و نقرأ

في حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «من قرأها فكأنما شهد مع محمد فتح مكة». و

في روايه «فكأنما كان مع من بايع محمدا تحت الشجرة» (٢).

و أخيرا نقرأ

حديثا للإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «حصّينا أموالكم و نساءكم و ما ملكت إيمانكم من التلف بقراءة [□] [□] إِنَّا فَتَحْنَا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مَمَّنْ يَدْمَنُ قِرَاءَتَهَا نَادَى نَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَسْمَعَ الْخَلَائِقُ أَنَّكَ مِنْ عِبَادِي الْمَخْلِصِينَ، الْحَقْوَةَ بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِي وَ أَدْخَلُوهُ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَ اسْقَوْهُ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ بِمَزَاجِ الْكَافُورِ» (٣).

و من الواضح أنّ كلّ هذه الفضيله و الفخر لا يحصل بتلاوه خاليه من التفكّر، بل الهدف الأصلي من تلاوه هذه السوره هو تطبيق أعمال القارئ و خلقه و طبعه على مفاد هذه السوره و مضامينها.

ص: ٤١٠

١-١ - المصدر السابق، ص ١٠٩.

٢-٢ - مجمع البيان الجزء التاسع، ص ١٠٨.

٣-٣ - ثواب الأعمال طبقا لما ورد في تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٤٦.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنْ أَنْزَلْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)

التفسير

اشاره

الفتح المبين:

في الآيه الأولى من هذه السوره بشرى عظيمه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بشرى هي عند النبي طبقا لبعض الروايات أحب إليه من الدنيا وما فيها إذ تقول الآية: إِنْ أَنْزَلْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا .

...فَتْحًا مُبِينًا

تظهر آثاره في حياة المسلمين في فتره وجيزه، و في فتره مديده أيضا..و ذلك في انتشار الإسلام...فتحا يقل نظيره أو ينعدم نظيره في طول تاريخ الإسلام و على امتداده.

و هنا كلام عريض و بحث طويل بين المفسرين...حول المراد من هذا الفتح أى فتح هو؟! فأكثر المفسرين يرون أنه إشاره إلى ما كان من نصيب للمسلمين من الفتح الكبير على أثر «صلح الحديبيه» (١) .

ص: ٤١١

و بعض ذهبوا إلى أنه «فتح مكّه».

و آخرون قالوا بأنه «فتح خيبر».

و آخرون أنه إشارة إلى انفتاح أسرار العلوم على النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

غير أن قرائن كثيرة لدينا ترجح أن هذا الفتح هو ما يتعلّق بموضوع صلح الحديبيه.

و من الأفضل و قبل اللوج في تفسير الآيات أن نعرض و لو بشكل مضغوط قصه صلح الحديبيه ليُتضح «المقام» و ليكون هذا العرض الموجز بمثابة شأن نزول الآيات أيضا.

قصه «صلح الحديبيه»:

في السنه السادسه للهجره و في شهر ذى القعده منها تحرّك النبي نحو مكّه لأداء مناسك العمرة و رغب المسلمين جميعا في هذا الأمر.. غير أن قسما منهم امتنع عن ذلك، في حين أن معظم المهاجرين و الأنصار و جماعه من أهل الباديه عزموا على الاعتمار (1) مع النبي فساروا نحو مكّه!...

فأحرم هؤلاء المسلمون الذين كانوا مع النبي و كان عددهم في حدود «الألف و الأربعمائه» و لم يحملوا من أسلحه الحرب شيئا سوى السيوف التي كانت تعدّ أسلحه للسفر فحسب!.

و لثما وصل النبي إلى «عسفان» التي لا تبعد عن مكّه كثيرا أخبر أن قريشا تهيّأت لصدّه و صمّت على منعه من الدخول إلى مكّه. و لما بلغ النبي الحديبيه [و هي قريه على مسافه عشرين كيلو مترا من مكّه و سميت بذلك لوجود بئر فيها

(1)

الصافي و العلامه الطباطبائي في الميزان.. في حين أن بعض المفسرين يرجحون أن المراد من هذا الفتح هو فتح مكّه كما هو في تفسير التبيان للطوسي، و الكشاف للزمخشري و تفسير الفخر الرازي و غيرهم.. أما العلامه الطبرسي فقد جمع بين القولين في مجمع البيان مع أقوال أخرى إلا أنه يميل إلى تفسير الطائفه الثانيه..

ص: ٤١٢

١- ١) -الاعتمار مصدر من: اعتمر و العمرة أو اسم مصدر من عمر و كلا المصدرين بمعنى واحد و هو الزياره مطلقا (لغه) غير أنه اصطلاح عليهما في زياره بيت الله خاصه.

أمر أصحابه أن يحطوا رحالهم فيها. فقالوا: يا رسول الله ليس هنا ماء ولا - كلاً فهياً النبي عن طريق الاعجاز لهم ماء من البئر الموجوده في تلك المنطقه.. و بدأ التزاور بين سفراء النبي و ممثليه و سفراء قريش و ممثلها لتحل المشكله على أى نحو كان، و أخيرا جاء عروه بن مسعود الثقفى الذى كان رجلا- حازما عند النبي فقال له النبي: «إننا لم نجىء لقتال أحد و لكن جننا معتمرين...».

و هذا و قد لاحظ عروه الثقفى، ضمنا حاله الأصحاب و هم يكتنفون نبيهم عند وضوئه فلا يدعون قطره تهوى إلى الأرض منه.

و حين رجع عروه إلى قريش قال: لقد ذهبت إلى قصور كسرى و قيصر و النجاشى فلم أرقائدا فى قومه فى عظمته كعظمه محمد بين أصحابه... و قال عروه لرجال قريش أيضا إذا كنتم تتصورون أن أصحاب محمد يتركونه فأنتم فى خطأ كبير... فأنتم فى مواجهه أمثال هؤلاء الرجال الذين يؤثرون على أنفسهم فاعرفوا كيف تواجهونهم؟! ثم أن النبي أمر عمر أن يمضى إلى مكه ليطلع أشراف قريش على الهدف من سفر النبي فاعتذر عمر و قال إن بينه و بين قريش عداوه شديده و هو منها على حذر فالأفضل أن يرسل عثمان بن عفان ليبادر إلى هذا العمل، فمضى عثمان إلى مكه و لم تمض فتره حتى شاع بين المسلمين خبر مفاده أن عثمان قتل، فاستعد النبي لأن يواجه قريشا بشده! فطلب بتجديد البيعه من أصحابه فبايعوه تحت الشجره بيعه سميت «بيعه الرضوان» و تعاهدوا على مواصلة الجهاد حتى آخر نفس؛ إلا أنه لم يمض زمن يسير حتى عاد عثمان سالما و أرسلت قريش على أثره سهيل بن عمرو للمصالحه مع النبي غير أنها أكدت على النبي أنه لا يدخل مكه فى عامه هذا أبدا.

و بعد كلام طويل تم عقد الصلح بين الطرفين و كان من مواده ما بيناه آنفا و هو أن يغض المسلمون النظر عن موضوع العمره لذلك العام و أن يأتوا فى العام القابل

الى مكّه شريطه أن لا يمكثوا فى مكّه أكثر من ثلاثه أيام و أن لا يحملوا سلاحا غير سلاح السفر كما كان من مواد العقد أمور أخرى تدور حول سلامه الأرواح و الأموال التى تعود للمسلمين و الذين يأتون مكّه منهم [من قبل المدينه]

و من مواد العقد أيضا إيقاف القتال بين المسلمين و المشركين لعشر سنين و أن يكون مسلمو مكّه أحرارا فى أداء مناسكهم و فرائضهم الإسلاميه.

و كان هذا العقد [أو هذه المعاهده]

بمثابه عدم التعرض لكلا الجانبين و لحسم المعارك المستمره بين المسلمين و المشركين بصوره مؤقتة.

و كان مؤدى هذه المعاهده و ما يتضمّنه عقد الصلح بالنحو التالى:

«قال النبى لعلى اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم: فقال سهيل بن عمرو الذى كان سفير المشركين لا أعرف هذه العبارة بل ليكتب بسمك اللهم! فقال النبى لعلى اكتب: بسمك اللهم: ثم قال النبى لعلى اكتب: هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو كنّا نعرفك رسول الله لما حاربناك فاكتب اسمك و اسم أبيك فحسب. فقال النبى: لا مانع من ذلك اكتب هذا ما صالح عليه محمّد بن عبد الله سهيل بن عمرو أن يترك القتال عشر سنين ليجد الناس مأمّنهم ثانيه، و إضافه إلى ذلك من يأت محمّدا من قريش مسلما دون إذن وليه فيجب إعادته الى أهله و من جاء قريشا من أصحاب محمّد فلا يجب إعادته إلى محمّد! و الجميع أحرار فمن شاء دخل فى عهد محمّد و من شاء دخل فى عهد قريش! و يتعهّد الطرفان أن لا يخون كلّ منهما [صاحبه]

الآخر و أن يحترم ماله و نفسه! ثم بعد هذا ليس لمحمّد هذا العام أن يدخل مكّه، لكن فى العام المقبل تخرج قريش من مكّه لثلاثه أيام و يأتى محمّد و أصحابه إلى مكّه على أن لا يمكثوا فيها أكثر من ثلاثه أيام و يؤدّوا مناسك العمره ثم يعودوا إلى أهلهم شريطه أن لا يحملوا معهم سلاحا سوى السيف الذى هو من عده السفر و أن يكون فى الغمد و شهد على هذه المعاهده جماعه من المسلمين و جماعه من المشركين و أملى المعاهده على

بن أبي طالب عليه السلام» (١).

و ذكر العلامة المجلسي في «بحار الأنوار» مواد أخرى منها:

«ينبغي أن يكون الإسلام في مكة غير خفي و أن لا يجبر أحد في اختيار مذهبه و أن لا ينال المسلمين أذى من المشركين» (٢).

و هذا المضمون كان موجودا في التعبير السابق بصورة إجمالية.

و هنا أمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن تنحر الإبل التي جيء بها مع المسلمين و أن يحلق المسلمون رؤوسهم و أن يتحللوا من إحرامهم!..

لكن هذا الأمر كان على بعض المسلمين عسيره للغاية و غير مستساغ أيضا..

لأنّ التحلل من الإحرام في نظرهم دون أداء العمره غير ممكن!! لكنّ النبي تقدّم بنفسه و نحر «هدية» و تحلّل من إحرامه و أشعر المسلمين أنّ هذا «استثناء» في قانون الإحرام أمر به الله سبحانه نبيّه! و لمّا رأى المسلمون ذلك من نبيّهم أذعنوا للأمر الواقع و نفذوا أمر النبي بدقه و عزموا على التوجّه نحو المدينة من هناك، غير أنّه كان بعضهم يحسّ كأنّ جبلا من الهم و الحزن يجثم على صدره لأنّ ظاهر القضية أنّ هذا السفر كان غير موفق بل مجموعه من الهزائم! لكنّ مثل هذا و أضرابه لم يعلموا ما ينطوى وراء صلح الحديبيه من انتصارات للمسلمين و لمستقبل الإسلام. و في ذلك الحين نزلت سوره الفتح و أعطت للنبي الكريم بشري كبرى بالفتح المبين (٣).

ص: ٤١٥

١-١) -منقول بتصرّف يسير عن تأريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٨١.

٢-٢) -بحار الأنوار، الجزء العشرون، ص ٣٥٢.

٣-٣) -راجع سيره ابن هشام، ج ٣، ص ٣٢١-٣٢٤، تفسير مجمع البيان و تفسير في ظلال القرآن و الكامل لابن الأثير، ج ٢ و مصادر أخرى [مع شيء من التلخيص طبعا].

يُتضح بمقاييسه إجماليه بين حال المسلمين في السنه السادسه للهجره «أى عند صلح الحديبيّه» و حالهم بعدها بستين حيث تحرّك المسلمون لفتح مكّه بعشره آلاف مقاتل ليردّوا على نقض العهد بشدّه، و قد فتحوا مكّه دون أيه مواجهه عسكريه لأنّ قريشا لم تجد في نفسها القدره على المقاومه أبدا.

يُتضح بهذه المقاييسه الإجماليه -سعه ردّ الفعل- التي أحدثتها معاهده صلح الحديبيّه!..

و باختصار فإنّ المسلمين حصلوا على امتيازات عديده من وراء هذا الصلح و فتحا كبيرا نذكرها على النحو التالي:

١- بينوا عمليا للمضللين من أهل مكّه أنّهم ليس لديهم تيه للحرب و سفك الدماء و أنّهم يحترمون مكّه و كعبتها المقدسه و كان هذا الأمر سببا لاكتساب قلوب الكثيرين نحو الإسلام.

٢- اعترفت قريش لأوّل مرّه بالإسلام و المسلمين «بصوره رسميه» و كان ذلك سببا لتثبيت موقعهم في جزيره العرب!...

٣- استطاع المسلمون بعد صلح الحديبيّه أن يمضوا حيث يشاءون و أن تبقى أرواحهم و أموالهم في مأمن من الخطر و اتصلوا بالمشرّكين من قريب اتصالا أثمر نتيجته، فكان أن عرف المشركون الإسلام بصوره أكثر و استرعى أنظارهم نحوه!.

٤- انفتح الطريق بعد صلح الحديبيّه لنشر الإسلام في الجزيره العربيّه. و أثار موقف النّبي الإيجابي من الصلح القبائل العربيّه و أصلح نظرتها إلى الإسلام و رسوله الكريم. و حصل المسلمون على مجال إعلامي واسع في هذا الصدد.

٥- هيأ صلح الحديبيّه الطريق لفتح «خير» و استئصال هذه الغده السرطانيه «التمثله باليهود» و التي كانت تشكل خطرا مهمّا «بالفعل و القوّه» على الإسلام و المسلمين!

٦-و أساسا فإن استيحاء قريش من مواجهه الجيش الذى كان يتألف من ألف و أربعمائه مسلم فحسب و لا يحمل أى منهم سلاحا سوى سلاح السفر و قبول قريش بمعاهده الصلح كان بنفسه أيضا عاملا مهما على تقويه المعنويات عند المسلمين و هزيمه أعداء الإسلام إلى درجه أنهم كانوا يتهيّبون من مواجهه المسلمين!.

٧-و بعد صلح الحديبيه كتب النبى صلى الله عليه و آله و سلم كتبا و(رسائل)متعدده إلى رؤساء الدول الكبرى(إيران و الروم و الحبشه)و ملوك العالم البارزين يدعوهم فيها إلى الإسلام،و هذا بنفسه يدل على أن صلح الحديبيه أعطى المسلمين الثقه بأنفسهم و أن يفتحوا لا على الجزيره العربيه فحسب بل على آفاق العالم قاطبه!*** و الآن لنعد ثانيه إلى تفسير الآيات!...

نستطيع أن ندرك ممّا ذكر آنفاً-بشكل جيد-أنّ صلح الحديبيه كان بحق انتصارا للإسلام و فتحا للإسلام و المسلمين فلا غرابه أن يعتبر عنه القرآن بالفتح المبين!.

ثم بعد هذا كله فإن هناك قرائن كثيره تؤيد هذا التفسير..

١-جمله-فتحنا-التي جاءت بصيغه الفعل الماضى تدل على أنّ هذا الأمر قد تحقق عند نزول الآيات فى حين أنّه لم يكن وقتئذ أى شىء سوى صلح الحديبيه!.

٢-زمان نزول الآيات المشار إليها آنفاً و الآيات الأخرى المذكوره فى هذه السوره التى تمدح المؤمنين و تذم المنافقين و المشركين فى صلح الحديبيه كلّ ذلك شاهد آخر على هذا المعنى،و الآية(٢٧)من سوره الفتح التى تؤكّد على تحقق رؤيا النبى صلى الله عليه و آله و سلم لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤْسَهُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ هى شاهد بليغ على أنّ

هذه السوره نزلت بعد الحدييّه و قبل فتح مكّه!

٣- هناك روايات كثيره تعبر عن صلح الحدييّه بأنه «الفتح المبين»! و من ضمنها ما ورد في تفسير «جوامع الجامع» أنه حين كان النبي راجعا من الحدييّه و نزلت عليه سوره الفتح.. قال أحد أصحابه: ما هذا الفتح؟! لقد صددنا عن البيت و صدّ هدينا!.

فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلّم: «بئس الكلام «هذا» بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراع و يسألوكم القضيّه! و رغبوا إليكم فى الأمان و قد رأوا منكم ما كرهوا...» (١).

ثم ذكّروهم النبي صلى الله عليه و آله و سلّم ما تحمل المشركون من مساءه يوم بدر و يوم الأحزاب فصّدق المسلمون رسولهم على أن هذا أعظم الفتوح و أنهم قضوا عن عدم اطلاعهم بما قالوا (٢).

يقول «الزهرى» و هو من التابعين: لم يكن فتح أعظم من الحدييّه و ذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكّن الإسلام فى قلوبهم و أسلم فى ثلاث سنين خلق كثير كثير بهم سواد الإسلام.

ففى هذه الأحاديث إشاره إلى جانب من الامتيازات التى حصل عليها المسلمون ببركه صلح الحدييّه.

إلا أن حديثا واحدا ورد عن الإمام الرضا «على بن موسى» عليه السلام يقول [□] [□] إِنَّا فَتَحْنَا نَزَلَتْ بَعْدَ «فَتْحِ مَكَّةَ» (٣).

بيد أنه يمكن توجيه هذه الروايه ببساطه بالقول بأن صلح الحدييّه كان مقدمه لفتح مكّه بعد سنتين، فيرتفع الإشكال.

ص: ٤١٨

١-١) -جوامع الجامع «طبقا لنور الثقلين، ج ٥، ص ٤٨، الحديث التاسع».

٢-٢) -الدر المنثور، ج ٦، ص ٦٨-٣-نور الثقلين، ج ٥، ص ٤٨.

٣-٣) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٤٨.

أو بتعبير آخر أن «صلح الحديبيه» كان سببا لفتح خيبر في فتره وجيزه «في السنه السابعه للهجره» و أوسع من ذلك كان سببا لفتح مكّه (السنه الثامنه للهجره) و انتصارات الإسلام في مجالات شتى من حيث النفوذ في قلوب العالمين!

و بهذا يمكن الجمع بين التفاسير الأربعة مع هذا القيد و هو أنّ صلح الحديبيه يشكل المحور الأصلي لهذه التفاسير!

ص: ٤١٩

اشاره

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)

التفسير

اشاره

نتائج الفتح المبين الكبرى:

في هاتين الآيتين بيان للنتائج المباركه من «الفتح المبين» [صلح الحديبيه]

و التي ورد ذكره في الآيه السابقه فتقول الآيتان: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا.

و بهذا فإن الله منح نبيه الكريم في ظل هذا الفتح المبين أربع مواهب عظيمه هي «المغفره»، و«إتمام النعمه»، و«الهدايه» و«النصر».

١- الإجابة على بعض الأسئلة المهمة:

تثار هنا أسئلة كثيرة دأب المفسِّرون منذ زمن قديم حتى يومنا هذا بالإجابة على هذه الأسئلة! و من هذه الأسئلة، الأسئلة الثلاثة التالية حول قوله تعالى لنبئيه: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك و ما تأخر!.

١- ما المراد من العبارة الآتية لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ [□] مع أنّ النبي معصوم من الذنب؟! ٢- و على فرض أن نغض النظر عن هذا الإشكال! فما علاقه المغفرة بالفتح و صلح الحديدية؟! ٣- و إذا كان المقصود من قوله تعالى «و ما تأخر» هو الذنوب المستقبلية! فكيف يمكن أن تكون الذنوب الآتية تحت دائره العفو و المغفرة. أليس مثل هذا التعبير ترخيصا لارتكاب الذنب؟! و قد أجاب كلّ من المفسِّرين بنحو خاص على مثل هذه الإشكالات، و لكن للحصول على الإجابة «الجامعه» لهذه الإشكالات و التفسير الدقيق لهذه الآيات لا بدّ من ذكر مقدمه لهذا البحث و هي:

إنّ المهم هو العثور على العلاقة الخفية بين فتح الحديدية و مغفرة الذنب لأنّها المفتاح الأصيل للإجابة على الأسئلة الثلاثة المتقدّمة! و بالتدقيق في الحوادث التاريخيه و ما تمخّضت عنه نصل إلى هذه النتيجة، و هي أنّه حين يظهر أيّ مذهب حق و يبرز في عالم الوجود فإنّ أصحاب السنن الخرافيه الذين يرون أنفسهم و وجودهم في خطر يكيلون التهم و الأمور التافهه إليه و يشيعون الشائعات و الأباطيل و ينشرون الأراجيف الكاذبه بصدده و ينسبون إليه الذنوب العديده و ينتظرون عاقبته و إلى أين ستصل؟! فإذا واجه هذا المذهب في مسيره الاندحار فإنّ ذلك يكون ذريعه قويه

لإثبات النسب الباطله ضدّه على أيدي أعدائه و يصرخون: ألم نقل كذا و كذا!!! و لكن حين ينال الانتصار و تحظى مناهجه و خططه بالموقفه فإنّ تلك النسب تمضى كما لو كانوا قد رقموا على الماء!! و تتبدّل جميع أقوالهم إلى حسرات و ندامه و يقولون عندئذ لم نكن نعلم! و خاصّه فى شأن النّبى محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم كانت هذه التّصوّرات و الذنوب التى و صموها به كثيره!! إذ عدّوه باغيا للحرب و القتال و مثيرا لنار الفتنه معتدا بنفسه لا يقبل التفاهم و ما إلى ذلك! و قد كشف صلح الحديبيّه أنّ مذهبه على خلاف ما يزعمه أعداؤه إذ كان مذهبا «تقدّميا» إلهيا.. و كان آيات قرآنه ضامنه لتربيّه النفوس الإنسانيه و طاويه لصحائف الظلم و الاضطهاد و الحرب و النزيف الدموى!.

فهو يحترم كعبه الله و بيته العتيق و لا يهاجم أيه جماعه أو قبيله دون سبب، فهو رجل منطقيّ و يعشقه اتباعه، و يدعو جميع الناس بحقّ إلى محبوبهم «الله» و إذا لم يضطره أعداؤه إلى الحرب فهو داعيه للسلام و الصلح و الدعه!..

و على هذا فقد غسل صلح الحديبيّه جميع الذنوب التى كانت قبل الهجره و بعد الهجره قد نسبت إلى النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم أو جميع الذنوب التى نسبت إليه قبل هذا الحادث أو ستنسب إليه فى المستقبل احتمالا... و حيث أنّ الله جعل هذا الفتح نصيب النّبى فيمكن أن يقال أن الله غفر للنبي ذنوبه جميعا.

و النتيجة أنّ هذه الذنوب لم تكون ذنوبا حقيقيه أو واقعيه بل كانت ذنوبا تصوريه و فى أفكار الناس و ظنّهم فحسب، و كما نقرأ فى الآيه (١٤) من سوره الشعراء فى قصه موسى قوله مخاطبا ربّه وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ فى حين أنّ ذنبه لم يكن سوى نصره المظلوم من بنى إسرائيل و سحق ظلم الفراعنه لا غير!.

و بديهى أنّ هذا الفعل لا يعدّ ذنبا، بل دفاع عن المظلومين و لكنّه كان يعدّ ذنبا

فى نظر الفراعنه و أتباعهم.

و بتعبير آخر أنّ «الذنب» فى اللغه يعنى الآثار السيئه و التبعات التى تنتج عن العمل غير المطلوب، فكان ظهور الإسلام فى البدايه تدميرا لحياء المشركين، غير أنّ انتصاراته المتلاحقه و المتتابعه كانت سببا لنسيان تلك التبعات.

فمثلا لو كان لدينا بيت قديم يوشك على الخراب و لكننا نلتجئ إليه و لنا به علاقه و طيده فقام أحد الناس بتخريبه فإننا نغضب منه و نخطئه على فعله و لكنّه بعد بنائه من جديد محكما سامقا فإنّ أحكامنا السابقه تمضى أدراج الرياح! و هكذا بالنسبه لمشركى مكّه سواء قبل هجره النبى أم بعدها إذ كانت أفكارهم و أذهانهم مبلبله عن الإسلام و شخص النبى بالذات، غير أنّ انتصارات الإسلام أزاله هذه التصورات و الأفكار! أجل: لو أخذنا مسأله العلاقه بين مغفره هذه الذنوب و فتح الحديدية بنظر الاعتبار لا تضح الموضوع بجلاء، و استفدنا العلاقه من «اللام» فى «ليغفر لك الله» فى كونها مفتاح «الرمز» لفتح معنى الآيه المغلق! غير أنّ من لم يلتفت إلى هذه «اللطيفه»... جعل عصمه النبى صلى الله عليه و آله و سلّم موضع استفهام و قال: «و العياذ بالله» أنّ لديه ذنوبا غفرها الله بفتح «الحديبيه» أو حمل الآيه على خلاف ظاهر معناها و أنّ المراد (الذنوب عامه).

و قال بعضهم: بل هى ذنوب الناس التى ارتكبوها فى حقّ النبى كأذاهم و الإساءه إليه و قد غفرها الله بفتح «الحديبيه» [و فى هذه الصوره يكون الذنب قد أضيف إلى مفعوله معنى لا إلى فاعله]

أو حملوا الذنب على [ترك الأولى]

و بعضهم فسّر ذلك بالفرض فقال: ليغفر لك الذنب الذى لو كنت عملته فرضا أو ستعمله فقد غفر الله كلّ ذلك لك!.

لكن من المعلوم أنّ كلّ هذه التفاسير لا تتجاوز التكلف و التمخّل و دون أى

دليل! إذ لو خدشنا في عصمه الأنبياء.. لأنكرنا فلسفه وجودهم، لأنّ النبي ينبغي أن يكون قدوه في كل شيء، فكيف يمكن المذنب أن يفى بهذا المنهج و يؤدي حقه؟! زد على ذلك، فالمذنب بنفسه يحتاج إلى قائد يرشده و يدلّه ليهتدى به.

و هناك تفاسير أخرى تخالف ظاهر الآيه، و الإشكال المهم فيها أنّها تقطع علاقه ما بين مغفره الذنب و الفتح «صلح الحديبيه».

فأحسن التفاسير هو ما ذكرناه آنفا، و هو ما يجيب على الأسئلة الثلاثة المتقدّمه في مكان واحد! و يبيّن ارتباط الجمل في الآيه..

كل ذلك هو في شأن الموهبه الأولى من المواهب الأربعة التي وهبها الله نبيه في صلح الحديبيه!

أمّا «إتمام النعمه» على النبي و هدايته إياه الصراط المستقيم و نصره النصر العزيز.. بعد الفتح في الحديبيه فليست هذه الأمور ممّا تخفى على أحد.. فقد انتشر الإسلام بسرعه و سخر القلوب المهتأه! و ظهرت عظمه تعليماته للجميع و أبطل السموم (المضاده) و تمّت نعمه الله على النبي و على المسلمين و هداهم الصراط المستقيم نحو الانتصارات حتى أنّ جيش الإسلام لم يجد أيه مقاومه في فتح مكّه و فتح أكبر حصن للمشركين!.

٢- المراد من «ما تقدّم» و «ما تأخّر»..

قرأنا في الآيه السابقه قوله تعالى: لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ فَمَا المراد من هذا النص «ما تقدّم و ما تأخّر» اختلف المفسرون في بيان الآيه:

فقال بعضهم: المراد بما تقدّم هو عصيان آدم و حواء و ترك الأولى من قبلهما، أمّا المراد بما تأخّر فهو ذنوب أمّه محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم.

و قال بعضهم: «ما تقدّم» إشاره إلى المسائل المتعلقه بما قبل النبوه، و «ما

تأخر»إشاره إلى المسائل المتعلقة بما بعدها..

وقال بعضهم: المراد بما تقدّم هو ما تقدّم على صلح الحديبيه، وما تأخر أى ما تأخر عنها من أمور و حوادث!.

ولكن مع ملاحظه التفسير الذى أوضحناه فى أصل معنى الآيه و خاصه العلاقه بين مغفره الذنب مع مسأله فتح الحديبيه، يبدو بجلاء أنّ المراد هو التهم الباطله التى و صمها المشركون-بزعمهم-بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم فى ما سبق و ما لحق و لو لم يتحقّق هذا النصر العظيم لكانوا يتصوّرون أنّ جميع هذه الذنوب قطعيه..

غير أنّ هذا الانتصار الذى تحقّق للنبي طوى جميع الأباطيل و التهم (المتقدّمه) فى حقّ النبي و ما سيّتهم به فى المستقبل فى حال عدم انتصاره!.

و الشاهد الآخر على هذا التفسير هو

الحديث المنقول عن الإمام الرضا على بن موسى عليهما السلام إذ سأله المأمون عن تفسير هذه الآيه فقال: «لم يكن أحد عند مشركى أهل مكّه أعظم ذنباً من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لأنّهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة و ثلاثين صنماً فلما جاءهم بالدعوه إلى كلمه الإخلاص «التوحيد» كبر ذلك عليهم و قالوا: أجعل الآلهه إلها واحدا إنّ هذا لشيء عجاب إلى أن قالوا ما سمعنا بهذا فى المله الآخره إن هذا إلا اختلاق (١).

فلما فتح الله تعالى على نبيه مكّه قال الله تعالى: **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ** عند مشركى أهل مكّه بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدّم و ما تأخر لأنّ مشركى مكّه أسلم بعضهم و خرج بعضهم عن مكّه و من بقى منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه إذ دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم مغفورا بظهوره عليهم» فلما سمع المأمون كلام الرضا قال له: «أحسنت، بارك الله فيك يا أبا الحسن».

ص: ٤٢٥

١-١) -راجع فى هذا الصدد سوره فى الآيه ٤-٧ و تفسير الصافى نقلا عن عيون الأخبار- و راجع نور الثقلين الجزء الخامس، ص

اشاره

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)

التفسير

اشاره

نزول السكينة على قلوب المؤمنين:

ما قرأناه في الآيات السابقة هو ما أعطاه الله من مواهب عظيمه لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم بالفتح المبين «صلح الحديبيه»، أما في الآيه أعلاه فالكلام عن الموهبه العظيمه التي تطف الله بها على جميع المؤمنين إذ تقول الآيه:

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ

و لم لا تنزل السكينة و الاطمئنان على قلوب المؤمنين؟ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .

ماذا كانت هذه السكينه!؟

من الضروري هنا أن نعود إلى قصه «صلح الحديبيه» و أن نتصور أنفسنا في

فضاء الحديبيّه و في جوّها لنطلع على عمق هذه الآيه.

لقد كان النبي صلى الله عليه وآله و سلم قد رأى رؤيا «رحمانيه و إلهيه» أنّه دخل المسجد الحرام مع أصحابه، و على أثر رؤياه تحرّك نحو زياره بيت الله مع أصحابه و كان أغلب أصحابه يتوقّعون أنّ هذه الرؤيا الصالحه سيتحقّق تعبيرها في هذا السفر نفسه، لكنّ الذي قدّره الله كان شيئاً آخر! هذا كلّ من جانب.

و من جانب آخر كان المسلمون قد أحرّموا و جاءوا بالإبل ليهدوها أو ينحروها، و لكنّهم و على خلاف ما توقّعوا لم يوقّفوا لزياره بيت الله، و أمر النبي أن ينحروا الإبل في الحديبيّه التي توقّفوا فيها هناك. و أن يحلّوا من إحرامهم، و كان ذلك أمراً صعباً عليهم و لا يمكن تصديقه، لأنّ آدابهم و سننهم و تعليمات الإسلام أيضاً تنصّ على عدم الخروج و الإحلال من الإحرام ما لم يتمّ أداء المناسك الخاصه بالعمره.

و من جانب ثالث كان من مواد معاهده الصلح في الحديبيه، ماده تقضى بإعاده المسلمين من يلجأ إليهم من قريش و يعلن إسلامه و يدخل المدينة! و لا يلزم العكس، و كان هذا الموضوع صعباً على المسلمين للغايه.

و من جانب رابع، فإنّ قريشا لم ترغب أن تكتب كلمه «رسول الله» التي كان يدعى بها النبي محمّد و أصرّ ممثلها سهيل بن عمرو على حذف الكلمه من معاهده الصلح، و لم يوافق حتى على كتابه بسم الله الرحمن الرحيم، و أصرّ أن يكتب مكانها «بسمك اللهم»، التي كانت تنسجم مع سنّه أهل مكّه، فهذه الأمور كلّ واحد منها كان غير مرغوب فيه، فكيف بجمعها؟! و لذلك تزلزلت قلوب بعض ضعاف الإيمان من أصحاب النبي إلى درجه أنّه حين نزلت سوره **إِنَّا فَتَحْنَا** قالوا أى فتح هذا؟! هنا ينبغي أن يشمل لطف الله حال المسلمين و أن ينزل عليهم السكينه و الاطمئنان و أن لا يوجد في قلوبهم الضعف و الفتور فحسب، بل

و تنطبق مصداقيه الآيه عليهم، فإن الآيه نزلت في مثل هذه الظروف.

«السكينة» في الأصل مشتقة من «السكون»، ومعناها الاطمئنان و الدعه و ما يزيل كل أنواع الشك و التردد و الوحشه من الإنسان و يجعله ثابت القدم في طوفان الحوادث! و هذه السكينة يمكن أن يكون لها جانب عقائدى فيزيل ضعف تزلزل العقيدة أو يكون لها جانب عملى بحيث يهب الإنسان ثبات القدم و المقاومه و الاستقامه و الصبر.

و بالطبع فإن البحوث السابقه و تعبيرات الآيه نفسها تتناسب مع استعمال السكينة في معناها الأول أكثر.

في حين أنها في الآيه (٢٤٨) من سوره البقره في قصه «طالوت و جالوت» تعول على الأسس العمليه أكثر! و قد ذكر جماعه من المفسرين معانى آخر للسكينة و ترجع في نهايتها إلى هذا التفسير أيضا.

الطريف أن «السكينة» في بعض الروايات فسرت بالإيمان (١) كما فسرت في بعضها بنسيم الجنه الذى يبدو في هيئة الإنسان و يمنح المؤمنين الاطمئنان (٢)! و كل هذه التفاسير تأييد لما قلناه، لأن السكينة وليده الإيمان، و هى تهب الاطمئنان كنسيم الجنه! و ينبغى الالتفات أيضا إلى هذه اللطيفه في شأن السكينة، إذ عبّر عنها بالإينزال هو الذى أنزل السكينة و نعلم أن هذا التعبير في القرآن قد يعنى الخلق و الإيجاد و إيلاء النعمه أحيانا.. و حيث أنها من عال إلى دان فقد ورد في شأنها التعبير بالإينزال!

ص: ٢٢٨

١-١) -تفسير البرهان، ج ٢، ص ١١٤.

٢-٢) -المصدر السابق.

١- السكينة التي لا نظير لها!

إذا لم يكن للإيمان أيه ثمره سوى مسأله السكينة لكان على الإنسان أن يتقبله! فكيف به و هو يرى آثاره و ثمراته و بركاته!.

و التحقيق في حال المؤمنين و حال غير المؤمنين يكشف هذه الحقيقة، و هي أن الفئة الثانية يعانون حالة الاضطراب و القلق الدائم، في حين أن الجماعة الأولى في اطمئنان خاطر عديم النظير...

و في ظل الاطمئنان، فإنهم لا يخشون أحداً إلا الله (١).

كما أنهم في مواصلة نهجهم لا يؤثر اللوم و التهديد فيهم أبداً و لا يخافون لومة لائم (٢).

و هم يتمسكون بأصلين مهمين في حفظ هذه السكينة، و هما: عدم الحزن على ما فاتهم، و عدم التعلق و الفرح بما لديهم، فهم مصداق لقوله تعالى: لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَ لَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ (٣).

و أخيراً فإنهم لا يضعفوا أبداً أمام الشدائد، و لا يركعوا مقابل الأعداء و يتحلون بشعار و لا تهنؤا و لا تحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين (٤).

إن المؤمن لا يرى نفسه وحيداً في ميدان الخطوب و الحوادث بل يحس بيد الله على رأسه و يلمس إعانه الملائكة و نصرتهم له، في حين أن غير المؤمنين يحكمهم الاضطراب في أحاديثهم و سلوكهم و لا سيما عند هبوب العواصف و طوفان الأحداث إذ يرى كل ذلك منهم بصورة بيّنة!

ص: ٤٢٩

١-١) - الأحزاب، الآية ٣٩.

٢-٢) - المائدة، الآية ٥٤.

٣-٣) - الحديد، الآية ٢٣.

٤-٤) - آل عمران، الآية ١٣٩.

الإيمان، سواء بمعنى العلم و المعرفة، أم روح التسليم و الإذعان للحق فإن له درجات و سلسله مراتب، لأنّ العلم له درجات، و التسليم و الإذعان لهما درجات مختلفه أيضاً، حتى العشق و الحب الذى هو توأم الإيمان يتفاوت من حاله إلى أخرى! فالآيه محل البحث التى تقول: لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ تأكيد على هذه الحقيقه أيضاً.. و على هذا فلا ينبغي للمؤمن أن يتوقف فى مرحله واحده من مراحل الإيمان، بل عليه أن يتسامى إلى درجاته العليا عن طريق بناء شخصيته و العلم و العمل.

ففى حديث عن الإمام الصادق أنه قال: «إنّ الإيمان عشر درجات بمنزله السلم يصعد منه مرقاه بعد مرقاه» (١).

كما

نقرأ عنه حديثاً آخر إذ قال: «إنّ الله عزّ و جلّ وضع الإيمان على سبعة أسهم على البر و الصدق و اليقين و الرضا و الوفاء و العلم و الحلم فمن جعل فيه السبعة الأسهم فهو كامل محتمل و قسّم لبعض الناس السهم و السهمين و لبعض الثلاثة حتى انتهوا إلى (ال) سبعة».

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام: «لا- تحملوا على صاحب السهم سهمين و لا- على صاحب السهمين ثلاثة فتبهضوهم».. ثمّ قال كذلك حتى انتهى إلى (ال) سبعة (٢).

و من هنا يتضح ما نقل عن بعضهم أنّ الإيمان ليس فيه زياده و لا نقصان لا أساس له، لأنّه لا ينسجم مع الثواب العلميه و لا مع الزوايات الإسلاميه!.

ص: ٤٣٠

١- ١) -بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ١٦٥.

٢- ٢) -الكافي، ج ٢، باب درجات الإيمان، حديث ١.

قرأنا فى ذيل الآيه محل البحث جملتين، كلّ منهما تمثّل ركننا من أركان «السكينة» و الاطمئنان للمؤمنين.

فالأولى جملة وَ لِلّٰهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ .

و الأخرى جملة وَ كَانَ اللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً .

فالأولى تقول للإنسان: إذا كنت مع الله فإنّ جميع ما فى الأرض و السماء معك!.

و الأخرى تقول: إنّ الله يعلم حاجاتك و مشاكلك كما يعلم سعيك و طاعتك و عبادتك.

و مع الإيمان بهذين «الأصلين» كيف يمكن أن لا يحكم الاطمئنان و سكينة القلب وجود الإنسان! ***

اشاره

لِيَدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ يُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَ يُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)

التفسير

اشاره

نتيجه أخرى من الفتح المبين:

نقل جماعه من مفسري الشيعة و أهل السنه أنه حين بشر النبي صلى الله عليه و آله و سلم «بالفتح المبين» و «إتمام النعمه» و «الهدايه» و «النصره».. قال بعض المسلمين ممن كان مستاء من صلح الحديبيه: هنيئا لك يا رسول الله! لقد بين لك الله ماذا يفعل بك!

فما إذا يفعل بنا فنزلت الآية لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ (١).

و على كل حال، فإن هذه الآيات تتحدث عن علاقه صلح الحديبيه و آثاره وردّ الفعل المختلف في أفكار الناس و نتائجه المثمره، و كذلك عاقبه كل من الفريقين اللذين امتحنا في هذه «البوتقه» و المختبر-فتقول الآية الأولى من هذه الآيات محل البحث لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا. فلا تسلب هذه النعمه الكبرى عنهم أبدا...

و إضافه إلى ذلك فإن الله يعفو عنهم وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٢).

و بهذا فإن الله قد وهب المؤمنين بإزاء ما وهب لنبيه في فتحه المبين من المواهب الأربعة موهبتين عظيمين هما «الجته خالدین فيها» و «التكفير عن سيئاتهم» بالإضافه إلى إنزال السكينه على قلوبهم و مجموع هذه المواهب الثلاث يعدّ فوزا عظيما لأولئك اللذين خرجوا من الامتحان بنجاح و سلامه!

و كلمه «الفوز» التي توصف في القرآن غالباً بـ «العظيم» و أحيانا توصف بـ «المبين» أو «الكبير» بناء على ما يقول «الراغب» في «مفرداته» معناها الانتصار و نيل الخيرات المقرون بالسلامه، و ذلك في صورته ما لو كان فيه النجاه في الآخره و إن اقترن مع زوال بعض المواهب الدنيويه.

و طبقا للروايه المعروفه عن أمير المؤمنين على عليه السلام حين ضربه اللعين عبد الرحمن بن ملجم في محراب العباده بالسيف على أم رأسه قال هاتفا

«فزت و ربّ الكعبه» و كأنه يقول فزت بأني أمضيت ختم صحيفتي بدم رأسي.

ص: ٤٢٣

١-١) -تفسير المراغي، ج ٢٦، ص ٨٥ و تفسير أبو الفتوح الرازي، ج ١٠، ص ٢٦ و تفسير روح المعاني للآلوسي، ج ٢٦، ص ٨٦.
٢-٢) -طبقا لهذا البيان فإنّ جملتي «ليدخل» و «كذلك» و «يعذب» اللتين هما في الآية التاليه معطوفان على جمله ليغفر، و قد اختار جماعه من المفسرين هذا الرأي كالشيخ الطوسي في «التيان» و الطبرسي في «مجمع البيان» و أبو الفتوح الرازي في تفسيره، غير أنّ جماعه آخرين قالوا أنّ ما سبق آنفا معطوف على جمله ليزدادوا إيمانا و هذا لا ينسجم مع شأن التزول و لا مجازاه الكفار.

أجل قد تبلغ الامتحانات الإلهية درجه أن تضعضع الإيمان الضعيف و تغير القلوب، وإنما يثبت المؤمنين الصادقون الذين تحلوا بالسكينة و الاطمئنان و سينعمون في يوم القيامة بنتائجه، و ذلك هو الفوز العظيم حقاً!

غير أن إزاء هذه الجماعة، جماعة المنافقين و المشركين الذين تتحدث الآيه التاليه عن عاقبتهم بهذا الوصف فتقول: وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ .

أجل، لقد ظنَّ المنافقون حين تحرّك النبي صلى الله عليه و آله و سلّم و معه المؤمنون من المدينة أن لا يعودوا نحوها سالمين كما تتحدث عنهم الآيه (١٢) من هذه السوره ذاتها فتقول: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا .

كما ظنَّ المشركون أيضا أن محمدا لن يعود إلى المدينة سالما مع قله العدد و العدد و سيأفل كوكب الإسلام عاجلا... ثم يفصل القرآن ببيان عذاب هؤلاء و عقابهم و يجعله تحت عناوين أربعة فيقول أولا: عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ (١).

«الدائرة» في اللغة هي الحوادث و ما ينجم عنها أو ما يتفق للإنسان في حياته، فهي أعم من أن تكون حسنه أو سيئه غير أنها هنا بقرينه كلمه «السوء» يراد منها الحوادث غير المطلوبه!.

و ثانيا: وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .

و ثالثا: وَ لَعَنَهُمْ .

و رابعا و أخيرا: فَإِنَّهُ بِالْمَرْصَادِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا .

و الذى يسترعى الانتباه أنه في الحديثه كان أغلب الحاضرين من المسلمين رجالا، و في مقابلهم من المنافقين و المشركين رجالا أيضا، غير أن الآيات الآنفه أشركت الرجال و النساء في ذلك الفوز العظيم، و هذا العذاب الأليم، و ذلك لأن

ص: ٤٣٤

١ - ١) - «سوء» على زنه «نوع» كما يقول صاحب صحاح اللغة فيه معنى مصدرى، و «السوء» على وزن (نور) اسم مصدر، غير أن صاحب الكشاف يقول أن كليهما، بمعنى واحد.

الرجال المؤمنين أو المنافقين الذين يقاتلون في «ساحات القتال» لا يحققون أهدافهم إلا أن تدعمهم النساء بالدعم اللازم.

و أساساً فإنّ الإسلام ليس دين الرجال فحسب فيهمّل شخصيّة المرأة، بل يهتمّ بها، في كلّ موطن يوهّم الكلام بالاختصار على الرجل مع عدم ذكر المرأة فيه يصرّح بذكرها ليعلم أنّ الإسلام دين الجميع دون استثناء رجالاً و نساء.

و في آخر آيه من الآيات محلّ البحث إشارة أخرى إلى عظمه قدره الله فتقول الآية: **وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .**

و قد ورد هذا التعبير مرّة في ذيل مقامات أهل الإيمان و مواهبهم، و مرّة هنا في ذيل الآية التي تحكى عن عقاب المنافقين و المشركين... ليّضح أنّ الله الذى له جنود السماوات و الأرض جميعاً قادر على الأمرين، فهو قادر أن تشمل رحمته مستحقيها من عباده الصالحين و ناصريه، كما أنّه قادر على أن ينزل غضبه و انتقامه ناراً تحرق المجرمين.

و ممّا يستلفت النظر أنّ القرآن حين يذكر المؤمنين يصف الله بالعلم و الحكمة، و هما يناسبان مقام الرحمة، و لكنّه حين يذكر المنافقين و المشركين يصف الله بالعزّه و الحكمة، و هما يناسبان العذاب!

ما المراد من «جنود السماوات و الأرض»؟!

هذا التعبير له معنى واسع حيث يشمل الملائكة «و هي من جنود السماء» كما يشمل جنوداً آخر كالصواعق و الزلازل و الطوفانات و السيول و الأمواج و القوى الغيبية غير المرئية التي لا- نعرف عنها شيئاً... لأنّ جميع هذه الأشياء هي جنود الله و هي مطيعه لأوامره!.

قد يكون سوء الظن تاره بالنفس، وقد يكون سوء الظن بالآخرين، كما قد يكون بالله، و بهذا التقسيم و على منواله يكون «حسن الظن» أيضا.

أمَّا سوء الظن بالنفس إذا لم يبلغ درجه الإفراط فهو سلّم إلى التكامل و يدفع الإنسان إلى التدقيق في أعماله و الإخلاص فيها، و يكون حاجزا عن العجب و الغرور منه عند قيامه بالأعمال الصالحة.

و بهذا

فإنَّ الإمام عليا عليه السَّلام يصف المتقين في جوابه لهمام قائلا: «فهم لأنفسهم متَّهمون، و من أعمالهم مشفقون، إذا زكَّى أحد منهم خاف ممَّا يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسى من غيرى و ربى أعلم بى منى بنفسى، اللهم لا- تؤاخذنى بما يقولون و اجعلنى أفضل ممَّا يظنُّون و اغفر لى ما لا يعلمون» (١).

و إذا كان سوء الظن بالناس فهو ممنوع إلّا- أن يغلب الفساد فى المجتمع حيث لا- ينبغى هناك حسن الظن «و سيأتى بيان هذا الموضوع بإذن الله ذيل الآيه ١٢ من سورة الحجرات».

أمَّا سوء الظن بالله أى سوء الظن بوعدده أو رحمته و كرمه الذى لا حدَّ له فهو قبيح و مذموم، و قد يدلّ على ضعف الإيمان و ربّما دلّ على عدم الإيمان! و يشير القرآن عدّه مرّات إلى سوء ظنّ ضعاف الإيمان أو عديمى الإيمان..

و خاصه عند بروز الحوادث الاجتماعيه الصعبه و طوفان الابتلاء و الامتحان، و كيف أنّ المؤمنين يبقون ثابتى الأقدام عند هذه الحوادث و هم فى كمال حسن الظن و الاطمئنان بلطف الله..و لكنّ ضعيفى الإيمان يطلقون لسان الشكوى، كما كان ذلك فى قصه الحديدية، حيث إنّ المنافقين و من على شاكلتهم أساءوا الظنّ، و قالوا أنّ محمّدا و أصحابه يمضون فى سفرهم هذا و لا يعودون بعده، فكأنّهم نسوا و عود الله أو أنّهم اتهموها.

ص: ٤٣٦

و النموذج الآخر ما حدث في ساحه يوم الأحزاب حين زلزل المسلمون زلزالاً شديداً و وقعوا تحت التأثير و المحنه الصعبه فهناك ذم الله المسيئين الظن به فقال: **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١).**

و قد عبّرت الآية (١٥٤) من سوره آل عمران عن مثل هذه الظنون ب«ظنّ الجاهليه».

و على كلّ حال، فظنّ حسن الظن بالله و رحمته و وعده و كرمه و لطفه و عنايته من علائم الإيمان المهمّه و من الأسباب المؤثره في النجاه و السعاده!.

حتى أنه

ورد في بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم قوله: «ليس من عبد يظنّ بالله خيراً إلا كان عند ظنّه به» (٢).

كما

ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «أحسن بالله الظنّ فإنّ الله عزّ و جلّ يقول أنا عند ظنّ عبدى المؤمن بى إن خير فخير و إن شر فشر» (٣).

و أخيراً

فقد ورد حديث آخر عن النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم يقول فيه: «إنّ حسن الظنّ بالله عزّ و جلّ ثمن الجنّه» (٤)!

فأى قيمه أيسر من هذا... و أى متاع أعظم قيمه منه! ***

ص: ٤٣٧

١-١) -الأحزاب، الآيتان ١٠-١١.

٢-٢) -بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٣٨٤.

٣-٣) -بحار الأنوار ج ٧٠، ص ٣٨٥.

٤-٤) -المصدر السابق.

اشاره

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزُّوهَ وَتُقَرِّبُوهُ وَتُوقِرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ
يَلْبِغُونَكَ إِنَّمَا بِلِغَابِ اللَّهِ يُدْفَعُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا (١٠)

التفسير

اشاره

مكانه النبي و واجب الناس تجاهه!

قلنا إن بعض الجهلاء اعترضوا بشده على صلح الحديبيه و حتى أن بعض تعبيراتهم لم تخل من عدم الاحترام بالنسبه إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و كان مجموع هذه الأمور يستوجب أن يؤكد القرآن مره أخرى على عظمه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و جلاله قدره!.

لذلك فإن الآيه الأولى من الآيات أعلاه تخاطب النبي فتقول: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا .

و هذه ثلاثه أوصاف بارزه هي من أهم ما يتمتع به النبي من صفات و مقام. كونه

«شاهدا» على جميع الأمم الإسلامية، بل هو شاهد على جميع الأمم كما نقرأ هذا التعبير فى الآيه (٤١) من سوره النساء فكيف إذا جئنا من كل أمه شهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيدا .

و نقرأ فى الآيه (٥) من سوره التوبه قوله تعالى: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ .
و أساسا فإن لكل إنسان شهودا كثيرين!

أولهم الله الذى هو عالم الغيب و الشهاده المطلع على جميع أعماله و نياته!

و من بعده الملائكه المأمورون بحفظ أعماله كما ورد التعبير فى الآيه (٢١) من سوره (ق) وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ .

ثم أعضاء بدن الإنسان و حتى جلده شاهد عليه... يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١).

و جاء فى الآيه ٢١ من سوره فصلت فى هذا الصدد أيضا: وَ قَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .

و«الأرض» أيضا، من زمره الشهود و كما جاء فى سوره الزلزله يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا .

و طبقا لبعض الروايات فإن «الزمان» أحد الشهود أيضا، إذ نقرأ

فى بعض أحاديث الإمام على عليه السلام قوله: «ما من يوم يمر على بنى آدم إلا قال له ذلك اليوم أنا يوم جديد و أنا عليك شهيد فافعل فى خيرا و اعمل فى خيرا، اشهد لك يوم القيامة فإنك لن ترانى بعد هذا أبدا» (٢)، (٣) .

ص: ٤٣٩

١-١) -النور، الآيه ٢٤.

٢-٢) -نور الثقلين، ج ٥، ص ١١٢.

٣-٣) -مرّ البحث عن الشهود فى محكمه القيامه ذيل الآيات ٢٠-٢٢ من سوره فصلت.

و لا شك أنّ شهادته الله وحدها كافيّه، لكنّ تعدّد الشهود فيه إتمام للحجّه أكثر و له أثر تربويّ-أقوى-فى الناس...

و على كلّ حال فإنّ القرآن الكريم بيّن هذه الأوصاف الثلاثه و هى الشهاده و البشاره و الإنذار التى هى من الأوصاف الأساسيه للنبي صلى الله عليه و آله و سلّم لتكون مقدمه لما ورد فى الآيه التى بعدها.

و فى الآيه التاليه خمسّه أوامر مهمّه-هى فى الحقيقه بمثابة الهدف من سمات النبي المذكوره آنفا: و تشكّل أمرين فى طاعه الله و تسيححه و تقديره، و ثلاثه أوامر منها فى «طاعه» رسوله و «الدفاع عنه» و «تعظيم مقامه»، إذ تقول الآيه: لِيُتْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أُصِيلاً .

كلمه «تعزروه» مشتقه من ماده تعزيز، و هو فى الأصل يعنى «المنع» ثمّ توسّعوا فيه فأطلق على كلّ دفاع و نصره و إعانه للشخص فى مقابل أعدائه كما يطلق على بعض العقوبات المانعه عن الذنب «التعزيز» أيضاً.

و كلمه «توقروه» مشتقه من ماده توقير، و جذورها «الوقر» و معناها الثقل..

فيكون معنى التوقير هنا التعظيم و التكريم.

و طبقاً لهذا التفسير فإنّ الضميرين فى «تعزروه» و «توقروه» يعودان على شخص النبي صلى الله عليه و آله و سلّم و الهدف من ذلك هو الدفاع عنه بوجه أعدائه و تعظيمه و احترامه «و قد اختار هذا التفسير الشيخ الطوسى فى «التبيان» و «الطبرسى» فى مجمع البيان و غيرهما أيضاً».

غير أنّ جماعه من المفسرين (1) ذهبوا إلى أنّ جميع الضمائر فى الآيه تعود على الله، و المراد بالتعزيز و التوقير هنا نصره دين الله و تعظيمه و تكريمه دينه و دليلهم على هذا التفسير انسجام جميع الضمائر بعضها مع بعض.

ص: ٤٤٠

١-١) -منهم الزمخشريّ فى «الكشاف» و الآلوسى فى «روح المعانى» و «الفيض الكاشانى» فى تفسير الصافى و «العلامة الطباطبائى فى الميزان».

غير أن التفسير الأوّل يبدو أقرب، لأنّ «التعزير» أولاً: معناه في الأصل المنع و ذبّ الأعداء و الدفاع عن «الشخص»، و لا يصحّ ذلك في شأن الله إلاّ على سبيل «المجاز» فحسب! و أهم من ذلك هو شأن نزول الآية، إذ أنّها نزلت بعد صلح الحديبيه و كان بعضهم يسيء التعامل مع النبيّ و لا يحترم مقامه الكريم، و قد نزلت الآية لتنبه المسلمين على ما ينبغي عليهم من الوظائف بالنسبه إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم.

ثمّ لا- ينبغي أن ننسى أنّ الآية هي بمثابة النتيجة للآيه السابقه التي وصفت النبيّ بأنه «شاهد و مبشر و نذير» و هذا الأمر يهيء الأرضيه المناسبه للآيه التي بعدها.

و في آخر آيه من الآيات محل البحث إشارة قصيره إلى مسأله «بيعه الرضوان» و قد جاء التفصيل عنها في الآية (١٨) من السوره ذاتها! و توضيح ذلك هو: كما قلناه آنفا إنّ النبيّ صلى الله عليه و آله و سلّم رأى في منامه كما تقول التواريخ أنّه دخل مع أصحابه مكّه، فتوجّه على أثر هذه الرؤيا مع ألف و أربعمائه صحابي إلى مكّه، إلاّ أنّ قريشا صمّمت على منعه و هو على مقربه من مكّه... فتوقف النبيّ صلى الله عليه و آله و سلّم مع أصحابه في منطقته الحديبيه... و تمّ تبادل المبعوثين بين قريش و النبيّ حتى انتهى الأمر إلى معاهده صلح الحديبيه! و في عمليه تبادل السفراء و المبعوثين، أمر عثمان مرّه أن يبلغ أهل مكّه- من قبل النبيّ- أنّه لا يريد الحرب و لا القتال و إنّما يريد العمرة فحسب، إلاّ أنّ المشركين من أهل مكّه أوقفوا عثمان مؤقتا و كان هذا الأمر سببا أن يشيع بين المسلمين خبر قتل عثمان، و لو كان هذا الموضوع صحيحا لكان دليلا على إعلان قريش الحرب و منازلته النبيّ صلى الله عليه و آله و سلّم لذلك

فإنّ النبيّ قال: «لا نبارح مكاننا «الحديبيه» حتى نأخذ البيعه من قومنا»، فطلب تجديد البيعه... فاجتمع المسلمون و بايعوا النبيّ صلى الله عليه و آله و سلّم تحت شجره هناك على أن لا يتركوا النبيّ وراءهم ظهرّيّا و أن يقاتلوا مع النبيّ أعداءه و يذبّوا عنه ما دام فيهم طاقه على ذلك.

فبلغ هذا الأمر سماع المشركين و دبّ الرعب فيهم، وهذا ما دعاهم إلى الصلح مع النبي. و من هنا سُميت مبايعه المسلمين نييهم تحت الشجره بيعه الرضوان حيث وردت الإشاره إليها في الآية (١٨) من السوره ذاتها: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ .

و على كل حال فإنّ القرآن يتحدّث عن مبايعه المسلمين في الآية محلّ البحث فيقول: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ! و«البيعه» معناها المعاهده على اتّباع الشخص و طاعته، و كان المرسوم أو الشائع بين الناس أنّ الذي يعاهد الآخر و يبايعه يمد يده إليه و يظهر وفاءه و معاهدته عن هذا الطريق لذلك الشخص أو لذلك «القائد» المبايع!

و حيث أنّ الناس يمدّون أيديهم «بعضهم إلى بعض» عند السبع و ما شاكله من المعاملات و يعقدون المعامله بمد الأيدي و«المصافحه» فقد أطلقت كلمه «البيعه» على هذه العقود و العهود أيضا. و خاصه أنّهم عند «البيعه» كأنما يقدّمون أرواحهم لدى العقد مع الشخص الذي يظهر وفاءهم له.

و على هذا يتّضح معنى يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. إذ إنّ هذا التعبير كناية عن أنّ بيعه النبي هي بيعه الله، فكان الله قد جعل يده على أيديهم فهم لا يبايعون النبي فحسب بل يبايعون الله، و أمثال هذه الكنايه كثيره في اللغه العربيه!

و بناء على هذا التفسير فإنّ من يرى بأنّ معنى هذه الجمله يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ هو أنّ قدره الله فوق قدرتهم أو أنّ نصره الله أعظم من نصره الناس و أمثال ذلك لا يتناسب تأويله مع شأن نزول الآية و مفادها و إنّ كان هذا الموضوع بحدّ ذاته صحيحا.

ثمّ يضيف القرآن الكريم قائلا: فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١).

ص: ٤٤٢

(١-١) -ينبغي الالتفات إلى أنّ كلمه (عليه) في الآية الآنفه جاءت على خلاف ما نعده، إذ ضمّ الضمير و هو الهاء هنا، و قد وجّه

كلمه «نكث» مشتقه من «نكث» ومعناها الفتح و البسط ثم استعملت في نقض العهد (١).

و القرآن في هذه الآيه ينذر جميع المبايعين للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أنّ يثبتوا على عهدهم و بيعتهم فمن ثبت على العهد فسيؤتيه الله أجرا عظيما و من نكث فإنما يعود ضرره عليه و لا ينال الله ضرره أبدا.. بل إنه يهدد وجود المجتمع و كرامته و عظمته و يعرضه للخطر بنقضه البيعه!.

و

قد ورد في كلام- عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «إن في النار لمدينه يقال لها الحصينه، أ فلا تسألوني ما فيها؟! فقيل له: ما فيها يا أمير المؤمنين؟! قال: فيها أيدي الناكثين» (٢).

و من هنا يتضح بجلاء قبح نقض البيعه من وجهه نظر الإسلام!! و في هذا المجال هناك بحوث في «البيعه في الإسلام» و حتى «قبل الإسلام» و كيفية البيعه و أحكامها ستأتي بأذن الله في ذيل الآيه (١٨) من هذه السوره ذاتها!.

(١)

بعض المفتّرين إلى أنّ هذا أصله «هو» و بعد حذف الواو يأتي مضمونا أحيانا مثل له و عنه و يأتي مكسورا أحيانا لأنه يلي الياء ككلمه «عليه الله» و حيث أنّ كلمه «عليه» هنا تلاها لفظ الجلاله فقد ضم الضمير في «عليه» ينسجم مع توضيح اللام في لفظ الجلاله «الله».

ص: ٤٤٣

١-١) - «النكث» بفتح النون مصدر و «النكث» بكسر النون اسم مصدر.

٢-٢) - بحار الأنوار، الجزء ٦٧، الصفحه ١٨٦.

اشاره

سَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرُوا لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) يَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنَا يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤)

التفسير

اشاره

اعتذار المخلفين:

ذكرنا في تفسير الآيات الآنفه- أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم توجه من المدينة إلى مكة مع ألف و أربعمائه من صحابته «للعمره»!

وقد أبلغ عن النبي جميع من في البادية من القبائل أن يحضروا معه في سفره هذا، إلا أن قسما من ضعيفي الإيمان لووا رؤوسهم عن هذا الأمر و أعرضوا عنه و كان تحليلهم هو أن المسلمين لا يستطيعون الحفاظ على أرواحهم في هذا السفر في حين أن كفار قريش كانوا في حالة حرب مع المسلمين و قاتلوهم في أحد و الأحزاب على مقربه من المدينة، فإذا توجهت هذه الجماعه القليله العزلاء من كل سلاح نحو مكه و عرضت نفسها إلى العدو المدجج بالسلاح. فكيف ستعود إلى بيوتها بعدئذ؟! إلا أنهم حين رأوا المسلمين و قد عادوا إلى المدينة ملاء الأيدي وافرین قد حصلوا على امتيازات تستلفت النظر من صلح الحديبيه دون أن تراق من أحدهم قطره دم، عرفوا حينئذ خطأهم الكبير و جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم ليعتذروا إليه، و يبزرروا تخلفهم عنه و يطلبوا منه أن يستغفر لهم! غير أن الآيات آنفه الذكر نزلت ففضحتهم و أماطت عنهم اللثام.

و على هذا، فالآيات هذه- تبين حاله المخلفين ضعاف الإيمان بعد أن بينت الآيات السابقه حال المنافقين و المشركين لتتم حلقات البحث و يرتبط بعضها ببعض! تقول هذه الآيات: سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ .

إنهم لم يكونوا صادقين حتى في توبتهم! فأبلغهم يا رسول و قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ؟! فليس على الله بعزيز و لا- عسير أن يحفكم بأنواع البلاء و المصائب و أنتم في دار أمنكم و بين أهليكم و أبنائكم كما لا يعز عليه أن يجعلكم في حصن حصين من بأس الأعداء و لو كنتم في مركزهم!

إنما هو جهلكم الذى دعاكم إلى هذا التصور و الاعتقاد! أجل بل كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

و أقصى من هذا فهو خبير بأسراركم و نياتكم و هو يعلم جيدا أنّ هذه الحيل و الحجج الواهيه لا صحه لها و لا واقعیه..و الواقع هو أنّكم مترددون ضعيفو الإيمان.و هذه الأعدار لا تخفى على الله و لا تحول دون عقابكم أبدا! الطريف هنا أنه يستفاد من لحن الآيات و من التواريخ أيضا أنّ هذه الآيات نزلت عند عوده النبي صلى الله عليه و آله و سلم إلى المدينه،أى أنها قبل مجيء المخلفين للاعتذار إليه -أماط اللثام عنهم و كشفت الستار و فضحتهم!.

و من أجل أن ينجلي الأمر و يتضح الواقع أكثر يميظ القرآن جميع الأستار فيقول: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا .

أجل،إنّ السبب فى عدم مشاركتكم النبي و أصحابه فى هذا السفر التاريخى لم يكن هو كما زعمتم-انشغالكم بأموالكم و أهليكم-بل العامل الأساس هو سوء ظنكم بالله، و كنتم تتصوّرون خطأ أنّ هذا السفر هو السفر الأخير للنبي و أصحابه و ينبغى الاجتناب عنه! و ما ذلك إلا ما وسوست به أنفسكم و زيين ذلك في قلوبكم و ظننتم ظنّ السوء .

لأنكم تخيلتم أنّ الله أرسل نبيه فى هذا السفر و أودعه فى قبضه أعدائه و لن يخلصه و يحميه عنهم! و كنتم قوماً بُوراً -أى هالكين- فى نهايه الأمر!.

و أى هلاك أشدّ و أسوأ من عدم مشاركتهم فى هذا السفر التاريخى و بيعه الرضوان و حرمانهم من المفاجر الأخر...ثمّ الفضيحه الكبرى...و بعد هذا كله ينتظرهم العذاب الشديد فى الآخرة،أجل لقد كان لكم قلوب ميته فابتليتكم بمثل هذه العاقبه!.

و حيث أنّ هؤلاء الناس-ضعاف الإيمان-أو المنافقين هم أناس جنباء

و تائقون الى الدعه و الراحه و يفرّون من الحرب و القتال فإنّ ما يحلّونه إزاء الحوادث لا ينطبق على الواقع أبدا..و مع هذه الحال فإنهم يتصوّرون أنّ تحليلهم صائب جدّا.

و بهذا الترتيب فإنّ الخوف و الجبن و طلب الدعه و الفرار من تحمل المسؤوليات يجعل سوء ظنّهم فى الأمور واقعيًا، فهم يسيئون الظنّ فى كلّ شيء حتى بالنسبه الى الله و النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم.

و نقرأ

فى نهج البلاغه من وصيه للإمام على عليه السّلام إلى مالك الأشتر قوله: «إنّ البخل و الجبن و الحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظنّ بالله» (١).

حادثه «الحديبيه» و الآيات محلّ البحث، كلّ ذلك هو الظهور العينى لهذا المعنى، و يدلّل كيف أنّ مصدر سوء الظنّ هو من الصفات القبيحه حاله حال البخل و الحرص و الجبن!.

و حيث أنّ هذه الأخطاء مصدرها عدم الإيمان فإنّ القرآن يصرّح فى الآيه التاليه قائلا: وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (٢).

و «السعير» معناه اللهب.

و فى آخر آيه من الآيات محلّ البحث يقول القرآن و من أحلّ أن يثبت قدره الله على معاقبه الكفار و المنافقين: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ كَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا .

و ممّا يسترعى النظر أنّ موضوع المغفره مقدّم هنا على العذاب، كما أنّ فى آخر الآيه تأكيداً على المغفره و الرحمه أيضاً، و ذلك لأنّ الهدف من هذه التهديدات جميعاً هو التريبه، و موضوع التريبه يوجب أن يكون طريق العوده مفتوحاً بوجه

ص: ٤٤٧

١- ١) - نهج البلاغه: من رساله له «برقم ٥٩».

٢- ٢) - أسلوب الجملة و نظمها كان ينبغى أن يكون: فقل: «إنّا اعتدنا لهم سعيراً»: إلا أنّ القرآن حذف الضمير خاصه و جعل مكانه الاسم الصريح «الكافرين» ليبيّن أنّ عله هذا المصير المشؤوم هو الكفر بعينه...

الآ-ثمين حتى الكفار. و خاصة أنّ أساس كثير من هذه الأمور السلبية هو الجهل و عدم الاطلاع -فينبغي أن يبعث في مثل هؤلاء الأفراد الأمل على المغفره بمزيد من الرجاء، فلعلهم يؤوبون نحو السبيل!.

ملاحظه

اشاره

تعليل الذنب و توجيهه مرض عام:

مهما كان الذنب كبيراً فإنه ليس أكبر من تبريره و توجيهه، لأنّ المذنب المعترف بالذنب غالباً ما يؤوب للتوبه، لكنّ المصيبة تبدأ حين يقوم المذنب بتبرير ذنوبه، فلا- ينغلق باب التوبه بوجه الإنسان فحسب بل يتجرأ على الذنب و يشتدّ على مقارفته! و هذا التعليل أو التوجيه يقع أحياناً لحفظ ماء الوجه و تحسباً من الافتضاح، و لكنّ أسوأ من هذا كلّ حين ينخدع به الضمير و«الوجدان»! و هذا التعليل ليس أمراً جديداً، و يمكن العثور على أمثال له على امتداد التاريخ البشرى، و كيف وجه أكبر مجرمي التاريخ جنایاتهم لخداع أنفسهم بتوجيهات مضحكه تجعل كلّ إنسان غارقاً في ذهوله و تعجبه منها!.

و القرآن المجيد الذى يسعى لتربيته و صناعه الإنسان يعالج مسائل من هذا الباب كثيره منها ما قرأناه في الآيات الآنفه- محلّ البحث- و لا بأس بأن نقف على آيات أخرى لإكمال البحث في هذا الصدد.

١- كان العرب المشركون يتذرّعون أحياناً بسيره السلف لتوجيه شركهم و تبريره و كانوا يقولون: **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ! (١)**.

كما كانوا يتذرّعون أحياناً بنوع من الإجبار فكأنّهم مجبرون! و يقولون:

ص: ٤٤٨

٢- كما كان بعض ضعفاء الإيمان يأتون إلى النبي أحيانا متذرعين عن عدم مشاركتهم في الحرب بأن بيوتهم عوره وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (٢).

٣- وربما تذرّعوا بعدم ذهابهم إلى الحرب لأنّ وجوه نساء الرومان النضرة تسلب قلوبهم و تفتنهم!! وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لَا تَفْتِنِّي! (٣).

٤- وربما تذرّعوا بانشغالهم بأموالهم و أهليهم و نساءهم فيوجهون ذنبهم الكبير في الفرار عن طاعه أمر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كما هي الحال في الآيات الآنفه-محل البحث- ٥- و الشيطان أيضا وجه عدم طاعته لله بمقايسه خاطئه فقال: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ! (٤).

٦- في العصر الجاهلي و من أجل أن يوجهوا ذنبهم الكبير و خطأهم في وأد البنات كانوا يقولون نخشى أن تؤسر بناتنا في الحرب و إن غيرتنا و ناموسنا يدعوننا إلى قتلهن و دسهن في التراب! و ربما قالوا إنّما نقتل الأطفال خشية الاملاق كما صرحت به سورة الإسراء و غيرها في القرآن.

كما أنه يظهر من بعض الآيات أنّ المجرمين يتشبّهون بالكبراء و الاقتداء بهم في توجيه ذنوبهم و قالوا رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا وَ كِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا (٥).

و الخلاصه إنّ بلاه توجيه الذنب بلاه واسع شمل طائفه عظيمه من الناس عامهم و خاصهم، و خطره الكبير أنه يغلق سبل الإصلاح في وجوههم و ربما غير حتى

١-١ - الأنعام، الآية ١٤٨.

٢-٢ - الأحزاب، الآية ١٣.

٣-٣ - التوبه، الآية ٤٩.

٤-٤ - الأعراف، الآية ١٢.

٥-٥ - سورة الأحزاب، ٦٧.

الواقعات و أعطاهما وجها آخر عند المذنبين! فكثير من يوجه الخوف و الجبن بأنه: احتياط.

و الحرص بأنه تأمين على الحياه فى «المستقبل».

و التهؤور بأنه حسم و جرأه.

و ضعف النفس بالحياه! و عدم الاكتراث بالزهد.

و ارتكاب الحرام بالحيله الشرعيه.

و الفرار من تحمّل المسؤوليّه بعدم ثبوت الموضوع!! و التقصير و التفريط بالقضاء و القدر.

و هكذا يغلق الإنسان بيده سبيل نجاته! و بالرغم من أنّ هذه المفاهيم كلاً- منها له معنى صحيح فى محلّه و موقعه، و لكن الإشكال فى أنّها حرّفت و اتخذت نتيجه مقلوبه، و كم نال المجتمعات البشريه و الأسر و الأفراد من أضرار من هذا المنفذ!!... حفظنا الله جميعاً من هذا البلاء العظيم «آمين».

اشاره

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوا بِهَا ذُرُونًا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسِبُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَيَدْعُونَ إِلَى قَوْمِ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسِينًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعدُّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)

التفسير

اشاره

المخلفون الانتهازيون:

يعتقد أغلب المفسرين أنّ هذه الآيات ناظره إلى «فتح خيبر» الذي كان في

بدايه السنه السابعه للهجره و بعد صلح الحديبيّه! و توضيح ذلك أنّه طبقاً للروايات حين كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعود من الحديبيّه بشر المسلمين المشتركين بالحديبيّه-بأمر الله-بفتح خبير، و صرح أن يشترك في هذه الحرب من كان في الحديبيّه من المسلمين فحسب، و أنّ الغنائم لهم وحدهم و لن ينال المخلفين منها شيء أبداً.

إلا أنّ عبيد الدنيا الجبناء لما فهموا من القرائن أنّ النبي سينتصر في المعركه المقبله قطعاً-و أنّه ستقع غنائم كثيره في أيدي جنود الإسلام-أفادوا من الفرصه فجاءوا الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم و طلبوا منه أن يأذن لهم بالاشتراك في حرب خبير، و ربّما توسّلوا بهذا العذر، و هو أنّهم يريدون التكفير عن خطئهم السابق و التوبه من الذنب و أن يتحمّلوا عبء المسؤوليه، و الخدمه الخالصه للإسلام و القرآن و يريدون الجهاد مع رسول الله في هذا الميدان، و قد غفلوا عن نزول الآيات آنفاً و أنّها كشفت حقيقتهم من قبل كما نقرأ ذلك في الآيه الأولى من الآيات محل البحث- سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُّونا تَتَّبِعْكُمْ....

و لا نجد ذلك في هذا المورد فحسب، بل في موارد كثيره نجد هؤلاء الطامعين يركضون وراء اللقمه الدسمه التي لا تقترن بألم. و يهربون من المواطن الخطيره و ساحات القتال كما نقرأ ذلك في الآيه (٤٢) من سوره التوبه: لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَرًا قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَ لَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ .

و على كلّ حال فإنّ القرآن الكريم يقول رداً على كلام هؤلاء الانتهازيين و طالبي الفرص يريدون أن يبيدوا كلام الله ثم يضيف قائلاً للنبي: قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا .

و ليس هذا هو كلامي بل كذلكم قال الله من قبل و أخبرنا عن مستقبلكم أيضاً.

إنّ أمر الله أن تكون غنائم خبير خاصه بأهل الحديبيّه و لن يشاركهم في ذلك

أحد. لكن هؤلاء المخلفين الصلفين استمروا في تبجحهم و اتهموا النبي و من معه بالحسد كما صرح القرآن بذلك: فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا .

و هكذا فإنهم بهذا القول يكذبون حتى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و يعدون أساس منعهم من الاشتراك في معركة خبير الحسد فحسب.

و في ذيل الآيه يصرح القرآن عن حالهم فيقول: بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

أجل إن أساس جميع شقائهم و سوء حظهم هو جهلهم و عدم فقاہتہم، فالجهل ملازم لهم أبدا، جهلهم بالله سبحانه و عدم معرفه مقام النبي صلى الله عليه و آله و سلم و جهلهم عن مصير الإنسان و عدم توجههم إلى أن الثروه في الدنيا لا قرار فيها، فهي زائله لا محاله!.

صحيح أنهم أذكياء في المسائل الماديه و المنافع الشخصيه، و لكن أى جهل أعظم من أن يبيع الإنسان جميع كيانه و كل شىء منه بالثروه! و أخيرا و طبقا لما نقلته التواريخ فإن النبي الأكرم و زع غنائم خبير على أهل الحديبيه فحسب، حتى الذين لم يشتركوا في خبير و كانوا في الحديبيه جعل لهم النبي سهما من غنائم خبير، و بالطبع لم يكن لهذا المورد أكثر من مصداق واحد و هو «جابر بن عبد الله الأنصارى» (1).

و استكمالا لهذا البحث فإن الآيه التاليه تقترح على المخلفين عن الحديبيه اقتراحا و تفتح عليهم باب العوده فتقول: قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَيُدْعُونَ إِلِيَّ قَوْمٍ أُولَىٰ بِأُسِّ شَدِيدٍ تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

فمتى ما ندمتم عن أعمالكم و سيرتكم السابقه و رفعتم اليد عن عبادہ الدنيا و طلب الراحة، فينبغى أن تؤدوا امتحان صدقكم في الميادين الصعبه و أن تسهموا فيها مره أخرى، و إلا فإن اجتناب الميادين الصعبه، و المساهمه في الغنائم

ص: ٤٥٣

و ميادين الراحه غير مقبول بأى وجه و دليل على نفاقكم أو ضعف إيمانكم و جنبكم.

الطريف هنا أنّ القرآن كرر التعبير بالمخلفين فى آياته، و بدلا من الاستفاده من الضمير فقد عوّل على الاسم الظاهر.

و هذا التعبير خاصه جاء بصيغه اسم المفعول «المخلفين» أى المتروكين وراء الظهر، و هو إشاره إلى أنّ المسلمين المؤمنين حين كانوا يشاهدون ضعف هؤلاء و تذرعههم بالحيل كانوا يخلفونهم وراء ظهورهم و لا يعتنون أو يكثرثون بكلامهم! و يسرعون إلى ميادين الجهاد!.

و لكنّ من هم هؤلاء القوم المعبّر عنهم ب«أولى بأس شديد» فى الآيه و أى جماعه هم؟! هناك كلام بين المفسرين...

و جمله **تَقَاتَلُونَهُمْ** أَوْ يُشِـلِمُونَ تَدلّ على أنّهم ليسوا من أهل الكتاب، لأنّ أهل الكتاب لا يجبرون على قبول الإسلام، بل يخيرون بين قبوله أو دفع الجزية و الحياه مع المسلمين على شروط أهل الذمّه.

و إنّما الذين لا يقبل منهم إلّا الإسلام هم المشركون و عبده الأصنام فحسب، لأنّ الإسلام لا يعترف بعباده الأصنام دينا و يرى أنّه لا بدّ من إجبار الناس على ترك عبادتها.

و مع الالتفات إلى أنّه لم تقع معركة مهمّه فى عصر النبى بعد حادثه الحديبيه مع المشركين سوى فتح مكّه و غزوه حنين، فيمكن أن تكون الآيه المتقدّمه إشاره إلى ذلك و خاصّه غزوه حنين لأنّها اشترك فيها أولو بأس شديد من «هوازن» و «بنى سعد».

و ما يراه بعض المفسّرين من احتمال أنّ الآيه تشير إلى غزوه (مؤته) التى حدثت مع أهل الروم فهذا بعيد، لأنّ أهل الروم كانوا كتابيين.

و احتمال أنّ المراد منها الغزوات التى حدثت بعد النبى و من جملتها غزوه

فارس و اليمامة، فهذا أبعد بكثير، لأنّ لحن الآيات مشعر بأنّ الحرب ستقع في زمان النبيّ و لا يلزماً أبداً أن نطبق ذلك على الحروب التي حدثت بعده، و يظهر أنّ للدوافع السياسيّه أثراً في بعض الأفكار المفسّرين في هذه القضية!

و هنا ملاحظه جديره بالتأمّل و هي أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله و سلّم لا يعدهم بالقول أنّهم سيغنمون في الحروب و المعارك المقبله، لأنّ الهدف من الجهاد ليس كسب الغنائم بل المعوّل عليه هو ثواب الله العظيم و هو عاده إنّما يكون في الدار الآخره! و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو أنّ الآية (٨٣: من سوره التوبه تردّ ردّاً قاطعاً على هؤلاء المخلفين فتقول: **فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تَقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ** .

في حين أنّ الآية محلّ البحث تدعوهم إلى الجهاد و القتال في ميدان صعب **سُتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بِأُسِّ شَدِيدٍ**. فما وجه ذلك؟ و لكن مع الالتفات إلى الآية (٨٣) في سوره التوبه تتعلق بالمخلفين في معركة تبوك الذين قطع النبيّ الأمل منهم، أمّا الآية محلّ البحث فتحدّث عن المخلفين عن الحديبيّه، و ما يزال النبيّ يأمل فيهم المشاركة، فيتّضح الجواب على هذا الاشكال!.

و حيث أنّ من بين المخلفين ذوى أعدار لنقص عضوى في أبدانهم أو لمرض و ما الى ذلك فلم يقدرُوا على الاشتراك في الجهاد، و لا ينبغي أن نجحد حقهم، فإنّ الآية الأخيره من الآيات محلّ البحث تبين أذارهم و خاصّه أنّ بعض المفسّرين قالوا إنّ جماعه من المعوّقين جاؤوا إلى النبيّ بعد نزول الآية و تهديدها للمخلفين بقولها **يَعِدُّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**، فقالوا: يا رسول الله ما هي مسؤوليتنا في هذا الموقع؟ فنزل قوله تعالى: **لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَ لَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَ لَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ** .

و ليس الجهاد وحده مشروطاً بالقدره، فجميع التكاليف الإلهيّه هي سلسله من

الشرائط العامه و من ضمنها الطاقه و القدره، و كثيرا ما أشارت الآيات القرآنيه إلى هذا المعنى و فى الآيه (٢٨٦) من سوره البقره
نقرأ تعبيراً كلياً عن هذا الأصل و هو:

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .

و هذا الشرط ثابت بالأدله الثقليه و العقليه!

و بالطبع فإن هذه الجماعه و إن كانت معذوره من الاشتراك فى ميادين الجهاد، إلا أنّ عليها أن تساهم بمقدار ما تستطيع لتقويه
قوى الإسلام و تقدّم الأهداف الإلهيه كما نقرأ ذلك فى الآيه (٩١) من سوره التوبه: لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا
عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ .

أى أنّهم إذا لم يستطيعوا أن يؤدّوا عملاً بأيديهم، فلا ينبغى أن يألوا جهداً فيما يقدرّون عليه و لا يعتذروا بالسنتهم عنه، و هذا
التعبير الطريف يدلّ على أنّه لا ينبغى الإغماض عن القدرات أبداً، و بتعبير آخر أنّهم إذا لم يستطيعوا أن يشاركون فى الجبهه فعلى
الأقلّ عليهم أن يحكموا المواضع الخلفيه للجبهه! و لعلّ الجمله الأخيره فى الآيه محلّ البحث تشير أيضاً إلى هذا المعنى فتقول:

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً

و هذا الاحتمال وارد أيضاً، و هو أنّ بعض الأفراد فى المواقع الاستثنائيه يعتذرون عن المساهمه [و يسيئون فهم النص]

فالقرآن هنا يحذّرهم أنّهم إذا لم يكونوا معذورين واقعا فإنّ الله أعدّ لهم عذاباً أليماً.

و من نافله القول أنّ كون المريض و الأعمى و الأعرج معذورين خاص بالجهاد، أمّا فى الدفاع عن حمى الإسلام و البلد
الإسلامى و النفس فيجب أن يدافع كلّ بما وسعه، و لا استثناء فى هذا المجال! ***

اشاره

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)

التفسير

اشاره

رضى الله عن المشركين في بيعه الرضوان:

ذكرنا آنفا أنه في الحديثي جري حوار بين ممثلي قريش و النبي صلى الله عليه و آله و سلم و كان من ضمن السفراء «عثمان بن عفان» الذي تشده أواصر القربى بأبي سفيان، و لعل هذه العلاقه كان لها أثر في انتخابه ممثلا عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم فبعته إلى أشراف مكة و مشركي قريش ليطلعهم على أن النبي لم يكن يقصد الحرب و القتال بل هدفه زياره بيت الله و احترام الكعبه المشرفه بمعيه أصحابه... إلا أن قريشا أوقفت عثمان مؤقتا و شاع على أثر ذلك بين المسلمين أن عثمان قد قتل!

فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: لا أبرح مكاني هذا حتى أقاتل عدوي! ثم جاء إلى شجره هناك فطلب من المسلمين تجديد البيعه تحتها، و طلب منهم

أن لا يقصروا في قتالهم المشركين و أن لا يولّوا أذبارهم من ساحات القتال (١).

فبلغ صدی هذه البيعه مكّه واضطربت قريش من ذلك بشدّه و أطلقوا عثمان.

و كما نعرف فإنّ هذه البيعه عرفت ببيعه الرضوان و قد أفرغت المشركين و كانت منعطفًا في تاريخ الإسلام.

فآياتان محل البحث تتحدّثان عن هذه القصة فتقول الأولى: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ .

و الهدف من هذه البيعه الانسجام أكثر فأكثر بين القوى و تقوية المعنويات و تجديد التعبئه العسكريه و معرفه الأفكار و اختبار ميزان التضحيه من قبل المخلصين الأوفياء! و هذه البيعه أعطت روحا جديدا في المسلمين لأنهم أعطوا أيديهم إلى النبي و أظهروا وفاءهم من أعماق قلوبهم.

فأعطى الله هؤلاء المؤمنين المضحين و المؤثرين على أنفسهم نفس رسول الله في هذه اللحظه الحساسه و الذين بايعوه تحت الشجره أعطاهم أربعه أجور، و من أهمّ تلك الأ-جور و الاثابات الأجر العظيم و هو «رضوانه» كما عبّرت عنه الآيه (٧٢) من سوره التوبه وَ رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ... أيضا.

ثمّ تضيف الآيه قائله: فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ .

سكينه و اطمئنانا لا حدّ لهما، و هم بين سيل الأعداء في نقطه بعيده عن الأهل و الديار و العدو مدجّج بالسلاح، في حين أن المسلمين عزّل من السلاح «لأنّهم جاؤوا بقصد العمره لا- من أجل المعركه» فوقفوا كالجبل الأشم لم يجد الخوف طريقا إلى قلوبهم!.

و هذا هو الأجر الثّاني و الموهبه الإلهيه الأخرى، و أساسا فإنّ الألفاف الخاصه و الإمدادات الإلهيه تشمل حال المخلصين و الصادقين.

ص: ٤٥٨

لذلك فإننا نقرأ حديثاً

عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «إنَّ العبد المؤمن الفقير ليقول يا ربَّ ارزقني حتى افعل كذا و كذا من البرِّ و وجوه الخير فإذا علم الله عزَّ و جلَّ ذلك منه بصدق بيته كتب الله له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله إنَّ الله واسع كريم» (١).

و في ذيل هذه الآية إشاره إلى الأجر الثالث إذ تقول الآية: وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا .

أجل، هذا الفتح و هو فتح خبير كما يقول أغلب المفسرين [و إن كان يرى بعضهم أنه فتح مكه]

هو ثالث أجر و ثواب للمؤمنين المؤثرين، المضحكين.

و التعبير ب«قريباً» تأييد على أن المراد منه «فتح خبير»، لأنَّ هذا الفتح حدث و تحقَّق بعد بضعه أشهر من قضيه الحديبيه و في بدايه السنه السابعه للهجره! و الأجر الرابع أو النعمه الرابعه التي كانت على أثر بيعه الرضوان من نصيب المسلمين كما تقول الآية التاليه هي: وَ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا .

و واحده من هذه الغنائم الكثيره هي «غنائم خبير» التي وقعت في أيدي المسلمين بعد فتره قصيره من قضيه الحديبيه، و مع الالتفات إلى ثروه اليهود الكثيره جدًّا تعرف أهميه هذه الغنائم.

إلاَّ أنَّ تحديد هذه الغنائم بغنائم خبير لا دليل قطعي عليه، و يمكن عدَّ الغنائم الأخرى التي وقعت في أيدي المسلمين خلال الحروب الإسلاميه بعد فتح (الحديبيه) في هذه الغنائم الكثيره! و حيث أنَّ على المسلمين أن يطمئنوا بهذا الوعد الإلهي اطمئناناً كاملاً فإنَّ الآية تضيف في الختام: وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

فإذا ما أمركم في الحديبيه أن تصالحوا فإنما هو على أساس من حكمته، حكمه كشف عن إسرارها الأستار مضى الزمن، و إذا ما وعدكم بالفتح القريب و الغنائم

ص: ٤٥٩

الكثيره فهو قادر على أن يلبس وعده ثياب الإنجاز و التحقق! و هكذا فإن المسلمين المضحين الأوفياء أولى الإيمان و الإيثار اكتسبوا في ظل بيعه الرضوان في تلك اللحظات الحسياسه انتصارا في الدنيا و الآخره، في حين أن المنافقين الجهله و ضعاف الإيمان احترقوا بنار الحسرات! و نختم حديثنا بكلام لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يتحدث عن بساله المسلمين الأوائل و ثباتهم و جهادهم الذي لا نظير له و يخاطب ضعاف الإيمان موبخا إياهم على خذلانهم

فيقول: «فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت و أنزل علينا النصر حتى استقر الإسلام ملقيا جرانه و متبونا أوطانه و لعمري لو كنا نأتى ما أتيتم. ما قام للدين عمود. و لا اخضر للإيمان عود و أيم الله لتحلببنا دما و لتبعننا ندما!» (١).

بحث

اشاره

البيعه و خصوصياتها!

«البيعه» من ماده «بيع» و هى فى الأصل إعطاء اليد عند إقرار المعامله. ثم أطلق هذا التعبير على مدّ اليد على المعاهده، و هكذا كانت حين كان الشخص يريد أن يعلم الآخر بوفائه له و أن يطيع أمره و يعرفه رسميًا فيبايعه و يمدّ له يده، و لعل إطلاق هذه الكلمه من جهه أنّ كلاً من الطرفين يتعهّد كما يتعهّد ذوا المعامله فيما بينهما، و كان المبايع مستعدا أحيانا أن يضحي بروحه أو بماله أو بولده فى سبيل الطاعه! و الذى يقبل البيعه يتعهّد على رعايته و حمايته و الدفاع عنه!...

يقول «ابن خلدون» فى مقدمه تأريخه فى هذا الصدد «كانوا إذا بايع الأمير جعل أيديهم فى يده تأكيدا فأشبه ذلك فعل البائع و المشتري» (٢).

ص: ٤٦٠

١-١) -نهج البلاغه: الخطبه رقم ٥٦.

٢-٢) -مقدمه ابن خلدون، صفحه ١٧٤.

و تدل القرائن على أنّ البيعه ليست من إبداعات المسلمين، بل هي سنّه متّبَعه بين العرب قبل الإسلام، و لهذا السبب فإنّ طائفه من «الأوس و الخزرج» جاءوا في بدايه الإسلام خلال موسم الحج من المدينه لى مكّه و بايعوا النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم في العقبه، و كان تعاملهم في قضيه البيعه يوحى بأنّها أمر معروف، و بعدها و خلال فرص و مناسبات متعدّده جدّد النّبى البيعه مع المسلمين، و كانت إحداها هذه البيعه التي عرفت ببيعه الرضوان في الحديبيّه، و أوسع منها البيعه التي كانت عند فتح مكّه، و سيأتى بيانها و شرحها في تفسير «سوره الممتحنه» بإذن الله! و لكن كيف تتم البيعه؟!.. بصوره عامّه تتم البيعه كما يلي:

يمدّ المبايع يده إلى يد المبايع و يبدى الطاعه و الوفاء بلسان الحال أو المقال!..

و ربّما ذكر شروطا أو حدودا لبيعته كأن يعقد البيعه على بذل ماله! أو بذل روحه أو بذل جميع الأشياء حتى الولد و المرأه! و قد تقع البيعه أحيانا على أن لا يفّر المبايع أبدا أو أن يبقى على عهده و بيعته حتى الموت «و كان هذان المعنيان جميعا في بيعه الرضوان كما صرّحت بذلك التواريخ».

و كان النّبى الكريم يقبل بيعه النساء أيضا لكن لا- على أن يمددن أيديهنّ إلى يده الكريمه بل كان يأمر بإناء كبير فيه ماء فيدخل يده في طرف منه و تدخل يدها في طرف آخر.

و كان يشترط في البيعه أحيانا على عملٍ معيّن أو ترك عملٍ معيّن كما اشترط النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم على النساء المبايعات له بعد مكّه على ألاّ يُشركن بالله شيئا و لا يسرقن و لا يزنيّن و لا يقتلن أولادهنّ و لا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنّ و أرجلهنّ... (١).

و على كلّ حال فإنّ في أحكام البيعه بحوثا مختلفه نشير إليها هنا على نحو

ص: ٤٦١

الإيجاز و الاختصار و إن كانت مسائل هذا البحث محاطه بهاله من الإيهام فى الفقه الإسلامى:

١- «ماهيه البيعه» نوع من العقد و المعاهده بين المبايع من جهه و المبايع من جهه أخرى، و محتواها الطاعه و الإبتاع و الدفاع عن المبايع، و لها درجات طبقا للشروط الذى يذكرونها فيها: و يستفاد من لحن الآيات القرآنيه و الأحاديث النبويه أنّ البيعه نوع من العقد اللانزم من جهه المبايع، و يجب العمل طبقا لما بايع عليه، و يكون مشمولاً بالقانون الكلى «أوفوا بالعقود» فعلى هذا لا يحقّ للمبايع الفسخ، و لكن المبايع له أن يفسخ البيعه إن وجد فى الأمر صلاحاً و فى هذه الصور يتحرر للمبايع من بيعته (١).

٢- و يرى البعض أنّ البيعه شبيهه بالانتخابات أو نوعاً منها، فى حين أنّ الانتخابات على العكس منها تماماً، أى أنّ ماهيتها نوع من إيجاد المسؤوليه الوظيفه و المقام للمنتخب، أو بتعبير آخر هى نوع من التوكيل فى عمل ما بالرغم من أنّ الانتخاب يقتضى وظائف على المنتخب أيضاً «كسائر الوكالات» فى حين أنّ البيعه ليست كذلك! و بتعبير آخر إنّ الانتخابات تعنى إعطاء «المقام» و كما قلنا هى شبيهه بالتوكيل فى حين أنّ البيعه تعهد بالطاعه! و من الممكن أن يتشابه كلاً من البيعه و الانتخاب فى بعض الآثار، لكن هذا التشابه لا يعنى وحده المفهوم و الماهيه أبداً..

و لذلك لا يمكن للمبايع أن يفسخ البيعه، فى حين أنّ المنتخبين لهم الحق فى الفسخ فى كثير من المواطن بحيث يستطيع جماعه ما أن يعزلوا المنتخب

ص: ٤٦٢

١- ١) - نقرأ فى حادثه كربلاء أنّ الإمام الحسين عليه السلام خطب أصحابه ليله العاشر من المحرم و أحلّ بيعته من أصحابه بعد أن أظهر تقديره لهم و شكرهم على مواساتهم إيّاه لينطلقوا حيث يشاءون فقال: «انطلقوا فى حلّ متى ليس عليكم منى ذمام» لكنهم لم يتركوا الحسين عليه السلام و بقوا على وفائهم [الكامل: لابن الأثير، ج ٤، ص ٥٧].

«فلاحظوا بدقه»! ٣-و بالنسبه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمه المعصومين المنصوبين من قبل الله تعالى لا حاجه لهم بالبيعه، أى أن طاعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام المعصوم والمنصوب من قبل الله واجبه سواء على من بايع أو لم يبايع! و بتعبير آخر: إن لازم مقام النبوه والإمامه وجوب الطاعه كما يقول القرآن الكريم: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (١).

لكن ينقدح هنا هذا السؤال و هو إذا كان الأمر كذلك فعلام أخذ النبي من أصحابه-البيعه كرارا-أو المسلمين الجدد،و قد ورد فى القرآن الإشاره إلى حالتين منها بصراحه إحداهما«بيعه الرضوان»-محل البحث-و الأخرى«البيعه مع أهل مكه»المشار إليها فى سورة الممتحنه!.

و فى الإجابة على هذا السؤال نقول:لا شك أن هذه المبايعات كانت نوعا من التأكيد على الوفاء،و قد أدت فى ظروف خاصه و لا-سيما فى مواجهه الأزمات و الحوادث الصعبه لتنبض فى ظلها روح جديده فى الأفراد كما وجدنا تأثيرها المذهل فى بيعه الرضوان فى البحث السابق!.

إلا أنه فيما يتعلّق بمبايعه الخلفاء فقد كانت البيعه على أساس أنها قبول لمقام الخلافه و إن كنا لا نعتقد بخلافه من يخلف النبي و التى تؤخذ البيعه لها عن طريق الناس،بل هى من قبل الله و تتحقّق بالنص من قبل النبي أو الإمام السابق على اللاحق! و من هذا المنطلق فإن البيعه التى بايعها المسلمون لعلى عليه السلام أو للحسن أو الحسين عليهما السلام فيها(جنبه)تأكيد على الوفاء و هى شبيهه ببيعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٤-هل البيعه فى العصر الحاضر مقبوله على أنها أصل إسلامى،أو بتعبير آخر:

هل يمكن تعميم البيعه،و هل للجماعه الفلانيه أن تختار شخصا لائقا و واجدا

ص: ٤٦٣

للشروط الشرعية كأن يكون آمرا للقوات المسلّحة أو رئيسا للجمعية أو رئيسا للحكومة فتبايعه؟ فهل أنّ مثل هذه البيعه مشمول بأحكام الشارع للبيعه؟! وحيث أنّه لا يوجد عموم ولا إطلاق في القرآن والسنة في خصوص البيعه فمن المشكل تعميم هذه المسألة وإن كان الاستدلال بعموم الآية أَوْفُوا بِالْعُقُودِ غير بعيد! ولكن مع هذا الإيهام في المسائل المرتبطة بالبيعه فإنّ هناك مانعا من أن نعول بصورة قطعية على أَوْفُوا بِالْعُقُودِ وخاصة أننا لا نجد في الفقه أي مورد للبيعه لغير النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام المعصوم.

وينبغي الالتفات إلى هذه «اللطيفة» وهي أن مقام نيابة الولي الفقيه في نظرنا مقام منصوص عليه من قبل الأئمة المعصومين عليهم السلام ولا حاجة له بالبيعه وبالطبع فإنّ اتباع الناس للولي الفقيه وطاعتهم له يمنحه الإمكان من الاستفادة من هذا المقام ويعطيه - كما هو مصطلح عليه - بسط اليد، لكنّ هذا لا - يعني أنّ مقامه مشروط بتبعيته الناس له، ثمّ إنّ اتباع الناس إياه لا علاقة له بالبيعه، بل هو عمل بحكم الله في شأن ولايه الفقيه «فلاحظوا بدقّة».

٥- وعلى كلّ حال فإنّ البيعه مرتبطة بالمسائل الإجرائية ولا علاقة لها بالأحكام، أي إنّ البيعه لا تمنح أحدا حق «التشريع والتقنين» أبدا... بل يجب أن تؤخذ القوانين من الكتاب والسنة ثمّ تنفذ في حيز الواقع، ولا كلام لأحد في هذا.

٦- يستفاد من الروايات أنّ البيعه مع الإمام المعصوم ينبغي أن تكون خالصة لله، وبتعبير آخر هي من الأمور التي يلزم فيها قصد القربة.

فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله عزّ وجلّ يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ولا لهم عذاب أليم، رجل بايع إماما لا يبايعه إلا للدنيا، إن أعطاه ما يريد و في له و إلا كفّ و رجلا بايع رجلا بسلّته بعد العصر فحلف بالله عزّ وجلّ لقد أعطى بها كذا وكذا فصدّقه وأخذها ولم يعط فيها ما قال

و رجل على فضل ماء بالفلاه يمنعه ابن السبيل» (١). «و التعبير بالعصر لعلّه لشرف هذا الوقت أو لأنّ كثيرا من الباعه يبيعون أجناسهم بالقيمه التي اشتروها في هذا الوقت».

٧-«نكث البيعه» من الذنوب الكبيره، و نقرأ

حديثا عن الإمام موسى بن جعفر أنّه قال: «ثلاث موبقات، نكث الصّفقه، و ترك السنّه، و فراق الجماعه» (٢).

و يظهر أنّ المراد من «ترك السنّه» هي ترك القوانين التي جاء بها النّبى محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم و فراق الجماعه معناها الإعراض عنها لا محض عدم المشاركة في الجماعه.

٨-البيعه في كلام الإمام على عليه السّلام هناك في نهج البلاغه كلمات تؤكّد على البيعه و قد عوّل الإمام على عليه السّلام عليها مرارا و أنّ الناس بايعوه.

و من جملتها

أنّه قال في بعض خطبه: «أيّها الناس إنّ لى عليكم حقّا و لكم علىّ حق فأما حقكم علىّ فالنصيحه لكم و توفير فيئكم عليكم و تعليمكم كيلا- تجهلوا و تأديبكم كيما تعملوا» ثمّ يضيف عليه السّلام: «و أمّا حقى عليكم فالوفاء بالبيعه و النصيحه بالمشهد و المغيب و الإجابه حين أدعوكم و الطاعه حين أمركم» (٣).

و

يقول عليه السّلام- في مكان آخر: «لم تكن بيعتكم إيّاي فلته» (٤).

و في خطبته التي خطبها قبل حرب الجمل و التحرّك من المدينه نحو البصره أشار الى بيعه الناس إيّاه و أن يثبتوا على ما بايعوه

فقال عليه السّلام: «و بايعنى الناس غير

ص: ٤٤٥

(١-١) -الخصال:باب الثلاثة-الحديث ٧٠.

(٢-٢) -بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١٨٥.

(٣-٣) -نهج البلاغه الخطبه ٣٤.

(٤-٤) -نهج البلاغه الخطبه ١٣٦.

مستكرهين و لا مجيرين بل طائعين مختيرين» (١).

و نقرأ أخيرا فى بعض كتبه لمعاويه حين لم يبايع الإمام عليا و كان يريد الانتقاد من

على عليه السلام قوله: «بايعنى القوم الذين بايعوا أبا بكر و عمر و عثمان على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد أن يختار و لا للغائب أن يرد» (٢).

و استفاد من بعض عبارات النهج أن البيعه ليست أكثر من مره واحده و لا سبيل لتجديد النظر فيها و ليس فيها اختيار الفسخ، و من يخرج منها فهو طاعن، و من يتريث و يفكر فى قبولها أو ردّها فهو منافق.

[إنّها بيعه واحده لا يثنى فيها النظر و لا يستأنف فيها الخيار؛ الخارج منها طاعن و المرؤى فيها مدهن]

(٣).

و استفاد من مجموع هذه التعابير أنّ الإمام عليه السلام استدلّ على من لم يقبلوا بأنّ إمامته منصوص عليها من قبل النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم - و كانوا يتذرّعون بحجج واهيه - بالبيعه التى كانت عندهم من المسلم بها، و لم تكن لهم الجراه على أن يرفضوا طاعه الإمام و يسمعوا لمعاويه و أمثال معاويه، فكما أنّهم يرون مشروعيه الخلافه للخلفاء الثلاثة السابقين، فعليهم أن يعتقدوا بأنّ خلافه الإمام مشروع أيضا و أن يذعنوا له «بل إنّ خلافته أكثر شرعيه لأنّ بيعته كانت أوسع و كانت حسب رغبه الناس و رضاهم».

فبناء على هذا لا منافاه بين الاستدلال بالبيعه و مسأله نصب الإمام بواسطه الله و النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم و تأكيد البيعه.

لذلك فإنّ الإمام يشير فى مكان من (نهج البلاغه) نفسه بحديث الثقلين الذى

ص: ٤٦٦

١-١) - نهج البلاغه من كتاب له عليه السلام رقم ١.

٢-٢) - من كتاب له رقم ٦، و ينبغى الالتفات إلى أنّ التعويل على بيعه الخلفاء السابقه هو لأنّ معاويه كان منصوبا من قبلهم و كان يدافع عنهم فلا منافاه بين هذا و ما جاء فى الخطبه المعروفه بالشقشقيه.

٣-٣) - نهج البلاغه: من كتاب له برقم ٧.

هو من نصوص الإمامه (١) كما يشير في مكان آخر إلى مسأله الوصيه و الوراثة (٢).

[فلاحظوا بدقه]

كما يشير عليه السلام في بعض عباراته الأخرى إلى لزوم الوفاء بالبيعه و عدم إمكان الفسخ و النكث و تجديد النظر و عدم الحاجه إلى التكرار و هذه هي مسائل مقبوله بالنسبه للبيعه أيضا.

و استفاد من هذه التعابير ضمنا بصوره جيده أن البيعه إذا كانت فيها «جنبه» إكراه أو إجبار أو أخذت على حين غره من الناس فلا عبره بها و لا قيمه لها بل البيعه الحق التي تكون في حال الاختيار و الحريه و الإراده و التفكر و التدبر.

ص: ٤٦٧

١-١) - نهج البلاغه: الخطبه رقم ٨٧.

٢-٢) - نهج البلاغه: الخطبه رقم ٢.

اشاره

وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَىٰ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا
(٢٠) وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١)

التفسير

اشاره

من بركات صلح الحديبيه مره اخرى!

تحدّث هاتان الآيتان كالأيات السابقه المتعلقه بصلح الحديبيه و الوقائع التاليه لها-عن البركات و ما حصل عليه المسلمون من غنائم في هذا الطريق.

فتقول الآيه الأولى منهما: وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ .

و يدلّ لحن الآيه أنّ المراد من المغانم الكثيره هنا جميع المغانم التي جعلها الله للمسلمين سواء في أمد قصير أم بعيد حتى أنّ جمعا من المفسرين يعتقدون أنّ المغانم التي تقع في أيدي المسلمين إلى يوم القيامة داخله في هذه العبارة أيضا.

أمّا قوله: فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ فيرى الكثير من المفسرين أنّ المراد منه مغانم

خير التي توفرت خلال أمد قصير جدا بعد حادثه الحدييّه! غير أنّ البعض يرى أنّ كلمه «هذه» إشاره إلى فتح الحدييّه الذي يعدّ أكبر غنيمة معنويه!..

ثمّ يشير القرآن إلى لطف آخر من أطف الله على المسلمين- في هذه الحادثه- فيقول: وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ .

و هذا لطف كبير أن يكون المسلمون على قله العدد و العدد و في نقطه نائيه عن الوطن و في مقربه من العدو- في مأمن منه و أن يلقى الله رعبا و وحشه منهم في قلوب الأعداء بحيث يخشون التحرش بهم!.

و يرى جماعه من المفسّرين أنّ هذه الجملة إشاره إلى ما جرى في خير إذ كانت بعض القبائل من «بنى أسد» و «بنى غطفان» قد صمّموا أن يهجموا على المدينه في غياب المسلمين و أن ينهبوا أموالهم و يأسروا نساءهم! أو أنّها إشاره إلى تصميم جماعه من هاتين القبيلتين على أن ينهضوا لنصره يهود خير فألقى الله الرعب في قلوبهم فصرفهم عن ذلك.

غير أنّ التفسير الأوّل أنسب ظاهرا! لأننا نشاهد شرطا لهذا التعبير بعد بضعه آيات ورد في شأن أهل مكّه كما جاء في الآيه محل البحث، و هو منسجم مع أسلوب القرآن الذي هو أسلوب إجمال و تفصيل! المهم أنّه طبقا للروايات المشهوره فإنّ سوره الفتح جميعها نزلت بعد حادثه الحدييّه و خلال عوده النبي صلى الله عليه و آله و سلّم من مكّه إلى المدينه! ثمّ يضيف القرآن في تكمله الآيه مشيرا إلى نعمتين كبيرين آخرين من مواهب الله و نعمه إذ يقول: وَ لَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا .

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين يرى أنّ الضمير في لتكون عائدا على الغنائم الكثيره الموعوده، و بعضهم يراه عائدا على حمايه المسلمين و كف أيدي الناس عنهم، غير أنّ المناسب أن يعود الضمير إلى جميع حوادث الحدييّه و مجرياتها بعد

ذلك..لأنّ كلاً منها آية من آيات الله و دليل على صدق النبي صلى الله عليه و آله و سلّم و وسيله لهدايه الناس إلى الصراط المستقيم،و كان فى قسم منها(جنبه)أخبار بالمعجيات،و كان بعضها لا ينسجم مع الظروف العاديه،و هى فى المجموع تعدّ معجزه واضحه من معجز النبي صلى الله عليه و آله و سلّم.

و فى الآيه التاليه أعطى الله بشاره أخرى للمسلمين إذ قال: **وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرًا .**

و هناك كلام بين المفسرين فى أنّ هذا الوعد يشير إلى آيه غنيمه؟و الى أى نصر؟! يرى بعضهم أنّه إشارة إلى فتح مكّه و غنائم حنين.

و يرى آخرون أنّه إشارة إلى الفتوحات و الغنائم التى كانت نصيب المسلمين بعد النبي (كفتح فارس و الروم و مصر) كما يحتمل أيضا أنّه إشارة لجميع ما تقدّم ذكره (1).

عبارة **لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا** إشارة إلى أنّ المسلمين لم يحتملوا قبل ذلك أن يظفروا بمثل هذه الفتوحات و الغنائم،إلا أنّه و ببركه الإسلام و الإمدادات الإلهيه نالوا هذه القدره و القوه! و استنبط بعض المفسرين من هذه الجمله أنّ المسلمين كانوا يتحدّثون عن مثل هذه الفتوحات،إلا أنّهم كانوا يرون أنفسهم غير قادرين و خاصّه أنّنا نقرأ فى قصه الأحزاب يوم بشّر النبي صلى الله عليه و آله و سلّم المسلمين بفتح بلاد فارس و الروم و اليمن اتخذ المنافقون كلامه هزوا! و جمله **قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا** إشارة إلى إحاطه قدره الله على هذه الغنائم أو الفتوحات،و يرى بعض المفسرين أنّها إشارة إلى إحاطه علمه،غير أنّ المعنى الأول أكثر انسجاما مع تعابير الآيه الأخرى،و بالطبع لا مانع فى الجمع بينهما

ص : ٤٧٠

(١ - ١) - أخرى: هنا صفة لمحدوف تقدير (و مغنم أخرى لم تقدروا عليها) و هى منصوبه لعطفها على (وعدكم الله مغنم كثيره)..

و أخيراً فإنّ آخر جملة في الآية وَ كَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا هي في الحقيقة بمنزلة بيان العلة للجملة السابقة، وهي إشارة إلى أنّه مع قدره الله على كل شيء فلا عجب أن ينال المسلمون مثل هذه الفتوحات!

و على كلّ حال فإنّ الآية من إخبار القرآن بالمعجزات و الحوادث الآتية، و قد حدثت هذه الفتوحات في مدة قصيرة و كشفت عن عظمه هذه الآيات بجلاء!***

ملاحظه

إشارة

قصه غزوه خيبر:

لَمَّا عاد النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من الحديبيّه نحو المدينة أمضى شهر ذى الحجه كلّهُ و أياما من شهر محرم الحرام من السنه السابعه للهجره في المدينة، ثمّ تحرّك بألف و أربعمائه نفر من المسلمين الذين كانوا حضروا الحديبيّه نحو «خيبر» [حيث كان مركزا للتحرّكات المناوئه للإسلام و كان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يتحجّن الفرص لتدمير ذلك المركز للفساد]

و قد صمّمت قبيله غطفان في البدايه أن تحمى يهود خيبر غير أنّها خافت بعدئذ عواقب أمرها (فاجتنبت حمايتها لهم).

فلَمَّا وصل النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قريبا من قلاع خيبر أمر أصحابه أن يقفوا ثمّ رفع رأسه الشريف للسماء و دعا بهذا الدعاء:

«اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَ مَا أَظْلَلْنَ وَ رَبَّ الْأَرْضِينَ وَ مَا أَقْلَلْنَ، نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَ خَيْرَ أَهْلِهَا وَ نَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَ شَرِّ أَهْلِهَا وَ شَرِّ مَا فِيهَا».

ثمّ قال صلى الله عليه و آله و سلم: «أقدموا بسم الله»، و هكذا وصلوا خيبر ليلا و عند الصباح-حيث علم أهل خيبر بالخبر-وجدوا أنفسهم محاصرين من قبل جنود الإسلام، ثمّ فتح

النبي صلى الله عليه وآله وسلم القلاع قلعه بعد اخرى حتى بلغ أقوى القلاع وأمنعها وأخرها وكان فيها «مرحب» قائد اليهود المعروف.

و في هذه الأيام أصاب رأس النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجع شديد كان ينتابه أحيانا حتى أنه لم يستطع الخروج من خيمته-يوما أو يومين..و في هذه الأثناء وطبقا لما ورد في التاريخ الإسلامي، حمل أبو بكر الراية في يده وتوجه بالمسلمين نحو معسكر اليهود غير أنه سرعان ما عاد وهو صفر اليدين دون نتيجته، ومرة أخرى أخذ عمر الراية وحمل بالمسلمين بصوره أشد فما أسرع ما عاد دون جدوى...

فلما بلغ الخبر مسمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم

قال: «و الله لأعطينها غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يأخذها عنوه!».

فاشرأبت الأعناق من كل جانب ترى من هو المقصود، وقد حدس جماعه منهم أن مقصوده (على) عليه السلام، إلا أن عليا كان مصابا بوجع في عينه فلم يكن حاضرا حينئذ، ولما كان الغد أمر النبي بأن يدعو له عليا، فجاء راكبا على بعير له حتى أناخ قريبا من خباء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أرمدا قد عصّب عينيه.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما لك؟ قال على عليه السلام: رمدت بعدك.

فقال له: أذن منى، فدنا منه، فتفل في عينيه، فما شكوا وجعا حتى مضى بسبيله.

ثم أعطاه الراية.

فتوجه على عليه السلام بجيش الإسلام نحو القلعة الكبرى (من خيبر) فرآه رجل يهودى من أعلى الجدار فسأله من أنت؟ فقال: أنا على بن أبى طالب. فنادى اليهودى: أيتها الجماعة حان اندحاركم، فجاء «مرحب» أمر الحصن ونازل عليا فما كان إلا أن هوى إلى الأرض صريعا بضربه على عليه السلام، فالتحمت الحرب بين المسلمين واليهود بشده فاقترب على عليه السلام من باب الحصن فقلعه فدحاه فرماه بقوه

خارقه إلى مكان آخر، وهكذا فتحت القلعة و دخلها المسلمون فاتحين.

و استسلم اليهود و طلبوا من النبي أن يحقن دماءهم لاستسلامهم، فقبل النبي صلى الله عليه و آله و سلم و غنم الجيش الإسلامي الغنائم المنقوله، و أودع النبي صلى الله عليه و آله و سلم الأرض و الأشجار بأيدي اليهود على أن يعطوا المسلمين نصف حاصلها (١).

ص: ٤٧٣

١-١) -نقلا بتلخيص عن [الكامل في التاريخ لابن الأثير] ج ٢، ص ٢١٦-٢٢١.

اشاره

وَ لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلْيَاءَ وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّهَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ الْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَ لَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُمُ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَعْثَرٌ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)

التفسير

اشاره

لو حدثت الحرب في الحديبيه!؟

هذه الآيات تتحدث أيضا عن أبعاد آخر لما جرى في الحديبيه و تشير إلى

«لطيفتين» مهمتين في هذا الشأن! الأولى: هي أنه لا تتصوّروا أنه لو وقعت الحرب بينكم وبين مشركى مكّه في الحديبيّه لانتصر المشركون و الكفره! وَ لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

و ليس هذا منحصرًا بكم بل: سُنَّهَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهَ اللَّهِ تَبْدِيلًا .

فهذا هو قانون إلهى دائم، فمتى واجه المؤمنون العدوّ بآيات خالصه و قلوب طاهره و لم يضعفوا فى أمر الجهاد نصرهم الله على عدوّهم، و ربّما حدث فى هذا الشأن إبطاء أو تعجيل لامتحان المؤمنين أو لأهداف أخرى، و لكنّ النصر النهائى على كل حال هو حليف المؤمنين..

لكن فى موارد كمعركه أحد مثلا حيث أنّ جماعه لم يتبعوا أمر الرسول و مالت طائفه منهم إلى الدنيا و زخرفها فلوّثت نياتها و عكفت على جمع الغنائم فإنّها ذاقت هزيمه مرّه، و هكذا بعد! اللطيفه المهمه التى تبينها الآيات هى أن لا تجلس قريش فتقول: مع الأسف إنّنا لم نقاتل هذه الطائفه القليله العدد، أسفا إذا بلغ «الصيد» مكّه فغفلنا عنه.. أبدا ليس الأمر كذلك.. فبالرغم من أنّ المسلمين كانوا قلّه و بعيدين عن الوطن و المأمن و فاقدين للأعتده و المؤمن. و لكن مع هذه الحال لو وقع قتال بين المشركين و المؤمنين لانتصر المؤمنون ببركه قوى الإيمان و نصر الله أيضا.. ألم يكونوا فى بدر أو الأحزاب قلّه و أعداؤهم كثره، فكيف انهزم الجمع و ولّوا الدبر فى المعركتين؟! و على كلّ حال فإنّ بيان هذه الحقيقه كان سببا لتقويه روحيه المؤمنين و تضعيف روحيه الأعداء و إنهاء القيل و القال من قبل المنافقين، و دلّ على أنّه حتى لو حدثت حرب فى هذه الظروف غير الملائمه بحسب الظاهر فإنّ النصر سيكون

و اللطيفه الأخرى التي يَبْتِنها هذه الآيات أنها قالت: وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا .

حقاً.. كان ما حدث مصداقاً جليلاً «للفتح الميين» و نعم ما اختاره القرآن له من وصف، فالعدو الذي زحف بجيشه مرارا نحو المدينة و سعى سعياً عجبياً لإيقاع الهزيمة بالمسلمين، إلا أنه الآن حيث حطوا أقدامهم في حريمه و دياره يمتلكه الرعب منهم حتى أنه يقترح الصلح معهم، فأى فتح ميين أكبر من هذا الفتح إذ ينال المسلمون هذا التفوق على العدو دون أن تسفك قطره دم واحده من المسلمين؟! و لا شك أن ما جرى في الحديبية كان يعدّ في جزيره العرب عامه نصراً للمسلمين و هزيمة لقريش.

هذا و قد ذكر جماعه من المفسرين في نزول هذه الآية أن مشركى مكّه عبّوا أربعين رجلاً للهجوم على المسلمين (بصوره خفيه) في الحديبية، غير أن المسلمين أفسلوا مؤامرتهم و أجهضوا مكيدتهم -بفطنتهم- فأسر المسلمون هؤلاء الأربعين جميعاً و جاءوا بهم إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلّم فخلّى عنهم سبيلهم.

و قال بعضهم: أنهم كانوا ثمانين أرادوا أن يهجموا على المسلمين من جبل التنعيم عند صلاه الغداه و بالاستفاده من العتمه، و قال بعضهم: كان النبي صلى الله عليه و آله و سلّم يستظلّ تحت الشجره ليكتب معاهده الصلح مع ممثل قريش و على مشغول بالإملاء، فحمل عليه ثلاثون شاباً من أهل مكّه بأسلحتهم و لكن بمعجزه مذهله فشلت خطتهم و أسر جميعهم و خلّى النبي صلى الله عليه و آله و سلّم عنهم سبيلهم (1).

و طبقاً لشأن النزول هذا فإن جملة من بعد أن أظفركم عليهم إشارة إلى

١ - ١) - (مجمع البيان) ج ٩، ص ١٢٣، مع شيء من التصرف كما ذكر هذا الشأن (القرطبي) بتفاوت يسير و (أبو الفتوح الرازي) و (الآلوسى فى روح المعانى) و (الشيخ الطوسى فى التبيان) و (المراغى) و (أضرابهم).

الإنتصار على هذه الطائفة، في حين أنه طبقاً للتفسير السابق يكون المقصود هو النصر الكلى للمسلمين على المشركين و هذا التفسير أكثر انسجاماً مع مفاد الآيه..

مما يستلقت النظر أنّ القرآن يؤكّد على عدم القتال في بطن مكّه، وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى لطيفتين:

الأولى: إنّ مكّه كانت مركزاً لقوّه العدو، وعلى القاعده كان على أهل مكّه [المشركين]

أن يغتنموا الفرصه المناسبه فيحملوا على المسلمين فقد كانوا يبحثون عنهم و عن فرصه للقضاء عليهم فإذا هم في دارهم و في قبضتهم فما كان ينبغي أن يتركوا هذه الفرصه بهذه البساطه، لكنّ الله سلب عنهم قدرتهم و صرفهم عنهم! الثانيه: إنّ مكّه كانت حرم الله الآمن. فلو وقع القتال فيها لسألت الدماء فتهتك حرمة الحرم من جانب، و تكون عارا على المسلمين و عيباً أيضاً. إذ سلبوا أمن هذه الأرض المقدسه، و لذلك فإنّ من نعم الله على نبيّه صلى الله عليه و آله و سلّم و على المسلمين أنّه و بعد هذه القضيّه بسنتين فتح عليهم مكّه و كان ذلك من دون سفك دم أيضاً..

و في آخر آيه من الآيات محل البحث إشارة إلى لطيفه أخرى تتعلّق بمسأله صلح الحديبيّه و حكمتها إذ تقول الآيه: هُم الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ الْهَدَىٰ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ (١).

كان أحد ذنوبهم كفرهم، و الذنب الآخر صدّهم إياكم عن عمره زياره بيت الله و لم يجيزوا أن تنحروا الهدى في محله، أي مكّه (الهدى في عمره ينحر) [أو يذبح]

في مكّه و في الحج بمنى) على حين ينبغي أن يكون بيت الله للجميع و صدّ المؤمنين عنه من أعظم الكبائر، كما يصرّح القرآن بذلك في مكان آخر من سوره:

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ

(٢)

ص: ٤٧٧

١-١) - «معكوفاً» مشتق من العكوف و معناها المنع عن الحركة و البقاء في المكان.

٢-٢) - البقره، الآيه ١١٤.

و مثل هذه الذنوب يستوجب أن يسَلِّطكم الله عليهم لتعاقبهم بشده! لكن الله تعالى لم يفعل ذلك فلما ذا؟! ذيل الآيه يبين السبب بوضوح إذ يقول: **وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّم تَعْلَمُوهُم أَن تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُم مِّنْهُمْ مَّعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ (١) ..**

و هذه الآيه تشير إلى طائفه (من الرجال و النساء) المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام في مكه و لم يهاجروا إلى المدينه لأسباب خاصه.

فلو قاتل المسلمون أهل مكه لأوقعوا أرواح هؤلاء المستضعفين في خطر و لامتدت ألسنه المشركين بالقول: إن جنود الإسلام لم يرحموا لا- أعداءهم و مخالفهم و لا أتباعهم و مؤالفهم، و هذا عيب و عار كبير! و قال بعضهم أيضا، إن المراد من هذا العيب لزوم الكفار و ديه قتل الخطأ، لكن المعنى الأول أكثر مناسبه ظاهرا.

«المعْرَه» من ماده «عَرَّ» على زنه «شَرَّ» و العَرَّ على زنه الحر «في الأصل معناه مرض الجرب و هو من الأمراض الجلديه التي تصيب الحيوانات أو الإنسان أحيانا ثم توسَّعوا في المعنى فأطلقوا هذا اللفظ على كل ضرر يصيب الإنسان.

و لإكمال الموضوع تضيف الآيه: **لِيُدْخَلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ .**

أجل، كان الله يريد للمستضعفين المؤمنين من أهل مكه أن تشملهم الرحمه و لا تنالهم أيه صدمه..

كما يرد هذا الاحتمال أيضا و هو أن أحد أهداف صلح الحديبيه أن من المشركين من فيه قابليه الهدايه فيهدى ببركه هذا الصلح و يدخل في رحمه الله.

و التعبير ب«من يشاء» يراد منه الذين فيهم اللياقه و الجداره، لأن مشيئه الله تنبع من حكمته دائما، و الحكيم لا يشاء إلا بدليل و لا يعمل عملا دون دقه و حساب..

و لمزيد التأكيد تضيف الآيه الكريمه: **لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** أي لو افترقت و انفصلت صفوف المؤمنين و الكفار في مكه و لم يكن هناك

ص: ٤٧٨

خطر على المؤمنين لعذبنا الكفار بأيديكم عذاباً أليماً.

صحيح أنّ الله قادر على أن يفصل هذه الجماعه عن الآخرين عن طريق الإعجاز، ولكنّ سنّه الله- في ما عدا الموارد الاستثنائية- أن تكون الأمور وفقاً للأسباب العاديّه.

جمله «تزيّلوا» من ماده زوال، و هنا معناها الانفصال و التفرّق.

و يستفاد من روايات متعدّده منقوله عن طرق الشيعة و السنّه حول ذيل هذه الآيه أنّ المراد منها أفراد مؤمنون كانوا في أصلاب الكافرين و الله سبحانه لأجل هؤلاء لم يعذب الكافرين..

و من جمله هذه الروايات نقرأ

في الروايه أنّه سأل رجل الإمام الصادق عليه السّلام: ألم يكن على عليه السّلام قويا في دين الله؟ قال عليه السّلام: بلى. فقال: فعلام إذ سلّط على قوم (في الجمل) لم يفتكك بهم فما كان منعه من ذلك؟! فقال الإمام: آيه في القرآن! فقال الرجل: و آيه آيه؟! فقال الصادق عليه السّلام قوله تعالى: لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً..

ثمّ أضاف عليه السّلام: أنّه كان لله عزّ و جلّ و ودائع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين و منافقين، و لم يكن على ليقتل الآباء حتى تخرج الودائع.. و كذلك قائمنا أهل البيت لن يظهر أبدا حتى تظهر و ودائع الله عزّ و جلّ (1).

أى أن الله سبحانه يعلم أنّ جماعه سيولدون منهم في ما بعد و سيؤمنون عن اختيارهم و إرادتهم و لأجلهم لم يعذب الله آباءهم و قد أورد هذا القرطبي في تفسيره بعباره اخرى.

و لا- يمنع أن تكون الآيه مشيره إلى المؤمنين المختلطين بالكفّار في مكّه و إلى المؤمنين الذين هم في أصلاب الكافرين و سيولدون في ما بعد!..

ص: ٤٧٩

اشاره

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمُ الْتَقْوَىٰ وَ
كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلَهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)

التفسير

اشاره

التعصب «و حميه الجاهليه» أكبر سد في طريق الكفار:

هذه الآيه تتحدّث مرّه أخرى عن (مجريات) الحديدية و تجسّم ميادين أخرى من قضيتها العظمى..فتشير أولاً إلى واحد من أهم
العوامل التي تمنع الكفار من الإيمان بالله و رسوله و الإذعان و التسليم للحق و العدالة فتقول: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ
الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ (١).

و لذلك منعوا النبي و المؤمنين أن يدخلوا بيت الله و يؤدّوا مناسكهم و ينحروا «الهدى» في مكّه. و قالوا لو دخل هؤلاء-الذين
قتلوا آباءنا و إخواننا في الحرب-

ص: ٤٨٠

١ - ١) - يستوفى الفعل (جعل) مفعولاً واحداً أحيانا و ذلك إذا كان معناه «الإيجاد» كآليه محل البحث و فاعله الذين كفروا و
مفعوله الحميه و المراد بالإيجاد هنا البقاء على هذه الحالة و التعلّق بها، و قد يستوفى هذا الفعل (جعل) مفعولين و ذلك إذا كان
بمعنى (صار).

أرضنا و ديارنا و عادوا سالمين فما عسى أن تقول العرب فينا؟! أو أيه حيشه و اعتبار لنا بعد؟ هذا الكبر و الغرور و الحميه-حميه الجاهليه-منعتهم حتى من كتابه «بسم الله الرحمن الرحيم» بصورتها الصحيحه عند تنظيم معاهده صلح الحديبيه، مع أنّ عاداتهم و سننهم كانت تجيز العمره و زياره بيت الله للجميع، و كانت مكّه عندهم حرما آمنا حتى لو وجد أحدهم قاتل أبيه فيها أو أثناء المناسك فلا يناله منه سوء و أذى لحرمة البيت عنده، فهؤلاء-بهذا العمل-هتكوا حرمة بيت الله و الحرم الآمن من جهه، و خالفوا سننهم و عاداتهم من جهه أخرى، كما أسدلوا ستارا بينهم و بين الحقيقه أيضا، و هكذا هي آثار حميه الجاهليه المميته! «الحميه» في الأصل من ماده حمى-على وزن حمد-و معناها حراره الشمس أو النار التي تصيب جسم الإنسان و ما شاكله، و من هنا سميت الحمى التي تصيب الإنسان بهذا الاسم «حمى» على وزن كبرى، و يقال لحاله الغضب أو النخوه أو التعصب المقرون بالغضب حميه أيضا.

و هذه الحاله السائده في الأمم هي بسبب الجهل و قصور الفكر و الانحطاط الثقافى خاصه بين «الجاهليين» و كانت مدعاه لكثير من الحروب و سفك الدماء!..

ثمّ تضيف الآيه الكريمه-و في قبال ذلك- فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ..

هذه السكينه التي هي وليده الإيمان و الاعتقاد بالله و الاعتماد على لطفه دعتهم الى الاطمئنان و ضبط النفس و أطفأت لهب غضبهم حتى أنهم قبلوا-و من أجل أن يحفظوا و يرعوا أهدافهم الكبرى-بحذف جمله «بسم الله الرحمن الرحيم» التي هي رمز الإسلام في بدايه الأعمال و أن يثبتوا-مكانها «بسمك اللهم» التي هي من موروثات العرب السابقين-فى أول المعاهده و حذفوا حتى لقب «رسول الله» التي يلي اسم محمّد صلى الله عليه و آله و سلم.

و قبلوا بالعوده إلى المدينه من الحديدية دون أن يستجيبوا لهوى عشقهم بالبيت و يؤدوا مناسك عمره! و نحروا هديهم خلافا
للسنة التي في الحج أو عمره في المكان ذاته و أحلوا من إحرامهم دون أداء المناسك!..

أجل، لقد رضوا بمراره أن يصبروا إزاء كل المشاكل الصعبة، و لو كانت فيهم حمية الجاهلية لكان واحد من هذه الأمور الآنفه
كفيلا- أن يشعل الحرب بينهم في تلك الأرض! أجل.. إن الثقافة الجاهلية تدعو إلى «الحمية» و «التعصب» و «الحفيظة الجاهلية»، غير
أن الثقافة الإسلامية تدعو إلى «السكينة» و «الاطمئنان» و «ضبط النفس».

ثم يضيف القرآن في هذا الصدد قائلا: وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ..

(كلمه) هنا بمعنى «روح»، و معنى الآية أن الله ألقى روح التقوى في قلوب أولئك المؤمنين و جعلها ملازمه لهم و معهم، كما
نقرأ في هذا المعنى -أيضا الآية (١٧١) من سورة النساء في شأن عيسى بن مريم إذ تقول الآية: إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَ رُوْحٌ مِنْهُ .

و احتمال بعض المفسرين أن المراد من «كلمه التقوى» ما أمر الله به المؤمنين في هذا الصدد! إلا أن المناسب هو «روح التقوى» التي
تحمل مفهومها تكوينيا، و هي وليده الإيمان و السكينة و الالتزام القلبي بأوامر الله سبحانه، لذا ورد في بعض الروايات عن النبي
صلى الله عليه و آله و سلم أن المراد بكلمه التقوى هو كلمه لا- إله إلا- الله (١)، و في روايه عن الإمام الصادق عليه السلام أنه
فسرها بالإيمان (٢) .

ص: ٤٨٢

١-١) - الدر المنثور، الجزء ٦، ص ٨٠.

٢-٢) - أصول الكافي طبقا لما نقل في تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٣.

فى بعض خطب النبى صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «نحن كلمه التقوى و سبيل الهدى» (١) و شبهه بهذا التعبير ما

نقل عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام قوله: «و نحن كلمه التقوى و العروه الوثقى» (٢)! و واضح أنّ الإيمان بالنبوه و الولايه مكمل للإيمان بأصل التوحيد و معرفه الله لأنهما جميعا داعيان إلى الله و مناديان للتوحيد.

و على كلّ حال فإنّ المسلمين لم يبتلوا فى هذه اللحظات الحساسه بالحميه و العصبيه و النخوه و الحفيظه، و ما كتب الله لهم من العاقبه المشرفه فى الحديبيه لم تمسه نار الحميه و الجهاله! لأنّ الله يقول: وَ أَلَزَمَهُم كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا .

و بديهى أنّه لا ينتظر من حفنه عتاه و جهله و عبده أصنام سوى (حميه الجاهليه) و لا ينتظر من المسلمين الموحدين الذين تربوا سنين طويله فى مدرسه الإسلام مثل هذا الخلق و الطباع الجاهليه، ما ينتظر منهم هو الاطمئنان و السكينه و الوقار و التقوى، و ذلك ما أظهره فى الحديبيه و لكن بعض حادى الطبع و المزاج أوشكوا على كسر هذا السد المنيع بما يحملوه من أنفسهم من ترسبات الماضى و أثاروا البلبله و الضوضاء، غير أنّ سكينه النبى صلى الله عليه وآله وسلم و وقاره كانا كمثل الماء المسكوب على النار فأطفأها! و تختتم الآيه بقوله سبحانه: وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا . فهو سبحانه يعرف نيات الكفار السيئه و يعرف طهاره قلوب المؤمنين أيضا فينزل السكينه و التقوى عليهم هنا، و يترك أولئك فى غيهم و حميتهم حميه الجاهليه، فالله يشمل كلّ قوم و أمه بما تستحقّه من اللطف و الرحمه أو الغضب و النقمه! ***

ص: ٤٨٣

١-١) -خصال الصدوق: عن نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٣.

٢-٢) -المصدر السابق، ص ٧٤.

ما هي حميه الجاهليه!!

قلنا أنّ «الحميّه» في الأصل من ماده «حمى» ومعناها الحراره، ثمّ صارت تستعمل في معنى الغضب، ثمّ استعملت في النخوه و التعصّب الممزوج بالغضب أيضا..

و هذه الكلمه قد تستعمل في هذا المعنى المذموم «مقرونه بالجاهليه أو بدونها» بعض الأحيان، وقد تستعمل في المدح حيناً آخر، فتكون عندئذ بمعنى التعصّب في الأمور الإيجابيه البّناء!

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام حين انتقده بعض أصحابه الضعاف المعاندين:

«منيت بمن لا يطيع إذا أمرت و لا يجب إذا دعوت أما دين يجمعكم و لا حميّه تحشمكم» (١).

غير أنّ هذه الكلمه غالباً ما ترد في الذم كما

ذكرها الإمام علي عليه السّلام مراراً في خطبته القاصعه ذاتها بها إبليس أمام المستكبرين: «صدّقه به أبناء الحميه و أخوان العصبيه و فرسان الكبر و الجاهليه» (٢).

و في مكان آخر من هذه الخطبه يقول محدّراً من العصبيات الجاهليه:

«فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبيه و أحقاد الجاهليه فإنّما تلك الحميه تكون في المسلم من خطرات الشيطان و نخواته و نزعاته و نفثاته» (٣).

و على كلّ حال فلا شك أنّ وجود مثل هذه الحاله في الفرد أو المجتمع باعث على تخلف ذلك المجتمع و تكييل العقل و الفكر الإنساني و منعه من الإدراك الصحيح و التشخيص السالم.. و ربّما تذر جميع مصالحه مع الرياح!...

١-١) - نهج البلاغه، الخطبه ٣٩.

٢-٢) - نهج البلاغه الخطبه القاصعه ١٩٢.

٣-٣) - نهج البلاغه: المصدر السابق.

و أساسا فإنَّ انتقال السنن الخاطئه من جيل لآخر و من قوم لآخرين ما كان إلا فى ظل هذه الحميّه المشؤومه، و مقاومه الأمم
للأنبياء و القاده غالبا ما تكون عن هذه السبيل أيضا..

ينقل عن الإمام على بن الحسين حين سئل عن «العصبيه» أنه قال عليه السلام:

«العصبيه التى يَأْثِمُ عليها صاحبها أن يرى شرار قومه خيرا من خيار قوم آخرين و ليس من العصبيه أن يحب الرجل قومه و لكن
من العصبيه أن يعين قومه على الظلم» (١).

إنَّ خير سبيل لمقاومه هذه السجيه السيئه و النجاه من هذه المهلكه العظمى السعى و الجد لرفع المستوى الثقافى و الفكرى و
إيمان كلِّ قوم و جماعه..

و فى الحقيقه إنَّ القرآن عالج هذا المرض بالآيه المتقدمه-محل البحث-حيث يتحدّث عن المؤمنين ذوى السكينه و
التقوى،فحيث توجد التقوى فلا توجد حميّه الجاهليه،و حيث توجد حميّه الجاهليه فلا تقوى و لا سكينه.

ص: ٤٨٥

١-١) -تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٣،الحديث السبعون.

اشاره

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤْسِهِمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)

التفسير

اشاره

رؤيا النبي الصادقه:

هذه الآيه-أيضا-ترسم جانبا آخر من جوانب قصه الحدييئه المهمه،و القصة كانت على النحو التالي:

رأى النبي صلى الله عليه و آله و سلم في المدينة رؤيا أنه يدخل مکه مع أصحابه لأداء مناسك العمرة،فحدث أصحابه عن رؤياه فسروا جميعا،غير أنه لمّا كان جماعه من أصحابه يتصوّرون أنّ تعبير الرؤيا سيتحقق في تلك السنه ذاتها و منعهم المشركون من الدخول إلى مکه أصابهم الشك و التردد..ترى هل من الممكن أن تكون رؤيا النبي غير صادقه؟ ألم يكن البناء أن نعتمر هذا العام؟ فأين هذا الوعد؟ و أين صارت هذه الرؤيا الرحمانيه؟! فكان جواب النبي لهم:هل قلت لكم أنّ هذه الرؤيا ستتحقق هذا العام؟!

فنزلت الآيه الآنفه فى هذا الصدد و النبى عائد من الحديبيه إلى المدينه و أكددت أنّ هذه الرؤيا كانت صادقه و لا بدّ أنّها كائنه... تقول الآيه: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ (١) فما رآه النبى فى المنام كان حقًا و صدقا.

ثمّ تضيف الآيه قائله: لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا و كان فى هذا التأخير حكمه:

فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا

ملاحظات

إشارة

و فى الآيه الكريمة عدّه ملاحظات تلفت النظر:

١- ينبغى الالتفات إلى أنّ «اللام» فى لَتَدْخُلَنَّ هى لام القسم، و أنّ «النون» فى آخر الفعل هى للتوكيد، بأنّ هذا هو وعد إلهى قطعى فى المستقبل و تنبؤ معجز صريح عن أداء المناسك و العمره فى كامل الأمان و منتهى الطمأنينه- و كما سنبيّن - كان هذا التوقع و التنبؤ صادقا فى شهر ذى القعدة ذاته من السنه المقبله، و هكذا أذى المسلمون مناسك العمره بهذه الصوره! ٢- جملة إِنْ شَاءَ اللَّهُ هنا لعلها نوع من تعليم العباد لكى يعولوا على مشيئه الله عند الإخبار عن المستقبل و أن لا- ينسوا إرادته الله، و أن لا- يجدوا أنفسهم غير محتاجين أو مستقلين عنه. و ربّما هى إشارة للظروف التى يهيئها الله لهذا التوفيق «توفيق الله المسلمين لزياره بيته فى المستقبل القريب» و البقاء على خط «التوحيد و السكينه و التقوى»...

كما يمكن أن تكون إشارة إلى بعض المسلمين الذين تنتهى أعمارهم فى هذه

ص: ٤٨٧

١ - ١) - «صدق» فعل ماض قد يستوفى مفعولين كما هى الحال فى الآيه الآنفه فرسوله مفعول به أوّل و الرؤيا مفعول ثان، و قد يستوفى فى هذا الفعل مفعولا واحدا يتعدى إلى المفعول الثانى بفى كقولك صدقته فى حديثه.

الفترة و الفاصله الزمانيه و لا يوقفون إلى زياره بيت الله، و الجمع بين هذه المعانى كلها لا مانع منه أبدا...

٣-التعبير بفتحاً قريباً كما يعتقد كثير من المفسرين هو إشاره إلى صلح الحديبيه الذى عبّر عنه القرآن بالفتح المبين، و نعرف أنّ هذا الفتح كان السبيل إلى دخول المسجد الحرام فى السنه التاليه.

على حين أنّ جماعه آخرين يعتقدون أنّ فتحاً قريباً إشاره إلى «فتح خبير».

و بالطبع فإنّ كلمه (قريباً) فيها تناسب أكثر مع «فتح خبير» لأنّه كان -«تحققه العين» بعد هذه الرؤيا فى فترة أقلّ زمنا من فتح مكّه بعدها، ثمّ بعد هذا فإنّ القرآن يقول فى الآيه (١٨) من هذه السوره ذاتها عند الكلام على بيعه الرضوان: فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا. و كما قلنا- و يعتقد بذلك أكثر المفسرين أيضا - أنّ المراد من هذا الفتح هو «فتح خبير» و القرائن الموجوده فى الآيه تحكى عن هذا الفتح أيضا، و مع الالتفات إلى أنّ الآيه محل البحث تنسجم مع تلك الآيه فيبدو أنّ الآيتين بمعنى واحد... (١).

و فى تفسير على بن إبراهيم روايه تشير إلى هذا المعنى أيضا (٢).

٤-جمله «محلّقين رؤوسكم و مقصّرين» إشاره إلى واحد من مناسك العمره و آدابها و هو «التقصير» و به يخرج المحرم من إحرامه و قد استدل بعضهم بالآيه فى التخيير عند الخروج من الإحرام بين التقصير فى تقليم الأظافر الحلق، لأنّ الجمع بينهما ليس واجبا قطعا.

٥-جمله «فعلّم ما لم تعلموا» إشاره إلى مسائل مهمّه مطويه فى صلح الحديبيه و قد انكشفت بمرور الزمن - إذ قويت قواعد الإسلام و انتشر صوته و ترامت

ص: ٤٨٨

١ - ١) -التعبير ب«من دون ذلك» إمّا بمعنى قبل ذلك، أى قبل أداء العمره يفتح الله عليكم فتحا قريبا فى السنه المقبله، أو بمعنى «غير ذلك» أى سينال المؤمنون فتحا قريبا غير زياره بيت الله و العمره أيضا.

٢ - ٢) -نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٦.

اصداؤه فى كل مكان و طويت نزعہ الحرب عند المسلمين و استطاعوا أن يفتحوا «خير» بفارغ البال و قرار البلبال، و أرسلوا المبلّغين إلى أطراف الجزيره العربيه و بعث النبى صلى الله عليه و آله و سلم رسائله إلى أعظم رؤساء الدول آنئذ، فهذه مسائل كان الفرد المسلم لا يعرفها لكنّ الله كان يعلمها...

٦-نواجه فى هذه الآيه الكريمه موضوع الرؤيا، و هى رؤيا النبى صلى الله عليه و آله و سلم الصادقه التى تعدّ (غصنا من غصون) الوحى و هى مشابهه لقصه رؤيا إبراهيم عليه السلام و ذبح ولده إسماعيل الوارده فى سوره الصافات (الآيه ١٠٢).

«و لمزيد الإيضاح و تفصيل البيان حول الرؤيا و تعبير الأحلام من المناسب مراجعه تفسير سوره يوسف فى هذا التفسير».

٧-الآيه محل البحث واحده من المسائل الغيبه التى أخبر عنها القرآن، و هى شاهد على أنّ هذا الكتاب سماوى و أنّه من معجز النبى الكريم حيث يخبر قاطعا عن أداء مناسك العمره و دخول المسجد الحرام فى المستقبل القريب و عن الفتح القريب قبله أيضا، و كما نعلم أنّ هذين التنبؤين قد حدثا فعلا، و قد ذكرنا قصه «فتح خير» و الآن نتحدّث عن قصه «عمره القضاء»:

عمره القضاء:

عمره القضاء هى العمره التى أداها النبى صلى الله عليه و آله و سلم مع أصحابه بعد صلح الحديبيه بعام، أى فى ذى القعدة من السنه السابعه للهجره (على وجه الدقه بعد عام من منع المشركين أن يدخل الرسول و أصحابه مكّه).

و تسميه «عمره القضاء» بهذا الاسم لأنها فى الحقيقه تعد قضاء عن السنه السابقه...

و توضيح ذلك: أنّه طبقا لإحدى مواد معاهده الحديبيه أصبح من المقرر أن

يؤدّي المسلمون العمره و زياره بيت الله في العام المقبل على أن لا يمكثوا في مكّه أكثر من ثلاثه أيام، و في الوقت ذاته يخرج المشركون من مكّه و رؤساء قريش أيضا، لثلا يقع نزاع محتمل بين الطرفين و لثلا يروا المسلمين يؤدّون المناسك فيشيرهم منظر العباده «التوحيديه».

و قد ورد في بعض التواريخ أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلّم أحرم في السنه المقبله مع أصحابه و الجمال المساقه للهدى و تحرّكوا جميعا حتى بلغوا أطراف «الظهران» و نواحيه فأرسل النبي صلى الله عليه و آله و سلّم ما كان عنده من أسلحه و خيول تستلفت النظر مع أحد أصحابه و اسمه «محمّد بن مسلمه» فلمّا رأى المشركون هذه الخطه فزعوا و خافوا خوفا شديدا و ظنّوا أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلّم يريد أن يقاتلهم و ينقض المعاهده الممضاه لعشر سنين و أخبروا أهل مكّه بذلك.

غير أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلّم حين وصل منطقه قريبه من مكّه أمر أن توضع الأسلحه من السهام و الرماح و غيرها من الأسلحه في منطقه تدعى «ياجج»، و دخل هو و أصحابه مكّه بالسيوف المغمده.

فلمّا رأى أهل مكّه من النبي ما رأوا فرحوا إذ وفي النبي بوعدّه [فكأنّ النبي باقدامه هذا أنذر المشركين أن لو نقضوا العهد و أرادوا أن ينازلوا المسلمين فهم على أتم الاستعداد]

فخرج رؤوساء مكّه منها لثلا تتأثر عواطفهم و قلوبهم بهذه «المنظر» و لا تثيرهم مناسك العمره من قبل المسلمين.

غير أنّ بقيه أهل مكّه من الرجال و النساء و الأطفال اجتمعوا في السطوح و حول الكعبه و خلال الطريق ليروا كيف يؤدّي المسلمون مناسكهم...

فدخل النبي مكّه بهذه الأبّهه الخاصه و كانت معه جمال كثيره مسوقه للهدى فعامل أهل مكّه بمنتهى اللطف و المحبّه و أمر المسلمين أن يسرعوا أثناء الطواف و أن يزيحوا الإحرام عن أكتافهم قليلا لتبدو علائم القدره و القوه فيهم و أن ترك

هذه الحاله فى أفكار أهل مكّه و أنفسهم تأثيرا كبيرا و دليلا- حيّا على قوه المسلمين و حكمتهم! و على كلّ حال فإنّ «عمره القضاء» كانت عبارته كما كانت فى الوقت ذاته عرضا «للعضلات المفتوله» و ينبغى القول أنّ «فتح مكّه» الذى تحقّق بعد سنه أخرى كان قد نثر بذره فى هذه السنه و هيّا الأرضيه لاستسلام أهل مكّه للفاتحين (المسلمين).

و كان هذا الأمر مدعاه لقلق رؤساء قريش إلى درجه أنّهم بعثوا رجلا بعد مضى ثلاثه أيام إلى النّبي يطلب منه أن يغادر بسرعه هو و أصحابه مكّه طبقا للمعاهده...

الطريف هنا أنّ النّبي تزوّج أرملة من نساء قريش و كانت من أقرباء بعض رؤسائهم المعروفين و ذلك ليشدّ أواصره بهم و يخفّف من غلوائهم و بغضائهم.

و حين سمع النّبي اقتراحهم بالمغادره

قال: «ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم فصنعنا لكم طعاما فحضرتموه». قالوا: لا حاجه لنا فى طعامك فاخرج عنّا.

و لو كان تمّ ذلك لكان له أثره فى نفوذ أمر النّبي فى قلوبهم غير أنّهم لم يقبلوا ذلك منه (1).

ص: ٤٩١

١ - ١) -مجمع البيان للطبرسى، ج ٩، ص ١٢٧- فى ظلال القرآن، ج ٧، ص ٥١١، تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٣١٠ مع شىء من التلخيص..

اشاره

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)

التفسير

أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ

:

في هاتين الآيتين اللتين بهما تنتهي سورة الفتح إشارة إلى مسألتين مهمتين من «الفتح المبين» أي «صلح الحديبية» إحداهما تتعلق بعالميه الإسلام والثانية تتعلق

بأوصاف أصحاب النبي و خصائصهم و ما وعدهم الله سبحانه به! فالأولى منهما تقول: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا .

و هذا وعد صريح و قاطع من الله سبحانه في غلبه الإسلام و ظهوره على سائر الأديان.

أى لا- تعجبوا لو أخبركم الله عن طريق رؤيا نبيه محمد بالانتصار و أن تدخلوا المسجد الحرام بمنتهى الأمان و تؤدّوا مناسك العمره دون أن يجزأ أحد على إيدائكم، كما لا تعجبوا أن يبشركم الله بالفتح القريب-فتح خيبر«فأول الغيث قطره» و سيكون الإسلام باسطة ظلاله في أرجاء المعموره و يظهر على جميع الأديان...

و لم لا يكون كذلك و محتوى دعوه النبي هدايه الله إذ«أرسله بالهدى» و دينه «دين الحق» و يستطيع كل ناظر غير منحاز أن يرى حقانيته في آيات القرآن و أحكام الإسلام الفرديّه و الاجتماعيه و القضائيه و السياسيه! و كذلك تعليماته الأخلاقيه و الإنسانيه. و أن يعرف علاقه النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالله حقًا من خلال إخباره بالمعيبات و تبوّاته التي تقع في المستقبل بصوره قاطعه.

أجل: إن منطق الإسلام المتين و محتواه الغنى الغزير يطهر الأرض من أديان الشرك الملوّثه، و تخضع له الأديان السماويه المحرّفه الأخرى و أن يشدّ بأسلوبه الشائق (1) القلوب إليه.

و لكن ما المراد ب«الظهور على الدين كلمه»؟ أهو الظهور المنطقى؟! أم الظهور (و الغلبه) العسكريان؟! هناك اختلاف بين المفسرين..

يعتقد جماعه منهم أنّ هذا الظهور هو الظهور المنطقى و الاستدلالي فحسب

ص: ٤٩٣

١ - ١) -يجرى على ألسنه الناس و بعض الأدباء قولهم هذا أسلوب شيق، و هذا التعبير خطأ، و الصحيح«شائق» أى مثير للشوق أمّا الشيق فهو المشتاق(المصحح).

و هذا الأمر متحقق، لأنّ الإسلام متفوّق من حيث الاستدلال و القدره المنطقيه على جميع الأديان.

و لكنّ جماعه آخرين فسّروا هذا الظهور بالغلبه الظاهريه و غلبه القوه، و موارد استعمال كلمه «يظهر» و مشتقاتها أيضا دليل على الغلبه الخارجيه... و لهذا يمكن القول أنّه بالإضافة إلى نفوذ الإسلام في مناطق كثيره واسعه من الشرق و الغرب و هي تحت لوائه اليوم و تدین به أكثر من أربعين دولة إسلاميه بنفوس يقدر إحصاؤها بأكثر من مليار نسمة فإنّه سيأتي زمان على الناس يستوعب الإسلام جميع أرجاء المعموره «رسميًا» و سيكتمل هذا الأمر بظهور المهدي أرواحنا فداء إن شاء الله.

و كما

نقل عن بعض أحاديث النبي صلى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لا- يبقى على ظهر الأرض بيت مدر و لا وبر إلا أدخله الله كلمه الإسلام» (1).

و سبق أن بحثنا في هذا المجال في نفس هذا التفسير ذيل الآيه (٣٣) من سوره التوبه المشابهه لهذه الآيه محل البحث.

و هنا ملاحظه تلتفت النظر إليها و هي أنّ البعض ذهب إلى أنّ التعبير بالهدى إشاره الى استحكام العقائد الإسلاميه، في حين أنّ التعبير ب«دين الحق» ناظر إلى حقانيه فروع الدين، إلا أنّه لا دليل لدينا على هذا التقسيم، و الظاهر أنّ الهدايه و الحقانيه هما في الأصول و الفروع معا...

و في عود الضمير في «ليظهره» هل يعود على الإسلام أم على النبي؟ للمفسرين احتمالان، إلا- أنّ القرائن تدل بوضوح على أنّ المقصود هو دين الحق، لأنّه قريب من الضمير، هذا من حيث النظم و السبك اللغوي، كما أنّ المناسب ظهور الدين على الدين الآخر لا ظهور الشخص على الدين- أيضا-

ص: ٤٩٤

١- ١) - تفسير مجمع البيان، الجزء ٥، ص ٢٥، القرطبي نقل هذه الروايه عن النبي أيضا ذيل الآيه ٥٥ من سوره النور، ج ٧، ص ٤٦٩٢.

و آخر ما نريد بيانه فى شأن هذه الآيه أن جملة كفى بالله شهيدا إشارة إلى هذه الحقيقة وهى أن هذا التوقع أو التنبؤ لا يحتاج إلى أى شاهد، لأن شاهد الله، و رساله رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أيضا لا تحتاج إلى شاهد آخر، لأن الشاهد هو الله أيضا، و إذا لم يوافق سهيل بن عمرو و أمثاله على كتابه عنوان (رسول الله) بعد اسم النبى محمد فليس ذلك مدعاه للتأثر أبدا.

و فى آخر آيه وصف بليغ لأصحاب النبى الخاصين و الذين كانوا على منهاجه على لسان التوراه و الإنجيل و هو مدعاه افتخار لهم إذ أبدوا شهامتهم و رجولتهم فى الحديبيه و المراحل الأخر كما أنه درس اختبار لجميع المسلمين على مدى القرون و الأعصار!...

فتقول الآيه فى البدايه: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ .

سواء رضى به خفافيش الليل كسهيل بن عمرو أم لم يرض به؟! او اخفوا أنفسهم عن هذه الشمس التى أشرقت على العالم أجمع أم لم يخفوا؟! فالله يشهد على رسالته و يشهد بذلك العارفون.

ثم تصف الآيه أصحابه و خلالهم (و سجاياهم) الباطنيه و الظاهريه ضمن خمس صفات إذ تقول فى وصفهم: وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ .

و صفتهم الثانيه أنهم: رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .

أجل: هم منطلق للمحبه و الرحمه فيما بينهم كما أنهم نار ملتبهه و سد محكم بوجه أعدائهم الكفار...

و فى الحقيقة أن عواطفهم و أفكارهم تتلخص فى هاتين الخصلتين: «الرحمه» و «الشده»... لكن لا تضاد فى الجمع بينهما أولا، و لا رحمتهم فيما بينهم و شدتهم على الكفار تقتضى أن تحيد أقدامهم عن جاده الحق ثانيا...

ثم تضيف الآيه مبينه و صفهم الثالث فتقول: تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا .

هذا التعبير يجسد العباده بركنها الأساسيين: «الركوع و السجود» على أنها

حاله دائميه لهم،العباده التى هى رمز للتسليم أمام أمر الله الحق،و نفى الكبر و الغرور و الأنانيه عن وجودهم.

□
أما الوصف الرابع الذى تذكره الآيه عن هؤلاء الأصحاب فهو بيان نيتهم الخالصه الطاهره فتقول: يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا
فهم لا يعملون رياء و لا يبتغون من الخلق الثواب،بل هدفهم رضا الله و فضله فحسب،و الباعث على تحركهم فى حياتهم جميعا
هو هذا الهدف ليس إلا!...

حتى التعبير ب«فضلا»يدل على أنهم معترفون بتقصيرهم و يرون أعمالهم أقل من أن يطلبوا الثواب من الله،بل إنهم مع كل
عبادتهم و أعمالهم الصالحه ما يزالون قائلين:لو لا فضلک يا ربنا فالويل لنا...

□
أما الوصف الخامس فهو عن سيماهم المشرق إذ تقول الآيه: سِيْمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ (١).

«سيما»فى الأصل معناها العلامه و الهياه،سواء أ كانت هذه العلامه فى الوجه أم فى مكان آخر و إن كانت فى الاستعمال العرفى
تشير إلى علامه الوجه!و الأثر الظاهرى له...

و بعباره أخرى أنّ قيافتهم تدلّ بصوره جيده أنهم أناس خاضعون أمام الله و الحق و القانون و العداله،و ليست العلامه فى
وجوههم فحسب،بل فى جميع وجودهم و حياتهم تبدو هذه العلامه...

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين يرى بأنّ «السيما»هى الأثر الظاهر فى الجبهه من السجود أو أثر التراب عليها من مكان
السجده...غير أنّ هذه الآيه كما يظهر لها مفهوم أوسع ترتسم ملامحه على وجوه هؤلاء الرجال الربانيين...

و قال بعضهم:هذه الآيه إشاره إلى إشراق وجوههم يوم القيامه كالبدن من كثره

ص: ٤٩٦

١ - ١) - سيماهم: مبتدأ و«فى وجوههم»خبره و«من أثر السجود»قد يكون حالا- عن السيماء و الأفضل أن تعد(من)نشويه أى:
«سيماهم فى وجوههم و هذه السيماء و العلامه من أثر سجودهم».

و بالطبع يمكن أن تكون جباههم و وجوههم على هذه الهيئة يوم القيامة إلا أن الآيه تتحدّث عن وضعهم الظاهري في الدنيا...

و قد ورد في حديث عن الإمام الصادق في تفسير هذه الجملة أنه قال: «هو السهر في الصلاة!» (١).

و لا مانع من الجمع بين هذه المعاني كلها!...

و على كلّ حال فإنّ القرآن يضيف بعد بيان هذه الأوصاف: ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ! فهذه حقيقة مقوله قبلا و أوصاف وردت في كتاب سماوى نزل منذ أكثر من ألفى عام...

و لكن لا ينبغي أن ننسى أنّ التعبير بـ وَ الَّذِينَ مَعَهُ يحكى عن معية النّبي في كلّ شيء، في الفكر و العقيدة و الأخلاق و العمل لا عن أولئك الذين كانوا في عصره- و إن اختلفوا و إياه في المنهج.

ثمّ يتحدّث القرآن عن وصفهم في كتاب سماوى كبير آخر و هو الإنجيل فيقول:

وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ

(٢)

«الشطأ»: معناه الفسيل أو البرعم الذى يخرج إلى جانب الساق الأسمى للزرع... و «آزره» مشتق من المؤازره أى المعاونه.

و «استغلظ» مشتق من ماده الغلظه، أى أنه متين...

ص: ٤٩٧

١ - ١) - «من لا يحضره الفقيه» و «روضه الواعظين»، طبقا لما ورد في تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٨.

٢ - ٢) - هناك كلام بين المفسرين في جملة «و مثلهم في الإنجيل» أى جملة مستقلة و وصف آخر عن أصحاب محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم غير ما وصفوا في التوراه، أم هى معطوفه على جملة ذلك مثلهم في التوراه؟ فيكون الوصفان مذكورين في كتابين سماويين! الظاهر أنّ الآيه ذكرت الوصفين كلّا على حده في كتاب سماوى و لذلك كرّرت كلمه «مثلهم» و لو كان هذا الوصف معطوفا على السابق لاقتضت الفصاحه أن يكون التعبير: ذلك مثلهم في التوراه و الإنجيل.

و جملة «استوى على سوقه» مفهومها أنّ هذا الزرع بلغ قدرا من المتانته بحيث ثبت على سيقانه: و«سوق» جمع ساق -و التعبير ب«يعجب الزّاع» يعنى أنّ هذا الزرع يكون سريع النمو كثير البراعم وافر النتاج إلى درجه يسرّ به الزراع و يعجبون منه، و الطريف أنّ وصفهم الثّانى فى الإنجيل جاء على خمسه أمور أيضا هى:

١- أخرج الشّطأ. ٢- المؤازره للنمو. ٣- الاستغلاظ. ٤- الإستواء.

٥- النمو المعجب.

و فى الحقيقه إنّ أوصافهم المذكوره فى «التوراه» تتحدّث عن أبعاد وجودهم من جهه العواطف و الأهداف و الأعمال و صورتهم الظاهريه...

و أما الأوصاف الوارده فى «الإنجيل» فهى تتحدّث عن حركتهم و نموهم و تكاملهم فى جوانب مختلفه (فلاحظوا بدقه).

أجل هم أناس متّصفون بصفات عليا لا يفترون عن الحركة لحظه واحده...

و تتنامى براعمهم دائما و يثمرون و يتآزرون كلّ حين... و ينشرون الإسلام بأقوالهم و أعمالهم فى العالم و يوما بعد يوم يزداد عددهم فى المجتمع الإسلامى!...

أجل، إنهم لا- يتكاسلون فى حركتهم المتّجهه إلى الإمام دائما، و هم فى حال عبادتهم مجاهدون، و فى حال جهادهم عابدون ظاهرهم سوى، و باطنهم سليم، و عواطفهم صادقه، و نّيّاتهم خالصه، و هم مظهر غضب الله بوجه أعداء الحق، و مظهر الرحمه بوجه إخوانهم.

ثمّ تضيف الآيه معقبه: أنّ هذه الأوصاف العليا و هذا النمو و التكامل السريع و هذه الحركة المباركه بقدر ما تعجب المحبّين و تسرّهم فهى فى الوقت ذاته:

لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ

(١)

ص: ٤٩٨

١- ١) - يرى كثير من المفسّرين أنّ اللام فى جمله «ليغيظ بهم الكفّار» هى لام التعليل، فيكون مفهوم الجملة: إنّ هذه القوّه و القدره جعلها الله نصيب أصحاب محمّد ليغيظ بهم الكفّار..

و يضيف القرآن مختتما هذه الآيه المباركه: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

بديهي أنّ أوصاف أصحاب النبي التي وردت في بدايه الآيه محل البحث جمعت فيها الإيمان و العمل الصالح، فتكرار هذين الوصفين إشاره إلى استمرارهما و ديمومتها: أي أنّ الله وعد أولئك الذين بقوا على نهجهم من أصحاب محمد صلى الله عليه و آله و سلم و استمروا بالإيمان و العمل الصالح، و إلاّ فإنّ من كان يوما مع النبي و يوما آخر مع سواه و على خلاف طريقته فلا يشملون بهذا الوعد أبدا.

و التعبير ب«منهم» مع الالتفات إلى هذه المسأله، و هي أنّ الأصل في كلمه «من» في مثل هذه الموارد التبويض، و ظاهر الآيه يعطى هذا المعنى أيضا، و هذا التعبير يدلّ على أنّ أصحاب النبي ينقسمون قسمين - فطائفه منهم - يواصلون إيمانهم و عملهم الصالح و تشملهم رحمه الله الواسعه و أجره العظيم، و طائفه يحدون عن نهجه فيحرمون من هذا الفيض العظيم!...

و ليس معلوما السبب في إصرار بعض المفسرين على أنّ «من» في كلمه «منهم» بيانيه حتما، في حين لو ارتكبنا خلاف الظاهر و قلنا إنّ من هنا بيانيه فكيف يمكن أن ندع القرائن العقلية هنا، فلا أحد يدعى أبدا أنّ جميع أصحاب النبي معصومون و في هذه الصوره يزول احتمال أنّ كلّ واحد منهم بقى على عمله الصالح و إيمانه، و مع هذه الحال فكيف يعدهم الله بالمغفره و الأجر العظيم دون قيد و شرط سواء عملوا الصالحات في طول مسيرتهم، أو أن يعملوا الصالحات في وقت، ثمّ ينحرفوا من منتصف الطريق!...

و هذه اللطيفه تستدعي الالتفات و هي أنّ جمله: وَ الَّذِينَ مَعَهُ لَا تَعْنَى الْمُرَافِقَةِ الْجَسَدِيَّةِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ الْمصاحبه الجسمانيه لأنّ المنافقين كانوا على هذه الشاكلة أيضا... بل المراد من «معه» هو المعية من جهه أصول الإيمان

و التقوى قطعاً...فبناء على هذا لا يمكننا أن نستنتج حكماً كلياً من الآية الآنفه في شأن جميع المعاصرين و المجالسين للنبي صلى الله عليه و آله و سلم...

بحثان

إشارة

١- قصة تنزيه الصحابه!

المعروف بين علماء أهل السنّه أنّ صحابه رسول الله جميعاً أولو امتياز خاص دون سائر الناس من أمّه محمّد فهم مطهرون أزكيا معصومون من الزلل و ليس لنا الحق في انتقاص أى منهم أو انتقاده و يحرم الإساءة إليهم بالكلام و غيره، حتى أنّ بعضهم قال بكفر من يفعل ذلك و استدّلوا على ذلك بآيات من الذكر الحكيم منها هذه الآية: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ...

و بالآيه (١٠٠) من سوره التوبه إذ تعبّر عن المهاجرين و الأنصار بعد ذكرهم في آيات سابقه بقولها: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ...

و لكننا إذا ابتعدنا عن الأحكام المسبقه الاعتباطيه، فسنجد أماناً قرائن تتزلزل عندها هذه العقيدته! الأولى: إنّ جملة: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ الواردة في سوره التوبه لا- تخصّ المهاجرين و الأنصار فحسب، لأنّ في الآية تعبيراً آخر و هو: وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ يشمل كلّ من يتبعهم بالإحسان و الصلاح إلى يوم القيامة...

فكما أنّ «التابعين» إذا كانوا في خط الإيمان يوماً و في خط الكفر و الإساءه يوماً آخر يخرجون من خيمه رضا الله، فإنّ الموضوع ذاته وارد في الصحابه لأنهم في آخر سوره الفتح مقيّدون بالإيمان و العمل الصالح أيضاً بحيث لو خرجوا عن هذا القيد و لو يوماً واحداً لخرجوا عن رضوان الله سبحانه...

و بتعبير آخر: إنّ كلمه «بإحسان» هي في شأن التابعين و المتبوعين جميعاً، فأى

منهما خرج عن خطِّ الإحسان فلن يشمله رضا الله و لطفه...

الثانية: أنه يستفاد من الروايات الإسلاميه أنّ أصحاب النبي و إن امتازوا بشرف صحبته، إلا أنّ من يأتي بعدهم في الفترات المقبلة و هم ذوو عمل صالح و إيمان راسخ أفضل منهم من جهة واحده و هي أنّ أصحاب النبي شهدوا معاجزه بجميع أنواعها غير أنّ الآخرين اتبعوا منهاجه دون مشاهدتها و ساروا على هداه بالإفاده من الدلائل الأخر...

و نقرأ

في بعض أحاديث النبي صلى الله عليه و آله و سلّم أنه سأله أصحابه: «نحن إخوانك يا رسول الله؟! قال: لا- أنتم أصحابي، و إخواني الذين يأتون بعدي. آمنوا بي و لم يروني، و قال: للعامل منهم أجر خمسين منكم، قالوا: بل منهم يا رسول الله؟! قال: بل منكم ردّها ثلاثا، ثمّ قال: لأنكم تجدون على الخير أعوانا» (١).

كما

نقل في صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم أنه قال: «وددت أنّا قد رأينا إخواننا، قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله؟! فقال: أنتم أصحابي و إخوانا الذين لم يأتوا بعد» (٢).

و يؤيّد العقل و المنطق هذه المقوله أيضا حيث إنّ من لم يدركوا رسول الله و لم يتعلّموا بين يديه و هم في الوقت ذاته مثل أصحابه من حيث الإيمان و العمل الصالح فهم أفضل من الصحابه...

الثالثة: إنّ هذا الكلام من وجهه النظر التاريخيه مقدوح فيه كثيرا لأنّ بعض الصحابه بعد زمان النبي صلى الله عليه و آله و سلّم بل حتى في عصره حاد عن جادّه الصواب...

فكيف يمكن أن نبرئ الذين أشعلوا نار فتنه «الجمل» و قتلوا ما قتلوا و حملوا على خليفه رسول الله حقّا بالسيف و لا نعدّهم آثمين خاطئين...

أو أن نقول إنّ الذين اجتمعوا في النهروان و صفين و ثاروا على وصي رسول الله

ص: ٥٠١

١-١) - تفسير روح المعاني، ج ٩، ص ٦١.

٢-٢) - صحيح مسلم، ج ١، الحديث ٣٩.

و خليفته المنتخب من قبل المسلمين و سفكوا الدماء الغزيره مشمولون برضوان الله و لا- غبار عليهم من الذنب و الإثم؟! و أعجب من ذلك كله أن يعتذر عن أولئك الذين أخطأوا كل هذه الأخطاء و فعلوا ما فعلوا- بأنهم مجتهدون، و المجتهد معذور! هكذا و جهوا الأمر!! و إذا أمكن أن توجه أمثال هذه الذنوب الكبيره على أنها اجتهاد فلا مجال لملامه أى قاتل، و لا داعى لإقامه حدود الله فى شأنه!! فلعله اجتهد فأخطأ!!!...

و بتعبير آخر: أنه قد تقابلت فى معركة الجمل و صفين و النهروان طائفتان متحاربتان و من المسلم به قطعا أنهما لم تكونا جميعا على الحق، لأن الجمع بين الضدين محال، فمع هذا التقدير كيف يمكن القول بأن الطائفتين كليهما مشمولتان برضا الله، و المسأله لم تكن من المسائل العويصه الملتويه و لم يكن التمييز بين الحق و الباطل صعبا و لا مشكلا... فالجميع كانوا يعرفون أن عليا عليه السلام أما طبقا لنص النبى عليه أو بانتخاب المسلمين هو الخليفه الحق و مع هذا فقد واجهوه بالسيف، فكيف يوجه هذا العمل عن طريق الاجتهاد؟ و لم لا- يوجهون قيام «أصحاب الرده» فى زمان أبى بكر عن طريق الاجتهاد و عدوهم مرتدين رسما... غير أنهم برأوا أصحاب الجمل و صفين و النهروان من أى ذنب و إثم!!؟ و على كل حال... يبدو أن مسأله «تنزيه الصحابه» بصوره مطلقه كانت حكما سياسيا لتحفظ جماعه بعد النبى موقعها و تعول على هذا الحكم، و تصون نفسها من الانتقاد...

و هذا الموضوع لا ينسجم مع حكم العقل و لا مع التواريخ الإسلاميه المسلم بها...

و ما أحسن أن نحتكم فى شأن أصحاب النبى فى الوقت الذى نجلهم و نحترمهم ذاته- إلى معيار يقضى عليهم بالحق من خلال أعمالهم و عقائدهم عبر حياتهم من

البدايه حتى النهايه، ذلك المعيار الذى أفدناه من القرآن الكريم و ذلك المعيار الذى وزن النبى به صحابته...

٢- المحبته الإسلاميه المتبادله

فى الروايات الإسلاميه الوارده فى تفسير الآيه الأخيره من سوره الفتح تأكيد لا مزيد عليه على قوله تعالى: رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ و من بين هذه الروايات ما نقرأه

عن الإمام الصادق عليه السلام: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه و لا يخذله و لا يخونه و يحقّ على المسلم الاجتهاد فى التواصل و التعاون على التعاطف و المواساه لأهل الحاجه و تعاطف بعضهم على بعض، حتى تكونوا كما أمركم الله عزّ و جلّ رحماء بينكم متراحمين، معتمين لما غاب عنكم من أمرهم على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله» (١).

إلا أنّ العجيب أنّ المسلمين فى هذا العصر لا يقتدون بتعاليم هذه الآيه المؤثره و ما تنقله من خصائص أصحاب رسول الله و المؤمنين الصادقين، و ربّما تحامل بعضهم على بعض و أثار الحفيظه و سفك الدماء و هو ما لم يفعله أعداء الإسلام أحيانا...

و ربّما ارتبطوا بالكفار و أنشئوا علائق المحبته حتى تظن أنّهم إخوان من أصل واحد و نسب واحد.

فلا- خبر عن الركوع و السجود و لا- التّيات الخالصه و لا ابتغاء فضل الله و لا آثار السجود فى سيماهم و لا الزرع الذى أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه!! و العجيب أيضا... أنّه كلّما ابتعدنا عن الأصول القرآنيه هذه منينا بالذل و النكبه أكثر فأكثر و مع ذلك لا نلتفت من أين نؤكل؟! و ما تزال حميّه الجاهليه تصدّنا عن

ص: ٥٠٣

التفكير و إعاده النظر و العوده نحو القرآن...

اللّهُمَّ تَبَهَّنَا مِنْ نَوْمِهِ الْغَافِلِينَ!...

اللّهُمَّ وَفَّقْنَا أَنْ نَحْيِيَ فِيهَا خِلَالَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ وَ صِفَاتِهِمُ الَّتِي ذَكَرْتَهَا هَذِهِ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ...

اللّهُمَّ ارزقنا الشدّه على أعدائنا و الرحمه فيما بيننا و التسليم لأمرك، و الاهتمام الى ما توليه إيانا من العنايات الخاصّه و الجد و السعى إلى النهوض بالمجتمع الإسلامي إلى الخير و الازدهار.

اللّهُمَّ ارزقنا فتحا مبينا يتحرّك في ظلّه المجتمع الإسلامي و أن نوفّق إلى نشر تعاليم هذا الدين القويم الذي يهب الحياه للناس في هذا العصر الذي هو أحوج الى المعنويات من أى وقت آخر، و أن نفتح كلّ يوم قلوبا جديده إلى نور الإسلام...

آمين يا ربّ العالمين انتهت سوره الفتح ***

ص: ٥٠٤

سوره الحجرات

اشاره

مدتیہ و عدد آیاتہا ثمانی عشرہ آیہ

ص: ۵۰۵

محتوى السوره:

هذه السوره التى لا تتجاوز ١٨ آيه تحمل فى ما تحمل مسائل مهمه تتعلق بشخص النبى الكريم صلى الله عليه وآله وسلم و المجتمع الإسلامى بعضه ببعض و حيث أنّ أغلب المسائل الأخلاقية تدور فى هذه السوره فيمكن أن نسمّى هذه السوره بـ«سوره الأخلاق و الآداب»...

و يمكن على الإجمال تقسيم مضامين السوره على النحو التالى:

القسم الأول:آيات بدايه السوره و هى تبين طريقه التعامل مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم و آدابها و ما ينبغى على المسلمين مراعاته من أصول عند حضره النبى.

الثانى:تشتمل هذه السوره على سلسله من أصول«الأخلاق الاجتماعيه» المهمه التى إن عمل بها و على هداها حفظت المحبّه و الصفاء و الأمن و الاتحاد فى المجتمع الإسلامى،و على العكس من ذلك لو أهملت تكون سببا للشقاء و النفاق و التفريق و عدم الأمن...

الثالث:الأوامر الإرشاديه المتعلقة بكيفية مواجهه الاختلافات و التنازع أو القتال الذى قد يقع بين المسلمين أحيانا...

الرابع:يتحدّث عن معيار قيمه الإنسان عند الله و أهميه التقوى!...

الخامس:يعالج قضيه أنّ الإيمان ليس بالقول فحسب بل لا بدّ من ظهور آثاره فى أعمال الإنسان و الجهاد بالمال و النفس - إضافة إلى الاعتقاد فى القلب- السادس:يتحدّث عن أنّ الإيمان و الإسلام هما هديه إلهيه للمؤمنين و بدلا من

أن يمتنوا بالإسلام أو الإيمان ينبغي أن يشكروا الله على هذه الهدية إذ شملهم بها...

السابع: والأخير يتحدث عن علم الله واطلاعه و عن جميع أسرار الوجود الخفيه و أعمال الإنسان، وهذا القسم بمثابة الضامن لتنفيذ جميع هذه الأقسام الواردة في هذه السوره! و تسميه هذه السوره بسوره «الحجرات» لورود هذه الكلمه في الآيه الرابعه منها و سنبتين تفسيرها في السطور التاليه...

فضيله تلاوه هذه السوره!

يكفى أن نعرف فضيله هذه السوره من حديث نقرؤه

عن النبي في فضلها!...

«من قرأ سوره الحجرات اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع الله و عصاه».

كما نقرأ حديثا آخر

عن الإمام الصادق في فضلها يقول: «من قرأ سوره الحجرات في كلّ ليله أو في كلّ يوم كان من زوّار محمّد»...

و بديهى أنّ كلّ هذه الحسنات التي هي بعدد المطيعين و العاصين إنّما تكون في صورته ما لو أخذنا بنظر الإعتبار كلا من الفريقين و أن نفكر جيدا فنجعل مسيرنا وفقا لمنهج المطيعين و نبتعد عن منهج العاصين.

و نيل زياره النبي أيضا فرع على أن نعمل وفق الآداب المذكوره في الحضور عنده صلى الله عليه و آله و سلّم لأنّ التلاوه في كلّ مكان مقدمه للعمل...

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ الْأُحْجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

سبب النزول

ذكر المفسرون لنزول الآية الأولى من هذه السورة شأنًا بل شئونا كما ذكروا

لنزول الآيات التي بعدها شؤوننا آخر! فمن الشؤون التي ذكرها لنزول الآية الأولى أنه: حين أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتوجه إلى خيبر رغب في أن يخلف شخصا معينًا مكانه في المدينة و ينصّب به خليفه عنه، فاقترح عمر شخصا آخر، فنزلت الآية الآنفة و أمرت أن لا تقدموا بين يدي الله و رسوله (١).

و قال آخرون: كان بعض المسلمين بين الفينه و الأخرى يقولون لو نزلت فينا آيه لكان أفضل، فنزلت الآية أن لا تقدموا بين يدي الله و رسوله (٢).

و قال بعضهم، إنّ الآية تشير إلى أعمال بعض المسلمين الذين كانوا يؤدّون عباداتهم قبل أوانها، فنزلت الآية لتنهاهم عن مثل هذه الأعمال (٣).

و أمّا في شأن الآية الثانيه فقد قال المفسّرون إنّ طائفه من «بنى تميم» و أشرفهم و ردوا المدينة، فلما دخلوا مسجد النبي نادوا بأعلى صوتهم من وراء الحجرات التي كانت للنبي: يا محمّد أخرج إلينا. فأزعجت هذه الصرخات غير المؤدّبه النبي، فخرج إليهم فقالوا له: جئناك لنفاخر بك فأجز شاعرنا و خطيبنا ليتحدّث عن مفاخر قبيلتنا، فأجازهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنهض خطيبهم و تحدّث عن فضائلهم الخياليه الوهميه كثيرا...

فأمر النبي (ثابت بن قيس) أن يردّ عليهم (٤) فنهض و خطب خطبه بليغه فلم يبق لخطبه أولئك من أثر!...

ثم نهض شاعرهم و ألقى قصيده في مدحهم فنهض «حسان بن ثابت» فردّ عليه بقصيده شافيه كافيه! فقام رجل من أشرف تلك القبيله و اسمه «الأقرع» فقال: إنّ هذا الرجل يعنى

ص: ٥١٠

١- (١، ٢، ٣) - تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦١٢١.

٢- (٤) - كان «ثابت بن قيس» خطيب الأنصار و خطيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما كان حسان بن ثابت شاعره [أسد الغابه، ج ١، ص ٢٢٩].

-٣

-٤

محمّدا خطيبه أبلغ من خطيبنا و شاعره أجدر من شاعرنا و صدى صوته أبعد مدى من صوتنا...

فأمر النبي صلى الله عليه و آله و سلّم أن تهدي لهم هدايا ليكتسب قلوبهم إليه فكان أن تأثروا بمثل هذه المسائل فاعترفوا بنبوته! فالآيات محل البحث ناظره إلى هذه القضية و الأصوات من خلف الحجرات.

و هناك شأن آخر لنزول الآية بل هو يتعلّق بالآيه الأولى و ما بعدها و هو أنه في السنه التاسعه للهجره [حين كانت القبائل تفتد على النبي للسلام عليه أو للمعااهده معه]

و قد عرف العام ذلك «بعام الوفود» و عند وصول ممثلى قبيله تميم إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلّم قال أبو بكر: ليكن «القعقاع» (أحد أشرف تلك القبيله) أميرها، و اقترح عمر أن يكون «الحابس بن أقرع» أميرها. فقال أبو بكر لعمر أردت أن تخالفنى، فردّ عليه عمر بأنّه لم يرد مخالفته أبدا، فتعالى الصياح و الضجيج بينهما، فنزلت الآيات الأنفه... أى لا تقترحوا فى الأمور على النبي شيئا و لا تتقدّموا عليه فى العمل و لا ترفعوا أصواتكم عند بيت النبي (١).

التفسير

إشاره

آداب الحضور عند النبي:

كما أشرنا آنفا أنّ فى محتوى هذه السوره قسما من المباحث الأخلاقية المهمه و الأوامر و التعليمات الانضباطيه التى تدعونا إلى تسميه هذه السوره بسوره الأخلاق، و هذه المسائل و التعليمات تقع فى الآيات الأول من السوره محل البحث - و الآيات هذه على نحوين من التعليمات.

ص: ٥١١

١ - ١) - نقل ذلك القرطبي فى تفسيره، ج ٩، ص ٦١٢١، و سيد قطب فى ظلاله، ج ٧، ص ٥٢٤، و ابن هشام فى سيرته ص ٢٠٦ فما بعد (مع شىء من التفاوت و الاختلاف) كما ورد فى صحيح البخارى، ج ٦، ص ١٧٢، فى تفسيره سوره الحجرات..

الأول: عدم التقدم على الله و رسوله و عدم رفع الصوت عند رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم...

فتقول الآية الأولى في هذا الصدد: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

و المراد من عدم التقديم بين يدي الله و رسوله هو أن لا- يقترح عليهما في الأمور، و ترك العجلة و الإسراع أمام أمر الله و رسوله...

و بالرغم من أن بعض المفسيّرين أرادوا أن يحدّدوا مفهوم الآية و جعلوه منحصرًا بأداء العبادات قبل وقتها، أو التكلّم قبل كلام رسول الله و أمثال ذلك، إلاّ أنّه من الواضح أنّ لآية مفهومًا واسعًا يشمل أيّ تقدّم و إسراع في كلّ خطّة و منهج (1).

إنّ مسؤوليه انضباط السائرين إزاء القاده و خاصه إزاء القاده الإلهيين تقتضى ألاّ يتقدّموا عليهم في أيّ عمل و قول و لا يعجل أحد عندهم.

و بالطبع فإنّ هذا الكلام لا يعنى بأنّه لا يجوز لهم أن يتشاوروا مع النّبي إذا كان لديهم شيء يجدر بيانه، بل المراد منه إلاّ يعجلوا و يبادروا بالتصميم قبل أن يوافق النّبي على ذلك! حتى أنّه لا ينبغي أن تثار أسئلة و مناقشات أكثر ممّا يلزم في شأن المسائل، بل ينبغي أن يترك الأمر للقائد نفسه أن يبيّن المسائل في حينها، لا سيما إذا كان القائد معصوما الذي لا يغفل عن أيّ شيء! كما أنّه لو سئل المعصوم أيضًا، لا- يحقّ للآخرين أن يجيبوا السائل قبل أن يرّدّ عليه المعصوم، و في الحقيقة أنّ الآية جمعت كلّ هذه المعاني في طيّها.

و الآية الثانية تشير إلى الأمر الثّاني فتقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ .

ص: ٥١٢

١ - ١) -ورد الفعل «لا تقدموا» على صيغته الفعل المتعدى إلا أن المفعول محذوف هنا و تقديره: لا تقدموا أمرا بين يدي الله و رسوله و قد احتمل بعضهم أن هذا الفعل لازم هنا و مفهومه لا تتقدموا بين يدي الله و بالرغم من أن الفعلين مختلفان شكلا إلا أن المعنى أو النتيجة واحده..

و الجملة الأولى: لا- تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ إشاره إلى أنه لا- ينبغى رفع الصوت على صوت النبي، فهو بنفسه نوع من الإساءه الأديبه فى محضره المبارك، و النبى له مكانته. و هذا الأمر لا- يجدر أن يقع أمام الأب و الأم و الأستاذ لأنه مخالف للاحترام و الأدب أيضا.

أمّا جملة: لا- تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ فيمكن أن تكون تأكيداً على المعنى المتقدم فى الجملة الأولى، أو أنها إشاره إلى مطلب آخر، و هو ترك مخاطبه النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالنداء «يا محمد» و العدول عنه بالقول: «يا رسول الله»!...

غير أن جماعه من المفسرين قالوا فى الفرق بين الجملتين آنفتى الذكر ما يلى:- إن الجملة الأولى ناظره إلى زمان يتحدث الناس فيه مع النبى، فلا ينبغى لأحد أن يرفع صوته فوق صوت النبى صلى الله عليه و آله و سلم أمّا الجملة الثانية فناظره الى زمان يكون الرسول فيه صامتا و أصحابه يحدثونه، ففى هذه الحاله أيضا لا ينبغى رفع الصوت عنده.

و الجمع بين هذه المعنى و المعنى السابق أيضا- لا مانع منه كما أنه ينسجم مع شأن نزول الآيه، و على كل حال فظاهر الآيه هو بيان أمرين مختلفين...

و بديهى أن أمثال هذه الأعمال إن قصد بها الإساءه و الإهانه لشخص النبى و مقامه الكريم فذلك موجب للكفر، و إلا فهو إيذاء له و فيه إثم أيضا...

و فى الصورة الأولى تتضح عله الحبط و زوال الأعمال، لأن الكفر يحبط العمل و يكون سببا فى زوال ثواب العمل الصالح...

و فى الصورة الثانية أيضا، لا يمنع أن يكون مثل هذا العمل السىء باعثا على زوال ثواب الكثير من الأعمال.

و قلنا سابقا فى بحث الحبط أنه لا- مانع من زوال ثواب بعض الأعمال بسبب بعض الذنوب الخاصه، كما أن زوال أثر بعض الذنوب بسبب الأعمال الصالحه

قطعي أيضا... وهناك دلائل كثيره في الآيات القرآنيه أو الأحاديث الشريفه على هذا المعنى و رغم أنّ هذا المعنى لم يثبت على أنّه قانون كلى في جميع الحسنات و السيئات، إلاّ أنّه توجد دلائل نقلية في شأن بعض الحسنات و السيئات المهمّه و لا يوجد دليل عقلى مخالف لها! (١).

و

قد ورد في روايه أنّه حين نزلت الآيه آنفه الذكر قال «ثابت بن قيس» خطيب النبي الذي كان له صوت جهورى عال: أنا الذي رفعت صوتى فوق صوت النبي فحبطت أعمالى و أنا من أهل النار...

فبلغ ذلك سمع النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقال: «هو من أهل الجنه» (٢). لأنه حين فعل ذلك للمؤمنين أو أمام المخالفين و كان ذلك أداء لوظيفه إسلاميه.

كما أنّ ابن العباس بن عبد المطلب نادى بأمر النبي الذين فرّوا في معركة «حنين» بصوت عال ليعودوا إلى ساحات القتال! و في الآيه الأخرى مزيد تأكيد على الثواب الذي أعدّه الله لأولئك الذين يمثلون أمر الله و يراعون الآداب عند رسول الله فتقول: إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣).

كلمه «يغضون» مشتقه من غضّ -على وزن حظّ- و معناها تقليل النظر أو خفات الصوت و يقابل هذه الكلمه الإمعان بالنظر و الجهر بالصوت.

و كلمه «امتحن» مشتقه من الامتحان، و الأصل فى استعمالها إذابه الذهب و تطهيره من غير الخالص، كما أنّها تستعمل فى بسط الجلد المعدّ للدبغ، ثمّ

ص: ٥١٤

١- ١) - لمزيد الاطلاع بحثنا مسأله الحبط فى ذيل الآيه (٢١٧) من سوره البقره فليراجع.

٢- ٢) - يراجع مجمع البيان، ج ٩، ص ١٣٠، و قد ورد هذا الحديث بتفاوت فى بعض الكلمات عند كثير من المفسرين و لا سيما البخارى فى صحيحه و سيد قطب فى ظلاله و غيرهما.

٣- ٣) - «اللام» فى كلمه «التقوى» فى الحقيقه هى لام الغايه و ليست (لام العله) أى أنّ الله يجعل قلوب أولئك مهتياه للقبول و التقوى، لأنّ القلب إذا لم يخلص و لم يصف فلا يكون محلا للتقوى حقيقه.

استعملت بعدئذ في مطلق الاختبار كما هي الحال بالنسبة للآية محل البحث، و نتيجة ذلك خلوص القلب و بسطه لقبول التقوى...

و مما يسترعى الانتباه أنّ الآية السابقة ورد فيها التعبير بالنبى، إلا أنّ هذه الآية ورد التعبير فيها عنه برسول الله، و كلتا الآيتين تشير إلى هذه «اللطيفة»: و هي أنّ النبى ليس عنده شىء من نفسه، بل هو رسول الله و نبىه، فإساءه الأدب إليه إساءه الأدب إلى الله و رعايه الأدب إليه رعايه الله.

و نكرت كلمه «مغفره» للتعظيم و الأهميه... أى أنّ الله يجعل نصيبهم المغفره الكبرى و التامه، و بعد تطهيرهم من الذنب يرزقهم الأجر العظيم، لأنه لا بدّ من التطهير من الذنب أولاً، ثم الانتفاع من الأجر العظيم من قبل الله...

أمّا الآية الأخرى فتشير إلى جهل أولئك الذين يجعلون أمر الله وراء ظهورهم، و عدم إدراكهم فتقول: **إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .**

فأى عقل يدفع الإنسان إلى أن ينادى برفيع صوته أمام أعظم سفير إلهى فلا يلتفت الى آداب النداء كما فعلت قبيله بنى تميم فنادت النبى بصوت مزعج يا محمّد يا محمّد أخرج إلينا و هو مركز المحبّه و العطف الإلهى؟! و أساساً كلّما ترقى عقل الإنسان زيد فى أدبه فيعرف القيم الأخلاقية بصوره أحسن و من هنا فإنّ إساءه الأدب دليل على عدم العقل، أو بتعبير آخر إنّ إساءه الأدب عمل الحيوان، أمّا الأدب أو رعايه الأدب فهو من عمل الإنسان...

جمله **أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** «الأكثر» فى لغة العرب يطلق أحيانا بمعنى الجميع، و إنّما استعمل هذا اللفظ رعايه للاحتياط فى الأدب حتى لو أنّ واحداً أسستنى من الشمول لا يضيع حقّه عند التعبير بالأكثر، فكأنّ الله يريد أن يقول: إنى أنا الله الذى أحطت بكلّ شىء علماً، عند الكلام على مثل هذه الأمور أراعى الأدب فى ذلك فعلام لا تراعون فى كلامكم هذه الناحيه؟! أو لأنه يوجد فيهم أناس يعقلون حقاً، و لعاده الناس و عدم التفاتهم فى رفع

الصوت يريد القرآن أن يحذّرهم بهذا الأسلوب أن لا ينسوا الأدب و أن يستعملوا عقولهم و أفكارهم عند الكلام...

«الحجرات»: جمع «حجره» و هى هنا إشاره إلى البيوت (1) المتعدده لأزواج النّبي المجاوره للمسجد...

و أصل الكلمه مأخوذ من «الحجر» على وزن الأجر: أى المنع لأنّ الحجره تمنع الآخرين من الدخول فى حرّيم «حياه» الإنسان... و التعبير «وراء» هنا كناية عن الخارج من أى جهه كان! لأنّ أبواب الحجرات كانت تفتتح على المسجد أحيانا فيقف الجهله عندها فينادون: يا محمّد أخرج إلينا، فمنعهم القرآن و نهاهم عن ذلك!...

و يضيف القرآن إكمالاً للمعنى فى نهايه الآيه قائلاً: **وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** .

صحيح أنّ العجله قد تجعل الإنسان أحيانا يبلغ قصده بسرعه، إلا أنّ الصبر فى مثل هذا «المقام» و التأتى مدعاه إلى المغفره و الأجر العظيم.

و حيث أنّ بعضهم قد ارتكبوا جهلاً هذا الخطأ من قبل، و استوحشوا من هذا الأمر و حاسبوا أنفسهم بعد نزول الآيه، فإنّ القرآن يضيف قائلاً إنّهم تشملهم الرحمه عند التوبه: **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** .

بحوث

إشاره

١- الأدب أغلى القيم

اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بمسأله رعايه الأدب، و التعامل مع الآخرين مقروناً

ص: ٥١٦

١- ١) -بيوت جمع بيت و هذا اللفظ يطلق على الغرفه الواحده [أو مجموع الغرف فى مكان واحد لعائله معينه] و هو مشتق من المبيت ليلاً...

بالاحترام و الأدب سواء مع الفرد أم الجماعة، و نشير إلى طائفة من الأحاديث الشريفه هنا على أنها شواهد و أمثال لهذا العنوان...

-١

يقول الإمام على عليه السلام: «الأدب حلل مجدّده» (١).

و

يقول في مكان آخر: الأدب يغنى عن الحساب (٢).

كما أننا نقرأ حديثاً آخر

عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «خمس من لم تكن فيه لم يكن كثير فيه مستمتع؛ قيل: و ما هنّ يا ابن رسول الله قال عليه السلام: الدين و العقل و الحياء و حسن الخلق و حسن الأدب» (٣).

و نقرأ في مكان آخر

حديثاً عنه عليه السلام أيضاً يقول فيه: لا يطمعنّ ذو الكبر في الثناء الحسن و لا الخبّ في كثره الصديق و لا السىء الأدب في الشرف (٤) ...

و لذلك فإننا حين نقرأ تاريخ حياه القاده في الإسلام و ننعّم النظر فيها نلاحظ أنّهم يراعون أهم النقاط الحساسه و اللطائف الدقيقه في الأخلاق و الآداب حتى مع الأناس البسطاء، و أساساً فإنّ الدين مجموعته من الآداب، الأدب بين يدي الله و الأدب بين يدي الرسول و الأئمه المعصومين، و الأدب بين يدي الأستاذ و المعلم، أو الأب و الأم و العالم و المفكر...

و التدقيق في آيات القرآن الكريم يكشف عن أنّ الله سبحانه بما له من مقام العظمه حين يتكلّم مع عباده، يراعى الآداب بتامها...

فحيث يكون الأمر على هذه الشاكلة فمن المعلوم عندئذ ما هي وظيفه الناس أمام الله؟ و ما هو تكليفهم؟! و نقرأ في بعض الأحاديث الإسلاميه أنّه حين نزلت الآيات الأولى من سوره «المؤمنون» و أمرتهم بسلسله من الآداب الإسلاميه، و منها مسأله الخشوع في الصلاه، و كان النبي صلى الله عليه و آله و سلّم ينظر أحياناً إلى السماء عند

ص: ٥١٧

١-١ - نهج البلاغه الحكمه-٥.

٢-٢ - بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٦٨.

٣-٣ - المصدر السابق، ص ٦٧.

الصلاه ثم ينظر إلى الأرض مطرفاً برأسه «لا يرفعه» (١).

و في ما يخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان هذا الموضوع ذا أهميه أيضا إذ صرح القرآن في آياته بالإعراض عن اللغو عنده و عدم رفع الصوت و الصخب، فكل ذلك موجب للحبط في الأعمال و اضمحلال الثواب.

و واضح أنه لا تكفى رعايه هذه المسأله الخلقية عند النبي فحسب، بل هناك أمور أخرى ينبغي مراعاتها في حضوره، و كما يعتبر الفقهاء ينبغي إلغاء الخصوصيه هنا و تنقيح المناط بما سبق أشباهه و نظائره! و نقرأ في سوره النور الآيه (٦٣) منها: **لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا**... و قد فسرها جماعه من المفسرين بأنه «عند ما تنادون النبي فنادوه بأدب و احترام يليقان به لا كما ينادى بعضكم بعضاً»...

الطريف هنا أن القرآن عدّ أولئك الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله و يراعون الأدب بأنهم مطهرو القلوب و هم مهيتون للتقوى، و جديرون بالمغفره و الأجر العظيم... في حين أنه يعدّ الذين ينادونه من وراء الحجرات و يسيئون الأدب عنده - كالأنعام - أكثرهم لا يعقلون.

حتى أن بعض المفسرين توسعوا في الآيات محل البحث و جعلوا لها مراحل أدنى أيضا بحيث تشمل المفكرين و العلماء و القاده من المسلمين، فوظيفه المسلمين أن يراعوا الآداب بين أيديهم...

و بالطبع فإن هذه المسأله أكثر وضوحا في شأن الأئمه أولى العصمه، حتى أنه بلغنا بعض الروايات الوارده عن أهل البيت أنه «حين دخل أحد الأصحاب على الإمام بادره الإمام دون مقدمه: أما تعلم

أنه لا ينبغي للجنب أن يدخل بيوت الأنبياء» (٢).

ص: ٥١٨

١-١) - راجع تفسير مجمع البيان و تفسير الفخر الرازي، ذيل الآيه ٢ سوره المؤمنون.

٢-٢) - بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٢٥٥.

و ورد التعبير في روايه أخرى بهذه الصورة:

«أن بيوت الأنبياء و أولاد الأنبياء لا يدخلها الجنب».

و ملخص القول أن مسأله رعايه الآداب أمام الكبير و الصغير تشمل قسما كبيرا من التعليمات الإسلاميه بحيث لو أردنا أن ندرجها ضمن بحثنا هذا لخرجنا عن تفسير الآيات، إلا أننا نختم بحثنا بحديث عن الإمام علي بن الحسين (السجاد) في «رساله الحقوق» حيث قال في «مورد رعايه الأدب أمام الأستاذ»:

«و حقّ سائسك بالعلم التعظيم له و التوقير لمجلسه و حسن الاستماع إليه و الإقبال عليه و أن لا ترفع عليه صوتك و لا تجيب أحدا يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يجيب و لا تحدّث في مجلسه أحدا و لا تغتاب عنده أحدا و أن تدفع عنه إذا ذكر عندك بسوء و أن تستر عيوبه و تظهر مناقبه و لا تجالس له عدوا و لا تعادى له و ليا فإذا فعلت ذلك شهدت لك ملائكه الله بأنك قصدته و تعلّمت علمه لله جلّ اسمه لا للناس» (١).

٢- رفع الصوت عند قبر الرسول

قال جماعه من العلماء و المفسّرين أن الآيات محل البحث كما أنها تمنع رفع الصوت عند النبيّ حال حياته فهي كذلك شامله للمنع بعد وفاته (٢).

و إذا كان المراد من تعبيرهم أننا شمول العبارة في الآية، فظاهر الآية يخصّ زمان حياته صلى الله عليه و آله و سلّم لأنها تقول: لا تَزْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ و ذلك في حاله ما يكون النبيّ له حياه جسمانيه و هو يتكلّم مع أحد فلا يجوز رفع الصوت فوق صوته...

لكن إذا كان مرادهم -المناط- و فلسفه الحكم- و هي واضحه في هذه الموارد

ص: ٥١٩

١- ١) -المحجّه البيضاء، ج ٣، ص ٤٥٠، باب آداب الصحبه و المعاشره.

٢- ٢) -روح المعاني، ج ٢٦، ص ١٢٥.

و أمثالها-و أهل العرف-يلغون«الخصوصيه»،فلا يبعد التعميم المذكور.لأنه من المسلّم به-أنّ الهدف هنا رعايه الأدب و احترام ساحه قدس النبي،فعلى هذا متى ما كان رفع الصوت عند قبره نوعا من هتك الحرمه فهو بدون شكّ غير جائز،إلا أن يكون أذانا للصلاه أو تلاوه للقرآن أو إلقاء خطبه...و أمثال ذلك فإنّ هذه الأمور ليس فيه أى إشكال لا فى حياه النبي و لا بعد وفاته...

و نقراً حديثاً

فى أصول الكافى نقل عن الإمام الباقر فى شأن ما جرى للحسن بعد وفاته و ممانعه عائشه عن دفنه فى جوار رسول الله جاء فيه أنّه حين ارتفعت الأصوات استدلل الإمام الحسين عليه السلام بالآيه: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ** و

نقل عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم قوله: **إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَمْوَاتًا مَا حَرَّمَ مِنْهُمْ أَحْيَاءَ (١)**.

و هذا الحديث شاهد آخر على عموم مفهوم الآيه!

٣- الانضباط الإسلامى فى كلّ شيء و فى كلّ مكان!

إنّ مسأله المديرية لا تتم بدون رعايه الانضباط،و إذا أريد للناس العمل تحت مديرية و قياده-حسب رغبتهم،فإنّ اتساق الأعمال سينعدم عندئذ و إن كان المديرين و القاده جديرين.

و كثير من الأحداث و النواقص التى نلاحظها تحدّث عن هذا الطريق،فكم من هزيمة أصابت جيشا قويا أو نقصا حدث فى أمر يهّم جماعه و ما إلى ذلك كان سببه ما ذكرناه آنفا...و لقد ذاق المسلمون أيضا مراره مخالفه هذه التعاليم مرارا فى عهد النبي صلى الله عليه و آله و سلّم أو بعده،و من أوضح الأمور قصه هزيمة المسلمين فى معركة أحد لعدم الانضباط من قبل جماعه قليلة من المقاتلين.

و القرآن يثير هذه المسأله المهمّه فى عباره موجزه فى الآيه الآنفه و بأسلوب

ص: ٥٢٠

(١-١) -أصول الكافى-طبقا لما نقل فى نور الثقلين، ج ٥، ص ٨٠.

جامع طريف إذ يقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

و مفهوم الآيه كما أشرنا سابقا واسع إلى درجه أنها تشمل أى نوع من أنواع التقدّم و التأخر و الكلام و التصرفات الذاتيه الخارجيه عن تعليمات القياده...

و مع هذه الحال فإننا نلاحظ فى تاريخ حياه النبى صلى الله عليه و آله و سلمّ موارد كثيره يتقدّم فيها بعض الأفراد على أمره أو يتخلّفون و يلون رؤوسهم فيكونون موضع الملامه و التوبيخ الشديد...و من ذلك ما يلى...

١- حين تحرّك النبى صلى الله عليه و آله و سلمّ لفتح مكّه فى السنه الثامنه للهجره كان ذلك فى شهر رمضان و كان معه جماعه كثيره، منهم الفرسان و منهم المشاه، و لما بلغ (منزل) كراع الغميم أمر بإناء ماء، فتناول منه الرسول و أفطر ثم أفطر من كان معه، إلا أن العجيب أن جماعه منهم (تقدّم على النبى) و لم يوافقوا على الإفطار و بقوا صائمين فسّمّاهم النبى صلى الله عليه و آله و سلمّ بالعصاه (١) ! ٢- و مثل آخر ما حدث فى حجه الوداع فى السنه العاشره للهجره حيث أمر النبى أن ينادى المنادى: «من لم يسق منكم هديا فليحلّ و ليجعلها عمره، و من ساق منكم هديا فليقم على إحرامه» ثم يؤدّى مناسك الحج و أن من جاء بالهدى (و حجّه حجّ إفراد) فعليه أن يبقى على إحرامه... ثم

قال صلى الله عليه و آله و سلمّ «لولا أنّى سقت الهدى لأحللت، و جعلتها عمره، فمن لم يسق هديا فليحلّ». إلا أن جماعه أبوا و قالوا كيف يمكننا أن نحل و ما يزال النبى محرما أليس قبيحا أن نمضى للحج بعد أداء العمره و يسيل منّا ماء الغسل «من الجنابه». فسأ النبى ما قالوا و وبّخهم و لامهم (٢) .

٣- قصه التخلّف عن جيش أسامه عند ما أراد النبى صلى الله عليه و آله و سلمّ أن يلتحق بالرفيق

ص: ٥٢١

١ - ١) - نقل هذا الحديث كثير من المؤرخين و المحدثين و منها ما ورد فى الجزء السابع من وسائل الشيعه، الصفحه ١٢٥، باب من يصح منه الصوم مع شىء من التلخيص.

٢ - ٢) - بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٣٨٦ (بشىء من التصرف و الاختصار).

الأعلى معروفة حيث أمر صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين أن ينفذوا جيش أسامة بن زيد و يتحرّكوا إلى حرب الروم و أمر المهاجرين و الأنصار أن يتحرّكوا مع هذا الجيش...

و لعلّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أراد ألاّ تقع عند رحلته مسائل في أمر الخلافة-و قد وقعت- حتى أنّه لعن المتخلّفين عن جيش أسامة و مع كلّ ذلك تخلف جماعه بحجه أنّهم لا يستطيعون أن يتركوا النّبي في مثل هذه الظروف (١)!!...

٤-قصه «القلم و الدواه» معروفة أيضا و هي في الساعات الأخيره من عمر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كما أنّها مشيره و الأحسن أن ننقل ما جاء من عباره

في صحيح مسلم بعينها هنا:

«لَمَّا حضر رسول الله و في البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب فقال النبي: هلمّ اكتب لكم كتابا لا تضلّون بعده، فقال عمر إنّ رسول الله قد غلب عليه الوجع، و عندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت، فاختصموا فمنهم من يقول:

قربوا يكتب لكم رسول الله كتابا لن تضلّوا بعده و منهم من يقول ما قال عمر فلما أكثروا اللغو و الاختلاف عند رسول الله قال رسول الله قوموا! (٢)!!...

و ممّا تجدر الإشارة إليه أنّ هذا الحديث عينه نقله البخارى في صحيحه باختلاف يسير جدا «صحيح البخارى، ج ٦، باب مرض النّبي، ص ١١».

و هذه القضية من الحوادث المهمّه في التاريخ الإسلامى التى تحتاج إلى تحليل و بسط ليس هنا محلّه و لكنّها على كلّ حال من أجلى موارد التخلف عن أمر النّبي و مخالفه الآيه محل البحث: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ...

ص: ٥٢٢

١-١) -ذكر هذه القصة مؤرّخون كثر في كتب التاريخ الإسلامى و هي من الحوادث المهمّه في تاريخ الإسلام «لمزيد الاطلاع يراجع كتاب المراجعات-المراجعة ٩٠-منه».

٢-٢) -صحيح مسلم، ج ٣، كتاب الوصيه، الحديث ٢٢.

و ما يهَمُّنا هنا أنّ رعايه الانضباط الإسلامى و الإلهى تحتاج إلى روح التسليم المطلق و قبول القيادة «الإلهيه» فى جميع شؤون الحياه و الإيمان المتين بمقام القائد الشامخ...

ص: ٥٢٣

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن لَّجَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلِيمَانٌ وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلَّأَ مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)

سبب النزول

قال بعض المفسرين كالطبرسي في مجمع البيان: هناك قولان في شأن نزول الآيه الأولى من الآيات أعلاه، و لكن بعضهم اكتفى بقول واحد منهما كالقرطبي و سيد قطب، و نور الثقلين.

فالقول الأول في شأن نزول الآيه محل البحث الذي ذكره أغلب المفسرين أن الآيه الكريمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن لَّجَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا نزلت في «الوليد بن عقبه» و ذلك أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أرسله لجمع الزكاه من قبيله «بنى المصطلق» فلما علم

بنو المصطلق أنّ مبعوث الرسول قادم إليهم سرّوا كثيرا وهرعوا لاستقباله، إلا أنّ الوليد حيث كانت له خصومه معهم في زمان الجاهليه، شديده، تصوّر أنّهم يريدون قتله.

فرجع إلى النبي «و من دون أن يتحقّق في الأمر» وقال: يا رسول الله إنّهم امتنوا عن دفع الزكاه «و نعرف أنّ عدم دفع الزكاه هو نوع من الوقوف بوجه الحكومه الإسلاميه فبناء على ذلك فإنّ مدعى الوليد يقتضى أنّهم مرتدّون»!! فغضب النبي صلى الله عليه و آله و سلّم لذلك و صمّم على أن يقاتلهم فنزلت الآيه آنفه الذكر (١) ...

و أضاف بعضهم أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلّم حين أخبره الوليد بن عقبه بارتداد قبيله (بنى المصطلق) أمر خالد بن الوليد بن المغيره أن يمضى نحوها و أن لا يقوم بعمل حتى يترث و يعرف الحقّ...

فمضى خالد ليلا- و صار قريبا من قبيله بنى المصطلق و بعث عيونه ليستقصوا الخبر فعادوا إليه و أخبروا بأنهم مسلمون «أوفياء لدينهم» و سمعوا منهم صوت الآذان و الصلاه، فغدا خالد عليهم فى الصباح بنفسه فوجد ما قاله أصحابه صدقا فعاد إلى النبي و أخبره بما رأى فنزلت الآيه آنفه الذكر، و عقب النبي عليها...

«التأنى من الله و العجله من الشيطان» (٢).

و ذكر بعض المفسّرين قولاً- آخر فى شأن نزول الآيه و عوّلوا عليه فحسب، و هو أنّ الآيه نزلت فى «ماريه القبطيه» زوج النبي و أم إبراهيم عليه السلام، لأنّه

قيل للنبي صلى الله عليه و آله و سلّم أنّ لها ابن عمّ «يدعى جريحا» تتردّد إليه أحيانا «و بينهما علاقه غير مشروع» فأرسل النبي صلى الله عليه و آله و سلّم خلف على عليه السّلام فقال له «يا أخى خذ السيف فإن وجدته عندها فاضرب عنقه...» فأخذ أمير المؤمنين السيف ثمّ قال بأبى أنت و أمى يا رسول الله: أكون فى أمرك

ص: ٥٢٥

١- ١) - تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٣٢.

٢- ٢) - القرطبي، ج ٩، ص ٦١٣١.

إذا أرسلتني كالسكة المحماه؛ أمضى لما أمرتني أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب»، قال علي: فأقبلت متوشحاً بالسيف فوجدته عندها فاخرطت السيف فلما عرف أنني أريده أتى نخله فرقى إليها ثم رمى بنفسه على قفاه و شغل برجليه فإذا أنه أجبّ امسح مال ممّا للرجال قليل و لا كثير فرجعت فأخبرت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «الحمد لله الذي يصرف عنا سوء أهل البيت» (١).

و ورد هذا الشأن ذاته في تفسير نور الثقلين ج ٥ مع اختلاف يسير في العبارات...

التفسير

إشاره

لا تكثر بأخبار الفاسقين:

كان الكلام في الآيات الآنفه على ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون و وظائفهم أمام قائدهم و نبيهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم و قد ورد في الآيات المتقدمه أمران مهمان، الأول أن لا يقدموا بين يديه و الآخر هو مراعاة الأدب عند الكلام معه و عدم رفع الصوت فوق صوته...

أما الآيات محل البحث فهي تبين الوظائف الأخرى على هذه الأئمة إزاء نبيها.

و تقول ينبغي الاستقصاء عند نقل الخبر إلى النبي فلو أنّ فاسقا جاءكم بنيا فتثبتوا و تحقّقوا من خبره، و لا تكرهوا النبي على قبول خبره حتى تعرفوا صدقه... فتقول الآيات أولا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا .

ثم تبين السبب في ذلك فتضيف: أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ .

ص: ٥٢٦

فلو أنّ النبي قد أخذ بقول «الوليد بن عقبه» و عدّ قبيله بنى المصطلق مرتدين و قاتلهم لكانت فاجعه و مصيبه عظمى!...

و يستفاد من لحن الآيه التاليه أنّ جماعه من أصحاب الرسول اصبروا على قتال بنى المصطلق، فقال لهم القرآن إنّ هذا هو الجهل بعينه و عاقبته الندم.

و استدل جماعه من علماء الأصول على حجّيه خبر الواحد بهذه الآيه لأنها تقول إن جاءكم فاسق بنيا فتبينوا... و مفهومها أنّ العادل لو جاء بنيا فلا يلزم التبين... و يصح قبول خبره إلاّ أنّه أشكل على هذا الاستدلال بمسائل عديده أهمها مسألتان:

المسأله الأولى: إنّ الاستدلال المتقدم ذكره متوقّف على قبول «حجّيه مفهوم الوصف»، و المعروف أنّه لا حجّيه لمفهوم الوصف (1) ...

المسأله الثانيه: إنّ العله المذكوره فى ذيل الآيه فيها من السعه ما يشمل خبرى العادل و الفاسق معا لأنّ العمل بالخبر الظنى - مهما كان - ففيه احتمال الندم.

لكنّ هاتين المسألتين يمكن حلّهما، لأنّ مفهوم الوصف و أى قيد آخر فى الموارد التى يراد منها بيان القيد فى مقام الاحتراز حجه، و ذكر هذا القيد «قيد الفاسق» فى الآيه المتقدمه طبقا للظهور العرفى لا فائده منه تستحق الملاحظه سوى حجّيه خبر العادل! و أمّا فى مورد التعليل الوارد فى ذيل الآيه فالظاهر أنّه لا يشمل كلّ عمل بالأدله الظنيه، بل هو ناظر إلى الموارد التى يكون العمل فيها بجهاله، أى العمل بسفاهه و حمق، لأنّ الآيه عوّلت على الجهاله، و نعرف أنّ أغلب الأدله التى يعوّل عليها العقلاء جميعا فى العالم فى المسائل اليوميه هى دلائل ظنيه «من قبيل

ص: ٥٢٧

١ - ١) - يتصوّر بعضهم أنّ المسأله هنا من قبيل مفهوم الشرط و مفهوم الشرط حجّه، فى حين أنّه لا علاقه هنا بمفهوم الشرط، إضافه الى ذلك فإنّ الجملة الشرطيه هنا لبيان الموضوع و نعرف أنّه فى مثل هذه الموارد لا مفهوم للجملة الشرطيه أيضا فلاحظوا بدقّه.

ظواهر الألفاظ و قول الشاهد، و قول أهل الخبره، و قول ذى اليد و أمثالها».

و معلوم أنه لا يعدّ أى ممّا أشير إليه آنفاً بأنه جهاله و لو لم يطابق الواقع أحيانا، فلا تتحقّق هنا مسأله الندم فيه لأنه طريق عام...

و على كلّ حال فإننا نعتقد بأنّ هذه الآيه من الآيات المحكمات التى فيها دلالة على حجّيه خبر الواحد حتى فى الموضوعات، و هناك بحوث كثيره فى هذا الصدد-ليس هنا مجال شرحها...

إضافه إلى ذلك فإنّه لا يمكن إنكار أنّ مسأله الاعتماد على الأخبار الموثقه هى أساس التاريخ و الحياه البشريه. بحيث لو حذفنا مسأله حجّيه خبر العادل أو الموثّق من المجتمعات الإنسانيه لبطل كثير من التراث العلمى و المعارف المتعلّقه بالمجتمعات البشريه القديمه و حتى كثير من المسائل المعاصره التى نعمل على ضوئها اليوم...

و لا- يرجع الإنسان إلى الوراء فحسب، بل تتوقف عجله الحياه، لذلك فإنّ العقلاء جميعا يرون حجّيته و الشارع المقدّس أمضاه أيضا «قولا و عملا».

و بمقدار ما يعطى خبر الواحد «الثقه» الحياه نظامها فإنّ الاعتماد على الأخبار غير الموثّقه خطير للغاية، و مدعاه إلى اضطراب نظام المجتمع، و يجر الوبال و المصائب المتعدّده، و يهدّد الحثيات و حقوق الأشخاص بالخطر و يسوق الإنسان إلى الانحراف و الضلال و كما عبّر القرآن الكريم تعبيرا طريفا فى الآيه محل البحث: فَتَضَيُّحُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ .

و هنا لطيفه تسترعى الانتباه أيضا، و هى أنّ صياغه الأخبار الكاذبه و التعويل على الأخبار غير الموثّقه من الأساليب القديمه التى تتبّعها النظم الاستعماريه و الديكتاتوريه لتخلق جوا كاذبا ينخدع به الجهله من الناس و المغفلون فتنهب أموالهم و أرصدتهم بهذه الأساليب و ما شاكلها...

فلو عمل المسلمون بهذا الأمر الإلهى الوارد فى هذه الآيه على نحو الدقّه و لم

يأخذوا بأخبار الفاسقين دون تبين لكانوا مصونين من هذه البلايا الخطيره! و الجدير بالذكر أنّ المسأله المهمه هنا هي الوثوق و الاعتماد على الخبر ذاته، غايه ما فى الأمر قد يحصل هذا الوثوق من جهه الاعتماد على الشخص المخبر تاره، و تاره من القرائن الأخر الخارجيه... و لذلك فإننا قد نطمئن إلى «الخبر» أحيانا و إن كان «المخبر» فاسقا...

فعلى هذا الأساس، فإنّ هذا الوثوق أو الاعتماد كيف ما حصل، سواء عن طريق العداله و التقوى و صدق القائل أم عن طريق القرائن الخارجيه، فهو معتبر عندنا، و سيره العقلاء التى أمضاها الشارع الإسلامى مبنيه على هذا الأساس...

و لذا فإننا نرى فى الفقه الإسلامى كثيرا من الأخبار ضعيفه السند لكن لأنها جرى عليها «عمل المشهور» و وقف على صحه الخبر من خلال قرائن خاصه، فلذلك أصبحت هذه الأخبار (الضعيفه السند) صالحه للعمل و جرت فتاوى الفقهاء على وفقها.

و على العكس من ذلك قد تقع أخبار عندنا قائلها معتبر و لكنّ القرائن الخارجيه لا تساعد على قبوله، فلا سبيل لنا إلا الاعراض عنه و إن كان المخبر عادلا و «معتبرا»...

فبناء على هذا- إنّ المعيار هو الاعتماد على الخبر نفسه- فى كلّ مكان- و إن كان الغالب كون الوسيله هي عداله الراوى و صدقه- لهذا الاعتماد- إلا أنّ ذلك ليس قانونا كليتا. (فلاحظوا بدقه).

و الآيه التاليه- و للتأكيد على الموضوع المهم فى الآيه السابقه- تضيف قائله:

وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ

(١)

و تدلّ هذه الجملة- كما قاله جماعه من المفسرين أيضا- أنّه بعد أن أخبر

ص: ٥٢٩

١- ١) - كلمه «لَعَنِتُّمْ»: مشتقه من ماده العنت و معناه الوقوع فى عمل يخاف الإنسان عاقبته أو الأمر الذى يشقّ على الإنسان، و من هنا قيل للألم الحاصل من العظم المكسور عند تعرّضه للضربه بأنّه عنت..

«الوليد» بارتداد طائفه «بنى المصطلق»... ألح جماعه من المسلمين البسطاء السذج ذوى النظره السطحيه على الرسول أن يقاتل الطائفه آنفه الذكر...

فالقرآن يقول: من حسن حظكم أن فيكم رسول الله و هو مرتبط بعالم الوحي فمتى ما بدت فيكم بوادر الانحراف فسيقوم بإرشادكم عن هذا الطريق، فلا- تتوقعوا أن يطيعكم و يتعلم منكم و لا- تصروا و تلحوا عليه، فإن ذلك فيه عنت لكم و ليس من مصلحتكم...

و يشير القرآن معقبا فى الآيه إلى موهبه عظيمه أخرى من مواهب الله سبحانه فيقول: [□] [□] وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَ زَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ .

و فى الحقيقه أن هذه التعابير إشاره لطيفه إلى قانون اللطف أى «اللطف التكويني».

و توضيح ذلك أنه حين يريد الشخص الحكيم أن يحقق أمرا فإنه يوفق له جميع ما يلائمه من كل جهه و يصدق هذا الأصل فى شأن الناس تماما...

فالله يريد أن يطوى الناس جميعا طريق الحق دون أن يقعوا تحت تأثير الإجمار بل برغبتهم و إرادتهم، و لذا يرسل إليهم الرسل و الكتب السماويه من جهه، و يحبب إليهم الإيمان من جهه أخرى، و يضرى شعله العشق نحو طلب الحق و البحث عنه فى داخل النفوس و يكره إليها الكفر و الفسوق و العصيان...

و هكذا فإن كل إنسان مفطور على حب الإيمان و الطهاره و التقوى، و البراءه من الكفر و الذنب.

إلا- أنه من الممكن أن يتلوث ماء المعنويات المنصب فى وجود الناس فى المراحل المتتاليه و ذلك نتيجة للاختلاط بالمحيطات الموبوءه فيفقد صفاءه و يكتسب رائحه الذنب و الكفر و العصيان...

هذه الموهبه الفطريه تدعو الناس إلى إتباع رسول الله و عدم التقدم بين يديه.

و ينبغي التذكير بهذه اللطيفه أيضا، و هي أنّ محتوى الآيه لا ينافي المشاوره أبدا، لأنّ الهدف من المشاوره أو الشورى أن يعرب كلّ عن عقيدته و وجهه نظره، إلّا أنّ الرأى الأخير و النظر النهائى لشخص النبى صلى الله عليه و آله و سلّم كما يستفاد ذلك من آيه الشورى أيضا...

و بتعبير آخر... إنّ الشورى هي موضوع مستقل، و فرض الرأى موضوع آخر، فالآيه محل البحث تنفى فرض الرأى لا المشاوره.

و فى أنّ المراد من «الفسوق» المذكور فى الآيه ما هو؟ اقال بعض المفسّرين هو الكذب، إلّا أنّه مع الالتفات إلى سعه مفهومه اللغوى فإنّه يشمل كلّ خروج على الطاعه، فعلى هذا يكون التعبير ب«العصيان» بعده تأكيدا عليه، كما أنّ جملة وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ تأكيد على الجملة السابقه لها: حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ .

و قال بعضهم إنّ كلمه «الفسوق» إشاره إلى الذنوب الكبيره فى حين أنّ «العصيان» أعم منه... إلّا أنّه لا دليل على ذلك...

و على كلّ حال، فإنّ القرآن يقرّر قاعده كليه و عامه فى نهايه هذه الآيه لواجدى الصفات المذكوره [فيها]

فتقول: **أُولَئِكَ هُمُ الرّٰشِدُونَ .**

أى لو حفظتم هذه الموهبه الإلهيه «العشق للإيمان و التنفّر من الكفر و الفسوق» و لم تلوثوا هذا النقاء و الصفات الفطريه فإنّ الرشد و الهدايه دون أدنى شكّ فى انتظاركم...

و ممّا يستجلب النظر أنّ الجمل السابقه فى الآيه كانت بصيغه الخطاب للمؤمنين لكنّ هذه الجملة: **أُولَئِكَ هُمُ الرّٰشِدُونَ** تتحدّث عنهم بصيغه «الغائب» و يبدو أنّ هذا التفاوت فى التعبير جاء ليبدّل على أنّ هذا الحكم غير مختصّ بأصحاب النبى، بل هو قانون عام، فكلّ من حفظ صفاء الفطرى فى أى عصر و زمان هو من أهل الرشد و الهدايه و النجاه.

أمّا آخر الآيات محل البحث فتوضّح هذه الحقيقه و هي أن محبوبيه الإيمان

والتنفر من الكفر والعصيان من المواهب الإلهية العظمى على البشر إذ تقول:

فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

(١)

فعلمه و حكمته يوجبان أن يخلق فيكم عوامل الرشد و السعادة و يكملها بدعوه الأنبياء إياكم و يجعل عاقبتكم الوصول إلى الهدف المنشود...«و هو الجنة».

و الظاهر أن الفضل و النعمة كليهما إشاره إلى حقيقه واحده، هي المواهب الإلهية التي يمنحها عباده، غايه ما فى الأمر أن «الفضل» إنما سُمى فضلا لأن الله غير محتاج إليه و«النعمة» إنما سُميت نعمة لأن العباد محتاجون إليها، فهما بمثابة الوجهين لعملة واحده!...

و لا شك أن علم الله بحاجه العباد و حكمته فى مجال التكامل و تربيته المخلوقات توجبان أن يتفضل بهذه النعم المعنويه الكبرى على عباده (و هى محبوبيه الإيمان و التنفر من الكفر و العصيان).

ملاحظات

إشارة

١- هدايه الله و حريه الإراده

إن الآيات الآنفه تجسيد بين لوجهه نظر الإسلام فى مسأله «الجبر و الإختيار» و الهدايه و الإضلال، لأنها توضح هذه اللطيفه- بجلاء- و هى أن الله يهيئ المجال «و الأرضيه» للهدايه و الرشد، فمن جهه يبعث رسوله و يجعله بين الناس و ينزل القرآن الذى هو نور و منهج هدايه؛ و من جهه يلقى فى النفوس العشق للإيمان و محبته؛ و التنفر و البراءه من الكفر و العصيان، لكن فى النهايه يوكل للإنسان أن يختار ما يشاء و يصمم بنفسه، و يشرع سبحانه التكليف فى هذا المجال!...

ص: ٥٣٢

١ - ١) - (فضلا و نعمة) نصبا على أنهما [مفعولان لأجله] للفعل حبيب إليكم أو أنهما مفعولان مطلقان لفعلين محذوفين و تقديرهما: هكذا أفضل فضلا و أنعم نعمة..

و طبقاً للآيات المتقدّمة فإنّ عشق الإيمان و التّفرّ من الكفر موجودان في قلوب جميع الناس دون استثناء و إذا لم يكن لدى بعضهم ذلك فإنّما هو من جهه اخطائهم و سلوكياتهم و أعمالهم، فإنّ الله لم يلق في قلب أى شخص حبّ العصيان و بغض الإيمان...

٢- القيادة و الطاعه

هذه الآيات تؤكد مرّه أخرى أنّ وجود القائد «الإلهي» ضرورى لرشد جماعه ما، بشرط أن يكون مطاعاً لا مطيعاً و أن يتبع أصحابه و جماعته أو امره لا أن يؤثروا عليه و يفرضوا عليه آراءهم (ابتغاء مقاصدهم و مصالحهم).

و هذه المسأله لا تختصّ بالقاده الإلهيين فحسب، بل ينبغى أن تكون حاكمه فى المديرية و القيادة فى كلّ مكان. و حاكميه هذا الأصل لا تعنى استبداد القاده، و لا ترك الشورى كما أشرنا آنفاً و أوضحنا ذلك.

٣- الإيمان نوع من العشق لا إدراك العقل فحسب...

هذه الآيات تشير ضمناً إلى هذه الحقيقه و هى أنّ الإيمان نوع من العلاقه الإلهيه الشديده «و المعنويه» و إن كانت من الاستدلالات العقلية... و لذلك فإنّنا نقرأ

حديثاً عن الإمام الصادق عليه السّلام حين سألوه: هل الحب و البغض من الإيمان، فأجاب عليه السّلام: «و هل الإيمان إلاّ الحبّ و البغض»! ثمّ تلا هذه الآية: ... وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَ زَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (١).

و

ورد فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام قوله فى هذا المجال «و هل الدين

ص: ٥٣٣

إِلَّا الْحَبِّ؟! ثمَّ استدلَّ عليه السَّلام ببعض الآيات منها هذه الآية محل البحث و قال بعدئذ:

«الدين هو الحبَّ و الحبَّ هو الدين» (١).

إلَّا أَنَّهُ و دون أدنى شكِّ يجب أن ترفد هذه المحبّه- كما نوهنا آنفاً- بالوجه الاستدلاليه و المنطقيه لتكون مثمره عندئذ...

ص: ٥٣٤

١- ١) - تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٨٣، و ص ٨٤.

إشاره

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحِدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

سبب النزول

ورد في شأن نزول الآيتين -هاتين- أنّ خلافا وقع بين قبيلتي «الأوس» و«الخزرج» و«هما قبيلتان معروفتان في المدينة» أدى هذا الخلاف إلى الاقتتال بينهما و أن يتنازعا بالعصى و الهراوات و الأحذية فنزلت الآيتان آنفتا الذكر و علمت المسلمين سبيل المواجهه مع أمثال هذه الحوادث (١).

و قال بعضهم: حدث بين نفرين من الأنصار خصومه و اختلاف! فقال أحدهما للآخر: سأخذ حقي منك بالقوه لأن قبيلتي كثيره، و قال الآخر: لنمض و نحتكم عند

ص: ٥٣٥

رسول الله، فلم يقبل الأول، فاشتدّ الخلاف و تنازع جماعه من قبيلتيهما بالعصى و الأحذيه و«حتى» بالسيوف، فنزلت الآيتان آنفتا الذكر و بينت وظيفه المسلمين فى مثل هذه الأمور (١).

التفسير

إشاره

المؤمنون أخوه:

يقول القرآن هنا قولاً هو بمثابة القانون الكلى العام لكلّ زمان و مكان: **وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا (٢)**.

و صحيح أنّ كلمه «اقتتلوا» مشتقّه من ماده القتال و معناها الحرب، إلاّ أنّها كما تشهد بذلك القرآن تشمل كلّ أنواع النزاع و إن لم يصل إلى مرحله القتال و المواجهه «العسكريه» و يؤيد هذا المعنى أيضا بعض ما نقل فى شأن نزول الآيه...

بل يمكن القول: إنّّه لو توفرت مقدّمات النزاع كالمشاجرات اللفظيه مثلا- التى تجرّ إلى المنازعات الداميه فإنّه ينبغى و طبقا لمنطوق الآيه أن يسعى إلى الإصلاح بين المتنازعين، لأنّه يمكن أن يستفاد هذا المعنى من الآيه المتقدمه عن طريق إلغاء الخصوصيه.

و على كلّ حال، فإنّ من واجب جميع المسلمين أن يصلحوا بين المتنازعين منهم لئلاّ تسيل الدماء و أن يعرفوا مسؤوليتهم فى هذا المجال، فلا يكونوا متفرّجين كبعض الجهله الذين يمرّون بهذه الأمور دون اكرثات و تأثر! فهذه هى وظيفه المؤمنين الأولى عند مواجهه أمثال هذه الأمور.

ثمّ يبيّن القرآن الوظيفه الثانيه على النحو التالى: **فَإِنْ بَغَتْ إِحِدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ وَ لَمْ تَسْتَسْلِم لِقِتَابِ اللَّهِ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُ فَاذْهَبْ عَلَيْهِ** حتى تفيء إلى أمر الله .

ص: ٥٣٦

١- ١) - تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦١٣٦.

٢- ٢) - مع أنّ كلمه (طائفتان) مثنى طائفه، إلاّ أنّ فعلها جاء بصيغه الجمع اقتتلوا لأنّ كلّ طائفه مؤلفه من مجموعه من الأفراد.

و بديهي أنه لو سالت دماء الطائفه الباغيه و الظالمه- في هذه الأثناء- فإثمها عليها، أو كما يصطلح عليه إن دماءهم هدر، و إن كانوا مسلمين، لأنّ الفرض أنّ النزاع واقع بين طائفتين من المؤمنين...

و هكذا- فإنّ الإسلام يمنع من الظلم و إن أدى إلى مقاتله الظالم، لأنّ ثمن العدالة أعلى من دم المسلمين أيضاً، و لكن لا يكون ذلك إلا إذا فشلت الحلول السلميه.

ثمّ بيّن القرآن الوظيفه الثالثه فيقول: فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ .

أى لا ينبغي أن يقنع المسلمون بالقضاء على قوه الطائفيه الباغيه الظالمه بل ينبغي أن يعقب ذلك الصلح و أن يكون مقدّمه لقلع جذور عوامل النزاع، و إلاّ فإنّه بمرور الزمن ما أن يحسّ الظالم في نفسه القدره حتى ينهض ثانيه و يثير النزاع.

قال بعض المفسّرين: يستفاد من التعبير «بالعدل» أنّه لو كان حقّ مضاع بين الطائفتين أو دم مراق و ما إلى ذلك ممّا يكون منشأ للنزاع فيجب إصلاحه أيضاً، و إلاّ فلا يصدق عليه «إصلاح بالعدل» (١).

و حيث أنّه تميل النوازع النفسيه أحيانا في بعض الجماعات عند الحكم و القضاء الى إحدى الطائفتين المتخاصمتين و تنقض «الاستقامه» عند القضاء فإنّ القرآن ينذر المسلمين في رابع تعليماته و ما ينبغي عليهم فيقول: وَ أَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٢).

و الآيه التاليه تضيف- لبيان العله و التأكيد على هذا الأمر قائله: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ .

ص: ٥٣٧

١-١) -تفسير الميزان ج ١٨، ص ٣٤٢.

٢-٢) - كلمه «المقسطين» مأخوذه من القسط و معناها في الأصل التقسيم بالعدل، و حين ترد على صيغه الفعل الثلاثى قسط على زنه ضرب تعنى الظلم و التجاوز على حصّه الآخرين ظلما، إلاّ أنّه حين تأتي ثلاثى مزيد فيقال «أقسط» فإنّها تعنى إعطاء الحصه عدلا، و هل القسط و العدل بمعنى واحد أم لا؟ هناك بحث ذكرناه في ذيل الآيه (٢٩) من سوره الأعراف لا بأس بمراجعتها...

فكما تسعون للإصلاح بين الأخوين في النسب، فينبغي أن لا- تألوا جهدا في الدخول بصورة جاده للإصلاح بين المؤمنين المتخاصمين بعداله تامه! و ما أحسنه من تعبير و كم هو بليغ إذ يعبر القرآن عن جميع المؤمنين بأنهم «أخوه» و أن يسمى النزاع بينهم نزاعا بين الأخوه! و أنه ينبغي أن يبادر إلى إحلال الإصلاح و الصفاء مكانه...

و حيث أنه في كثير من الأوقات تحل «الروابط» في أمثال هذه المسائل محل «الضوابط» فإنّ القرآن يضيف في نهايه هذه الآيه مرّه أخرى قائلا: وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

و هكذا تتضح إحدى أهم المسؤوليات الاجتماعيه على المسلمين في ما بينهم في تحكيم العدالة الاجتماعيه بجميع أبعادها.

بحثان

إشاره

الأول: شروط قتال أهل البغي «البغاه»

هناك باب في الفقه الإسلامي بعنوان: «قتال أهل البغي» ضمن كتاب الجهاد، و المراد منه قتال الظلمه الذين ينهضون بوجه الإمام العادل في المسلمين» و قد وردت فيهم أحكام كثيره في هذا الباب...

إلا- أنّ ما أثارته الآيه الآنفه موضوع آخر، و هو النزاع الواقع بين الطائفتين المؤمنين، و ليس في هذا النزاع نهوض بوجه إمام المسلمين العادل و لا- نهوض بوجه الحكومه الإسلاميه الصالحه. و قد أراد بعض الفقهاء أو المفسرين أن يستفيدوا من هذه الآيه «في المسأله السابقه» إلا أنّ هذا الاستدلال كما يقول الفاضل «المقداد» في «كنز العرفان» خطأ بين (1). لأنّ القيام و النهوض بوجه الإمام

ص: ٥٣٨

العادل موجب للكفر، في حين أنّ النزاع بين المؤمنين موجب للفسق فحسب لا- الكفر، و لذلك فإنّ القرآن المجيد عبّر عن الطائفتين بالمؤمنين و سمّاهم أخوه، فلا يصحّ تعميم أحكام أهل البغي على أمثال هؤلاء!...

و من المؤسف أنّنا لم نعثر على بحث في الفقه في شأن أحكام هذه الطائفة، إلا أنّ ما يستفاد من الآيه المتقدمه بضميمه القرائن الأخر و خاصه ما ورد من إشارات في باب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر هي الأحكام التاليه!...

١- إنّ الإصلاح بين الطوائف المتنازعه «من المسلمين» أمر واجب كفائي.

٢- ينبغي لتحقق هذا الأمر أن يشرع أولاً من المراحل البسيطة و أن تراعى قاعده «الأسهل فالأسهل» إلاّ أنّه إذا لم ينفذ ذلك فيجوز عندئذ المواجهه المسلّحه بل تلزم أحياناً...

٣- ما يسفك من دم البغاه في هذا السبيل و ما تذهب منهم من أموال كلّها هدر، لأنّ حكم الشرع قد امتثل و أدت الوظيفه الواجبه، و الأصل في مثل هذه الموارد عدم الضمان! ٤- لا- حاجه لإذن حاكم الشرع في مراحل الإصلاح عن طريق الكلام و المباحثات، إلاّ أنّه لا بدّ من الإذن عند اشتداد العمل و لا سيما إذا انتهى الأمر إلى سفك الدماء، فلا يجوز عندئذ الإقدام بأيّ عمل إلاّ بأمر الحكومه الإسلاميه و حاكم الشرع! إلاّ في الموارد التي لا يمكن الوصول إلى حاكم الشرع بأيّ وجه، فللعدول عندئذ و أهل الخبره من المؤمنين أن يتخذوا القرار الذي يرونه...

٥- في حاله ما لو سفكت الطائفه الباغيه و الظالمه دما من «الجماعه المصلحه» أو نهبت أموالاً منها، فهي ضامنه بحكم الشرع و يجرى القصاص منها في صورته وقوع قتل العمد، و كذلك في مورد تسفك فيه دماء من الطائفه المظلومه أو تلتف منها أموالها فإنّ حكم القصاص و الضمان ثابت أيضاً و ما يقال من أنه بعد وقوع الصلح لا تتحمل الطائفه الباغيه مسئوليّه الدماء المسفوكه و الأموال المهودوره لأنّه

لم تشر إليه الآيه-محل البحث-غير صحيح، والآيه ليست فى مقام بيان جميع هذا المطلب، بل المرجع فى مثل هذه الموارد هو سائر الأصول والقواعد الواردة فى أبواب القصاص والإتلاف...

٦- حيث أنّ الهدف من هذه المقاتله و الحرب حمل الطائفه الباغيه على قبول الحق، فعلى هذا لا تثار فى الحرب مسأله «أسرى الحرب و الغنائم» لأنّ الطائفتين بحسب الفرض مسلمتان، إلاّ أنّه لا مانع من الأسر مؤقتا لإطفاء نائره النزاع و لكن بعد حل النزاع و الصلح يجب إطلاق الأسرى فوراً...

٧- قد يتفق أحيانا أن يكون طرفا النزاع باغيين، فهذا الطرف قتل جماعه من القبيله الأخرى و سلب ماله، و ذلك الطرف قتل جماعه من هذه القبيله و الطائفه و سلب أموالها دون أن يقنع كلّ منهما بالمقدار اللازم من الدفاع سواء كان الطرفان «الطائفتان» بمستوى واحد من الظلم و البغى أو بعضهما أكثر اعتداء و الآخر أقل! و بالطبع فإنّ الحكم فى شأن هذا المورد لم يرد صراحة فى القرآن، لكن يمكن أن يستفاد هذا الحكم عن طريق إلغاء الخصوصيه من الآيه محل البحث، و هو أنّ وظيفه المسلمين أن يصلحوا بين الطرفين، و إذا لم يوافقا على الصلح فلا بدّ من قتالهم جميعا حتى يفتىء كل إلى أمر الله، ما ذكرناه آنفا من أحكام فى شأن الباغى و الظالم جار فى الطرفين...

و فى ختام هذا الكلام نؤكد مرّه أخرى أنّ حكم هؤلاء البغاه منفصل عن حكم الذين يقفون بوجه الإمام المعصوم أو الحكومه الإسلاميه العادله، فإنّ لهذه الطائفه الأخيره أحكاما أشدّ و أصعب و ارده فى كتاب الجهاد من الفقه الإسلامى.

التانى: أهميه الأخوه الإسلاميه

إنّ جملة: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ الواردة فى الآيات المتقدمه واحده من الشعارات الأساسيه و«المتجدّره» فى الإسلام، فهى شعار عميق، بليغ، مؤثر و ذو

معنى غزير...

إنَّ الآخرين حين يريدون إظهار مزيد من العلاقة بمن يشاركونهم في المنهج والعمل، يعبرون عنهم بالرفاق، «أو الرفيق للمفرد» إلا أنَّ الإسلام رفع مستوى الارتباط والحب بين المسلمين إلى درجة جعلها بمستوى أقرب العلائق بين شخصين وهي علاقة الأخوين التي تقوم العلاقة بينهما على أساس المساواة والتكافؤ.

فعلى هذا الأصل الإسلامى المهم فإنَّ المسلمين على اختلاف قبائلهم وقومياتهم ولغاتهم وأعمارهم يشعرون فيما بينهم بالأخوة وإن عاش بعضهم فى الشرق والآخر فى الغرب...

ففى مناسك الحج مثلا حيث يجتمع المسلمون من نقاط العالم كافة فى مركز التوحيد تبدو هذه العلاقة والارتباط والانسجام والوشائج محسوسة وميدانا للتحقق العيني لهذا القانون الإسلامى المهم...

و بتعبير آخر إنَّ الإسلام يرى المسلمين جميعا بحكم الأسره الواحده و يخاطبهم جميعا بالإخوان والأخوات ليس ذلك فى اللفظ والشعار، بل فى العمل والتعهدات المتماثله أيضا، جميعهم (أخوه وأخوات).

وفى الروايات الإسلاميه تأكيد على هذه المسأله أيضا ولا سيما فى ما يخص الجوانب العمليه ونحن نذكر هنا على سبيل المثال بعضا من الأحاديث التاليه:

١-

□
ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه» (١).

٢-

□
ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى» (٢).

ص: ٥٤١

١-١) -المحجّه البيضاء، ج ٣، ص ٣٣٢ (كتاب الصحبه و المعاشره) الباب الثانى.

٢-٢) -المصدر السابق.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إذا اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده و أرواحهما من روح واحدة» (١).

٤-كما

نقرأ حديثاً آخر عنه عليه السلام يقول فيه: «المؤمن أخو المؤمن عينه و دليله لا- يخونه و لا- يظلمه و لا- يغشّه و لا- يعده عده فيخلفه» (٢).

و هناك روايات كثيرة في مصادر الحديث الإسلاميه المعروفه في ما يتعلق بحق المؤمن على أخيه المسلم و أنواع حقوق المؤمنين بعضهم على بعض و ثواب زياره الإخوان المؤمنين «و المصافحه و المعانقه» و ذكرهم و إدخال السرور على قلوبهم و خاصه قضاء حاجاتهم و السعى في إنجازها و إذهاب الهم و الغم عن القلوب و إطعام الطعام و إكسائهم الثياب و إكرامهم و احترامهم، و يمكن مطالعتها في أصول الكافي في أبواب مختلفه تحت العناوين الآنفه.

٥-و في ختام هذا المطاف نشير إلى روايه هي من أكثر الروايات «جمعا» في شأن حقوق المؤمن على أخيه المؤمن التي تبلغ ثلاثين حقاً!...

قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «للمسلم على أخيه ثلاثون حقاً، لا براءه له منها إلا بالأداء أو العفو! يغفر زلته، و يرحم عبرته، و يستر عورته، و يقبل عثرته، و يقبل معذرتة، و يرد غيبته، و يديم نصيحته، و يحفظ خلته و يرعى ذمته، و يعود مرضه، و يشهد ميته، و يجيب دعوته، و يقبل هديته، و يكافئ صلته، و يشكر نعمته، و يحسن نصرته، و يحفظ حليلته، و يقضى حاجته، و يشفع مسألته، و يسمت عطسته، و يرشد ضالته، و يرد سلامه، و يطيب كلامه، و يبّر أنعامه، و يصدق أقسامه، و يوالى وليه، و لا يعاديه، و ينصره ظالماً و مظلوماً، فأما نصرته ظالماً فيردّه عن ظلمه، و أما نصرته مظلوماً فيعيّنه على أخذ حقّه، و لا يسلمه و لا يخذله، و يحب له من الخير

ص: ٥٤٢

١- (١، ٢) - أصول الكافي، ج ٢، ص ١٣٣ (باب أخوه المؤمنين بعضهم لبعض الحديث ٣ و ٤).

ما يحبّ لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه» (1).

و على كلّ حال فإنّ واحدا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض هو مسأله الإعانه و إصلاح ذات البين كما ورد في الآيات المتقدّمه و الروايات الآنفه «و كان لنا في التفسير الأمثل بحث في «إصلاح ذات البين» ذيل الآيه الأولى من سورة الأنفال»...

ص: ٥٤٣

(١ - ١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٢٣٦.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)

سبب النزول

ذكر المفسرون لهاتين الآيتين شأننا «في نزولهما» بل شؤوننا مختلفه، منها أن جمله لا- يسخر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ في «ثابت بن قيس» خطيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان ثقيل السمع و كان حين يدخل المسجد يجلس إلى جنب النبي و يوفر له المكان عنده لسمع حديث النبي، و ذات مره دخل المسجد و المسلمون كانوا قد

فرغوا من صلاتهم و جلسوا فى أماكنهم، فكان يشق الرجوع و يقول: تفسيحوا، تفسيحوا حتى وصل إلى رجل من المسلمين فقال له: اجلس (مكانك هنا) فجلس خلفه مغضبا حتى انكشفت العتمه فقال ثابت لذلك الرجل: من أنت فقال: أنا فلان فقال له ثابت: ابن فلانه؟! او ذكر اسم أمه بما يكره من لقبها.. و كانت تعرف به فى زمان الجاهليه فاستحى ذلك الرجل و طأطأ برأسه إلى الأرض، فنزلت الآية و نهت المسلمين عن مثل هذا العمل...

و قيل إن جملة **و لا ينساء من نساء** نزلت فى أم سلمه إحدى أزواج النبي صلى الله عليه و آله و سلم لأنها كانت تلبس لبوسا خاصا أو لأنها كانت قصير فكانت النساء يسخرن منها، فنزلت الآية و نهت عن مثل هذه الأعمال!

و قالوا إن جملة **و لا يعتب بعضكم بعضا** نزلت فى نفرين من الصحابه اغتابا صاحبهما «سلمان» لأنها كانا قد بعثاه نحو النبي صلى الله عليه و آله و سلم ليأتيهما بطعام منه، فأرسل النبي سلمان نحو «أسامه بن زيد» الذى كان مسئول بيت المال فقال أسامه ليس عندى شيء الآن.. فاغتابا أسامه و قالا إنه بخيل و قالا فى شأن سلمان: لو كنا أرسلناه إلى بئر سمححه لغاض ماؤها» و كانت بئرا غزيره الماء» ثم انطلقا ليأتيا أسامه و ليتجسسا عليه،

فقال لهما النبي صلى الله عليه و آله و سلم إنى أرى آثار أكل اللحم على أفواهكما: فقالا يا رسول الله لم نأكل اللحم هذا اليوم فقال رسول الله: أجل تأكلون لحم سلمان و أسامه. فنزلت الآية و نهت المسلمين عن الاغتياب (1).

التفسير

إشارة

الاستهزاء و سوء الظن و الغيبة و التجسس و الألقاب السيئة حرام!

حيث أن القرآن المجيد اهتم ببناء المجتمع الإسلامى على أساس المعايير

ص: ٥٤٥

(١-١) - راجع تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٣٥، و القرطبي فى تفسيره، إذ ذكر هذا الشأن مع شيء من التفاوت.

الأخلاقية فإنه بعد البحث عن وظائف المسلمين في مورد النزاع و المخاصمه بين طوائف المسلمين المختلفه بين في الآيتين محل البحث قسما من جذور هذه الاختلافات ليزول الاختلاف (بقطعها) و يحسم النزاع! ففي كل من الآيتين الأنفتين تعبير صريح و يبلغ عن ثلاثه أمور يمكن أن يكون كل منها شراره لاشتعال الحرب و الاختلاف، إذ تقول الآيه الأولى من الآيتين محل البحث أولاً:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ .

لأنه عسى أن يكونوا خيراً منهم .

وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ

و الخطاب موجّه هنا إلى المؤمنين كافة فهو يعم الرجال و النساء و ينذر الجميع أن يجتنبوا هذا الأمر القبيح، لأن أساس السخرية و الاستهزاء هو الإحساس بالاستعلاء و الغرور و الكبر و أمثال ذلك إذ كانت تبعث على كثير من الحروب الداميه على امتداد التاريخ! و هذا الاستعلاء أو التكبر غالباً ما يكون أساسه القيم الماديه و الظواهر الماديه فمثلاً، فلان يرى نفسه أكثر مالا من الآخر أو يرى نفسه أجمل من غيره أو أنه يعد من القبيله المشهوره و المعروفه أكثر من سواها، و ربما يسوقه تصوّره بأنه أفضل من الجماعه الفلانيه علماً و عبادته و معنويه إلى السخرية منهم، في حين أنّ المعيار الواقعي عند الله هو «التقوى» التي تنسجم مع طهاره القلب و خلوص النيّه و التواضع و الأخلاق و الأدب!.

و لا يصحّ لأى أحد أن يقول أنا أفضل عند الله من سواى، و لذلك عد تحقير الآخرين و التعالى بالنفس من أسوأ الأمور و أقبح العيوب الأخلاقية التي يمكن أن تكون لها انعكاسات سلبيه فى حياه الناس جميعاً.

ثم تقول الآيه فى المرحله الثانيه: وَ لَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ .

كلمه «تلمزوا» هي من ماده «لمز» على زنه «طنز» و معناها تتبع العيوب

و الطعن فى الآخريـن، و فسـر بعضهم الفرق بين «الهمز» و«اللمز» بأنّ «اللمز» عدّ عيوب الناس بحضورهم، و«الهمز» ذكر عيوبهم فى غيابهم، كما قيل أنّ «اللمز» تتع العيوب بالعين و الإشاره فى حين أنّ «الهمز» هو ذكر العيوب باللسان «و سيأتى تفصل هذا الموضوع بإذن الله فى تفسير سورة الهمزه»...

الطريف أنّ القرآن فى تعبير «أنفسكم» يشير إلى وحده المؤمنين و أنهم نسيج واحد، و يبيّن هنا بأنّ جميع المؤمنين بمثابة النفس الواحده فمن عاب غيره فإنما عاب نفسه فى الواقع!

و تضيف الآيه فى المرحله الثالثه أيضا قائله: **وَلَا تَتَّبِعُوا بِاللَّعَابِ** .

هناك الكثير من الأفراد الحمقى قديما و حديثا، ماضيا و حاضرا مولعون بالتراشق بالألفاظ القبيحه، و من هذا المنطلق فهم يحقرون الآخريـن و يدمرون شخصياتهم و ربما انتقموا منهم أحيانا عن هذا الطريق و قد يتفق أنّ شخصا كان يعمل المنكرات سابقا، ثم تاب و أناب و أخلص قلبه لله، و لكن مع ذلك نراهم يرشقونه بلقب مبتذل كاشف عن ماضيه! الإسلام نهى عن هذه الأمور بصراحه و منع من إطلاق أى اسم أو لقب غير مرغوب فيه يكون مدعاه لتحقير المسلم...

و نقرأ

فى بعض الأحاديث أنّ «صفيه بنت حبيى بن أخطب» المرأه اليهوديه التى أسلمت بعد فتح خيبر و أصبحت زوجة النبى -جاءت صفيه يوما إلى النبى و هى باكيه العين فسألها النبى عن سبب بكائها فقالت: إنّ عائشه توبّخنى و تقول لى يا ابنه اليهودى، فقال لها النبى صلى الله عليه و آله و سلّم: فلم لا- قلت لها: أبى هارون و عمى موسى و زوجى محمّد فكان أن نزلت هذه الآيه- محل البحث- (١).

و لذلك فإنّ الآيه تضيف قائله: **بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ** أى قبيح جدّا على من دخل فى سلك الإيمان أن يذكر الناس بسمات الكفر.

ص: ٥٤٧

و احتمال بعض المفسرين احتمالاً- آخر لهذه الجملة المذكوره آنفا و هي أنّ الله نهى المؤمنين أن يرضوا بأسماء الفسق و الجاهليه لأنفسهم بسبب سخريه الناس و لتحاشى استهزائهم.

و لكن مع الالتفات إلى صدر الآيه و شأن النزول المذكور يبدو أنّ التفسير الأوّل أقرب.

و تختتم الآيه لمزيد التأكيد بالقول: وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

و أى ظلم أسوأ من أن يؤذى شخص بالكلمات اللاذعه و«اللاسعه» و التحقير و اللمز قلوب المؤمنين التي هي «مركز عشق» الله و أن يطعن في شخصياتهم و يبتذل كرامتهم التي هي أساس شخصيتهم.

ماء وجوههم الذى هو أساس حياتهم الأهم.

و قلنا إنّ في كل من الآيتين-محل البحث-ثلاثة أحكام فى مجال الأخلاق الاجتماعيه.فالأحكام الثلاثة فى الآيه الأولى هي «عدم السخريه» و«ترك اللمز» و«ترك التنازب بالألقاب».

و الأحكام الثالثه فى الآيه الثانيه هي «اجتناب سوء الظن» و«التجسس» و«الاغتياب».

فى هذه الآيه يبدأ القرآن فيقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ .

و المراد من «كثيرا من الظن»الظنون السيئه التي تغلب على الظنون الحسنه بين الناس لذلك عبّر عنها ب«الكثير»و إلا فإنّ حسن الظن لا أنّه غير ممنوع فحسب،بل هو مستحسن كما يقول القرآن فى الآيه(١٢) من سوره النور: لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا .

و ممّا يلفت النظر أنّه قد نهى عن كثير من الظن، إلا أنّه فى مقام التعليل تقول الآيه: إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ و لعلّ هذا الاختلاف فى التعبير ناشئ من أنّ الظنون

السيئه بعضها مطابق للواقع و بعضها مخالف له،فما خالف الواقع فهو إثم لا محاله، و لذلك قالت الآية: إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ و على هذا فيكفي هذا البعض من الظنون الذى يكون إثما أن نتجنّب سائر الظنون لئلا نقع فى الإثم! و هنا ينقدح هذا السؤال،و هو أن الظنّ السىء أو الظن الحسن ليسا اختياريين (غالبا)و إنما يكون كل منهما على أثر سلسله من المقدمات الخارجة عن اختيار الإنسان و التى تنعكس فى ذهنه،فكيف يصح النهى عن ذلك؟! و فى مقام الجواب يمكن القول بأنه:

١-المراد من هذا النهى هو النهى عن ترتيب الآثار،أى متى ما خطر الظنّ السىء فى الذهن عن المسلم فلا- ينبغى الاعتناء به عملياً،و لا- ينبغى تعديل أسلوب التعامل معه و لا تغيير الروابط مع ذلك الطرف،فعلى هذا الأساس فإنّ الإثم هو إعطاء الأثر و ترتبه عليه.

و لذلك نقرأ فى هذا الصدد

حديثاً عن نبيّ الإسلام يقول فيه: «ثلاث فى المؤمن لا يستحسن،و له منهنّ مخرج فمخرجه من سوء الظنّ ألاّ يحقّقه» (١) ... إلى آخر الحديث الشريف.

٢-يستطيع الإنسان أن يبعد عن نفسه سوء الظنّ بالتفكير فى المسائل المختلفه،بأن يفكر فى طريق الحمل على الصّحة،و أن يجسّد فى ذهنه الاحتمالات الصحيحه الموجوده فى ذلك العمل،و هكذا يتغلب تدريجاً على سوء الظنّ! فبناء على هذا ليس سوء الظنّ شيئاً (ذا بال)بحيث يخرج عن اختيار الإنسان دائماً! لذلك

فقد ورد فى الروايات أنّه: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقلبك منه،و لا تظننّ بكلمه خرجت من أخيك سوءا و أنت تجد لها فى الخير

ص: ٥٤٩

و على كل حال فإنّ هذا الأمر واحد من أكثر الأوامر و التعليمات جامعِيه و دقّه في مجال روابط الإنسان الاجتماعيّه الذي تضمن الأمن في المجتمع بشكل كامل! و سيأتي بيانه و تفصيله في فقره البحوث.

ثمّ تذكّر الآيه موضوع «التجسس» فتنهى عنه بالقول: [□] وَ لَا تَجَسَّسُوا!.

و «التجسس» و «التجسس» كلاهما بمعنى البحث و التقصي، إلاّ أنّ الكلمه الأولى غالباً ما تستعمل في البحث عن الأمور غير المطلوبه، و الكلمه الثانيه على العكس حيث تستعمل في البحث عن الأمور المطلوبه أو المحبوبه! و منه ما ورد على لسان يعقوب في وصيته ولده! [□] يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ (٢).

و في الحقيقه إنّ سوء الظن باعث على التجسس باعث على كشف الأسرار و ما خفي من أمور الناس، و الإسلام لا يبيح أبداً كشف أسرار الناس! و بتعبير آخر إنّ الإسلام يريد أن يكون الناس في حياتهم الخاصه آمنين من كل الجهات، و بديهي أنه لو سمح الإسلام لكلّ أحد أن يتجسس على الآخرين فإنّ كرامه الناس و حيثياتهم تتعرض للزوال، و تتولد من ذلك «حياه جهنميه» يحسّ فيها جميع أفراد المجتمع بالقلق و التمزق!.

و بالطبع فإنّ هذا الأمر لا ينافي وجود أجهزه «مخابرات» في الحكومه الإسلاميه لمواجهة المؤامرات، و لكنّ هذا لا يعني أنّ لهذه الأجهزه حق التجسس في حياه الناس الخاصه «كما سنبين ذلك بإذن الله فيما بعد».

و أخيراً فإنّ الآيه تضيف في آخر هذه الأوامر و التعليمات ما هو نتيجة الأمرين السابقين و معلولهما فتقول: [□] وَ لَا يَغْتَبَّ بَعْضُكُمْ بَعْضاً.

ص: ٥٥٠

١-١) - أصول الكافي، ج ٢، باب التهمه و سوء الظن، الحديث ٣، و قد ورد شبيه هذا المعنى في نهج البلاغه مع شيء من التفاوت في «الكلمات القصار»، رقم ٣٦٠.

٢-٢) - يوسف، الآيه ٨٧.

و هكذا فإنَّ سوء الظن هو أساس التجسس، و التجسس يستوجب إفشاء العيوب و الأسرار، و الاطلاع عليها يستوجب الغيبه، و الإسلام ينهى عن جميعها عله و معلولا! و لتقيح هذا العمل يتناول القرآن مثلا بليغا يجسد هذا الأمر فيقول: **أُيْحَبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ!**

أجل، إنَّ كرامه الأخ المسلم و سمعته كلحم جسده، و ابتذال ماء وجهه بسبب اغتيابه و إفشاء أسراره الخفيه كمثل أكل لحمه.

كلمه «ميتا» للتعبير عن أنَّ الاغتيال إنما يقع في غياب الأفراد، فمثلهم كمثل الموتى الذين لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم، و هذا الفعل أقبح ظلم يصدر عن الإنسان في حق أخيه!.

أجل، إنَّ هذا التشبيه يبيِّن قبح الاغتيال و إثمه العظيم.

و تولى الروايات الإسلاميه- كما سيأتى بيانها- أهميه قصوى لمسأله الاغتيال، و نادرا ما نجد من الذنوب ما فيه من الإثم إلى هذه الدرجه.

و حيث أنه من الممكن أن يكون بعض الأفراد ملوثين بهذه الذنوب الثلاثه و يدفعهم وجدانهم إلى التيقظ و التنبه فيلتفتون إلى خطئهم، فإنَّ السبيل تفتحه الآيه لهم إذ تختتم بقوله تعالى: **وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ .**

فلا بدَّ أن تحيا روح التقوى و الخوف من الله أولا: و على أثر ذلك تكون التوبه و الإنابه لتشملهم رحمه الله و لطفه.

بحوث

أشاره

١- الأمن الاجتماعى الكامل

! إنَّ الأوامر أو التعليمات الستة الوارده فى الآيتين آنفتى الذكر (النهى عن السخرية و اللمز و التنازب بالألقاب و سوء الظن و التجسس و الاغتيال) إذا نفذت

ص: ٥٥١

فى المجتمع فىإن سمعه و كرامه الأفراد فى ذلك المجتمع تكون مضمونه من جمع الجهات، فلا يستطيع أحد أن يسخر من الآخرين-على أنه أفضل-و لا يمدّ لسانه باللمز، و لا يستطيع أن يهتك حرمتهم باستعمال الألقاب القبيحه و لا يحقّ له حتى أن يسىء الظن بهم، و لا يتجسس عن حياه الأفراد الخاصه و لا يكشف عيوبهم الخفيه(باغتيالهم).

و بتعبير آخر إنّ للإنسان رؤوس أموال أربعه و يجب أن تحفظ جميعا فى حصن هذا القانون و هى:«النفس و المال و الناموس و ماء الوجه».

و التعابير الوارده فى الآيتين محل البحث و الروايات الإسلاميه تدل على أنّ ماء وجه الأفراد كأنفسهم و أموالهم بل هو أهم من بعض الجهات.

الإسلام يريد أن يحكم المجتمع أمن مطلق، و لا يكتفى بأن يكفّ الناس عن ضرب بعضهم بعضا فحسب، بل أسمى من ذلك بأن يكونوا آمنين من ألسنتهم، بل و أرقى من ذلك أن يكونوا آمنين من تفكيرهم و ظنّهم أيضا...و أن يحسّ كل منهم أنّ الآخر لا يرشقه بنبال الاتهامات فى منطقته أفكاره.

و هذا الأمن فى أعلى مستوى و لا يمكن تحقّقه إلّا فى مجتمع رسالى مؤمن.

يقول النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم فى هذا الصدد: «إنّ الله حرّم من المسلم دمه و ماله و عرضه و أن يظنّ به السوء» (١).

إنّ سوء الظن لا- أنه يؤثر على الطرف المقابل و يسقط حيثيته فحسب، بل هو بلاء عظيم على صاحبه لأنّه يكون سببا لإبعاده عن التعاون مع الناس و يخلق له عالما من الوحشه و الغربه و الانزواء كما

ورد فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السّلام أنّه قال: «من لم يحسن ظنّه استوحش من كلّ أحد» (٢).

و بتعبير آخر، إنّ ما يفصل حياه الإنسان عن الحيوان و يمنحها الحركة و الرونق

ص: ٥٥٢

١-١) -المحبّه البيضاء، ج ٥، ص ٢٦٨.

٢-٢) -غرر الحكم الصفحه ٦٩٧.

و التكامل هو روح التعاون الجماعى، و لا- يتحقق هذا الأمر إلا- فى صورته أن يكون الاعتماد على الناس (و حسن الظن بهم) حاكما... فى حين أن سوء الظن يهدم قواعد هذا الاعتماد، و تنقطع به روابط التعاون، و تضعف به الروح الاجتماعيه.

و هكذا الحال فى التجسس و الغيبه أيضا.

إن سبب النظره و الظن يخافون من كل شىء و يستوحشون من كل أحد و تستولى على أنفسهم نظره الخوف، فلا يستطيعون أن يقفوا على ولى و مؤنس يطوى الهموم، و لا- يجدون شريكا للنشاطات الاجتماعيه، و لا- معيننا و نصيرا ليوم الشده! و لا- بأس بالالتفات إلى هذه اللطيفه، و هى أن المراد من «الظن» هنا هو الظن الذى لا- يستند إلى دليل، فعلى هذا إذا كان الظن فى بعض الموارد مستندا إلى دليل فهو ظنّ معتبر، و هو مستثنى من هذا الحكم، كالظن الحاصل من شهاده نفرين عادلين.

٢- لا تجسسوا!

رأينا أن القرآن يمنع جميع أنواع التجسس بصراحه تامه، و حيث إنه لم يذكر قيادا أو شرطا فى الآيه فيدل هذا على أن التجسس فى أعمال الآخريين و السعى إلى إذاعه أسرارهم إثم، إلا أن القرائن الموجوده داخل الآيه و خارجها تدل على أن هذا الحكم متعلق بحياه الأفراد الشخصيه و الخصوصيه.

و يصدق هذا الحكم أيضا فى الحياه الاجتماعيه فى صورته أن لا يؤثر فى مصير المجتمع.

لكن من الواضح أنه إذا كان لهذا الحكم علاقه بمصير المجتمع أو مصير الآخريين فإن المسأله تأخذ طابعا آخر، و من هنا فإن النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان قد أعدّ أشخاصا و أمرهم أن يكونوا عيوننا لجمع الأخبار و استكشاف المجريات

و استقصائها ليحيطوا بما له علاقه بمصير المجتمع.

و من هذا المنطلق أيضا يمكن للحكومه الإسلاميه أن تتخذ أشخاصا يكونون عيوننا لها أو منظمه واسعه للإحاطه بمجريات الأمور، و أن يواجهوا المؤامرات ضد المجتمع أو التي يراد بها إرباك الوضع الأمني في البلاد، فيتجسسوا للمصلحه العامه حتى لو كان ذلك في إطار الحياه الخاصه للأفراد! إلا- أن هذا الأمر لا- ينبغى أن يكون ذريعه لهتك حرمة هذا القانون الإسلامى الأصيل، و أن يسوّغ بعض الأفراد لأنفسهم أن يتجسسوا في حياه الأفراد الخاصه بذريعه التأمّر و الإخلال بالأمن، فيفتحوا رسائلهم مثلا- أو يراقبوا الهاتف و يهجموا على بيوتهم بين حين و آخر!! و الخلاصه أنّ الحدّ بين التجسس بمعناه السلبي و بين كسب الأخبار الضروريه لحفظ أمن المجتمع دقيق و ظريف جدا، و ينبغى على مسؤولي إداره الأمور الاجتماعيه أن يراقبوا هذا الحدّ بدقه لئلا تهتك حرمة أسرار الناس، و لئلا يتهدّد أمن المجتمع و الحكومه الإسلاميه!.

٣- الغيبه من أعظم الذنوب و أكبرها!

قلنا إنّ رأس مال الإنسان المهم في حياته ماء وجهه و حيثيته، و أى شىء يهدّده فكأنما يهدّد حياته بالخطر.

و أحيانا يعدّ اغتيال و قتل الشخصيه أهم من اغتيال الشخص نفسه، و من هنا كان إثمه أكبر من قتل النفس أحيانا.

إنّ واحده من حكم تحريم الغيبه أن لا يتعرّض هذا الإعتبار العظيم للأشخاص و رأس المال آنف الذكر لخطر التمزّق و التلوّث و أن لا تهتك حرمة الأشخاص و لا تلوّث و حيثياتهم، و هذا مطلب مهم تلقاه الإسلام باهتمام بالغ! و الأمر الآخر إنّ الغيبه تولّد النظره السيئه و تضعف العلائق الاجتماعيه و توهنها

و تتلف رأس المال الاعتماد و تزلزل قواعد التعاون «الاجتماعى»! و نعرف أنّ الإسلام أولى أهميه بالغه من أجل الوحده و الانسجام و التضامن بين أفراد المجتمع، فكلّ أمر يقوى هذه الوحده فهو محل قبول الإسلام و تقديره، و ما يؤدى إلى الإخلال بالأواصر الاجتماعيه فهو مرفوض، و الاغتياب هو أحد عوامل الوهن و التضعيف...

ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ الاغتياب يثر في القلوب بذور الحقد و العداوه و ربّما أدى أحيانا إلى الاقتتال و سفك الدماء في بعض الأحيان.

و الخلاصه أنّنا حين نقف على أنّ الاغتياب يعدّ واحدا من كبائر الذنوب فإنّما هو لآثاره السيئه فرديه كانت أم اجتماعيه! و في الروايات الإسلاميه تعابير مثيره في هذا المجال نورد هنا على سبيل المثال بعضا منها!

قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم: «إنّ الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئه من ست و ثلاثين زنيه يزنيها الرجل و أربى الربى عرض الرجل المسلم» (١).

و ما ذلك إلا لأنّ الزنا و إن كان قبيحا و سيئا، إلا أنّ فيه جنبه حق الله، و لكن الربا و ما هو أشدّ منه كإراقه ماء وجه الإنسان و ما إلى ذلك فيه جنبه حق الناس.

و

قد ورد في روايه أخرى أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلّم خطب يوما بصوت عال و نادى:

«يا معشر من آمن بلسانه و لم يؤمن بقلبه! تغتابوا المسلمين و لا تتبعوا عوراتهم فإنّه من تتبع عوره أخيه تتبع الله عورته و من تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته» (٢).

كما

ورد في حديث ثالث أنّ الله أوحى لموسى عليه السّلام قائلا: «من مات تائبا من

ص: ٥٥٥

١-١) -المحبّه البيضاء ج ٥، ص ٢٥٣.

٢-٢) -المصدر السابق، ص ٢٥٢.

الغيبه فهو آخر من يدخل الجنة، و من مات مصرا عليه فهو أول من يدخل النار» (١).

كما نقرأ

□
حديثاً آخر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الغيبه أسرع في دين الرجل المسلم من الأكله في جوفه» (٢).

و هذا التشبيه يدلّ على أن الاغتياب كمثل الجرب الذي يأكل اللحم، فإنّه يذهب بالإيمان بسره.

و مع الالتفات إلى أنّ بواعث الغيبه و دوافعها أمور متعدّده كالحسد و التكبر و البخل و الحقد و الأنانيه و أمثالها من صفات دميمه و قبيحه يتّضح السرّ في سبب كون الغيبه و تلوّث سمعه المسلمين و هتك حرمتهم لها هذا الأثر المدمّر لإيمان الشخص.

و الروايات الإسلاميه في هذا الصدد كثيره، و نختم بحثنا هذا بذكر حديث آخر

نقل عن الإمام الصادق عليه السّلام إذ يقول: «من روى على مؤمن روايه يريد بها شينه و هدم مروّته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولايه الشيطان فلا يقبله الشيطان» (٣).

إنّ جميع هذه التأكيدات و العبارات المثيره إنما هي للأهميه القصوى التي يوليها الإسلام لصون ماء الوجه و حيثيه المؤمنين الاجتماعيه، و كذلك للأثر المخزّب-الذي تركه الغيبه-في وحده المجتمع و الاعتماد المتبادل في القلوب، و أسوأ من كل ذلك أنت الغيبه تسوق إلى إشعال نار العداوه و البغضاء و النفاق و إشاعه الفحشاء في المجتمع. لأنّه حين تنكشف عيوب الناس الخفيّه عن طريق الغيبه لا تبقى لها خطوره في أعين الناس و يكون التلوّث بها في غايه البساطه!

ص: ٥٥٦

١-١) -المصدر السابق.

٢-٢) -أصول الكافي، ج ٢، باب الغيبه، الحديث ١-الأكله نوع من الأمراض الجلديه.

٣-٣) -وسائل الشيعه، ج ٨، الباب ١٥٧، الحديث ٢، الصفحه ٦٠٨.

«الغيبه» أو الاغتياب كما هو ظاهر الاسم ما يقال في غياب الشخص، غايه ما في الأمر أنه بقوله هذا يكشف عيبا من عيوب الناس. سواء كان عيبا جسديا أو أخلاقيا أو في الأعمال أو في المقال بل حتى في الأمور المتعلقة به كاللباس و البيت و الزوج و الأبناء و ما إلى ذلك! فبناء على هذا ما يقال عن الصفات الظاهره للشخص، الآخر لا يعدّ اغتيابا، إلا أن يراد منه الذم و العيب فهو في هذه الصوره حرام، كما لو قيل في مقام الذم أنّ فلانا أعمى أو أعور أو قصير القامه أو شديد الأدمه و السمره أكوس اللحيه إلخ...

فيتّضح من هذا أنّ ذكر العيوب الخفيه بأى قصد كان يعدّ غيبه و هو حرام أيضا، و ذكر العيوب الظاهره إذا كان بقصد الذم فهو حرام، سواء أدخلناه في مفهوم الغيبه أم لا؟! كل هذا في ما لو كانت هذه العيوب في الطرف الآخر واقعيه، أمّا إذا لم تكن أصلا فتدخل تحت عنوان «البهتان» و إثمه أشدّ من الاغتياب بمراتب.

□
ففي حديث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «الغيبه أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه، و أمّا الأمر الظاهر فيه مثل الحدّه و العجله فلا، و البهتان أن تقول ما ليس فيه» (١).

و من هنا يتبيّن أنّ ما يتبيّح به العوام من أعذار في الغيبه غير مقبول كأن يقول المغتاب: ليس هذا اغتيابا بل هو صفته، في حين إذا لم يكن قوله الذي يعيبه فيه صفه له فهو بهتان لا أنّه غيبه.

أو أن يقول: هذا كلام أقوله في حضوره أيضا، في حين أنّ كلامه أمام الطرف الآخر لا- يترتب عليه إثم الاغتياب فحسب، بل يتحمّل بسبب الإيذاء إثم أكبر و وزرا أثقل.

إنَّ الغيبه كسائر الصفات الذميمة تتحوّل تدريجاً إلى صوره مرض نفسى بحيث يلتذ المغتاب من فعله و يحس بالاعتباط و الرضا عند ما يريق ماء وجه فلان، و هذه مرتبه من مراتب المرض القلبي الخطير جدا.

و من هنا فينبغى على المغتاب أن يسعى إلى علاج البواعث الداخليه للاغتياب التى تكمن فى أعماق روحه و تحضّه على هذا الذنب، من قبيل البخل و الحسد و الحقد و العداوه و الاستعلاء و الأنانيه! فعليه أن يطهّر نفسه عن طريق بناء الشخصيه و التفكير فى العواقب السيئه لهذه الصفات الذميمة و ما ينتج عنها من نتائج مشؤومه، و يغسل قلبه عن طريق الرياضه النفسيه ليستطيع أن يحفظ لسانه من التلوّث بالغيبه.

ثمّ يتوجّه إلى مقام التوبه، و حيث أنّ التوبه من الغيبه فيها «جنبه» حق الناس، فإنّ عليه إذا كان ممكنا و لا يحصل له أىّ مشكل أو معضل - أن يعتذر ممّن اغتابه حتى و لو بصوره مجمله أو معّماه كأن يقول: إننى اغتابك أحيانا لجهلى فسامحنى و اعف عنى و لا يطيل فى بيان الغيبه و شرحها لئلا يحدث عامل آخر للفساد أو الإفساد! و إذا لم يستطع الوصول إلى الطرف الآخر، أو لا يعرفه، أو أنّه مضى إلى ربّه فيستغفر له و يعمل صالحا، فلعلّ الله يغفر له ببركه العمل الصالح و يرضى عنه الطرف الآخر.

٦- موارد الاستثناء! و آخر ما ينبغى ذكره فى شأن الغيبه أنّ قانون الغيبه كأيّ قانون آخر له استثناءات، من جملتها أنّه يتفق أحيانا فى مقام «الاستشاره» مثلا لانتخاب الزوج أو الشريك فى الكسب و ما إلى ذلك أن يسأل إنسان أنسانا آخر، فالأمانه فى

المشوره التي هي قانون إسلامي مسلم به توجب أن تبيّن العيوب إن وجدت في الشخص الآخر لئلا يتورّط المسلم في مشكله، فمثل هذا الاغتياب بمثل هذا القصد لا يكون حراما.

و كذلك في الموارد الأخرى التي فيها أهداف مهمّة كهدف المشوره في العمل أو لإحقاق الحق أو التظلم و ما إلى ذلك.

و بالطبع فإنّ «المتجاهر بالفسق» خارج عن موضوع الغيبه، و لو ذكر إثمه في غيابه فلا إثم على مغتابه، إلاّ أنّه ينبغي الالتفات إلى أنّ هذا الحكم خاص بالذنب الذي يتجاهر به فحسب.

و ممّا يسترعى الالتفات أيضا هو أنّ الغيبه ليست حراما فحسب، فالاستماع إليها حرام أيضا، و الحضور في مجلس الاغتياب حرام، بل يجب طبقا لبعض الروايات أن يردّ على المغتاب، يعني أن يدافع عن أخيه المسلم الذي يراد إراقه ماء وجهه، و ما أحسن مجتمعا تراعى فيه هذه الأصول الأخلاقيه بدقّه!

ص: ٥٥٩

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)

التفسير

التقوى أعلى القيم الإنسانيه:

كان الخطاب في الآيات السابقه موجها للمؤمنين و كان بصيغته: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وقد نهى الذكر الحكيم في آيات متعدده عما يوقع المجتمع الإسلامي في خطر، و تكلم في جوانب من ذلك.

في حين أنّ الآيه محل البحث تخاطب جميع الناس و تبيّن أهم أصل يضمن النظم و الثبات، و تميّز الميزان الواقعي للقيم الإنسانيه عن القيم الكاذبه و المغريات الباطله. فتقول: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا .

و المراد ب خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ هو أصل الخلقه و عوده أنساب الناس إلى «آدم و حواء»، فطالما كان الجميع من أصل واحد فلا ينبغي أن تفتخر قبيله على

أخرى من حيث النسب، وإذا كان الله سبحانه قد خلق كل قبيله و أولاهها خصائص و وظائف معينه فإنما ذلك لحفظ نظم حياه الناس الاجتماعيه! لأن هذه الاختلافات مدعاه لمعرفة الناس، فلو، كانوا على شاكله واحده و متشابهين لساد الهرج و المرج في المجتمع البشرى أجمع.

و قد اختلف المفسرون في بيان الفرق بين «الشعوب» جمع شعب-على زنه صعب-(الطائفه الكبيره من الناس) و«القبائل» جمع قبيله فاحتملوا احتمالات متعدده:

قال جماعه إن دائره الشعب أوسع من دائره القبيله، كما هو المعروف في العصر الحاضر أن يطلق الشعب على أهل الوطن الواحد.

و قال بعضهم: كلمه «شعوب» إشاره إلى طوائف العجم، و أما «القبائل» فإشاره طوائف العرب.

و أخيرا فإن بعضهم قال بأن «الشعوب» اشاره إلى انتساب الناس إلى المناطق «الجغرافيه» و«القبائل» إشاره إلى انتسابهم إلى العرق و الدم.

لكنّ التفسير الأوّل أنسب من الجميع كما يبدو! و على كلّ حال فإنّ القرآن بعد أن ينبذ أكبر معيار للمفاخره و المباهات في العصر الجاهلي و يلغى التفاضل بالأنساب و القبائل يتّجه نحو المعيار الواقعي القيم فيضيف قائلا: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .

و هكذا فإنّ القرآن يشطب بالقلم الأحمر على جميع الامتيازات الظاهريه و الماديّه، و يعطى الأصاله و الواقعيه لمسأله التقوى و الخوف من الله، و يقول إنّه لا شيء أفضل من التقوى في سبيل التقرب إلى الله و ساحه قدسه.

و حيث أنّ «التقوى» صفه روحانيه و باطنيّه ينبغي أن تكون قبل كلّ شيء مستقرّه في القلب و الروح، و ربّما يوجد مدّعون للتقوى كثيرون و المتّصفون بها قله منهم، فإنّ القرآن يضيف في نهايه الآيه قائلا: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

فإنَّه يعرف المتيقن حقًا و هو مطلع على درجات تقواهم و خلوص نيَّاتهم و طهارتهم و صفائهم، فهو يكرمهم طبقا لعلمه و يثيبهم، و أمَّا المدَّعون الكاذبه فإنَّه يحاسبهم و يجازيهم على كذبهم أيضا.

بحثان

إشاره

١- القيم الحقّه و القيم الباطله

لا شكَّ أنّ كلّ إنسان يرغب بفطرته أن يكون ذا قيمه و افتخار، و لذلك فهو يسعى بجميع وجوده لكسب القيم..

إلاّ- معرفه معيار القيم يختلف باختلاف الثقافات تماما، و ربّما أخذت القيم الكاذبه مكانا بارزا و لم تبق للقيم الحقّه مكان في قاموس الثقافه للفرد.

فجماعه ترى بأن قيمتها الواقعيه في الانتساب إلى القبيله المعروفه، و لذلك فإنَّهم من أجل أن تعلق سمعه قبيلتهم و طائفتهم و يظهرن نشاطات و فعاليات عامه ليكونوا برفعه القبيله و سمّوها كبراء أيضا.

و كان الاهتمام بالقبيله و الافتخار بالانتساب إليها من أكثر الأمور الوهميّه رواجا في الجاهليه إلى درجه كانت كلّ قبيله تعدّ نفسها أشرف من القبيله الأخرى، و من المؤسف أن نجد رواسب هذه الجاهليه في أعماق نفوس الكثيرين من الأفراد و المجتمعات!! و جماعه أخرى تعوّل على مسأله المال و الثروه و امتلاكها للقصور و الخدم و الحشم و أمثال هذه الأمور، فتعدّها دليلا على قيمه الشخصيّه و تسعى من أجل كلّ ذلك دائما.

و جماعه تعتبر (المقامات) السياسيّه و الاجتماعيّه العليا معيارا للشخصيه و القيم الاجتماعيّه! و هكذا تخطو كلّ جماعه في طريق خاص و تنشّد قلوبها إلى قيمه معينه

و تعدّها معيارها الشخصى! و حيث أنّ هذه الأمور جميعها أمور متزلزله و مسائل ذاتيه و ماديه و عابره فإنّ مبدأ سماويا كمبدأ الإسلام لا يمكنه أن يوافق عليها أبدا...لذلك يشطب عليها بعلامه البطلان و يعتبر القيمه الحقيقيه للإنسان فى صفاته الذاتيه و خاصه تقواه و طهاره قلبه و التزامه الدينى.

حتى أنّه لا يكثرث بموضوعات مهمّه كالعلم و الثقافه إذا لم تكن فى خطّ «الإيمان و التقوى و القيم الأخلاقية»...

و من العجيب أن يظهر القرآن فى محيط يهتمّ بالقيمه القبليه أكثر من اهتمامه بالقيم الأخرى، إلا أنّ القرآن حطّم هذه الوثنيه و حرّر الإنسان من أسر العرق و الدم و القبيله و اللون و المال و المقام و الثروه و قاده إلى معرفه نفسه و العثور على ضالّته داخل نفسه و صفاتها العليا.

الطريف أنّ فى ما ذكر فى شأن نزول الآيه محل البحث لطائف و دقائق تحكى عن عمق هذا الدستور الإسلامى.

□
منها: إنّ النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم أمر «بلالا» بعد فتح مكّه أن يؤذّن، فصعد بلال و أذّن على ظهر الكعبه، فقال «عتّاب بن أسيد» الذى كان من الأحرار: أشكر الله أن مضى أبى من هذه الدنيا و لم ير مثل هذا اليوم.. و قال «الحارث بن هشام»: ألم يجد رسول الله غير هذا الغراب الأسود للأذان؟! «فنزلت الآيه الآنفه و بينت معيار القيم الواقعيه» (١).

□
و قال بعضهم: نزلت الآيه عند ما أمر الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم بتزويج بعض الموالى من بنات العرب «و الموالى تطلق على العبيد الذين عتقوا من ربقه أسيادهم أو على غير العرب (المسلمين)». فتعجّبوا و قالوا: يا رسول الله أ تأمرنا أن نزوّج بناتنا من

ص: ٥٦٣

الموالى «فتزلت الآيه و أبطلت هذه الأفكار الخرافيه» (١).

و نقرأ

في بعض الروايات الإسلاميه أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلمّ خطب يوماً في مكّه فقال:

«يا أيّها الناس إنّ الله قد أذهب عنكم عيبه الجاهليه و تعاضمها بآبائها فالناس رجلان رجل برّ تقى كريم على الله و فاجر شقى هين على الله و الناس بنو آدم و خلق الله آدم من تراب قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٢).

و

قد جاء في كتاب «آداب النفوس» للطبري أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلمّ التفت إلى الناس و هو راكب على بعيره في أيام التشريق بمنى «و هي اليوم الحادى عشر و الثانى عشر و الثالث عشر» من ذى الحجه فقال: «يا أيّها الناس! ألا إنّ ربكم واحد و إنّ أباكم واحد ألا- لا فضل لعربى على عجمى و لا لعجمى على عربى و لا لأسود على أحمر و لا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت قالوا نعم! قال: ليبلغ الشاهد الغائب» (٣).

كما ورد في حديث آخر بهذا المعنى ضمن كلمات قصيره ذات معانى غزيره

أنّه صلى الله عليه و آله و سلمّ قال: «إنّ الله لا ينظر إلى أحسابكم و لا إلى أنسابكم و لا إلى أجسامكم و لا إلى أموالكم و لكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنّ الله عليه و إنّما أنتم بنو آدم و أحبكم إليه أتقاكم» (٤).

إلا- أنّ العجيب أنّه مع هذه التعليمات الواسعه الغنيه ذات المغزى الكبير ما يزال بين المسلمين من يعول على الدم و النسب و اللسان و يقدّمون وحده الدم و اللغه على الأخوه الإسلاميه و الوحده الدينيه و يحيون العصبيه الجاهليه مرّه أخرى،

ص: ٥٦٤

١-١) -المصدر السابق.

٢-٢) -تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦١٦١.

٣-٣) -المصدر السابق، ص ٦١٦٢، و التعبير «بالأحمر» في هذه الروايه لا يعنى من بشرته حمراء بل من بشرته حنطيه لأنّ أغلب الناس في ذلك المحيط كانوا بهذه الصفه و من الطريف أن يطلق الأحمر على الحنطه أيضا

٤-٤) -المصدر السابق.

و بالرغم من الضربات الشديده التي يتلقونها من جراء ذلك، إلا أنهم حسب الظاهر لا يريدون أن يتيقظوا و يعودوا إلى حكم الإسلام و حظيره قدسه! حفظ الله الجميع من شر العصبيه الجاهليه.

إن الإسلام حارب العصبيه الجاهليه في أى شكل كانت و في أيه صوره ليجمع المسلمين في العالم من أى قوم و قبيله و عرق تحت لواء واحد!-لواء القوميه و لا سواه-لأن الإسلام لا يوافق على هذه النظريات المحدوده و يعدّ جميع هذه الأمور وهميه و لا أساس لها حتى أنه

ورد في حديث عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال:

«دعوها فإنها منتنه» (١).

و لكن لماذا بقيت هذه الفكره المنتنه مترسخه في عقول الكثيرين ممن يدعون أنهم مسلمون و يتبعون القرآن و الأخوه الإسلاميه ظاهرا؟! لا ندرى!! و ما أحسن أن يبنى المجتمع على أساس معيار القيم الإسلاميه إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ و إن تطوى القيم الكاذبه من قوميه و مال و ثروه و مناطق جغرافيه و طبقه عن هذا المجتمع.

أجل، التقوى الإلهيه و الإحساس بالمسؤوليه الداخليه و الوقوف بوجه الشهوات و الالتزام بالحق و الصدق و الطهاره و العدل، هي وحدها معيار القيم الإنسانيه لا غير، بالرغم من أن هذه القيم الأصيله نسيت و أهملت في سوق المجتمعات المعاصره و حلت محلها القيم الكاذبه.

في نظام القيم الجاهليه الذي كان يدور حول محور «التفاخر بالآباء و الأموال و الأولاد» لم ينتج سوى حفنه سراق و ناهيين، غير أنه بتبدل هذا النظام و إحياء أصل إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ الكبير كان من ثمراته أناس أمثال سلمان و أبو ذر و عمار و ياسر و المقداد. و المهم في ثورات المجتمعات الإنسانيه هو الثوره على القيم» و إحياء هذا الأصل الإسلاميه الأصيل!

ص: ٥٦٥

و نختتم كلامنا هذا

بحديث للنبي ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال: «كلكم بنو آدم و آدم خلق من تراب و لينتهين قوم يفخرون بأبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان» (١).

٢- حقيقة التقوى

كما رأينا من قبل، فإن القرآن جعل أكبر امتياز للتقوى، و عدها معيارا لمعرفة القيم الإنسانية فحسب! و فى مكان آخر عدها خير الزاد و الشراب إذ يقول: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى (٢).

أما فى سورة الأعراف فقد عبّر عنها باللباس: وَ لِبَاسٍ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ (٣).

كما أنه عبّر عنها فى آيات أخر بأنّها واحده من أول أسس دعوه الأنبياء، و يسمو بها فى بعض الآيات إلى أن يعبر عن الله بأنه أهل التقوى فيقول: هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَ أَهْلُ الْمَعْفُورَةِ (٤).

و القرآن يعدّ التقوى نورا من الله، فحيثما رسخت التقوى كان العلم و المعرفة إذ يقول: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمَكُمُ اللَّهُ (٥).

و يقرن التقوى بالبرّ فى بعض آياته فيقول: وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَى .

أو يقرن العدالة بالتقوى فيقول: إِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى .

و الآن ينبغى أن نرى ما هى «حقيقه التقوى» التى هى أعظم رأس مال معنوى و افتخار للإنسان.

أشار القرآن إشارات تكشف أستارا عن حقيقه التقوى، فيذكر فى آيات متعدده

ص: ٥٦٦

١- ١) - فى ظلال القرآن، ج ٧، ص ٥٣٨.

٢- ٢) - البقره، الآيه ١٩٧.

٣- ٣) - الأعراف، الآيه ٢٦.

٤- ٤) - المدثر، الآيه ٥٦.

٥- ٥) - البقره، الآيه ٢٨٢.

«القلب» مكانا للتقوى، و من ضمنها قوله تعالى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى** (١).

و يجعل القرآن «التقوى» فى مقابل «الفجور» كما نقرأ ذلك فى الآية (٨) من سورة الشمس: **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**.

و يعدّ القرآن كلّ عمل ينبع من روح الإيمان و الإخلاص و النية الصادقة أساسه التقوى، كما جاء فى وصفه فى شأن «مسجد قبا» (فى المدينة) حيث بنى المنافقون فى قبالة «مسجد ضرار» فيقول: **لَمَسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ** (٢).

و يستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ التقوى هى الإحساس بالمسؤولية و التعهّد الذى يحكم وجود الإنسان و ذلك نتيجة لرسوخ إيمانه فى قلبه حيث يصدّه عن الفجور و الذنب و يدعوّه إلى العمل الصالح و البر و يغسل أعمال الإنسان من التلوثات و يجعل فكره و نيته فى خلوص من أية شائبة.

و حين نعود إلى الجذر اللغوى لهذه الكلمة نصل إلى هذه النتيجة أيضا لأن «التقوى» مشتقة من «الوقاية» و معناها المواظبة و السعي على حفظ الشىء، و المراد فى هذه الموارد حفظ النفس من التلوث بشكل عام، و جعل القوى تتمركز فى أمور يكون رضا الله فيها:

و قد ذكر بعض الأعاظم للتقوى ثلاث مراحل:

١- حفظ النفس من (العذاب الخالد) عن طريق تحصيل الاعتقادات الصحيحة.

٢- تجنّب كلّ إثم و هو أعم من أن يكون تركا لواجب أو فعلا لمعصية.

٣- التجلّد و الاضطبار عن كلّ ما يشغل القلب و يصرفه عن الحق، و هذه تقوى

ص: ٥٦٧

١- ١) - الحجرات، الآية ٣.

٢- ٢) - سورة التوبة: ١٠٨.

الخواص بل خاص الخاص (١).

و في نهج البلاغه للإمام أمير المؤمنين على عليه السلام تعابير حيّه و بليغه في شأن التقوى، حيث ذكرت التقوى في كثير من خطب الإمام و كلماته القصار! ففي بعض كلماته يقارن عليه السلام بين التقوى و الذنب

فيقول: «ألا- و إنّ الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها و خلعت لجمها فتقحمت بهم في النار ألا و إنّ التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها و أعطوا أزمّتها فأوردتهم الجنّه» (٢).

و طبقا لهذا التشبيه اللطيف فإنّ التقوى هي حاله ضبط النفس و التسلط على الشهوات، في حين أنّ عدم التقوى هو الاستسلام للشهوات و عدم التسلط عليها.

و

يقول الإمام على في مكان آخر: «اعلموا عباد الله أنّ التقوى دار حصن عزيز و الفجور دار حصن ذليل لا يمنع أهله و لا يحرز من لجأ إليه ألا و بالتقوى تقطع حمه الخطايا» (٣).

و

يضيف في مكان آخر أيضا: «فاعتصموا بتقوى الله فإنّ لها جبلا و ثيقا عروته و معقلا منيعا ذروته» (٤).

و تتضح حقيقه التقوى و روحها من خلال مجموع التعبيرات آنفه الذكر.

و ينبغي الالتفات إلى هذه «اللطيفه» و هي أنّ التقوى ثمره شجره الإيمان، و من أجل الحصول على هذه الثمره النادره و الغاليه ينبغي أن تكون قاعده الإيمان راسخه و محكمه! و بالطبع فإنّ ممارسه الطاعه و تجنّب المعصيه و الالتفات إلى المناهج الأخلاقيه تجعل التقوى راسخه في النفس، و تتيحها ظهور نور اليقين و الإيمان في نفس الإنسان، و كلّما ازداد نور التقوى ازداد نور اليقين أيضا، و لذلك نجد التقوى في

ص: ٥٦٨

١-١) -بحار الأنوار ج ٧٠، ص ١٢٦.

٢-٢) -نهج البلاغه الخطبه رقم ١٦.

٣-٣) -نهج البلاغه الخطبه ١٥٧.

٤-٤) -نهج البلاغه الخطبه ١٩٠.

بعض الروايات الإسلاميه على أنّها درجه أعلى من الإيمان و أدنى من اليقين!

يقول الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: «الإيمان فوق الإسلام بدرجة و التقوى فوق الإيمان بدرجة و اليقين فوق التقوى بدرجة و ما قسم فى الناس شىء أقلّ من اليقين».

و نختتم بحثنا بأبيات تجسّد حقيقه التقوى ضمن مثال جلى:

خل الذنوب صغيرها

و كبيرها فهو التقى

و اصنع كماش فوق أرض

الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرنّ صغيره

إنّ الجبال من الحصى

ص: ٥٦٩

إشاره

قَالَتِ الْمَاعْرَبُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزِنُوا وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)

سبب النزول

ذكر كثير من المفسرين شأنًا لنزول الآيتين و خلاصته ما يلي...

ورد المدينة جماعه من «بنى أسد» فى بعض سنين الجذب و القحط و أظهروا الشهاداتين على أسنتهم أملا فى الحصول على المساعدة من النبى صلى الله عليه و آله و سلم و قالوا للرسول أن قبائل العرب ركبت الخيول و حاربتكم إلا أننا جنناك بأطفالنا و نساتنا دون أن نحاربك، و أرادوا أن يمتنوا على النبى عن هذا الطريق! فنزلت الآيتان آنفتا الذكر و كشفتنا أن إسلامهم ظاهرى و لم يتغلغل الإيمان فى أعماق قلوبهم، ثم إذا كانوا مؤمنين فما ينبغى عليهم أن يمتنوا على الرسول

بالإيمان بل الله يمن عليهم أن هداهم للإيمان (١).

و لكن وجود شأن النزول هذا لا يمنع من عموميه مفهوم الآيه.

التفسير

أشاره

الفرق بين الإسلام والإيمان:

كان الكلام فى الآيه المتقدمه على معيار القيم الإنسانيه أى التقوى، و حيث أن التقوى ثمره لشجره الإيمان الإيمان النافذ فى أعماق القلوب، ففى الآيتين الآنفيتين بيان لحقيقه الإيمان إذ تقول الآيه الأولى: **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .**

و طبقاً لمنطوق الآيه فإن الفرق بين «الإسلام» و «الإيمان» فى أن: الإسلام له شكل ظاهرى قانونى، فمن تشهد بالشهادتين بلسانه فهو فى زمره المسلمين و تجرى عليه أحكام المسلمين.

أمّا الإيمان فهو أمر واقعى و باطنى، و مكانه قلب الإنسان لا ما يجرى على اللسان أو ما يبدو ظاهراً! الإسلام ربّما كان عن دوافع متعدده و مختلفه بما فيها الدوافع الماديه و المنافع الشخصيه، إلا أن الإيمان ينطلق من دافع معنوى، و يستترّفد من منبع العلم، و هو الذى تظهر ثمره التقوى اليانعه على غصن شجرته الباسقه! و هذا ما أشار إليه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم فى تعبيره البليغ الرائع:

«الإسلام علانيه و الإيمان فى القلب» (٢).

كما إننا نقرأ حديثنا آخر

عن الإمام الصادق يقول فيه: الإسلام يحقن الدم

ص: ٥٧١

١-١ - تفسير الميزان و روح البيان و فى ظلال القرآن، ذيل الآيات محل البحث.

٢-٢ - مجمع البيان، ج ٩، ص ١٣٨.

و تؤدّى به الأمانه و تستحل به الفروج و الثواب على الإيمان (١).

و ربما كان لهذا السبب أنّ بعض الروايات تحصر مفهوم الإسلام بالإقرار اللفظي، في حين أنّ الإيمان إقرار باللسان و عمل بالأركان، إذ تقول الرواية

«الإيمان إقرار و عمل، و الإسلام إقرار بلا عمل» (٢).

و هذا المعنى نفسه وارد في تعبير آخر في بحث الإسلام و الإيمان،

يقول «فضيل بن يسار» سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: إنّ الإيمان يشارك الإسلام و لا يشاركه الإسلام، إنّ الإيمان ما وقر في القلوب و الإسلام ما عليه المناكح و الموارث و حقن الدماء (٣).

و هذا التفاوت في المفهومين فيما إذا اجتمع اللفظان معاً، إلاّ أنّه إذا انفصل كل عن الآخر فربما أطلق الإسلام على ما يطلق عليه بالإيمان، أي أنّ اللفظين قد يستعملان في معنى واحد أحياناً.

ثمّ تضيف الآيه محل البحث فتقول: **وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً** و سيوفيكُم ثواب أعمالكم بشكل كامل و لا ينقص منها شيئاً.

و ذلك ل **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَا يَلِتْكُمْ** مشتق من «ليت» على زنه (ريب) و معناه الإنقاص من الحق (٤).

و العبارات الأخيره في الحقيقة إشارات إلى أصل قرآني مسّلم به و هو أنّ شرط قبول الأعمال «الإيمان»، إذ مضمون الآيه أنّه إذ كنتم مؤمنين بالله و رسوله إيماناً قلبياً و علامته طاعتكم لله و الرسول فإنّ أعمالكم مقبوله، و لا ينقص من أجركم شيء، و يثيبكم الله، و ببركه هذه الأعمال يغفر ذنوبكم لأنّ الله غفور رحيم.

و حيث أنّ الحصول على هذا الأمر الباطني أي الإيمان ليس سهلاً، فإنّ الآيه التاليه تتحدّث عن علائمه، العلائم التي تميّز المؤمن حقاً عن المسلم و الصادق

ص: ٥٧٢

١-١) -الكافي، ج ٢، باب أنّ الإسلام يحقن به الدم، الحديثان ١، ٢.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -أصول الكافي، ج ٢، باب أنّ الإيمان يشرك الإسلام، الحديث ٣.

٤-٤) -فعلى هذا يكون الفعل ليت أجوف يائياً و إن كان الفعل ولت بهذا المعنى أيضاً.

عن الكاذب، و أولئك الذين استجابوا لله وللرسول رغبة و شوقا منهم عن أولئك الذين استجابوا طمعا أو للوصول إلى المال و الدنيا فتقول: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزِدْوا وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ! أَجَل، إِنَّ أَوَّلَ علامه للإيمان هي عدم التردد في مسير الإسلام، و العلامه الثانيه الجهاد بالأموال، و العلامه الثالثه التي هي أهم من الجميع الجهاد بالنفس.

و هكذا فإن الإسلام يستهدف في الإنسان أجلى العلامه «ثبات القدم و عدم الشك و التردد من جهه، و الإيثار بالمال و النفس من جهه أخرى».

فكيف لا- يرسخ الإيمان في القلب و الإنسان لا يقصّر عن بذل المال و الروح في سبيل المحبوب؟! و لذلك فإن الآيه تختتم بالقول مؤكده: أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ .

هذا هو المعيار الذي حدده الإسلام لمعرفة المؤمنين الحق و تمييزهم عن الكاذبين المدّعين بالإسلام تظاهرا، و ليس هذا المعيار منحصرافقراء جماعه بنى أسد، بل هو معيار واضح و جلى و يصلح لكل عصر و زمان لفصل المؤمنين عن المتظاهرين بالإسلام، و لبيان قيمه أولئك الذين يمتنون بأنّ أسلموا على النبي صلى الله عليه و آله و سلم و ذلك بحسب الظاهر فحسب، إلاّ أنّه عند التطبيق و العمل لا يوجد فيهم أقلّ علامه من الإيمان أو الإسلام.

و في قبال أولئك رجال لا يدعون شيئا و لا يمتنون، بل يرون أنفسهم مقصّرين دائما، و في الوقت ذاته هم في طليعه المضحين و المؤثرين بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله.

و لو أننا اتخذنا معيار القرآن لمعرفة المؤمنين الواقعيين و تمييزهم عن سواهم لما كان معلوما من خلال هذا العدد الهائل من آلاف الآلاف و«الملايين» ممن يدعون الإسلام كم هم المؤمنون حقّا؟! و كم هم المسلمون في الظاهر فحسب؟!!

إشاره

قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

سبب النزول

إشاره

قال جماعه من المفسرين إنه بعد نزول ما تقدم من الآيات آنفا جاء النبي طائفه من الأعراب و حلفوا أنهم صادقون في ادعائهم بأنهم المؤمنون و ظاهرهم و باطنهم سواء، فنزلت الآية الأولى من الآيات محل البحث و أنذرتهم أن لا يحلفوا، فالله يعرف باطنهم و ظاهرهم، و لا يخفى عليه خفيه في السماوات و لا في الأرض (١).

ص: ٥٧٤

لا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ

:

كانت الآيات السابقة قد بينت علائم المؤمنين الصادقين، وحيث أننا ذكرنا في شأن النزول أن جماعه جاؤوا النبي صلى الله عليه و آله و سلم و قالوا إن ادعاءهم كان حقيقه و إن الإيمان مستقر في قلوبهم، فإن هذه الآيات تنذرهم و تبين لهم أنه لا حاجة إلى الإصرار و القسم، كما أن هذا البيان و الإنذار هو لجميع الذين على شاكله تلك الجماعة، فمسأله (الكفر و الإيمان) إنما يطالع عليها الله الخبير بكل شيء! و لحن الآيات فيه عتاب و ملامه، إذ تقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ .

و لمزيد التأكيد تقول الآية أيضا: وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. فذاته المقدسه هي علمه بعينه و علمه هو ذاته بعينها (1) و لذلك فإن علمه أزلى أبدى! ذاته المقدسه في كل مكان حاضره، و هو أقرب إليكم من حبل الوريد، و يحول بين المرء و قلبه، فمع هذه الحال لا حاجة لادعائكم، و هو يعرف الصادقين من الكاذبين و مطلع على أعماق أنفسهم حتى درجات إيمانهم المتفاوته ضعفا و قوه، و قد تنطلي عليهم أنفسهم، إلا أنه يعرفها بجلاء، فعلام تصرون أن تعلموا الله بدِينكم؟! ثم يعود القرآن لكلمات الأعراب من أهل البادية الذين يمتنون على النبي بأنهم أسلموا و أنهم أذعنوا لدينه في الوقت الذي حاربه القبائل العربيه الأخرى.

فيقول القرآن جوابا على كلماتهم هذه: يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

ص: ٥٧٥

(١ - ١) - يشيع على ألسنه بعضهم التعبير ب«صفاته عين ذاته و ذاته عين صفاته» و ما أشبه ذلك و هذا التعبير ركيك و الصحيح ما ورد في المتن (المصحح).

«المنه» كما بيّنا سابقا من ماده «المن» ومعناه الوزن الخاص الذى يوزن به، ثم استعمل هذا اللفظ على كلّ نعمه غاليه و ثمينه، و المنّه على نوعين: فإذا كان فيها جانب عملى كعطاء النعمه و الهبه فهى ممدوحه، و ممن الله من هذا القبيل، و إذا كان فيها جانب لفظى، كمن كثير من الناس بالقول بعد العمل، فهى قبيحه و غير محبوبه! الطريف أن صدر الآيه يقول «يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا» و هذا تأكيد آخر على أنّهم غير صادقين فى إيمانهم.

و فى ذيل الآيه يأتى التعبير قائلا: **بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .**

و على كلّ حال فهذه مسأله مهمه أن يتصوّر قاصر و التفكير غالبا أنّهم بقبول الإيمان و أداء العبادات و الطاعات يقدمون خدمه لساحه قدس الله أو للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و أوصيائه، و لذلك فهم ينتظرون الثواب و الأجر.

فى حين أنّه لو أشرق نور الإيمان فى قلب أحد، و نال هذا التوفيق بأن كان فى زمره المؤمنين، فقد شمله لطف عظيم من الله عز و جل.

فالإيمان و قبل كلّ شىء يمنح الإنسان إدراكا جديدا عن عالم الوجود، و يكشف عنه حجب الأنانيه و الغرور، و يوسع عليه أفق نظرتة، و يجسّد له عظمه خلقه فى نظره! أنّه يلقى على عواطفه النور و الضياء و يربّيها و يحيى فى نفسه القيم الإنسانيه، و ينمى استعداداته العالیه فيه، و يمنحه العلم و القوه و الشهامه و الإيثار و التضحيه و العفو و التسامح و الإخلاص، و يجعل منه إنسانا قويا ذا عطاء و ثمر بعد أن كان موجودا ضعيفا.

إنّه يأخذ بيده و يصعد به فى مدارج الكمال إلى قمه الفخر، و يجعله منسجما مع عالم الوجود، و يسخرّ عالم الوجود طوع أمره!

أ هذه النعمة التي أنعمها الله على الإنسان ذات قيمه، أم ما يمنه الإنسان على النبي؟! كذلك كل عباده و طاعه هي خطوه نحن التكاملي، إذ تمنح القلب صفاء و تسيطر على الشهوات، و تقوى فيه روح الإخلاص، و تمنح المجتمع الإسلامي الوحده و القوه و العظمه فكأنه نسيح واحد! فكل واحده منها درس كبير في التربيه، و مرحله من المراحل التكامليه! من هنا كان على الإنسان أن يؤدى شكر نعمه الله صباح مساء، و أن يهودى إلى السجود بعد كل صلاه و عباده، و أن يشكر الله على جميع هذه الأمور! فإذا كانت نظره الإنسان-في هذا المستوى-من الإيمان و الطاعه فإنه لا يرى نفسه متفضلا، بل يجد نفسه مدينا لله و لنيبه و غريق إحسانه. و يؤدى عبادته بلهفه، و يسعى في سبيل طاعته على الرأس لا على القدم و إذا ما أثابه الله أجرا فهو تفضل آخر منه و لطف، و إلا فإن أداء الأعمال الصالحه يكون بنفع الإنسان، و الحقيقه أنه بهذا التوفيق يضاف على ميزانه عند الله.

فهدايه الله-بناء على ما بينا-لطف، و دعوه النبي صلى الله عليه و آله و سلم لطف آخر، و التوفيق للطاعه مضاعف، و الثواب لطف فوق لطف! و في آخر آيه من الآيات محل البحث التي هي آخر سوره الحجرات تأكيد آخر على ما ورد في الآيه الآنفه إذ تقول: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ فلا تصرّوا على أنكم مؤمنون حتما و لا حاجه للقسم... فهو حاضر في أعماق قلوبكم، و هو عليم بما يجرى في غيب السماوات و الأرض جميعا، فكيف لا يعلم ما في قلوبكم و ما تنطوى عليه صدوركم؟! اللهم: مننت علينا بنور الإيمان، فنقسم عليك بعظيم نعمه الهدايه أن تثبت أقدامنا في هذا الطريق و تقودنا في سبيل الكمال...

إلهنا، أنت عالم بما فى قلوبنا، و تعلم نياتنا و دوافعنا، فاستر عيوبنا عن أنظار عبادك، و أصلح ما فسد منّا بكرمك.

ربّنا، وفّقنا للتحلّى بجميل الصفات و محاسن الأخلاق التى ذكرتها فى هذه السوره حتى تتجذّر فى وجودنا و تتعمّق فى أرواحنا و أفكارنا...

آمين ربّ العالمين انتهاء سوره الحجرات و نهايه المجلد السادس عشر

ص: ٥٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩